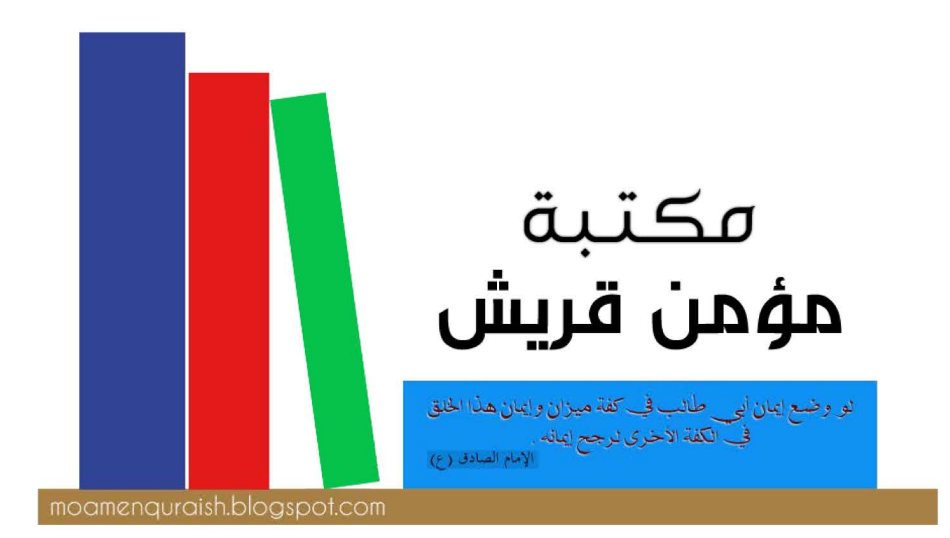
# عُمان... تاريخ لهُ جذور

**وندل فيليب**

المستشار الإقتصادي وممثل سلطان عُمان وأقطارها






# عُمان...
## تاريخ لهُ جُذور

اسم الكتاب: عُمان تاريخ له جذور

المؤلف: وندل فيليب

الطبعة الأولى: ٢٠١٢م - ١٤٣٣هـ



ISBN 978-614-424-021-2



الدار العربية للموسوعات

المدير العام: خالد العاني

الحازمية - مفرق جسر الباشا - سنتر عكاوي - ط١ - بيروت - لبنان
ص.ب: ٥١١ الحازمية - هاتف: ٩٥٢٥٩٤ ٥ ٠٠٩٦١ - فاكس: ٤٥٩٩٨٢ ٥ ٠٠٩٦١
هاتف نقال: ٣٨٨٣٦٣ ٣ ٠٠٩٦١ - ٥٢٥٠٦٦ ٣ ٠٠٩٦١
الموقع الإلكتروني: www.arabenchouse.com البريد الإلكتروني: info@arabenchouse.com

# عُمَان...
# تاريخٌ لهُ جُذور

وندل فيليب
Wendell Phillips
المستشار الاقتصادي وممثل سلطان عُمان وأقطارها

ترجمة
مركز المؤسسة

الدار العربية للموسوعات

تكريماً لجلالة

السلطان سعيد بن تيمور

ألبوسعيد المعظّم

ملك عُمان وتوابعها

# تمهيد

تمتدّ سلطنة عُمان على مساحة استراتيجية، من سواحل شبه الجزيرة العربيّة، يبلغ طولها أربعة آلاف ميلٍ، ما يُعادل ربع مساحة تلك السواحل. وتطلّ السواحل العُمانية على بوابة الخليج العربي والطرق المائية التي تتجه نحو الشمال والشرق والجنوب (الخليج العربي وخليج عُمان والبحر العربي بالترتيب). وتغطّي مساحتها ما يربو على مئة ألف ميلٍ مربّعٍ. ويشبه شكلها في الخارطة شكل «البمرنج»[1]، ومسقط عند منعطفه. وثمة حقيقة لم يأتِ كثيرون على ذكرها، وهي أن عُمان بلا منازعٍ هي أقدم الدول العربية ذات الأستقلال في العصر الحديث، في وقتٍ لم تسلم فيه دولٌ من الوقوع في أسر الاستعمار؛ فدولة مثل مملكة اليمن البعيدة قد وقعت في أسر الأتراك لفترتين قبل الحرب العالمية الأولى، كما أن الغالبية العظمى من الدول العربية لم تنشأ حدودها إلّا إبان تلك الحرب. وعلى الرغم من أن عُمان أكبر مساحة من اليمن، إلّا أن عدد سكانها يقترب من سدس عدد سكان اليمن (**الملحوظة أ**).

وعُمان هي أكثر الدول العربية التي تمتد أذرعها إلى الشرق، فلا

---

(١) قطعة خشب ملوية أو معقوفة يتخذ منها سكان أستراليا الأصليون قذيفة يرشقون بها هدفاً ما.

تدانيها في ذلك أية أراضٍ أخرى يقطنها العرب، أو يعيشون حياة العرب في مجتمعاتهم، أو يرونَ أنفسهم من العرب. وكانت عُمان من الناحية الجغرافية والتاريخية والسياسية بمعزلٍ عن الأحداث الرئيسة التي شكّلت التاريخ العربي، ورضيت بأن تكون في الجانب المنعزل البعيد من جزيرة العرب، وهو اسم شبه الجزيرة العربية لدى العرب. ويميل اقتصاد عُمان إلى الخليج العربي والمحيط الهندي، فلا تربطها سوى علاقات ثقافية أو تجارية ضعيفة مع أوروبا والعالم الجديد، أو مع باقي أنحاء الجزيرة العربية (في المجال نفسه). ويشكّل الربع الخالي بكثبانه الرملية الهائلة ومساحته الشاسعة، التي تُدخل الرعب في النفوس، غرب عُمان وشمالها، حدوداً طبيعية لا تُقهر (كما تبيّن لنا في تاريخ عُمان)، ما يمنع قيام علاقاتٍ اجتماعيةٍ وسياسيةٍ بين عُمان ومحيطها العربي، وتقف حائلاً، بينها وبين العلاقات الاجتماعية والسياسية الدخيلة.

وأدّى اسم «سلطنة مسقط وعُمان»، الذي تردّد على المسامع في النشرات الإخبارية، على فتراتٍ خلال السنوات الماضية، إلى اضطرابٍ في المعنى، إذ يُوحي الاسم بأن «مسقط» إنّما هي دولة أو منطقة، مثلها مثل «عُمان». وقد أخبرنا أحد الكتّاب ذات مرة أن «مسقط التي تكتب بالإنجليزية Masqat ولها هجاء إنكليزي آخر يكتب هكذا Muscat» هي مملكة مستقلة، ويتمتّع السّلطان بسيادة مطلقة عليها، وترجع سلسلة نسب العائلة الملكية الحالية إلى عام ١٧٤١م؛ لذلك فإن مسقط هي أقدم الحكومات المستمرّة قاطبةً في جنوب غرب آسيا» (**الملحوظة ب**). وبالطبع فمسقط ليست «مملكة مستقلة»، وليس لها من الاستقلال شيئ، وحكومتها الوحيدة عبارة عن حكومة محلّية مقصورة عليها. فهي ليست دولة قائمة بذاتها، ولم تكن كذلك في يوم من الأيّام، فمسقط مجرّد مدينة، كما أنّها ليست أكبر مدن «عُمان»، حتى إن السلطان نفسه لم يُزعج نفسه بزيارتها لعدّة سنوات.

وكان واضعو الخرائط التي نشرت مؤخراً يعتقدون أن «مسقط» هي

إحدى المناطق التي تقع في «عُمان»، ولكنّهم عجزوا عن تحديد موضعها بالضّبط، فجاءت «مسقط» في الخرائط في مواضع شتّى من «عُمان» (**الملحوظة ج**)، بل إنّ بعضهم وضعها على بعد مئات الأميال إلى الغرب، في الموضع الذي تقع فيه «ظفار». وفي الواقع، «عُمان» هو الاسم الذي يُطلق على الدولة بأكملها، في حين أن «مسقط» هي العاصمة، وأضيف اسمها لاسم الدولة في الماضي لما كانت تتمتّع به من شهرة وأهمّية. وفي نقاش جرى مؤخراً مع السلطان، وافق السلطان على اقتراحٍ بحذف اسم «مسقط» من أيّة إشارة عامّة إلى مملكة أو سلطنة «عُمان»، لتجنّب هذا الغموض واللبس (**الملحوظة د**).

يعدّ هذا الكتاب أول كتاب ينشر عن عُمان (الأوّل في موضوعه، في العصر الحديث). وكما أشار المؤلف في كتابه السابق «عُمان المجهولة» «Unknown Oman»، فليس بإمكانه أن يدّعي اضطلاعه بهذا العمل الرائد وحده. ففي الوقت الذي يتحمّل فيه المؤلف وحده مسؤولية ما تضمّنه هذا الكتاب، وما لم يتضمنه أيضاً، فقد استعان بلا تحفّظ بكثير من علماء الشرق الأدنى المشهورين في العالم، إلى جانب المستشرقين والعرب والمهتمّين بالشؤون العربية العسكرية والسياسية، حتى أخرج هذا الكتاب «**عُمان: تاريخٌ له جذورٌ**» المشتمل على أصدق وأوضح وأدقّ صورةٍ للأحداث والأزمان التي وصفها. ويودّ المؤلّف أن يُعرب عن تقديره البالغ للأشخاص التالية أسماؤهم، لإسهامهم المباشر في جانب من هذه الدراسة أو كلها.

* * * * *

***إلى جلالة السلطان سعيد بن تيمور ملكاً وعالماً**، لدعمه الذي لا ينضب، ومساعدته الكريمة، ورعايته الملكية. وإلى البروفسور «**ويليام إف ألبرايت**» عميد الدراسات الإنجيلية الأثرية، والمستشرق الأبرز، لقراءته مخطوطة هذا الكتاب، وإتاحته علمه الغزير ليّ.*

**والى:**

الإمام الحاج أحمد، باول أيكن، الرائد سانت جون أرميتاج، الدكتور غري بيفن، البروفسور كارلس إف بكنغهام، كانون كنيث كراغ، الدكتور توماس كروسبي، بريان دوي، ويليام إيغلتون الابن، مكتبة وزارة الخارجية، الدكتور جي إس بي فريمان-غرينفيل، أحمد جما جلال، روبرت جيه جافين، رفرند ريتشارد إي حنا، لاوري جيه هوبسون، البروفسور إيه إم هونيمان، الكولونيل فرانك هوغ، الدكتور ألبرت جام، الكولونيل إريك جونسون، هال نودسون، الدكتور لويس كراوسي، الدكتور بي إم لوبن، قائد الجناح إريك ماكرو، قائد الجناح ألفرد مارساك، الكولونيل كولين ماكسويل، الدكتور محمد مزار، ألاستير جيه ماكنتوش، جون مايرر، البروفسور ألكسندر ميلاميد، لي مورتيمر، الرائد السير بركلي أورميرود، إتش سانت جون بي فيلبي، مكتبة المتحف البريطاني، الموقّر لورانس بي بايرز، الكولونيل هوغ بوستيد، الدكتور راي إل كليفلاند، كيث وهدى كولينز، هوراس فيلبس، ميرلين فيلبس، سانشاين فيلبس، ريتشارد إم بريس، صامويل إف بريور، الجمعية الآسيوية الملكية، جميعة آسيا الوسطى الملكية، الجمعية الجغرافية الملكية، السلطان قابوس بن سعيد، السلطان تيمور بن فيصل بن تركي آل سعيد، الدكتور لويس سكودر، البروفسور روبرت سرجنت، الرائد تي إي (جوك) سنل، السيد طارق بن تيمور، ويليام وغلاديس تري، ويلفريد ثيسغر، لويل توماس، الدكتور ويلز وبث تومز، الدكتور جاس فان بيك، السيدة جون فان بيك، العميد بات

*واترفيلد، آرثر إس واتس، إليك ويت، ويليز كينغسلي وينغ، السير إيفلين رنتش.*

*وأود أيضاً أن أقدّم كلمة شكر إلى سكرتيرتي في لندن «جاكي غرانت»، وتقديري إلى مساعداتي الأميركيّات «إليين سلامة» و«جان إمرمان» و«زلما روجرز» و«هلين جاكسون» و«مارغريت ديرينغ» و«بيث مورغان» و«إريني كاستندا» لطول أناتهم طوال ثماني سنوات استغرقتها كتابة هذا الكتاب، ثم إعادة كتابة هذه المخطوطة، حتى انتهت بعد لأيٍ إلى المؤلّف* ***«عُمان: تاريخٌ له جذورٌ»***.

* * * * *

ولا ندّعي أن هذا الكتاب غاية هذا المجال، بل ندرك يقيناً أنه خطوة يجب أن يتبعها كثيرٌ من الخطوات. فالمتخصّص الواحد الذي لم يتناول سوى قدرٍ ضئيل من هذا التاريخ، لديه القدرة على أن يُبدي حوله كثيراً من الاقتراحات والنقد. فنأمل أن يكون هذا الكتاب شرارة البدء في إجراء مزيدٍ من الأبحاث عن تاريخ «عُمان»، حتى تكتمل الصورة وتكون أكثر دقّة -إن أمكن- في بعض التفاصيل.

## الملاحظات

*** * الملحوظة (أ) * * * * * * * * * * * ***

قُدّر عدد سكان سلطنة عُمان بـ٦٥٠٠٠٠ نسمة تقريباً؛ وأربعة أخماسهم من القبائل العربية، أما الخمس الباقي فمن الزنوج والهندوس والفرس والبلوش.

* * الملحوظة (ب) * * * * * * * * * * * *

«جورج بي كرسي» في كتابه «مفترق طرق: الأرض والحياة في جنوب غرب آسيا» «Crossroads: Land and Life in Southeast Asia» (شيكاغو، عام ١٩٦٠) ص. ٢٩.

* * الملحوظة (ج) * * * * * * * * * * * *

فعلى سبيل المثال، في عام ١٩٥٧م، جاء في «تقرير عمليات الشركة العربية الأميركية للبترول» ص١٢، و«منتدى الشرق الأوسط» عام ١٩٥٩ ص٣، و«العالم العربي» شهر مايو عام ١٩٥٩ ص٨، و«جورج بي كرسي» في كتابه «مفترق طرق: الأرض والحياة في جنوب غرب آسيا» ص٢٩٤-٢٩٥. و«موسوعة الإسلام» «Encyclopedia of Islam» المجلد الأول، مع خريطة، ص٥٤٠، وجورج إي كيرك في كتابه «السياسات العربية المعاصرة» «Contemporary Arab Politics» ص٤٩.

* * الملحوظة (د) * * * * * * * * * * * *

ليس اللقب «سلطنة عُمان» أمراً جديداً، فالعملات التي كان جدّ السلطان الحالي يُصدرها في عهده، من عام ١٨٩٧ إلى عام ١٨٩٨، كان يكتب على أحد جانبيها باللغة العربية «فيصل بن تركي ـ سلطان عُمان».

# * الفصل الأول *

## فجر عُمان

*«إعلم أن فنّ التاريخ فنّ عزيز المذهب، جمّ الفوائد، شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياساتهم؛ حتى تتمّ فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدّين والدّنيا».*

***مقدمة ابن خلدون***

* * * * *

بدا تاريخ شبه الجزيرة العربية -وفقاً لما دوّنه «دي جي هوغارث» في كتابه «شبه الجزيرة العربية»[1] تاريخاً مقطّع الأوصال، لا يمكن ضمّه في جسدٍ واحدٍ واضح المعالم، فكان الغموض يكتنف جانباً عظيماً منه. ولكن، نرى أن ما كشفه لنا الزمان من أحداث يُتيح لنا الجزم بأنّ تاريخ العرب- كغيره من تاريخ الشعوب الأخرى- وكما جاء على لسان «بورك»؛ هو تاريخٌ حافلٌ بأحداثٍ مليئةٍ بمشاعر الفخر، والطموح، والجشع، والإنتقام، والرغبة، وإثارة الفتن، والنفاق، والحماس الملتهب. وسيكشف لنا هذا الكتاب كثيراً من

(١) دي. جي. هوغارث «الجزيرة العربية ـ Arabia» (أكسفورد، ١٩٢٢) ص ٢.

المعلوم من تاريخ العرب، بصورةٍ تُتيح الوقوف على تاريخهم، لمن يطمح إلى الاطّلاع عليه من أولئك العامة.

ونظراً إلى أننا تعلّمنا أن للجغرافيا يداً تشكّل أحداث التاريخ -وإن كانت لا تُمسك بزمامها- فسنبدأ باستعراض الموقع الجغرافي لعُمان. فإذا ما اطّلعنا على الخريطة، سنجد أنها تقع عند طرف شبه الجزيرة العربية، وقد وصفها بطليموس بأنها بلاد قاسية المناخ ونحا «برتشاس»، صاحب كتاب «رحلة برتشاس»، منحى «بطليموس» في الوصف والرأي، فلم يجد في بيئتها ما يستحقّ المديح **(الملحوظة ب)**. ويحدّ «عُمان» من الشّمال الغربيّ «الخليج العربي»، ومن الشمال الشرقيّ «خليج عُمان»، ومن الجنوب الشرقيّ البحر العربي. ولا تتمتّع «عُمان» بحدود بريّة طويلة، تمتدّ مع باقي أجزاء الجزيرة العربية، إلا من الجنوب الغربيّ **(الملحوظة ج)**.

ويكتنف الغموض أصل اسم «عُمان». فاعتقد البعض أن معناها هو «السلام». ولكن، يقول عالم الجغرافيا العربي «ياقوت الحموي»، في القرن الثالث عشر، في مؤلَّفِه «معجم البلدان»، إن اسم «عُمان» اشتقّ من كلمة «عَمَن» وتعني «الاستقرار في مكان ما». ولكن ثمة آراء أخرى؛ **حيث يقول العالم الإباضي الكفيف، الإمام «نور الدين عبد الله بن حميد بن سلّوم السّالمي»**، نقلاً عن «ابن خلدون»، في «تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان»[1] إنّ الدولة سمّيت باسم «عُمان بن قحطان»، أول عربي أقام بها بعد الفيضان، الذي تسبّب بانهيار سدّ مأرب. ولكن، استطرد المؤلّف، في موضع آخر من كتابه، قائلاً: إنّ الدّولة سمّيت باسم وادٍ يسمّى «عُمان»، وهو ما لم يُضف كثيراً إلى ما توصّلنا إليه. وثمّة نظريات أخرى تناولت أصل اسم «عُمان»، وإن استندت جميعها إلى أسسٍ تُنافي المنطق، وتفتقر إلى الإقناع في كثيرٍ من الأحيان **(الملحوظة د)**.

---

(١) «تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان» (القاهرة، ١٣٥٠ هجري).

ما زال ثمّة غموض يكتنف الأصل الذي انحدر منه أهل «عُمان»، وإن كانت بعض الحكايات العربية تروي أنه كان لـ«سام» (أكبر أبناء «نوح» الثلاثة) ابنان هما **«قحطان» و«عدنان»**. وكان «قحطان» هو جدّ العرب الحقيقيين (العاربة)، الذين عاشوا في الجنوب، فيما كان «عدنان» جدّ العرب المتعرّبة، الذين عاشوا في الشمال. وفي الواقع، نجد أن الاسمين وردا في تاريخ شعبين من أقدم الشعوب. فقد ظهر اسم «عدنان» في ثلاثة نقوش قديمة، واحد منها في آثار قوم ثمود، واثنين في آثار النبطيين، بل إن النبي ﷺ ذكر أن «عدنان» هو الجدّ الثاني والعشرين له.

ويقتضي المقام هنا أن نعرف الأصل اللغوي لكلمة «عرب» ونقف على معناها. كان هذا الاسم يُشير عند ذكره في الكتب القديمة كالإنجيل إلى القبائل البدوية التي قطنت الصحارى العربية، وإن كان مدلول الاسم عند اليونانيين والرومانيين يعني جميع من سكن شبه الجزيرة العربية، بمن فيهم سكّان الحضر، في الجنوب، والتّجار، والصيّادون الذين يعيشون بالقرب من السّواحل. ولكن اكتسبت الكلمة معنىً أكبر مع انتشار الإسلام، حيث هاجرت القبائل العربية إلى شمال إفريقيا، واستوطنت في عدّة مناطق من سوريا ومصر، والمناطق التي تقع بين إيران وسوريا، أو ما يسمّى ببلاد ما بين النهرين. وكانت الصبغة العربية التي اتّسمت بها هذه الرّقعة الواسعة من الأرض، وانتشار العرب فيها ثمرة طبيعية للزواج المتبادل والتحوّل الاجتماعي، الذي أخذ عدّة أشكال خلال القرون التالية من ظهور الإسلام. ومن هنا، جاء الاختلاف حول مدلول كلمة «عرب» في وقتنا الحالي؛ فالبعض مازال يستخدم الاسم بمدلوله القديم ومعناه المحدود، فيقصرها على بدو الصحراء، وثمّة من يُشير أيضاً بالاسم إلى سكان شبه الجزيرة العربية قاطبة؛ إلّا أننا سوف نستخدم هذا الاسم عند الإشارة إلى الشّخص الذي ينتمي إلى دولة تتحدّث اللغة العربية[(١)].

---

(١) لا يمكن إجراء التميزات الدقيقة بسهولة، والمؤلف الحالي لم يشدّد دائماً على =

ربما يكون في تاريخ العرب هجرتان، في شبه الجزيرة العربية، جاءتا من شمالها ووسطها نحو الجنوب. حدثت الأولى عام ١٥٠٠ قبل الميلاد والثانية عام ١١٠٠ قبل الميلاد تقريباً، بعد زمن «موسى» عليه السلام بفترة قصيرة. وأتى المهاجرون يحملون معهم أفكاراً وعادات وأسماء خاصة بالكنعانيين والبابليين، كما يتبيّن لنا من آثارهم القديمة، إذ ثمّة تشابه كبير -على سبيل المثال- بين إله القمر لدى القبائل البابلية وإله القمر عند سكان «حضرموت»، كما أنّ سكّان الدّولة نفسها -كما هي الحال في «قطبان»- يتحدّثون لغة مشابهة للعموريين القدماء في شبه الجزيرة العربية. ومنذ سنوات قليلة كشف علماء الآثار الستار عن بعض الأدبيات الدّينية والأسطورية الضائعة، والخاصّة بالقبائل الكنعانية القديمة، فوجد البعض منها في «أوغاريت»، على سبيل المثال. وقد كشف لنا هذا عن تشابه كبير في دين «فلسطين» و«سوريا» القديم ودين جنوب الجزيرة العربية قبل الإسلام؛ فكان للكنعانيين إله لنجمة الصباح، كانوا يطلقون عليه «عشتار»، كما نجد أن الإله نفسه يوجد في جنوب شبه الجزيرة العربية، ويبدو على الأرجح أنه انتقل مع المهاجرين من الشّمال. كذلك فإنّ إله الشمس، أيضاً هو من آلهة الكنعانيين وجنوب الجزيرة العربية. ومن الواضح أيضاً أن الحروف الهجائية للغة الكنعانيين ولغة جنوب شبه الجزيرة العربية لها أصل واحد. وفي المجمل، يبدو لنا على الأرجح أن هذا الانتشار للثقافة المشتركة جاء نتيجة للهجرة نحو جنوب شبه الجزيرة العربية، بما فيها ما نسمّيه «عُمان» الآن، فليس الأمر أن الوضع جاء نتيجة لحركة عامّة في كلا الاتجاهين.

وفي ضوء أهمّية ودور الجمل كحيوان تمّ تدجينه في التاريخ العربي،

---

= التعريفات التي قد تشكّل أهمّية فقط لدى عدد محدود من الإختصاصيين. والمعنى، في معظم الحالات، يتّضح من السياق.

نجد أنه لا بدّ من التطرّق إلى هذا الشأن الذي لم يلقَ كثيراً من اهتمام من سبقنا من الباحثين. فلا بدّ وأنّ الهجرات الكبيرة التي استعرضناها آنفاً قد اكتملت قبل تعرّف السكان على الجمل كحيوان أهليّ؛ لذلك، فإن ما نراه من نمط حياة طبيعي ونموذجي عند العرب لم نقف عليه إلا في فترة متأخرة نسبيًّا، وذلك لأنه لم يكن بإمكان العرب عيش حياة البدو دون ترويض الجمل، فكان هذا دافعاً لمراجعة جميع المؤلّفات والنّظريات التي نسجت حول تاريخ علم البيئة السّامي. وفي حين أعلنت المراجع المختصة والبارزة حول شمال إفريقيا، وقبل جيل مضى، إقرارها بأنّ الجمل لم يظهر كحيوان مروّض في «وادي النيل» حتى حلول العصر الحديدي، في حين أنه لم يظهر في الغرب إلا في العصر البيزنطي، لكنّه بحلول عام ١٩٤٠، أشار البروفسور «ويليام إف ألبرايت» في العديد من الدوريات إلى افتقاد الدليل القاطع، ومن أيّ نوع، على ظهور الجمل المدجّن في الشرق الأدنى قبل القرن الحادي عشر قبل الميلاد[١].

ظهرت الإشارة الأولى إلى الجمال في نقوش اللغة المسمارية التي وجدت في بلاد العراق القديمة أو سوريا أو فلسطين، وهي تكشف لنا عن وجود الجمل ذي السنامين في فترة حكم «تيجلاث بيلسر الأول»، ملك «آشور» (١١١٥-١٠٧٦ قبل الميلاد)، كما تكشف لنا أن الجمل العربي ظهر، للمرّة الأولى، في النصوص المكتوبة باللغة المسمارية، في القرن التاسع قبل الميلاد. ولم يكن من بين مئات الآلاف من الأحرف والنصوص، ذات الفحوى الاقتصادية المكتوبة باللغة المسمارية، التي طافت جميع أنحاء جنوب غرب آسيا، بين عامي ١٨٠٠ و١٢٠٠ قبل الميلاد، أيّ ذكر عن الجمل، بالرغم من تكرار الإشارة إلى قوافل الحمير كثيراً. وجاء أول مثال مؤرّخ للجمل من الحفريات التي قامت بها

---

(١) وندل فيليبس «عُمان المجهولة» (لندن ١٩٦٦) «Unknown Oman» ص ٣٧ ـ ٣٩.

هيئة الآثار العراقية في «عَقَرقُوف»، ويرجع تاريخه إلى عام ١٣٠٠ قبل الميلاد. أما بالنسبة لأقدم نقش بارز للجمل، والذي يوجد حاليًّا في متحف «والترز» للفنون في «بالتيمور»، فيُظهر لنا جملاً يرجع تاريخه إلى عام ٩٠٠ قبل الميلاد تقريباً أو أقدم من ذلك بقليل، على الرغم من أن بعض العلماء يرجعونه إلى القرن التاسع، وقد جاء هذا الأثر من مدينة «جوزن» في شمال العراق.

وما نأسف له، في هذا الصدد هو ندرة المصادر التي بين أيدينا عن الفترات التّاريخيّة المبكرة. ويرجع ذلك -في جانب منه- إلى حقيقة أنّه، بغضّ النّظر عن الخطط التي وضعها «الإسكندر الأكبر» لشبه الجزيرة العربية، فإنه لم يتمّ تنفيذ إحداها؛ لذلك لم يأتِ ذكر للجزيرة العربية في الإمبراطورية الهلينية التي امتدّ سلطانها في جميع أنحاء العالم، على الرغم من ظهور آثار هذه الامبراطورية في الفنون العربية في الجنوب. لذلك؛ فإنّ جلّ ما يمكننا الاعتماد عليه هو القصص والآثار القديمة وبعض السِيَر غير المترابطة زمنيًّا. وقد أورد لنا الرحّالة «إيسودور» من «شاراكس»، والذي سافر من سوريا عبر «الفرات»، ومنها إلى «حيركانيا» حتى وصل إلى أفغانستان، ومازال سجلّ أسفاره محفوظاً حتى الآن، وفيه أن «جُواسيس» ملك أراضي البخور العُمانية قد مات في السنة السابعة عشرة من حكمه، وهو يبلغ من العمر مئة وخمسة عشر عاماً. ولا بدّ أن هذا قد حدث في النصف الثاني من القرن الأول، وبإمكاننا أن نستنبط من هذا، وإن بكثير من التحفّظات، أن عُمان كانت مملكة مستقرّة ومزدهرة في ذلك العصر. وتنتمي وثيقتنا التالية إلى فترة تلي وفاة هذا الملك بنصف قرن تقريباً، وهي الدليل على التجارة البحرية مع شبه الجزيرة العربية، وقد كتبه تاجر مجهول من «الإسكندرية». كان اسم الكتاب هو «دليل البحر الأريتري»؛والبحر الأريتري، هو بالتأكيد «البحر الأحمر» الذي نعرفه والذي كان، بالنسبة لقدماء علماء الجغرافيا اليونانيين

والرومان، يشمل المحيط الهندي وتوابعه. ويصف هذا الكتاب الأرض التي تقع شرق جزر «كوريا موريا» ويقصد بها «عُمان»، فيصفها بأنّها «منطقة بربرية، لم تَعُدْ تعود إلى المملكة نفسها (يقصد المملكة التي تقع في جنوب غرب الجزيرة العربية)، ولكنها الآن تتبع بلاد فارس». ونحن على دراية بأن الفرس، وهم تحت حكم «كسرى الكبير»، قاموا بغزو «مازون» أي «عُمان» في حوالى» عام ٥٣٦ قبل الميلاد[1]. ونحن لا نعرف ما إذا كانت عُمان قد ظلت تحت الهيمنة الفارسية حتى كتابة هذا «الدليل»، ولكن الأرجح غير ذلك. ويرجّح أنّه كانت ثمّة عدّة محاولات للغزو آخرها كان من قبل «الفرثيين». وقد قال أحد الشعراء العرب ذات مرّة في شعر له، «إن كسرى أطلق اسم «مازون» على «عُمان»، فهي أرض خصبة تزخر بالحقول والبساتين والمراعي والينابيع من كل مكان.

**كسرى سمّى «عُمان» «مازون»**

**و«مازون» يا صديقي! أرضٌ خيّرة،**

**أرضٌ تزخر بالحقول والبساتين،**

**ولا تنضب فيها الينابيع**

ويعدّ اسم «كسرى» -أو «كوسرويس» عند اليونانيين- اسماً عربيًّا يطلق على جميع الملوك الساسانيين لبلاد فارس، وهو لا يختلف كثيراً عن تسمية العرب لملوك الدولة البيزنطية بالقيصر. وبالتالي، فإنّ تاريخ هذا الشعر الذي نثرناه يرجع إلى فترات تسبق ظهور الإسلام.

---

(١) «أي. تي. ويلسون» في «الخليج العربي» (لندن ١٩٢٨) ص ١٧، يقول إن «عُمان سقطت في أيدي الفرس ربما في عهد كسرى الكبير حوالى عام ٥٣٦ قبل الميلاد».
وهذا التقليد العُماني مأخوذ من كتاب «إي. بي كوسان دي برسوفال»: «بحث في تاريخ العرب قبل الإسلام» أجزاء (١٨٤٧ ـ ١٨٤٨) «Essai sur l'histoire des Arabes avant l'Islamisme».

وقد وردت أسطورة عن «عُمان» على لسان «الكلبي»، عالم الأنساب المعروف، وتحكي قصة «مالك بن فهم» من قبيلة «قحطان» الأزدية (**الملحوظة هـ**)، التي استقرّت في مدينة «مأرب» باليمن في نهاية القرن الأول بعد الميلاد؛ وفيها أنّه كان لدى «مالك بن فهم» جارٌ يعيش في «حماه»، وكان لديه كلبٌ ينبح كثيراً فيُخيف الماعز والأغنام. وذات مرّة هجم الكلب على ابن أخي «مالك»، فقتله بحربته. فشكا الجار الأمر إلى «مالك» الذي جاء إلى أخيه عَمْرو مغضباً لأنه أنجب ابناً قاتلاً للكلاب. وكان «مالك» رجلاً ذا مروءة وكرامة فصاح في أخيه: «لن أحيا أبداً في أرض يُضام فيها جارٌ عزيزٌ».

ولم يمضِ وقت طويل -كما جاء في القصة- حتى جمع «مالك» قبيلته التي يبلغ قوامها ٦٠٠٠ من الأزديين وغادروا اليمن في رحلة شاقّة ومرهقة، اخترقت وادي «حضرموت» جنوباً حتى وادي «مسيلة وسيحوت» على الساحل. وانتهت الرحلة لمن أعيته مشقّة السفر وحرمان الطريق عند ساحل البحر، واستقرّ في «قلهات»، التي تبعد خمسين ميلاً شمال غرب «صور» المطلّة على الساحل العُماني. وكان يسير في مقدمة القبيلة ألفان من أشجع الفرسان فيها، يقودهم أصغر عشرة أبناء من أبناء «مالك»، فكان يأمرهم باستطلاع الحال أمام هؤلاء المستعمرين المهاجرين. وبعث «مالك» برسالة إلى جيش الاحتلال الفارسي الضخم، بعد أن أقام في «عُمان»، يقول فيها: «إن نزلتم عن نصيب من الماء والزرع والإبل، لا أبرح مكاني وأحمد فضلكم، وإن أبيتم، ألبث فيه رغم أنوفكم ... فإن كسرت شوكتكم فلن أترك منكم أحداً وأسبي ذراريكم ولن تبقوا في «عُمان» يوماً بعدها أبداً»[1].

ورفض الفرس عرض «مالك»، فدقّت طبول الحرب مؤذنةً بمقدم

---

(١) «إي. سي. روس» «حوليات عُمان» في دورية «جمعية البنغال الآسيوية»، المجلد ٤٣، الجزء الأول (١٨٧٤)، ص ١١٣.

ثلاثين ألفاً من جنود الفرس -على ما جاءت به الرواية- خرجوا من «صحار». فاعتلى «مالك» فرسه الأرقط، وعن يمينه ويساره أبناؤه يحمون جناحيه، ولبس درعه، وارتدى من فوقه رداءً أحمر، وارتدى على رأسه خوذة حديدية تطوّقها عمامة صفراء. وبعد أربعة أيام من القتال الضاري في المنطقة السهليّة بالقرب من «نزوى»، هزم جيش «مالك» الذي لم يتجاوز ستة آلاف رجل الجيش الفارسي. وذلك لأن ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾ «وينزع الملك ممن يشاء»، ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، و﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾. واتفق الجانبان على سنة من الهدنة، فقطعها ملك الفرس (الفرثي) «فولوجاسيبس الثالث»[1] (١٤٧-١٩١ ميلادية) بغطرسته، بعد أن عزّز جيشه بثلاثة آلاف من كبار المحاربين، إلّا أن النصر كان إلى جانب فئة «مالك» القليلة والمؤمنة فهزمتهم شرّ هزيمة. ويُقال إن ابني مالك «حونات» و«معن» قد قتلا بفيل من أفيال الفرس الضخمة. ومع هزيمة الفرس، بدأ «مالك» بإعداد مستقرّه في «نزوى»، وأرسل قومه للاستيلاء على قطاعات مختلفة من الدولة.

ثم، يبدو لنا من ذلك أن «مالك» هو أول حاكم مستقلّ في التاريخ لهذه المنطقة التي تعرف الآن بعُمان، على الرغم من أنه لم يرد لنا عن حكمه شيء سوى بعض القصص والحكايات المشكوك بصحتها. ويُعتقد أن حكمه العادل دام سبعين سنة، حتى قُتل وهو يبلغ من العمر مئة وعشرين عاماً بسهم أطلقه عليه ثالث وأحبّ أبنائه إليه وهو «سليمه»، الذي هرب بعد ذلك إلى فارس خوفاً من انتقام إخوته. وقصة ذلك أن الإخوة الذين كان يخشاهم «سليمة» هم من تسبّبوا بهذه المأساة، فيُقال إنّهم حاولوا

(١) الأصل الفارسي للإسم هو «فالجاش» أو «فالاكش»، و«فولوجاسيس» هو الصيغة اليونانية للإسم.

الوشاية[1] بـ«سليمة» عند أبيهم باتهامه بأن النّوم يُصيبه خلال توليه قيادة الحرس المسؤول عن السهر على مالك أثناء نومه. وحتى يختبر «مالك» صحّة ذلك، قام بالتخفّي في إحدى الليالي وركب فرسه واتّجه نحو ابنه «سليمة»، فأحدثت الفرس صهيلاً وأيقظت «سليمة» الذي غلبه النعاس فصوّب بين أذني الفرس. فسمع أباه رنين القوس وصاح فيه: «أمسك يدك يا بنيٍ! إني أنا أبيك»، ولكن بعد فوات الأوان. ويُروى أنه قال حين وفاته قولاً صار مثلاً يتداوله العرب حتى الآن:

أعلّمه فنّ الرماية كلّ يوم فلما اشتدّ ساعده رماني[2]

وورد في المصادر القديمة أنه بعد ستّين عاماً من هذه الهجرة المزعومة لقبيلة «أزد» إلى عُمان، جاءت موجة ثانية من المهاجرين؛ بل إنه ثبت، على وجه أقرب إلى اليقين، أن هذا التحرك جاء عوناً لحكام الدولة الفرثيين، حيث يُقال إن أول ملوك الساسانيين العظام، وهو الملك «أردشير الأول» (في القرن الثالث الميلادي)، استقر مقامه في عُمان لفترة أطول من قبيلة «أزد» نفسها. ولكن، بعد قرنين من الزمان، جاءت حركة الهجرة من أبناء «عدنان» -أو «إسماعيل» وفق ما أوردت المصادر التقليدية- فاتجهت جنوباً بعيداً عن «نجد». ويبدو أن سيطرة الفرثيين قد ضاعت من بين أيديهم، في وقت ما خلال هذه الفترة، وذلك بغض النظر عمّا قد يكون وقع في هذه البلاد؛ فبين عامي ٥٩٠ و٦٢٨ ميلادية، صار

(١) «حوليّات عُمان»، ص ١١٧.

(٢) رينولد أي. نيكولسون: «A Literary History of the Arabs» (التاريخ الأدبي للعرب)، (لندن، ١٩٠٧) ص ٣٤. كلّ هذه القصص التقليدية، منقولة من طبعة السلطان لكتاب «كشف الغمّة». وقصة «سليمة» واردة أيضاً في كتاب «تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان» (المجلد الأول) ص ٢٨ ـ ٣٣، وفي ص ٢١ ـ ٢٤ من مخطوطة الـ «كشف» التي نشرها «إتش. كلين».

الملك «كوسرويس الثاني» هو أول من يعيد استعمار ويتولى مقاليد حكم ليس «عُمان» وحدها وإنّما «البحرين» و«حضرموت» أيضاً.

ومع بزوغ الإسلام وانتشاره، في الرّبع الثاني من القرن السابع الميلادي، بدأ عهدٌ جديدٌ في تاريخ الجزيرة العربية. وكانت «عُمان» من أولى البلاد التي احتواها دين الإسلام، وإن قلّت بين أيدينا المصادر التي تحكي كيفية تحوّل شعبها إلى الدين الإسلامي. ولكننا نجد في الأثر أن النبي محمد ﷺ أرسل «أبا زيد الأنصاري» إلى «عُمان»، في العام الثامن من الهجرة ليدعو العُمانيين إلى الإسلام. واعتنق أهل «عُمان» بالفعل الإسلام[1]. وهناك أثر آخر ضعيف السند يروي أن «عمر»، ثاني الخلفاء، أرسل رجلاً يدعى «عرفجة بن حرثمة الأزدي» في غزوة إلى «عُمان» لنشر الإسلام فيها، إلّا أنه عاقبه بعد ذلك، بعد أن تبيّن له أن «عرفجة» قد دخل إلى «عُمان» عبر البحر، وهو ما كان محظوراً[2] عند العرب أبناء الصحراء. وهناك آثار أخرى قد تعكس بعض الحقائق التاريخية لترابط رواياتها. فعلى سبيل المثال، عاش كثير من الزرداشتيّين الفرس، على مدار القرون الأولى من ظهور الإسلام، في العديد من بلاد الجزيرة العربية، التي قبعت تحت حكم الفرس طوال سنين طويلة، ومنها «عُمان». ومن الجدير بالذكر، في هذا السياق، أن نشير إلى أن «أحمد بن يحيى البلاذري»، وهو أحد علماء التاريخ العرب، في القرن التاسع عشر قد أورد حديثاً، في بعض مؤلفاته، بأن النبي ﷺ أمر «أبا زيد»، وكان رسوله إلى «عُمان»، **أن يأخذ من المسلمين الصدقة، ومن المجوس الجزية** (جزية الرأس).

---

(١) البلاذري «فتوح البلدان» (بيروت، ١٩٥٧) ص ١٠٣ ـ ١٠٤؛ انظر أيضاً، «أصول الدولة الإسلامية» (وهو ترجمة أنجزها المؤرّخ الدكتور فيليب حتّي للجزء الأول من عمل «البلاذري»، المجلد الأول، ص ١١٦ ـ ١١٧.

(٢) ابن خلدون: «المقدمة» «The Muqaddimah» ترجمة فرانتز روزنتال ـ إلى الإنجليزية ـ (نيويورك، ١٩٥٨)، المجلد الثاني، ص ٣٩.

والمجوس كلمة اشتقت من الكلمة الفارسية القديمة «ماجوش»، وكانوا هم عبدة النار. وما يمكن أن نستنبطه من أمر الرسول ﷺ هو أن تتمّ معاملة المجوس معاملة أهل الكتاب (أي اليهود والنصارى). وعلى الرغم من ذلك، فقد فرّقهم المسلمون عن اليهود والمشركين فكان دين المجوس وسطاً بينهما، فمع أنه لم ينزل عليهم كتاب من عند الله، أو أرسل إليهم رسول مثل «المسيح» أو «موسى»، إلّا أنهم اتّبعوا رجلاً هو «زرادشت» وهو شخص في منزلة الأنبياء، كما أن طبيعة دينهم أقرب إلى التوحيد، إلى حدّ ما. ويشبه تسامح المسلمين مع المجوس تسامح اليهود معهم، هذا إن لم يكن الثاني أصلاً للأول، حيث جاء نبذ العهد القديم لدين الفرس أقلّ وطأة وقسوة بكثير ممّا كان عليه الأمر من كره اليهود لوثنية البابليين والكنعانيين.

ومن الجليّ أن للمسلمين الأوائل في عُمان، الذين وصل إخلاصهم إلى هذا الدين إلى حدّ بلغ أو كاد يبلغ التعصب، دوراً في الانقسام الأول في الإسلام؛ وعمَّق من هذا الانقسام الاختلاف في الأمور العقيدية بصورة استحال معها تصالحهم مع غيرهم من المسلمين. فبعد مقتل الخليفة «عثمان» عام ٦٥٦ ميلادية، انقلبت جماعة من المسلمين سمّوا «الخوارج» على ابن عمّ رسول الله ﷺ وصهره، ورابع الخلفاء الراشدين «علي بن أبي طالب» (رضي الله عنه)، زاعمين أنه أضاع حقّه عندما خضع للتحكيم المؤقّت. وانقسم الخوارج إلى طائفتين: «القرّاء» بورعهم الشديد، و«البدو» ببدائيّتهم وحماسهم القتالي[١].

ومن الضروري عند هذه المرحلة أن نقف بعض الشّيء على التطوّر الديني في «عُمان» ما بعد الإسلام، حتى نفهم ما أعقب ذلك من أحداث

---

(١) انظر كتاب «إتش. إي. آر. جيبّ»، «المحمدية، دراسة تاريخية»، (لندن ١٩٥٣)، ص ١٢٠.

تاريخية، ونذكر على وجه الخصوص بعض الجوانب العقيدية، ونتعرّض لجانبٍ كبيرٍ من الشريعة، التي اقتصر البحث فيها عادة على المتخصّصين.

بادئ ذي بدء، أنكر الخوارج من مسلمي «عُمان» اقتصار الحق بالخلافة على قبيلة أو عائلة بعينها، معتبرين مآلها إلى انتخاب الناس، وعلى أكثر مبلغ علم أصحاب الشأن. فلم يوصِ النبي ﷺ بخليفةٍ من بعده، ولم يأتِ في القرآن ذكرٌ عمّن يُستخلف على المسلمين بعد موت النبي ﷺ. وكان جوهر عقيدة الخوارج أنه لا حق في استخدام القرآن في إنهاء نزاع؛ لأن هذا ينطوي على إمكانية إخضاعه لتفسيرات الأهواء، ولأنه «لا حكم إلا لله، ولا حكم في دين الله»[1]. ولن نزعج القارئ بمقارنة هذه الدعوة بما كانت عليه الحركات البروتستانتية في «أوروبا» التي ظهرت في عصرٍ قريبٍ. وإمعان النظر في هذا القول يفضي بنا إلى معنى أنه «لا سلطان إلّا من الله، ولا شرع إلا من الملك». أما من الناحية العملية، فكان الخوارج يعنون بـ «حكم الله» تطبيق ما نزل به القرآن من شرائع، يوكّل بتنفيذها، إمّا إمامٌ منتخبٌ أو قاضٍ أو المجتمع ككلّ. ومن ثمّ، يوكل الأمر بتنفيذ شرائع الله إلى أحدهم فيُصدر الأمر فيُطاع، ولكن لا سبيل إلى طاعته إن ضلّ أو غوى عن شرع الله. وفي المجمل، يقول الخوارج إنه لا يوجد شخص يرث حق السلطة، ولكن من حق البشر جميعاً الحكم ماداموا على الصراط الذي جاءت به الشريعة الإلهية.

وكان من المحتمّ على طائفة تنادي بهذه الرؤى الثورية أن تدخل في صدام مع الخلافة كمؤسّسة. فقاد الخليفة «علي بن أبي طالب» جيشاً ليُحارب الخوارج، وأباد جيشاً منهم قوامه ١٢٠٠٠ محارب في معركة «النهروان» عام ٦٥٨ ميلادية، إلا تسعة رجال -كما يُقال- هرب اثنان

---

(١) انظر كتاب إيلي أديب سالم «نظرية الخوارج السياسية ومؤسّساتهم» Political theory and institution of the khawarij»، (بالتيمور، ١٩٥٦)، ص ١٦.

منهم إلى «عُمان»، وبدأوا في الدعوة إلى مذهب الخوارج هناك. وأدّت هذه الدعوة إلى ظهور طائفة عرفت باسم «الإباضية»، وظلّت تحمل هذا الاسم حتى يومنا هذا. ويرجّح أن هذا الاسم كان متداولاً قبل انتشار هذه الطائفة في «عُمان» (**الملحوظة و**).

لم تخضع «عُمان» لسيطرة الحكومة المركزية المباشرة للخلافة في بغداد إلا بعد عام ٦٩٤، خلال حكم الخليفة الأموي «عبد الملك بن مروان» (٦٨٥-٧٠٥)، وكان يطلق عليه لقب «أبو الملوك»، وكان رجلاً ذا ذوقٍ وثقافةٍ، وهو من بنى مسجد «قبة الصخرة» في «القدس». وواجهت محاولات قادة جيوشه لإخضاع «عُمان» لسلطته مقاومةً من «سعيد بن عبّاد» وأخيه «سليمان»؛ ويرجع نسبهما إلى «جلندة» من قبيلة «الأزد»، وقد تقاسما الحكم معاً. ويُقال إن: «حكمة سليمان حكمت، وشجاعة سعيد حمت»، بل إنّ هناك آثاراً أخرى تقول بأنّ هذين الحاكمين كانا أول من شرع في الفتوحات التوسّعية في شرق «إفريقيا»، حيث يعتقد أنهما كانا أول من طارد العبيد من الزنوج على مجالٍ واسعٍ (**الملحوظة ح**). وقد ألقى «أبو الفداء» -وهو كاتب عربي عاصر الملك «ريكاردوس قلب الأسد»، بعض الضوء على اسم «جلندة»، الذي يزعم أن نسل حاكمي «عُمان» ينحدر منه، فقال إنّ جميع الحكّام العُمانيين حملوا هذا الاسم في عصر ما قبل الإسلام. «ومن الأزد أيضاً «بنو جلندة»، وهم ولاة «عُمان»، ومن اعتلى منهم سدّة الحكم في عُمان لقّب بهذا الاسم».

ثم أرسل الخليفة جيشاً ثانياً على رأسه «مجاه بن شيوه»، بلغ قوامه حسب بعض الروايات ٤٠٠٠٠ مقاتلٍ، ليغزو «عُمان» من البرّ والبحر، فهُزموا، أو على الأقلّ ردّوا خائبين في معركة «البلقين». إلّا أن «مجاه»

عاود الكرّة، وعزّز جيشه بخمسة آلافٍ من الفرسان، ونجح هذه المرة في إنزال الهزيمة بالمرابطين للدفاع عن «عُمان» بعد مذبحةٍ شنيعةٍ. وبعد أن رأى «سعيد» ما نزل بجيشه «أدرك أنه انكشف لعدوّه كما الشعرة البيضاء التي تعلو ظهر ثور أسود»، فهرب مع أخيه «سليمان» وأهلهما وأنصارهما في قوارب نحو «أرض الزنج»، أي إلى شرق «إفريقيا»، مؤذنين بذلك بنهاية حكم آل «جلندة» في «عُمان». ولكن من مفارقات التاريخ التي غالباً ما يتحفنا بها حيناً بعد حين، أن «عُمان» لم تخضع لسلطان الخليفة بعد ذلك، فأمضت حيناً من الزمن تنعم بالاستقلال، وإن لم يطل. مع سقوط الدولة الأموية عام ٧٥٠، صار الإباضيون في «عُمان» هم القوّة المهيمنة في البلاد، وبويع أوّل إمامٍ لهم عام ٧٥١ (والإمام هو حاكم سياسيّ ودينيّ يأتي وفقاً لما نزل في القرآن من شرائع)

لم تنعم «عُمان» باستقلالها كثيراً، فبعد أربعِ سنوات وشهرٍ واحدٍ، مات «جلندة بن مسعود» أوّل إمامٍ عادلٍ في «عُمان»، بعد قتاله مع جيوش الخليفة العباسي الأول «أبو العباس» (٧٥٠-٧٥٤)، الذي كان يُعرف باسم «السفاح» (لقب أطلقه على نفسه)، والذي كان يسعى إلى إعادة تأسيس الدولة مرةً أخرى في بغداد. ووضع «أبو العباس» أساس دولة قامت على الوحشية والاضطهاد والإسراف في العنف، حتى ورد أنه قال لأهل الكوفة: «هذا زمن الله، فأعدّوا أنفسكم، فأنا السفاح». وقد بدأ هذا الرجل عهده بالملك -وفق ما ورد عنه- بأن قدّم لوزرائه الطعام ممتداً على قطعة من القماش تغطي أجساد رجال من الأمويين لم يمضِ على قتلهم وقتٌ كثيرٌ. وفي حادثةٍ أخرى، جاءه فيها رأس أحد أعدائه، فقام بقطع لسانه ورماه إلى قطته. واشتهر «العباس» أيضاً بمعاشرته جميع جواريه الأربعة آلاف. وكان شديد البأس على عكس غيره من خلفاء الدولة العباسية التسعة عشر الذين أتوا بعده، فنجد أن تسعة منهم إمّا

قتلوا بالسمّ، أو منعوا الطعام والشراب حتى ماتوا جوعاً، أو اغتيلوا بصورة أكثر قسوة من ذلك.

ونتيجة لهذه الحال التي كانت عليها الدولة العباسية، صارت «عُمان» فريسةً للفوضى والاضطراب والنزاعات الدينية، حتى وصل الأمر إلى قتال دامٍ. ولكن مع ضعف السلطة المركزية في الدولة العباسية استقلت المناطق البعيدة عنها. ثم جاءت سنوات، حكم فيها بطلٌ من الأبطال الذين لا تحصى أساطيرهم، **وقد كتب عنه الشاعر الإنجليزي «تنيسون» قائلاً**:

**كان نجماً في سماء ذلك الزمن**
**رأيته في عصره الذهبي**
**الملك الطيّب «هارون الرشيد»**

حكم «هارون الرشيد» الإمبراطورية الإسلامية المترامية الأطراف كخليفة لرسول الله، وخليفة لله في أرضه. كان هو خامس الخلفاء العباسيّين وأعظمهم في الوقت نفسه، وكان معاصراً للملك «شارلمان». وتمكّن العُمانيون في عصره من نيل المزيد من الاستقلالية في جنوب شرق الجزيرة العربية ومبايعة إمامهم الثاني، فجاء الشيخ «محمد بن أبو عفان» إماماً عليهم، بعد أن بايعه جميع الناس. ولكنه كان يتّسم بالغرور والطيش، ويفتقد إلى الحسّ السياسي، فاجتمع الناس مرةً أخرى وبايعوا بدلاً منه الإمام «وريث بن كعب»، الذي اتّسم حكمه بالعدل والتقوى.

دامت فترة الاستقلال هذه المرّة زمناً أطول. ولكن بعد مُضي إحدى عشرة سنة، وفق ما أورده «البلاذري» - وهو أحد المؤرخين العرب الأوائل الثقات- أرسل «هارون الرشيد» صديقه «عيسى بن جعفر» على خمسة آلاف جندي من المشاة وألف فارس لإخضاع

«عُمان» لحكمه وإعادة المذهب السنّي مرّة أخرى إليها، إلّا أن جيش الخليفة كان أشبه بقوة معتدية بربرية، فلم تسلم النساء من وحشيته. والتقى الجيش بالقوات العُمانية بالقرب من «صحار»، فأبيد عن بكرة أبيه، وأسر الإمام «وريث» قائدهم «عيسى»، فاستشار الشيخ «علي بن عزرة» في أمر الأسير، فأجابه الشيخ: «إن قتلته أحسنت صنعاً، وإن عفوت عنه فكذا فعلت». فعفا إمام العُمانيين عن «عيسى»، ولكنه قُتل بعد ذلك، في السجن في «صحار»، دون علم الإمام. ونجد هنا، أنه حتى «هارون الرشيد»، أعظم خلفاء العباسيين، عجز عن إخضاع «عُمان» دون أن يبذل أكثر ممّا كان ينوي بذله.

حكم الإمام لاثنتي عشرة سنة ونصف، ثم جاء يومٌ كان يسير فيه مع سبعين من رجاله، وهو يأخذ بعض الأسرى في حاجة، فحوصر الأسرى في واد ينزل فيه سيلٌ من أعلى التلال، ولم يجرؤ أحدٌ من رجال الإمام على الإقدام وإنقاذهم، فقال: «إنهم تحت يدي، وسيسألني الله عنهم يوم القيامة، فلن أتخلّى عنهم أبداً»، فخاض الماء يسعى لإنقاذهم تلبية لهذا الواجب فغرق.

لم يكن لهذه الروح الطائفية التعصّبية لعرب «عُمان» مردود خطير واحد؛ فبخلاف نزاعاتهم، كان هذا سبباً في ضعفهم من الناحية السياسية، إلّا أنه لم يسعَ أحدٌ خلال هذا الزمن وطوال قرن لغزو بلادهم. وظلّت الحال مستقرّة حتى الفترة التي امتدّت من عام ٨٩٢ إلى عام ٩٠٢، فانشقّت جماعة من العُمانيين، كانت بمثابة طابور خامس تميل بولائها إلى مذهبها دون بلادها، فدعاهم الخليفة «المهتدي بالله» ليقوموا بما عُدّ أعظم وأشرّ وأغرب غزو لعُمان. كان على رأس الجيش «محمد بن نور» والي البحرين، وكان مشهوراً بوحشيته وطغيانه. وقيل إن جيشه تألّف من ٢٥٠٠٠ مقاتل، كان

٣٥٠٠ منهم من الفرسان ونصفهم مغطّى بالدروع، فبلغ اليأس بالعُمانيين مبلغه بتشرذمهم وعجزهم عن توحيد صفوفهم أمام العدو، فسلبوا وحوصروا وعذّبوا وسجنوا «لأن الله زرع في قلوبهم الحقد والبغضاء»، وكان قائدهم الإمام «عزّان بن تميم» عديم الجدوى، وشلّه الرعب من المذابح التي أُجبر على أن يكون شاهداً عليها.

«فضاعت عُمان من أهلها، ولم يكن هذا عقاباً من الله أكثر منه ظلماً من أنفسهم ... فولّى الله أمرهم لمن هو أكثر ظلماً منهم، فهو أعلم بالصّادقين».

وعمد «محمد بن نور» إلى قطع رأس الإمام، وأرسله إلى الخليفة في بغداد. وفي «نزوى»، لم يسلم من وحشيّته وظلمه سادة «عُمان» «فقطع أيديهم وآذانهم واقتلع عيونهم، وارتكب فظائع لم يُسمع بها من قبل، فشوّه أهل البلد، وأفسد موارد مياههم، وأحرق كتبهم، فترك «عُمان» خربةً مقفرةً[1]، ما بها من أحد». وكأن أمير المؤمنين قد نسي أو لم يطرق مسامعه أبداً ما أوصى به الرسول ﷺ من أنه «**ما من أميرٍ طغا ومات إلا وحرّم الله عليه الجنة**».

وعانت «عُمان» بعد ذلك من فرقة «القرامطة»؛ وهي فرقة متطرّفة نشأت في المناطق الجنوبية من «عُمان»، ولكن أتيحت لها الفرصة لتحسين أوضاعها، فاستقرّت في شرق الجزيرة العربية، في مكان أطلق عليه «أبو سعيد الحسن» اسم «البحرين». وقد اشتهر من القرامطة رجلٌ يُكنّى «أبو طاهر» بوحشيّته، عندما قاد هذه الفرقة في معارك، مالت نتائجها إلى

---

(١) «إي. سي. روس»: «حوليّات عُمان» «Annals of Oman»، ابن رازق: «أئمة وسادات عُمان» «Imams and Seyyids of Omans» (لندن، ١٨٧١)، ص ٢٤.

جانبهم. وقبل أن يتوجّه «أبو طاهر» إلى عُمان بجيشه، كان بالفعل قد استولى على سوريا، وعاث فساداً في العراق، وسلب مكة المكرمة، التي قيل إنه قتل فيها ثلاثين ألفاً، تركهم بجثثهم المتعفّنة في شوارعها، واستولى على الحجر الأسود؛ وكلّ ذلك في زمن لم يتجاوز السنتين من عام ٩٣٠ حتى عام ٩٣١. ولم يعد الحجر إلى موضعه في الكعبة لإحدى وعشرين سنة حتى استعاده الخليفة «المنصور بالله».

وكان «أبو سعيد الحسن» زعيم القرامطة يكره المؤسّسة الإسلامية كرهاً بلغ به أن وصف القرآن بأنه قصص لا أكثر، وأسقط الصلاة والزكاة والحجّ إلى مكة، وجعل منه أتباعه إلهاً بينما كان ابنه يقطع رؤوس حجّاج مكّة ويضعها في «بئر زمزم»، صاح بمن حوله يقول:

**إن كان الله هو من يخلق فإنّني هو من يُبيد.**

وفي إطار حملتهم العسكرية الثانية في شبه الجزيرة العربية، توجّه القرامطة إلى «عُمان» لغزوها، خلال حكم الإمام «عمر بن محمد». وثمّة أسباب تدفعنا إلى الاعتقاد بأنّ هذه الغزوة لم تكن محاولتهم الأولى، إذ يقول «النويري»: إن «أبا سعيد» حاول غزو «عُمان» بستمئة رجلٍ خلال ولاية الخليفة العباسي «المكتفي» (٩٠٢-٩٠٨)، وإنّ القوات العُمانية استغرقت سبع سنوات حتى تقضي على هذه القوّة الصغيرة».

وامتلأت «عُمان» خلال العقود الثلاثة التالية بالاضطراب والفوضى، اختير خلالها سبعة أئمة وتمّ خلعهم. وبحلول عام ٩٩٦، توالى على إمامة «عُمان» ستة عشر إماماً خلعهم قومهم جميعاً. وكما درج في أمثلة العرب «بلاء النّاس من النّاس»، نجد أن مؤرّخي هذا العصر يقولون إنّ الإمامة في «عُمان» كانت محلّ منافسة شرسة ونزاع شديد، إذ كانت مطمع الجميع.

ونشير بالذكر هنا إلى أنه بعد عام ٩٥٠، لم يكن للخليفة العباسي نفوذ فعليّ على «عُمان»، وذلك طوال خمسين عاماً حتى انهارت الدولة العباسية، وعندها لم يعد للخلفاء أيّ شأن بعُمان تماماً.

ونواجه في هذه المرحلة فجوة في تاريخ المؤرّخين، بل والروايات القديمة أيضاً، فنحن لا نعرف ما حدث للبلاد حتى منتصف القرن الثاني عشر، عندما استولى «بنو نبهان» من قبيلة «قحطان» على «عُمان»، وأسسوا فيها دولة تعاقب عليها ملوكهم. فنحن لا نعرف عنهم أيّ شيء سوى أنهم كانوا أول من أدخل شجر «المانغو» إلى «عُمان»، وأن «سليل بن رازق» كتب إليهم: «متّعوا أنفسكم يا بني نبهان، فهي أيام معدودة، فأعدّوا أنفسكم للموت»، وقد أسقطت دولتهم عندما قام الناس عليهم لظلمهم وقمعهم.

ويقتضي منا المقام في هذه المرحلة أن نستعرض قليلاً إحدى المناطق التابعة لعُمان في وقتنا الحالي، وهي «ظفار». وكانت «ظفار» في الماضي، إمّا من أراضي «عُمان» أو دولة مستقلّة بنفسها في بعض الأحيان، أو تحت سيطرة أجنبية في أحيان أخرى.

ويروي لنا «**الإدريسي**»، وهو جغرافيّ عربيّ كان له عظيم التأثير على «أوروبا»، كما أنه كان عالم الجغرافيا الذي اعتمد عليه الملك النورماندي «روجر الثاني» في «باليرمو» بشكل رئيس، أنه في عام ١١٤٥ كان يحكم «ظفار» «أحمد بن محمد المنجوة»، وهو من «آل المنجوة»؛ وكانت «ظفار» تابعة يومها لعُمان. وفي عام ١٢٠٠، جاءت جيوشٌ إلى «عُمان» تمّ صدها بعد حصارٍ دام خمسين يوماً. لكن «ياقوت»، وهو من أبرز علماء الجغرافيا المسلمين، يذكر أنه في عصره (في أوائل القرن الثالث عشر) كانت «ظفار» تتبع «البحرين»

(اسم كان يستخدم للإشارة إلى الأراضي التي تقع في شرق شبه الجزيرة العربية، ولا تقتصر على الجزيرة الصغيرة التي تحمل هذا الاسم في عصرنا هذا). وفي عام ١٢٢١، تمّ تدمير مدينةٍ، يطلق عليها اسم «ظَفَار»، على يد تاجر سفنٍ ثري، يسمّى «أحمد بن محمد الحبودي» (من أهل حضرموت، وأسّس السلالة الحبودية). وأعيد بناء المدينة بشكل سريع خلال ثلاث سنوات، مثل «المنصورة»، التي كانت من أكثر المدن رخاءً (تعرف آثارها الآن باسم «الباليد») في مرحلة من مراحل العصور الإسلامية الوسطى.

وعلى ما أورده «سليل بن رازق» عام ١٢٦٥ تقريباً (وفقاً لـ«مايلز» عام ١٢٥٨، و«روس» و«آر. جست» عام ١٢٦١)، أبحر الأمير «محمد بن أحمد القوصي» سيد «هرمز» إلى «ظفار»، فاستولى عليها وقتل كثيراً من أهلها، ثم عاد إلى «قلهات» بغنيمة كبيرة. ويُقال إنه في طريق عودته، ألمّت كارثة بجزءٍ من قواته، ما أدّى إلى وفاة أكثر من خمسة آلاف بسبب الجوع والعطش.

وفي عام ١٢٧١ (حسب ما أورده «مايلز» و«آر. جست») قام المحارب الحضرمي «سالم بن إدريس الحبودي» (آخر حكام الدولة الحبودية) بغزو «ظفار»، وذلك بعد أن تعرّض لخيانة أهل مدينة «شبام» الحضرميين، الذين سلّموه المدينة في الأصل كتعويضٍ له عن دعمه لهم خلال فترة المجاعة. وفي عام ١٢٧٨، وكردٍّ على اعتداءات القراصنة على طول ساحل «عدن»، التي قام بها «سالم المظفر يوسف بن علي»، قام ملك اليمن بالهجوم على «ظُفار» على ثلاثة محاور، اثنين منها براً والثالث بحراً. وفي معركة عنيفة بالقرب من «ريسوت»، قتل «سالم» مع ثلاثمئة من رجاله وتمّ أسر ثمانمئة غيرهم. وصارت «ظفار»، جنباً إلى جنب مع «حضرموت»، تحت سيطرة

ملك اليمن، وأرسلت أخبار النصر، من «نزوى» إلى ملك «اليمن»، محمّلة بحصانين وصقرين ذهبيين كهدية من ملك عُمان «قحطان بن عمر النبهاني»، الذي ترك أجداده «اليمن» عام ٢٥٠ ميلادية.

وجاء وصف «ماركو بولو» عام ١٢٨٥ تقريباً لظفار على النحو التالي:

«ظفار من أجمل المدن وأجلّها، وهي شمال شرق «إشر» [شِهْرْ؟]. وأهلها من العرب ويعظّمون سيّدهم الذي يخضع لسلطان «عدن». والمدينة ما زالت تتبع «عدن»، وهي تطلّ على البحر وسماؤها صافية. فكان هذا باعثاً على نشاط الحركة الملاحية بينها وبين «الهند»، مما دفع التجار إلى اصطحاب أعداد هائلة من الأحصنة[١] العربية إلى تلك السوق، فدرّ عليهم ذلك ربحاً كبيراً. ويقع حول المدينة عدد كبير من البلدات والقرى التي يصنع فيها البخور. وسوف أخبرك كيف يزرع نباته. فشجرة مثل شجرة «التنوب» الصغير، تُقطع بسكين في أماكن عديدة، فيفرز البخور من موضع القطع. وأحياناً يسيل البخور من الشجر دون قطع فيها، وذلك لشدّة حرارة الشمس»[٢].

وزخرج «ابن بطوطة» وهو في عمر الواحد والعشرين، من موطنه في «طنجة» ميمّماً وجهه شطر «المسجد الحرام» لأداء فريضة الحج. وكانت رحلات القرن الرابع عشر تتسم بالبطء وكثرة الفراغ فيها، لما كانت تتميّز به البلاد الإسلامية من استقرار آنذاك. وتزوّج «ابن بطوطة» قبل وصوله إلى مصر مرتين. وفي عام ١٣٢٨ (وذلك على خلاف «جست» الذي يرى أن العام هو ١٣٢٩)، استولى السلطان «ناصر بن الملك المغيث» -وهو ابن عم ملك اليمن- على قلعة «الباليد». وفي نهاية عام

---

(١) علوي بن طاهر «جَني الشمارخ»، (عدن، ١٣٦٩ هجري)، ص ٣١.

(٢) السير «هنري يول» «كتاب السير ماركو بولو، الفينيسي»، (لندن ١٩٠٣)، المجلد ٢، ص ٤٤٤ ـ ٤٤٥.

١٣٤٧، زار «ابن بطوطة» «ظفار» وسمّاها «ظفار الحموض» أي «ظفار عشب الملح». **وقد ترك لنا وصفاً فريداً لمدينة «ظفار»** (وهي الآثار المتبقية إلى يومنا هذا بالباليد)، فقال عنها: ومدينة «ظفار» في صحراء لا قرية فيها ولا عمالة لها، والسوق خارج المدينة بربض تعرف بالحرجاء، وهي من أقذر الأسواق وأشدّها نتناً وأكثرها ذباباً، لكثرة ما يُباع فيها من الثمرات والسّمك. وأكثر سمكها النوع المعروف بالسّردين، وهو بها في النهاية من السمن. ومن العجائب أن دوابّهم إنما علفها من هذا السّردين وكذلك غنمهم، ولم أرَ ذلك في سواها .(**الملحوظة ط**).

**وقد تمّ وصف أهالي عُمان بعباراتٍ ودودةٍ وسخيّةٍ للغاية:**

«وهم أهل تواضع وحسن أخلاق وفضيلة ومحبة للغرباء، ولباسهم القطن، وهو يجلب إليهم من بلاد الهند. ويشدّون الفوط في أوساطهم عوضاً عن السروال، وأكثرهم يشدّ فوطة في وسطه، ويجعل فوق ظهره أخرى من شدة الحر، ويغتسلون عدة مرات في اليوم. وهي كثيرة المساجد، ولهم في كلّ مسجد مطاهر كثيرة معدّة للاغتسال. وتصنع بها ثياب من الحرير والقطن والكتان حسان جداً.

والغالب على أهلها رجالاً ونساءً المرض المعروف بداء الفيل، وهو انتفاخ القدمين. وأكثر رجالهم مبتلون بالفتاق والعياذ بالله».

وكتب «ابن خلدون» (١٣٣٢-١٤٠٦)، وهو أعظم المفكّرين في تاريخ الإسلام، أن «ظفار» كانت موضع «طباس»، وكانت تقع «مرباط»[١] على

---

(١) في شهر يوليو من عام ١٧٩٢، تحطّمت سفينة «كومرس» التابعة لبوسطن، والتي يقودها القبطان صامويل جاكسون، قبالة «مرباط». وتمكّن أحد بحّارتها، ويدعى «دانيال سوندرز»، من النّجاة، واجتاز بواسطة الجمل طول الطريق الممتدة من «مرباط» إلى «مسقط»، ومن هناك تمّت إعادته إلى «بوسطن». وقرية «مرباط» البحرية الحالية تقع على مسافة ٢٠ ميلاً شرق «خور روري».

ساحل البحر، ولم يتبقَّ من المدينتين إلا آثار خربة». وفي عام ١٥٠٤، رسا الرحّالة الإيطالي المشهور «لودفيكو دي فيرثيم[١]» البولوني (هو أول أوروبي يكتب وصفاً صادقاً ومنشوراً، وصل إلى أيدينا، يحكي عن رحلته إلى مكّة مع قافلة من الحجاج) في «ظفار» التي وجدها «أكثر البلاد روعةً ولا يُدانيها في ذلك أيّ بلد آخر».

وفي عام ١٥٢٦، قامت سرية برتغالية تحت قيادة «هكتور دي سيلفريا»، وبناءً على أوامر من حاكم «جوا»، بمهاجمة وتدمير أجزاء من «ظفار». وبعد عشرين سنة، قامت أربع سفن شراعية تركية بقذف «ظفار» بالمدفعيّة الثقيلة، فأسقطت عليها كرات من الحديد ذات حجم هائل، وإن كانت هذه المدافع لم تتسبّب بدمارٍ هائلٍ في المدينة، إلّا أنّها أدخلت الرعب على أهلها، فأرسل حاكم «ظفار» ابنه إلى مسقط ليشكو إلى الحاكم البرتغالي قصف الأتراك لظفار وتشييدهم حصناً لحاميتهم العسكرية.

وفي الرابع عشر من فبراير عام ١٥٩٠، تعرّض اثنان من المبشّرين اليسوعيين الإسبان، وهما الأب القشتالي «بدرو بايز» وصاحبه الكتالوني «أنطونيو دي مونتسيرات»، لكمينٍ من قبل بعض العرب على مشارف ساحل «ظفار»، وهما في طريقهما من «جوا» إلى «الحبشة»، فأسرهما أحد الشيوخ المحليين ليطلب بهما فدية في قرية سماها «بايز» باسم «زوفاز»، وذلك قبل أن يتمّ إرسالهما إلى «تريم» في «حضرموت». وكانت «ظفار» في هذه الفترة تتبع السلطان «عمر بن بدر بو طويرق» من بيت «كثير». وعلى الرغم من الرّحلة الطويلة والمرهقة التي دُفع إليها

---

(١) لم يكن «لودفيكو دي فيرثيم» أول أوروبي يزور مكة، إذ سبقه «بيدرو داكوفيلها»، قبل بضع سنوات، وكذلك شخص من البندقية يسمى «دراغون زينو». ومن جهته، يوافق «جي. أي. وليامسون» على القصة القائلة بأن العجوز «كابوت» زار مكة قبل «فيرثيم».

الأب «مونتسيرات»، ليعبر هذه الصحراء المحرقة بلهيب حرارتها على ظهر جمل، تلك الرحلة التي لن تسهم إلا في حتفه إن لم يطع أوامر آسريه، والقول بأنه كان أحد البرابرة، (وذلك لأن البرتغاليين كانوا يطلقون على المسلمين جميعاً اسم البرابرة)؛ فقد رفض بشجاعة يحسد عليها أن يفعل ذلك مقابل أن ينال حريته، رغم الهجوم الضاري عليه، فقال «لأنكم ترونني هنا، فقد جرؤتم على الحديث إليّ بهذه اللغة المشينة! وأنا لن أذعن لكم حتى لو كان عليّ أن أموت ألف مرّة».

ونجد أنه، في منتصف القرن الثالث عشر، ذكر أحد المؤرخين الصينيين ويُدعى «تشاو جو كوا»، «عُمان» نفسها في كتابه «وصف شعوب البربر»، فقال عنها:

«يشبه أهل «عُمان» في الوصف أهل «صحار»، وهم يعتمدون على ثمار الأرض. ويرتدي سيّد هذه البلاد عمامة، ويغطي نفسه برداء من الحرير الخفيف، ولكنه لا يرتدي ثوباً، ويسير حافي القدمين. ولا يرتدي خدمه شيئاً على رؤوسهم، ويسيرون مثل سيّدهم حفاة، ولكنهم يغطون أنفسهم بفوطة تغطّي جسدهم. وهم يأكلون خبز الذرة، ولحم الضأن، والسمك، والخضراوات، ويشربون لبن الماعز. والنخل في بلادهم كثير. ويأتون باللؤلؤ من على طول سواحلهم، وهم يربّون الخيل في جبالهم. وتشتري البلاد الأخرى منهم الخيل واللؤلؤ والتمر، ويشترون هم بدورهم منهم الحمام وحبّ الهال والبذور والكافور (**الملحوظة ي**).

وتعرّضت «عُمان» للغزو مرّتين، في القرن الثالث عشر، بقوات جاءت من عدوها القديم الفرس. وقد وقع الفرس حينها في قبضة سلطان المغول «هولاكو خان»، وهو ما يدعونا إلى الاعتقاد بأن الجيوش كانت من المغول وتحت قيادة ابنه وخليفته بعد ذلك «أباكا خان» (١٢٦٥ ميلادية). وهناك رواية أن «عُمان» تعرّضت بعد ذلك لغزو آخر، ولكن هذه المرّة من ملوك «هرمز» (**الملحوظة ك**)، وهي المدينة التي كانت

تسيطر على طريق الوصول إلى الخليج العربي. وادّعى هؤلاء الملوك أن سلطانهم يمتد إلى سواحل «عُمان» حتى بداية القرن السادس عشر.

وأعيد تأسيس الإمامة عام ١٤٢٩ بعد مضي زمن طويل على انهيارها. وبعد ثلاثة وخمسين عاماً من ذلك، سعى الإمام «عمر بن الخطاب»، رضي الله عنه خلال فترة ولايته الثانية، أن يعوّض الشعب الذي عانى على يد «بني نبهان»، فصادر جميع ممتلكات هذه القبيلة من أراضٍ وممّرات وأسوار ونخل وديار وأثاث وأسلحة وآنيات ومنتجات وكلّ شيء، ثم سلمها بعد ذلك إلى بيت المال، الذي قام بدوره بتوزيع جميع هذه الثروات بصورة متساوية على كل من أصابه الضرر منهم، سواء أكان حيًّا أم ميتاً، ذكراً أم أنثى. وتمّ توزيع ما تبقّى منها على الفقراء من الناس. وكان بيت المال، حسب القانون والعرف، تحت تدبير الإمام، يستعين به في مواجهة الفقر، إلى جانب الجهاد والدفاع عن الإسلام، وهو ما يشمل أيضاً تحصين القلاع والحاميات وبناء السفن، وبإمكانه أيضاً استغلال ما فيه من مال في بناء المساجد.

## الملاحظات

*** * الملحوظة (أ) * * * * * * * * * * * ***

كتب «كلاوديوس بطليموس» كتابه «الجغرافيا» عام ١٥٠ بعد الميلاد، وكان من الكتب التي أجمع علماء العصر الحديث على أنه قد تمّ تحرير محتواه في العصر البيزنطي مع بداية القرن الخامس بعد الميلاد.

*** * الملحوظة (ب) * * * * * * * * * * * ***

شبه الجزيرة العربية منطقة مترامية الأطراف تقع بين خليجين، الخليج العربي من الشرق وما نسمّيه هنا الخليج العربي ويقع في الغرب. ويحدّها من الجنوب المحيط، ومن الشمال سوريا والفرات ...«وفي ما

يخصّ أهلها، فهم صغار الحجم عراة ومعدمون». «إس برتشاس»، في «رحلة برتشاس»، (لندن، عام ١٦٢٥)، ص٢٢٥-٢٥٩.

*** * الملحوظة (ج) * * * * * * * * * * * * ***

لم يرقَ أيّ تفسير لأصل اسم الجزيرة العربية أو كلمة «عرب» إلى الإقناع. وهو اسم حديث نسبيًّا، وأوّل من استخدمه هم الكتّاب القدماء. «إيه غِيبوم» في كتابه «الإسلام» (هارموندسورث، عام ١٩٥٦)، ص١ - ٢.

*** * الملحوظة (د) * * * * * * * * * * * * ***

في إشارة إلى جنوب شرق الجزيرة العربية، يصرّح الشيخ «سرحان بن عمر بن سعيد السرحاني الإزكاوي»، ووفقاً لما أورده «إي سي روس» في كتابه «حوليات عُمان»، في صحيفة المجتمع الآسيوي البنغالي، المجلد الثالث والستين، الجزء الأول [١٨٧٤]، ص١١٦، بما يلي: «سماها الأزد عُمان، لأنهم أقاموا في وادٍ يفيض فيه الماء في اليمن، والذي ربما كان يسمى عَمَّان، فربطوا اسم المكان بوطنهم.» وعلى النقيض من ذلك، تؤكّد العديد من الحوليات القديمة أن اسم «عُمان» مشتق من اسم ابن قحطان، على الرغم من أن شخصية هذا الابن اعتبرت في كثيرٍ من الأحيان من الشخصيات الأسطورية. ويُعرف عن العرب نقلهم للتاريخ شفويًّا، وهو ما يفتح الباب لدخول عامل الأساطير في نقله على مرّ الأجيال.

وفي عام ١٧٢٨ تقريباً، ألّف الشيخ «سرحان بن عمر» من قبيلة «بني علي» كتاباً باللغة العربية سمّاه «كشف الغمّة الجامع لأخبار الأمّة» (في «إزكي» في عمق «عُمان» عام ١١٤٠ هجريًّا، حوالى عام ١٧٢٨ ميلادية). وتناولت أجزاءٌ من هذا الكتاب «عُمان» وترجمها «إي سي روس» -وهو مندوب سياسي في مسقط- عام ١٨٧٤ لصحيفة المجتمع الآسيوي البنغالي، وقام بتسمية ترجمته «حوليّات عُمان». وفي نوفمبر عام

١٩٦٠، قدّم السلطان «سعيد بن تيمور» نسخة مصوّرة فوتوغرافيًّا لمخطوطة الشيخ النادرة باللغة العربية، إلّا أن «روس» استخدم نسخة مختلفة، وذلك أثناء إقامة المؤلّف مع السلطان في «صلالة».

أما بالنسبة لمحتويات كتاب «كشف الغمّة»، الذي كان في أربعين فصلاً، باستثناء الفصول التي تناولت شؤون ما قبل الإسلام وتاريخ النبي محمد ﷺ والخلفاء، فهي في أربعة جوانب:

١. **الجانب الأسطوري**: وهي روايات عن التاريخ القبلي لعرب قبيلة الأزد.

٢. **الجانب التاريخي**: وهي عن أصل «الإباضية» وتاريخ «عُمان» وشمال إفريقيا.

٣. **الجانب التاريخي ـ الديني**: وهو في الأساس عرض ودفاع عن العقيدة «الإباضية».

٤. **الجانب البيبليوغرافي**: وهو قائمة بالرجال البارزين، خاصة من الإباضيين.

وهناك مقال مهمّ عن كتاب «كشف الغمّة»، كتبه «إدوار ساشاو». وكان لدى «ساشاو» وهو في «زنجبار» نسخة من هذا الكتاب، ولكنها لم تكن نسخة دقيقة تماماً (وهي نسخة ذات تنقيح مختلف عن تنقيح نسخة السلطان)، كما أن الناسخ خلط بين العديد من الأسماء الجغرافية وأسماء الأشخاص التي لم يفهمها.

وعلاوة على ذلك، أشارت «هدويج كلاين»، في مقدمة رسالتها، في جامعة «هامبورغ» التي تناولت هذا الكتاب ونشرت عام ١٩٣٨، أن آخر حدث سجّل في كتاب «كاشف الغمة» وقع في مارس عام ١٧٢٨، واستنتجت من ذلك أنه تمّ تأليفه في شهر شعبان عام ١١٤٠ هجرية، أو بعد ذلك بفترة قصيرة. وقالت «كلاين» إن هذا الكتاب هو المصدر الرئيس

لكتاب «حامد بن محمد بن رازق»، الذي يسمّى «الفتح المبين في سيرة السادات ألبوسعيديين»، والذي أتمّه الكاتب عام ١٨٥٨/ ١٢٧٦. وتؤكد «كلاين» أيضاً أن الكتاب المعروف باسم «كتاب السير العُمانية» قد يكون هو المصدر الذي اعتمد عليه كتاب «كشف الغمّة»، وقد تكون المخطوطة التي توجد في المتحف الإنجليزي هي نسخة من كتاب «كشف الغمّة». ولا تعتقد «كلاين» أن الشيخ «سرحان بن سعيد» هو مؤلّف كتاب «كشف الغمّة»، وترجّح أن «روس» أخطأ في تحديد اسم الشخص، وترى أن من كتبه هو «عبد الله بن قصير» **(الملحوظة ط)**. وبالتالي، فإنّ اسم مؤلّف كتاب «كشف الغمّة» غير مؤكّد حتى الآن.

*** * الملحوظة (هـ) * * * * * * * * * * * ***

توجد قصة «مالك بن فهم» عند «أبي حاتم الشهرستاني». وقد استشهد بها «سليمي» في ص١٥، (المجلد الأول) من كتابه «التّحفة». وقبل ذكر «الكلبي»، استشهد «سليمي» أيضاً بقصّة أخرى عن «مالك» من كتاب «مروج الذهب» للمسعودي، ولكن ليست قصة «الكلب النابح».

ووفقاً للمختصّين في علم الأنساب العربية، والذين كانوا سبباً في التوسّع في علم الأنساب، كان «درّة الأزد» الذي انحدرت منه قبيلة الأزديين في السلسلة العاشرة من نسبه إلى «قحطان»، في حين أن سيّد الأزديين في «عُمان» «مالك بن فهم» في السلسلة الثالثة والعشرين.

كان شغف العربي قديماً هو الفخر بالأنساب. وكانت ثروته ممثّلة في ما يملكه من جِمال وأحصنة. وقد لاحظ العربيّ في توالد هذه الحيوانات ضرورة أن يكون الآباء من أصل جيّد حتى ينجبوا نسلاً جيداً .. فطبّق المبادئ نفسها على الجنس البشري ... ومن ثمّ نعرف من اهتمام العرب بعلم الأنساب غيرتهم الشديدة التي حافظوا بها عليه». «روبرت ديوري أزبورن»، «الإسلام والعرب» «Islam and the Arabs»، (لبنان عام ١٨٧٦)، ص٢٨١-٢٨٢.

** الملحوظة (و) * * * * * * * * * * * * * *

وفقاً لما ورد في كتاب «كشف الغمّة»، بعد أن قامت «هدويج كلاين» بتحرير النص العربي (هامبورغ، عام ١٩٣٨) ص١٥:

«ترك «عمر بن عبد الله» «عُمان»، في حين مكث فيها «زياد بن المهلة»، وذلك حتى ظهور «أبو العباس السفاح»، عندما سقطت الدولة الأموية على يده. فقام بتعيين «أبو جعفر المنصور» والياً على العراق، والذي ولّى بدوره «جنة بن عباد بن قيس بن عمر الحناعي» على «عُمان»، وهو من شيّد المسجد المعروف بمسجد «جنة». ثم تمّ خلعه، فانتقلت السلطة إلى ابنه «محمد بن جنة» بدلاً منه. ثم تملّق الإباضيون «جنة» حتى انتقلت إليهم السلطة، وفي ذلك الوقت بايع العُمانيون «جلندة بن مسعود» ليكون إماماً عليهم ..»، انظر الفصل الثلاثين.

وتقول «كلاين» في ملاحظاتها (ص٣٤):

«ويثير هذا الظهور المفاجئ للإباضيين سؤالاً عن بداية وتطوّر هذه الفرقة في «عُمان»، ولكن ليست هناك إجابة مرضية عن هذا السؤال».

«أنا لا أعرف أصل المعلومات التي أوردها «كلاين» أو «روس» أو «بادجر»، فوفقاً لكلٍّ منهم، كان اثنان من الخوارج الذين هربوا من معركة النهروان بعد الهزيمة وذهبا إلى «عُمان»، كانت لديهما في غمرة ما يحيط بهما سلطة على الخوارج والإباضيين، وتحديداً على الإمام المختفي «أبو الشعثاء جابر بن زيد الأزدي»، الذي كان من جيل التابعين وكان على وفاق مع «أبي بلال مرداس بن حدير» (وهو أحد الدعاة الأوائل لمذهب الإباضية)، وذلك قبل رحيله من البصرة عام ٦٠. (انظر «كشف الغمّة» ص٣١٦)، ووفقاً لما ورد في «كشف الغمة»، فإن «أبو الشعثاء» عاش في «فرق» ... ولكنّي لست على يقين ممّا إذا كان «أبو الشعثاء» هو أول من أدخل عقيدة الخوارج إلى «عُمان».

«وأن يكون هناك أشخاص في «عُمان» قد تبنّوا وأيّدوا قضايا أبو بلال في «عُمان» وقت فرار الشاعر الخارجي عمران بن حطّان من الحجّاج، هو حقيقة يؤكّدها المبرّد في كتابه «كتاب الأغاني». إضافة إلى ذلك، يُقال إن عمران بن حطّان انضمّ إلى الخوارج تحت تأثير شابّ من «عُمان» (راجع «كتاب الأغاني»).

«وعلى الرغم من ذلك، يبدو أن القادة الإباضيين الفعليين قدموا لاحقاً إلى عُمان آتين من مركزهم في البصرة...»

** الملحوظة (ز) * * * * * * * * * * * * * *

دحض «عبد الله بن إباض» في سياق تأكيده على الجوانب الروحية لفلسفة الخوارج ما تتّسم به من تطرّف سياسي، وأدان بشدّة تجاوزاتها التي صاحبت ظهورها، فكان يُنادي بالسهر على الشريعة والأخلاق التي دعا إليها القرآن. وكان القرآن على الجانب النظري أو العملي هو الدستور الذي تقوم عليه الدولة عنده.

واعتبر «عبد الله بن إباض» أن الجهاد هو الركن الخامس للإسلام. أما بالنسبة للمسلمين فكانت أركان الإسلام الخمسة هي الإيمان، والصلاة، والزكاة، والصوم، والحج؛ أما بالنسبة للإباضيين، فقد كان الإيمان مرادفاً للإسلام، وكان ذلك أمراً مفروغاً منه.

كانت عُمان تحت حكم الإباضيين الأوائل حامية عسكرية، وكان الجهاد ذا صبغة هجومية ودفاعية، فكان يتطلب نصيباً كبيراً من إنفاق الدولة. وكان الأمر بمواصلة الجهاد من واجبات الإمام، وكان الدفاع عن الإسلام يشمل تحصين القلاع والحاميات وبناء السفن، وكان الجهاد واجباً دينيًّا ملزماً على كلّ فرد مؤمن.

** الملحوظة (ح) * * * * * * * * * * * * * *

توجد قصة «سعيد بن عبّاد» وأخيه «سليمان» والقائد الأموي في

مخطوطة «كشف الغمة» التي قامت «كلاين» بنشرها. ولمزيد من الروايات عن «سليمان» و«سعيد»، انظر «جي إس بي فريمان-غرينفيل» في كتابه «تاريخ العصور الوسطى لساحل تنجانيقا»، لندن، عام ١٩٦٢، ص ٧٦.

وفي ما يخصّ العصور القديمة لشرق إفريقيا، انظر كتاب «تاريخ شرق إفريقيا» الذي قام بتحريره كلّ من «إيه جي ماثيو» و«آر إيه أوليفر»، المجلد الأول، (أكسفورد، عام ١٩٦٢). وسعى «ماثيو» في الفصل الذي يتناول الساحل، من العصور القديمة حتى عام ١٩٤٨، إلى فكّ الاشتباك الذي تتسم به العناصر العربية التي ساهمت في الهجرة إلى شرق إفريقيا. وكانت «اليمن» و«حضرموت» في يوم من الأيام بأهمّية «عُمان». ويربط «دبليو هيكنز» في كتابه «خبر اللامو» قصة «سليمان» و«سعيد» بتاريخ «لامو»، على الرغم من وجود بعض الصعوبات التي لم يتمّ حلّها. وهناك تاريخ للدولة النبهانية في سبعة آثار سواحلية منقّحة، وتمّ نشر أطولها في كتاب «سي إتش ستيغاند» «أرض الحبشة»، (لندن، عام ١٩١٣). ونجد «جي إس بي فريمان-غرينفيل» قد جمع في كتابه جميع الأدلة المعروفة عن هذه المنطقة، منذ بداية عصور تدوين التاريخ حتى عام ١٤٩٨. وكان أول مؤلف عربي يعرّف «الزنج» بمعنى السود هو «ابن البيطار» (١١٩٧-١٢٤٨). وقد استشهد به «جي فيراند» في كتابه «علاقات رحلات»، المجلد الأول، (باريس، ١٩١٣)، ص ٢٦٩. وكان العبيد شرق الأفريقيين الذين يُساقون إلى مناجم الملح أدنى الفرات، وتمرّدوا ضد الخليفة ما بين ٨٦٩ ـ ٨٨٣، يُعرفون باسم «الزنج» وقائدهم باسم «صاحب الزنج». انظر كتاب فيليب. حتي «تاريخ العرب»، الطبعة السادسة، المجلد الأول، (نيويورك، ١٩٥٦)، ص ٤٦٧ ـ ٤٦٨. أمّا الدكتور «جي. إس. بي. فريمان ـ غرنفيل»، وهو مرجع شرق أفريقي (عمل سابقاً مستشاراً للتعليم لمحميّة «عدن»)، فقد أخبر الكاتب بأنّه لم ينجح أبداً في التحقّق من أيّ دليل يتعلّق بالأشوريين والكلدانيين والميديين

والفينيقيين أو بالإغريق القدماء في شرق أفريقيا. وكتاب «فريمان ـ غرينفيل» «سكّ النقود في شرق أفريقيا قبل الأزمنة البرتغالية»، يسجّل كلّ أشكال النقود المعروفة المكتشفة في المنطقة. أمّا نقود بطليموس، فقد تمّ العثور عليها في جنوب الصومال وأحدها ربّما قرب «دار السلام»، ولا يوجد دليل على اكتشاف أيّة نقود فينيقية.

*** * الملحوظة (ط) * * * * * * * * * * * * ***

«إتش إيه آر جيب»، «ابن بطوطة»، «رحلات في آسيا وإفريقيا» ترجمة «إتش إيه آر جيب» (لندن، عام ١٩٢٩). ويذكر «آريان» عملية إطعام قطعان الماشية على شواطئ الخليج العربي بالسّمك، ويؤكد أن طعمها يشبه طعم السمك. ولا يتكلّف سمك السردين المجفّف في «ظفار» في وقتنا الحالي كثيراً، وتقوم فتيات صغيرات بإطعام السمك للماشية والبقر وهنّ جالسات بجوارها.

وهناك إشارة إلى سمك السردين هذا واستخدامه كعلف للجمال لدى الرحالة الهولندي «بيتر فاندر برويك»، والذي زار «شيهر» عام ١٦١٤، فيقول: «وممّا عجبنا له أن رأينا ذلك السمك الغريب الذي يشبه سمك السردين البرتغالي، وكانوا يستخدمونه ككلأ، وكانوا يصطادون منه كميات كبيرة، وكانوا يجفّفونه ثم يُطعمونه جمالهم..

*** * الملحوظة (ي) * * * * * * * * * * * * ***

«تشاو جو ـ كوا»، «تشو ـ فان ـ تشي»، ترجمه من الصينية «فريدريش هيرث» و«دبليو دبليو روكهيل»، (سانت بطرسبرغ، عام ١٩١١)، ص١٣٣.

يضع هذا العمل النادر عن التجارة الصينية والعربية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر هذا الكاتب في مصاف كتّاب العصور الوسطى الكبار، حول الأثنوغرافيا والتجارة في عصره؛ وهي فترة سبقت بحوالى قرن أيام

الرحّالة العظيم «ماركو بولو». وكان أول نشرٍ كاملٍ لنصّ الكتاب في أوائل القرن الخامس عشر.

*** * الملحوظة (ك) * * * * * * * * * * * * ***

يُقال إن الملك الساساني «أردشير بابكان» (٢١١ ـ ٢٤١ ميلادي)، هو من أسّس مدينة «هرمز». وفي عام ١٠٦٠ تقريباً، أسّس «محمد درهم كو» اليمني أول أسرة حاكمة في «هرمز»، والتي ظلت خاضعة لكرمان حتى عام ١٢٩٩.

وقد سيقت معظم المعلومات التالية من كتاب «محمد الشبنكري» «مجمع الأنساب» الذي نشر في «فارس»، والذي كُتب لأمير مغولي أو تيموري في القرن الرابع عشر أو الخامس عشر، ونشر أخيراً من قبل «جان أوبان»، تحت عنوان «أمراء هرمز» من القرن الثالث عشر حتى القرن الخامس عشر» ـ «Les princes d'Ormuz [Hormuz] du XIIIeme au XVeme siècle». المجلة الآسيوية، المجلد ٢٤١ (١٩٥٣)، ص ٧٧ ـ ١٣٧. وفي ما يتعلق بعُمان و«ظفار»، كتب «أوبان» يقول:

«كان «محمود القلهاتي» رجل مؤسّسة، وقد اعتلى العرش كملك على «هرمز» بالعنف ... وقد جاء اسم «محمود القلهاتي» من مدينة «قلهات»، وهي ميناء في عُمان، جنوب شرق مدينة «مسقط»، وكان حاكماً عليها.

وتولّى «محمود» السلطة بعدما قتل ملك هرمز «شهاب الدين محمود ابن عيسى» عام ٦٤٧ تقريباً، ثم كان طاغية في حكمه بعد ذلك. وقد أدخلت جماعته المسلّحة، التي عملت تحت إمرته، الرعب في الخليج. ويقول «الشبنكري» إنه تمكّن من الاستيلاء على «قيس» و«البحرين» و«القطيف» و«قزوين» و«ظفار». ويضيف «معين الدين ناتنزي»، في كتابه «منتخب التواريخ» (١٦٥١، باريس، المكتبة الوطنية)، «أنه قام بغزو جزر

وسواحل بحر «عُمان» و«قيس» و«البحرين» و«القطيف» من «كامباي» وحتى البصرة.

«...لم تكن مكاسب «محمود القلهاتي»، كما يُخبرنا «فاساف»، على قدر بسالته، فمع أنه قام بغزو «ظفار»، إلّا أنه لقي الهزيمة في «عُمان»، وأُخرج من قيس بالقوة في العام ٦٧١ هجرية (صيف عام ١٢٧٢ ميلادية)، وفي الربيع التالي طُرد من «عُمان» على يد حاكم فارس المغولي «سوهونجاك...».

«ووفقاً لما أورده «حافظي أبرو» فإن «سوهونجاك» لاحق عدوه وصولاً حتى قلهات...». ومن المرجّح أن «محمود القلهاتي» قد مات عام ٦٧٥ أو ٦٨٥ هجرية.

كان ملوك «هرمز» يتمتّعون بالاستقلال، من منتصف القرن الرابع عشر حتى استيلاء البرتغاليين عليها عام ١٥٠٧. وكانت «هرمز»، في الوقت الذي قام فيه «ماركو بولو» برحلتيه (١٢٧٢ و١٢٩٣)، هي ميناء «كرمان» التي تقع في الأراضي الفارسية، فيقول عنها: «كان المكان يبعث على السقم، وحرارة الجوّ لا تُطاق. فإذا مات تاجرٌ أجنبيٌّ فيها، يستولي الملك على جميع أملاكه». وقد روى أبو الفداء: «أن مدينة هرمز القديمة تعرّضت للتدمير على يد التتار، فنقل أهلها مساكنهم إلى جزيرة في البحر». وفي عام ١٣٢١، وجد الراهب «فراير أودوريك» أن «هرمز»: «جزيرة تبعد خمسة أميال عن البرّ الرئيس». وفي عام ١٦٢٧، وجد السير «توماس هربرت» أن هرمز في ذروة روعتها «ببيوتها المزيّنة بالجلود الذهبية، وما أتى من الهند والصين من تحفٍ نادرةٍ».

# * الفصل الثاني *

## الإمبراطورية العُمانية في إفريقيا

*طِفْتُ على تاريخ البشر عصراً بعد عصر*
*فلم أجد فيه سوى تاريخ من الإفك والقتل*
*فلا وباء أو شيطان أتى بنصف شرّ*
*ما يأتي به الإنسان لأخيه الإنسان*

***عن شاعر عربي مجهول***

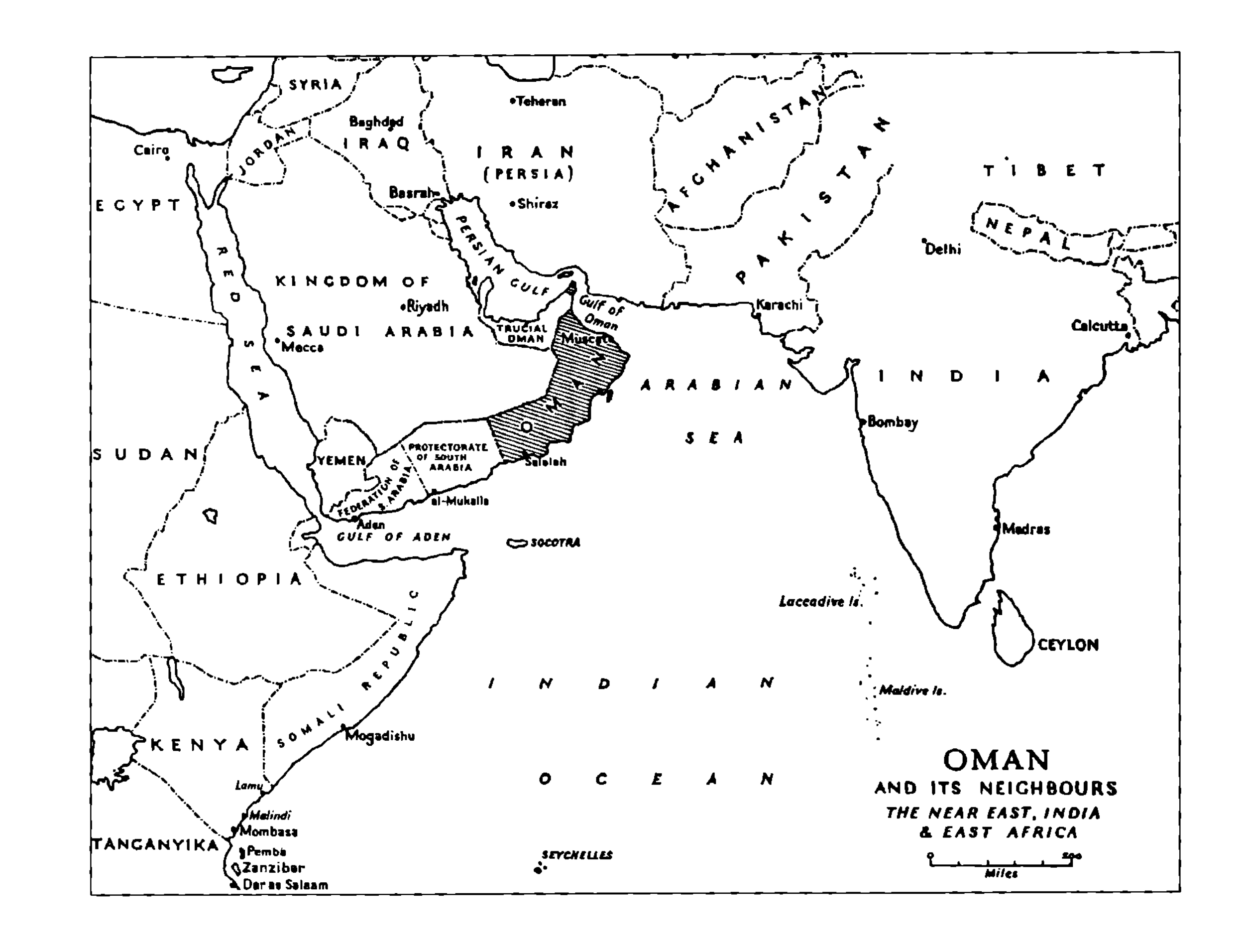
* * * * *

لم يكن من المتوقع أن يكون لعُمان هذا الدور في فتح شرق إفريقيا وبناء حضارة فيها إذا ما وضعنا في الاعتبار فقط حجم «عُمان»[(١)] وعدد سكانها، إلّا أنه ومنذ زمن بعيد، قبل عام ١٢٠٠ ميلادية، تمكّن أمير نبهاني من «عُمان» من الاستقرار في مدينة «بيت»[(٢)] التي تقع على ساحل إفريقيا الشرقي، والتي تتميّز ببيوتها الصخرية. واستقرّ غيره من الأمراء في

---

(١) انظر «أر. بي سرجنت»، «البرتغاليون أمام الساحل الجنوبي من الجزيرة العربية»، (أكسفورد، ١٩٦٣)، ص ٩.

(٢) انظر «أي. وارنر» «Chronicle of Pate» في مجلة الدراسات الأفريقية، المجلد ١٤، (١٩١٤) ص ١٤٨ ـ ١٦١؛ والمجلد ١٥ (١٩١٥)، ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩.


SYRIA
Teheran
Baghdad
IRAQ
IRAN
(PERSIA)
Cairo
JORDAN
AFGHANISTAN
PAKISTAN
TIBET
EGYPT
Basrah
Shiraz
NEPAL
Delhi
RED SEA
PERSIAN GULF
KINGDOM OF
SAUDI ARABIA
Riyadh
Mecca
Gulf of Oman
Karachi
Calcutta
TRUCIAL OMAN
Muscat
OMAN
ARABIAN SEA
INDIA
Bombay
SUDAN
YEMEN
PROTECTORATE OF SOUTH ARABIA
FEDERATION OF S. ARABIA
Salalah
al-Mukalla
Aden
GULF OF ADEN
SOCOTRA
Madras
ETHIOPIA
Laccadive Is.
CEYLON
SOMALI REPUBLIC
INDIAN OCEAN
Maldive Is.
KENYA
Mogadishu
Lamu
Malindi
Mombasa
TANGANYIKA
Pemba
Zanzibar
Dar es Salaam
SEYCHELLES
OMAN
AND ITS NEIGHBOURS
THE NEAR EAST, INDIA
& EAST AFRICA
Miles

مدينة «سوفالا» المشهورة بتجارة الذّهب المزدهرة فيها. ولم يقتصر الأمر على هاتين المدينتين، بل امتدّت أذرع «عُمان» فوصلت إلى مدن مثل «كلوا» و«منبسة» (مومباسا) و«ماليندي» و«مقديشو» و«بمبا» و«زنجبار»، وهي مدن تمتدّ على طول ساحل الزنج، ، أي شرق إفريقيا. ولم يأخذ هذا الانتشار العُماني في ساحل الحبشة شكل «إمبراطورية موحّدة» في ذلك الزمن، إلّا أن نجاح بناة الإمبراطورية العُمانيين في مدّ جذور لهم فيها يرجع إلى قدرتهم على بناء السفن. ووفقاً لما أورده «المسعودي»، كان نجارو السفن العُمانيون من قبيلة «الأزد» معروفين بإتقانهم لصناعة السفن حتى ما قبل القرن العاشر.

ونعتمد إلى حدّ كبير في مصادرنا عن آثار العُمانيين في شرق إفريقيا على الرحّالة العربي «المسعودي»، الذي ولد في نهاية القرن التاسع، والذي قام عام ٩١٥ بأكبر رحلاته البحرية إلى «فارس» و«الهند» و«الصين»، ثم عاد بعد ذلك إلى سواحل إفريقيا الشرقية وإلى «عُمان». ولم يكن استخدام العرب العُمانيين للطرق البحرية إلا بغية استغلال الرياح الموسمية الشمالية الشرقية، فكانت تقف حدودهم جنوباً عند «لورينكو ماركيز» و«قنبلو»، وهي إمّا رأس «مكومبو» في «بمبا»[١] أو «زنجبار»[٢]. ولم يذكر «المسعودي» وصفه لرحلاته في شرق إفريقيا في سياق واحد في كتابه «مروج الذهب ومعادن الجوهر»، بل كان يطوف بذكرها أحياناً في أجزاء كثيرة من كتابه.

وأهل المراكب من العُمانيين يقطعون قناة «بيربيرا» إلى جزيرة «قنبلو» من بحر الزنج، وفي هذه المدينة مسلمون بين الكفار من الزنج.

---

(١) انظر «جي غراي» الذي يستشهد بنصوص «إرنست دمّان» في «تاريخ زنجبار من العصور الوسطى حتى عام ١٨٥٦» (لندن، ١٩٦٢) ص ١٨.

(٢) انظر «جي سكاشت» (J. Schacht) في «Ars Orientalis»، المجلد ٢، (١٩٥٧)، ص ١٦٩.

وقد ركبت أنا هذا البحر من مدينة سنجار (ربما يقصد صحار)، من بلاد «عُمان» -و«سنجار» عاصمة بلاد «عُمان»- مع جماعة من أرباب المراكب العُمانيين. وكان ركوبي فيه أخيراً والأميرُ على «عُمان» يومئذٍ «أحمدُ بن هلال» ابن أخت «القيتال»(١).

ويبدو لنا أن هذه الرحلة البحرية لم يكن فيها ما يميّزها عن غيرها من القصص، ويمكن أن تتضح طبيعة الأمر بصورة أكبر إن استعرضنا قصصاً تتناول المحن التي تواجه الرحّالة في رحلاتهم البحرية. وثمّة قصة، على سبيل المثال، بطلها هو أحد من جابوا غمار البحار يسمّى «إسماعيلاوية السيرافي»، والذي غادر «عُمان» عام ٩٢٢ للذهاب إلى «قنبلو»، فجاءت عاصفة دفعت سفينته، هو ومن معه، إلى الرسوّ على شواطئ «سوفالا» على ساحل الزنج.

«... أخذونا إلى ملكهم، وهو شاب حبشي جميل المحيّا، قوي البنيان ... سمح لنا بالنزول من السفينة والبيع والشراء عندهم، ومنحنا الأمان ... بل إنه صعد مع سبعة من أصحابه على متن السفينة، وعندما رأيتهم حدّثت نفسي قائلاً: إن هذا الرجل -لا مراء- سوف نجني من بيعه ثلاثين ديناراً في سوق «عُمان»، أمّا أصحابه فستّين، ولكن ثيابهم لا يدفع فيها أكثر من عشرين ديناراً. فمنّيت نفسي بأنّ هذه الزمرة ستدرّ علينا ربحاً لا يقلّ عن ثلاثة آلاف درهم دون عناء. وبعد أن أمعنت التفكير في ذلك، أمرت طاقم السفينة فرفعوا أشرعتها وأخرجوا المرساة، فقال: أيها الغرباء .. لقد جئت إليكم بنية صافية لأرسل لكم وداعي، فعاملوني كما يقتضي

---

(١) «جي إس بي فريمان ـ غرينفيل»: «The East African Coast: Select Documents» (أكسفورد، ١٩٦٢). وقد ترجم عن الفرنسية عن مؤلف «سي. بي مينارد» و«بي دي كورثيل»، تحت عنوان: «Les Prairies d'or» (باريس، ١٨٦١)، ص ٢٣١ ـ ٢٣٣.

العدل منكم، واتركوني أعود إلى أرضي. ولكن لم يُعِر أيٌّ منّا انتباهاً لما قال، ولم نلتفت إلى أيٍّ منهم ... فسكت الملك عن الكلام ... وعندما وصلنا «عُمان»، بعنا العبيد وملكهم معهم. وبعد سنوات طوال، وبينما نبحر من «عُمان» ذاهبين إلى «قنبلو» دفعتنا الريح إلى شواطئ «سوفالا» على سواحل الزنج، فوصلنا في المكان نفسه تحديداً ... كنا على يقين من أننا سنهلك هذه المرّة، فتسلّل الرّعب إلى أنفسنا، ودّقت قلوبنا خوفاً ... حاصرنا الحبشيون، وقادونا إلى دار مليكهم، وأجبرونا على الدخول إليه. فما كان منّا إلّا أن رأينا الملك نفسه الذي خبرناه جالساً على عرشه في يوم من الأيام، كما لو أننا تركناه هنا. فركعنا أمامه ولم نقوَ على النهوض. فقال: آها! ها أنتم أولاً أصدقائي القدماء! فلم يستطع أحد منا أن ينبس ببنت شفة. ثم استأنف قائلاً: تعالوا، وانهضوا من أمامي، لقد أعطيتكم الأمان على أنفسكم وبضائعكم ... إلّا أننا أنزلنا بضائعنا وأتيناه نحمل هدية قيّمة. ولكنّه أبى قبولها وقال: لستم أهلاً لي حتى أقبل هدية منكم، ولن ألطّخ ما أملك بهديّة جاءت منكم ... فرددت عليه قائلاً: «أيّها الملك، لقد أغرقتنا بفضلك، ولم نكن شاكرين لك، إلّا أننا نريد أن نعرف كيف هربت راجعاً إلى بلدك.؟»

فقال لنا: بعدما بعتموني في «عُمان»، أخذني من اشتراني إلى بلدة تسمّى «البصرة»، ثم قام بوصفها، وهناك تعلّمت الصلاة والصوم وحفظت نصيباً من القرآن.

[وذكر بعد ذلك زياراته إلى بغداد ومكّة والقاهرة، وأنه سار مع النيل حتى وصل إلى بلاده].

«. . . خرجت ذات ليلة على شاطئ بلادي وسألت امرأة عجوزاً: هل الملك الذي يحكمكم ملك عادل؟ فقالت له: يا بنيّ، لقد حرمنا ملكنا، فلم يبقَ لنا ملك سوى الله. وأخبرتني المرأة الصالحة كيف حرموا ملكهم ... ووجدت أهلي كما تركتهم، سوى أنهم قد ملأهم الحزن والأسى عليّ.

واستمع قومي إلى قصتي، فأثارت لديهم الدهشة وسعدوا بها. واهتدوا إلى الإسلام مثلي ... وإن كنت عفوت عنكم، فذلك لأن الله جعل منكم سبباً في نقاء سريرتي بديني ... أما عن اصطحابكم إلى سفينتكم، فأجد أن هناك ما يمنعني من ذلك. وافترقنا على قوله هذا»[1].

وقد ذكر بعض الرحالة وعلماء الجغرافيا شيئاً عن أهل «عُمان» في شرق إفريقيا، ومنهم عالم الجغرافيا العربي «الإدريسي» (١١٠٠-١١٦٦) الذي قضى النصيب الأكبر من حياته في بلاط الملك «روجر الثاني» ملك صقلية، حيث قام بكتابة مؤلّفه العظيم عن الرحلات والجغرافيا «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق». وقد اعتمد الإدريسي على كثير من الأشخاص والكتّاب الآخرين، فقال لنا في أول ذكر أتى به الغرب عن شرق إفريقيا:

«إن زنوج ساحل شرق أفريقيا لا يملكون سفناً يسافرون على متنها، بل هم يستخدمون مراكب «عُمان» وبلدان أخرى، والتي تبحر إلى جزر الزنج وتعتمد على الهندوس... إنها رحلة تستغرق يومين على طول الساحل إلى «ممبسة»... ويعمل الأهالي في مناجم الحديد ويصطادون النمور، وهم يملكون كلاباً حمراء اللون قادرة على أن تصرع كل أنواع الوحوش بما فيها الأسود[2]».

وجاء بعد ذلك «أبو الفداء» (١٢٧٣-١٣٣١)، وهو من أمراء الدولة الأيوبية، فكتب في مؤلّفه التاريخي والجغرافي الشهير «أن ممبسة تقع على الساحل، وهناك خليج في غربها تمتدّ البيوت على ساحله على مسافة تبلغ

---

(١) فريمان ـ غرنيفيل أورد في كتابه قصة «إسماعيلاوية» بكاملها مترجمة من كتاب «بي أي أي ڤان دير ليث» «كتاب عجائب الهند» (ليدن، ١٨٨٣ ـ ١٨٨٦)، ص ٥٠ ـ ٦٠.

(٢) فريمان ـ غرنيفيل ترجم هذا النص المنقول من كتاب «جي فيراند» «علاقات رحلات ونصوص جغرافية»، المجلد الأول، (باريس، ١٩١٣)، ص ٥٨ ـ ٦٠.

ثلاثمائة ميل»[1]. ولكن تجدر الإشارة هنا إلى أن المعلومات التي ضمّنها «أبو الفداء» في كتابه غير معروفة المصدر.

ويعدّ «ابن بطوطة» (١٣٠٤-١٣٧٧) أعظم الرحّالة المسلمين في العصور الوسطى. وقد زار سواحل شرق إفريقيا عام ١٣٣١، تاركاً لنا وصفاً ناطقاً لمدنها الساحلية:

«فوصلنا إلى جزيرة «ممبسة»، وهي جزيرة كبيرة، بينها وبين أرض السواحيلي مسيرة يومين في البحر ... ومساجدهم من الخشب محكم الإتقان ... فمن أراد دخول المسجد غسل رجليه ودخل. وتكون على بابه قطعة حصير غليظ يمسح بها رجليه ... وبتنا بهذه الجزيرة ليلة، وركبنا البحر إلى مدينة «كُلْوَا» -وضبط اسمها بضم الكاف، وإسكان اللام، وفتح الواو»- وهي مدينة عظيمة ساحلية، وأكثر أهلها من الزنوج المستحكمي السواد ... وذكر لي بعض التجار أن مدينة «سوفالا» على مسيرة نصف شهر من مدينة «كُلْوَا»، وأن بين «سوفالا» و«يوفي» في بلاد «الليميين» مسيرة شهر، ومن «يوفي» يؤتى بالتبر إلى «سوفالا»[2].

وصارت مدينة «كُلْوَا» واحدة من المدن الرئيسة في تجارة وتصدير الذهب في غرب المحيط الهندي. وكان يتمّ استيراد الذهب من «سوفالا» إلى أقاصي الأرض في جزر «روديسيا». وكان إنتاج «سوفالا» -يوماً ما- من الذهب يعادل نصف مليون جنيه إسترليني في السنة.

وقد وصف «المقريزي» زيارته لمكّة في كتاب له مفقود، في نهاية

---

(١) فريمان ـ غرنيفيل، ترجم هذا النص نقلاً عن كتاب «إم رينو» «جغرافيا أبو الفدا» (باريس، ١٨٤٨)، ص ٢٠٦ ـ ٢٠٨.

(٢) فريمان ـ غرينفيل، ترجم هذا النص إلى الإنكليزية من النص العربي الوارد في كتاب «رحلات إبن بطوطة» لصاحبيه «سي. ديفريمري» و«بي. أر. سانغينيتي»، المجلد الثاني، (باريس، ١٨٥٤)، ص ١٧٥ ـ ١٩٦.

عام ١٤٤١، مع صاحب له هو «قاضي لامو»، فقال إن القرود صارت سادة في «ممبسة» منذ عام ثمانمئة بعد الهجرة [١٤٠٢ ميلادية]، فأقلق هذا مضاجع الناس في ديارهم، وبثّ الاضطراب في أسواقهم، بل إن القرود دخلت بيتاً ووجدت فيه امرأة فوطئتها[١].

لم تسقط الهيمنة العُمانية وسلطانها وما جنته من ثروات من شرق إفريقيا على مدار ألف سنة إلا لفترة محدودة عاصرت الاستعمار البرتغالي. ففي بداية القرن الخامس عشر، كانت «جنوة» و«البندقية» هما أكبر المدن الأوروبية التي تقود المنافسة التجارية مع الشرق. وفقدت جنوة قوتها عام ١٤٥٣، مع انهيار الإمبراطورية الرومانية الشرقية، بعد فتح القسطنطينية على يد العثمانيين الأتراك، وبعد تحوّل تجارة التوابل البرتغالية من طريق البحر الأحمر إلى طريق رأس الرجاء الصالح؛ وهو ما أفقد مصر وسوريا ميزتهما كطريق رئيس يربط بين أوروبا والشرق.

وقبل أن يدرك المصريون أهمية الطريق التجاري بالنسبة لهم، وفي السنوات الأخيرة من المملكة النصرانية في أورشليم، بنى الملك العظيم «رينو دي شاتيون» ما يمكن أن نسمّيه السفن الجاهزة في البحر المتوسط، ونقلها، كقطع، عبر عدد من البرازخ حتى وصل إلى خليج العقبة، وجمعها هناك، وأطلقها للهجوم على الحركة الملاحية في البحر الأحمر، وأنزل جنداً في شبه الجزيرة العربية لغزو مكة. وانتهت الحملة بكارثة، ولكن ما يهمّنا هنا، هو أنه لدى عودة الناجين إلى القاهرة كأسرى، أمر «صلاح الدين» بألا يترك أحد منهم حيًّا (حتى لا ينقلوا أخبار الطريق البحري)[٢].

لم يحدث جديد بعد أن أدرك المصريون مخاطر هذه المنافسة.

---

(١) فريمان ـ غرينفيل نقل هذا النّص من كتاب «إم غيلان»، «وثائق حول تاريخ وجغرافيا وتجارة أفريقيا الشرقية»، المجلد الأول، (باريس، ١٨٥٦)، ص ٢٢٩.

(٢) «سي إف بكينغهام» «رحلات بيدرو دا كوفيلها وأهمّيتها»، (لشبونة، ١٩٦١).

ووفقاً لما أورده «سرجنت»[1]، دفع التحالف التجاري الذي أقامته البندقية والدولة المملوكية إلى مطالبة الفاتيكان والحكومة البرتغالية بإصدار أوامرهما إلى جميع النّصارى للكفّ عن الملاحة والتجارة في البحر الأحمر، مهدّدة بقتل جميع النصارى في مصر، وتدمير الضريح المقدس، وهو ما يعدّ قصة تكرّرت على مرّ التاريخ. فمّما لا شكّ فيه أن «هيبالوس» مكتشف الرياح الموسمية في القرن الأول، والتي فتحت البحر الأحمر على مصراعيه لملاك السفن في الإسكندرية، قد حصل على معلوماته من البحارة العرب، الذين احتفظوا بسرّ الرياح الموسمية لأنفسهم لأمد طويل. وقد يبرهن ذلك على أن خوف القدماء من العرب، - ومثلهم القدماء المصريين ولكن بصورة أقلّ حدة - من المنافسة الأوروبية أمر صار عقيدة عندهم. وكان اكتشاف رأس الرجاء الصالح هو القشّة التي قصمت ظهر البعير، فكان بمثابة كارثة اقتصادية على مصر والبندقية التي كانت شريكتها التجارية في أوروبا، إلّا أن الانهيار في النشاط التجاري في البندقية وحرمانها من الملاحة البحرية لم يدم طويلاً، وذلك بسبب عبقرية وحصافة وشجاعة الأمير «إنريك»، الذي يُعرف في كتب التاريخ باسم «الأمير الملاح هنري»، فكان كما يوصف «مستكشفاً مستقرّاً في وطنه». فهذا الشخص الذي ليس له مثيل، والذي أقسم على نفسه بعدم الزواج (وإن كانت له ابنة غير شرعية)، كان يتمتّع بروح توّاقة إلى المغامرة، فكان من أقواله: «لن تجد الخطر رائعاً ما لم يكن الأمل في ثمرته أكثر روعة ... أقدم إلى الأمام، ثم لا تَحُد في رحلتك عن الصراط المستقيم».

ولد الأمير «هنري» في «بورتو»، في الرابع من مارس عام ١٣٩٤، وهو ثالث خمسة أبناء من أب برتغالي وأم إنجليزية. وكان الأب ابناً غير

---

(١) «أر. بي. سرجنت» «البرتغاليون أمام الساحل الجنوبي للجزيرة العربية».

شرعي، واسمه «جون الأول» دوق «آفيز»، وأمه «فيليبا» دوقة «لانكستر»، وهي ابنة «جون» دوق «جاونت». ويتردّد أن «هنري» هو من أسّس المدرسة التاريخية المشهورة للدراسات البحرية في «ساجريس»، وهي أفضل المدارس قاطبة في البرتغال، وهي المكان الذي تلقّى فيها قباطنة سفنه وبحاروه تعاليمه الخاصة بفنّ الإبحار، بالاستعانة بعلم الفلك الذي أخذه عن علماء الرياضيات المسلمين واليهود. ويرجع الفضل إليه في اكتشافاته التي توصّل من خلالها إلى طريق جديد إلى الهند، وما أتبع ذلك من ثروات انهمرت على ملوك البرتغال فزادتهم زهواً بملكهم، فهم من وصفوا أنفسهم -بدءاً من الملك «مانويل»- في غرور وصلف نابعين من السلطة التي يرفلون في نعيمها، بأنهم «ملوك الغزو والملاحة والتجارة في الحبشة والجزيرة العربية وفارس والهند»[١].

ومع بداية عام ١١٤٧، تمكّن البحارة البرتغاليون من تأسيس علاقة تجارية مع إنجلترا وهولندا. وبعد ٣٥١ عاماً، بدأ ابن الثامنة والثلاثين «فاسكو دي غاما» **(الملحوظة أ)**، وهو أحد أعظم كبار المستكشفين، ويأتي في المرتبة الثانية بعد «كولومبوس»، الذي كان معاصراً له، رحلته البحرية التاريخية. سلك «دي غاما» في البداية طريق رأس الرجاء الصالح، الذي سلكه «بارثلوميو دياز» أحد كبار الملّاحين في رحلته، التي قام بها في شتاء عام ١٤٨٧-١٤٨٨[٢]. وقام «دي غاما» بالإبحار مع «بيتر دي ألانكير» مدير دفّة «دياز» بكلّ شجاعة بسفنه الأربع التي تبلغ حمولة كل منها مئة طن، فخاض بحاراً هائجة ليدور حول «رأس العواصف»

---

(١) استخدم هذا اللقب لأول مرّة في ٢٨ أغسطس، عام ١٤٩٩، في رسالة موجّهة إلى الكاردينال «دي جورج داكوستا».

(٢) اليوم، لم يعد يدور أي شك حول هذا التاريخ. (البروفسور «سي. إف. بكينغهام»، مراسلات شخصية).

**(الملحوظة ب)**، والتي سمّاها الملك «جون الثاني» رأس الرجاء الصالح. واكتشف هو ورجاله الذين يتراوح عددهم بين مئة وأربعين ومئة وسبعين رجلاً، [كانوا في قوّة لا غرض لها سوى الاستكشاف، ولم يعد منهم غير خمسة وخمسين أو ستين رجلاً فقط] أن العُمانيين يحتلّون الكثير من المستعمرات، التي تمثّل كلّ منها مدينة مستقلة بنفسها، وذلك على طول الساحل الشرقي لإفريقيا. ولم تكن الصعوبات التي واجهها هؤلاء البحّارة البرتغاليون تقتصر على الرياح أو الطقس وحاجتهم إلى الخرائط والمرشدين، بل كانت هناك صعوبات أخرى نجمت عن جهلهم بطبيعة المكان، والخوف الذي احتلّ قلوبهم تجاهه، وربما كانوا على دراية إلى حدٍّ ما بمؤلّفات علماء الجغرافيا العرب، في العصور الإسلامية الوسطى، التي أتت على ذكر شرق أفريقيا. وكان معظم أولئك العلماء على اقتناع تام، مثلهم مثل «ابن سعيد» عالم الجغرافيا، الذي عاش في القرن الثالث عشر، بأن هناك جبلاً مغناطيسيًّا كبيراً يمتدّ على مسافة مئة ميل في البحر، ويجذب إليه السفن حتى تصبح حطاماً عند سفحه. وكانت العلوم البحرية في تلك الآونة تؤكد أن المسامير الحديدية تنزع من السفن بقوة غامضة، وتطير في الهواء باتجاه هذا الجبل المروّع. وقد أتت حكايات «ألف ليلة وليلة» على ذكر هذا الجبل، كما أن لدينا قصة مشابهة لها في أدبنا الكلاسيكي وهي «رحلات السير جون ماندفيل» (نشرت في لندن عام ١٩٠٠، في الصفحتين ١٠٩ و١١٠)، إذ ورد في هذا الكتاب: «إذا مرت سفينة بالقرب من هذه المستنقعات، وكانت بها سلاسل أو مسامير من الحديد، فلا محالة، سيأتيها الهلاك عن قريب، فحجر «الأدامنت» الذي صنع منه يجذب الحديد إليه». **(الملحوظة ج)**.

ونأتي هنا على نقطة مهمّة تتعلق بطبيعة الاتصالات الأوّلية بين العُمانيين من العرب والمسيحيين البرتغاليين في سواحل شرق إفريقيا.

فنجد أنهما لم يكونا على وفاق يُثمر مستقبلاً ودّياً بين كلا الشعبين. ولدينا رواية مؤكدة عنهما أوردها المؤلف المجهول لكتاب «الرحلة الأولى لفاسكو دي غاما في البحار ١٤٩٧-١٤٩٩». ونعتقد أن هذا المؤلف قد خدم في مركب «فاسكو دي غاما» نفسه، وهو يصف لنا كيف كانت الحال في العاشر من إبريل عام ١٤٩٨، في ميناء «ممبسة»:

«قام القبطان (يقصد دي غاما) باستجواب اثنين من البرابرة (من موزمبيق) كانا على متن السفينة، وذلك بأن صبّ الزيت المغلي على جلودهما، ليعترفا بأية مؤامرة تُحاك ضدنا. فقالا إن الأوامر قد صدرت بأسرنا عند دخولنا الميناء، وذلك للانتقام مما اقترفناه من جرائم في «موزمبيق». وبينما كنا نعذّبهما مرة أخرى، تمكّن أحدهما من القفز في البحر، على الرغم من أن يديه كانتا موثقتين، في حين أن الآخر لحق بصاحبه أثناء نوبة الصباح ... وبعد أن اكتشفنا ما تكنّه لنا هذه الكلاب من حقد، وما يعدّونه لنا من انتقام، لم نغادر السفينة يومي الأربعاء والخميس (الحادي عشر والثاني عشر من إبريل) ... وفي اليوم نفسه (الرابع عشر من إبريل) ومع غروب الشمس، ألقينا المرساة قبالة مكان يدعى «ماليندي» وهي تبعد ثلاثين فرسخاً عن «ممبسة»[(١)]».

وقد زار «الإدريسي» هذه المدينة الكريمة -أي مدينة «ماليندي»- في القرن الثاني عشر، وقال عنها إنها «مدينة تجارية كبيرة، كما أن فيها مناجم غنيّة بمعدن الحديد». ولم يكن الحديد هو مصدر شهرتها الوحيد، بل إن نسائها كنّ من الحسان، وكن يرتدين أسفل خصورهن ملابس من الحرير

---

(١) «ساحل شرق أفريقيا: وثائق مختارة» ص ٥٢ ـ ٥٣. مقتطفات من كتاب «إي. جي. رافنشتين»، «يوميات أول رحلة قام بها فاسكو دي غاما، (جمعية هاكلوين، لندن ١٨٩٨)، ص ٣٢ ـ ٤٦.

والقطن، ويضعن على رؤوسهن الحجاب والأشرطة الذهبية. وتقع المدينة على خليج، وتمتد بطول الساحل. وبيوت أهلها عالية مطليّة بدهان أبيض لا تعلوه أوساخ، وفيها كثير من النوافذ. وينتشر النخيل في أرضهم الخصبة، ويزرعون فيها الذرة والخضراوات. ومكث «دي غاما» وأصحابه في المدينة تسعة أيام (من الخامس عشر حتى الثالث والعشرين من شهر إبريل)، أعدّوا خلالها الولائم، ومارسوا الألعاب القتالية، وعزفوا الموسيقى[١].

وأقام «دي غاما» في «ماليندي» نصباً تذكاريًّا يرمز إلى النفوذ البرتغالي والمسيحية (**الملحوظة د**). كما تمكن البرتغاليون من الحصول على خدمات أكثر علماء المسلمين خبرة بالعلوم البحرية، وهو الدليل العربي العظيم «أحمد ابن ماجد». وكان هذا الملّاح أعلم الناس بالمحيط الهندي في زمنه، كما أنه دوّن كثيراً من سجّلات السفن التي استخدمت على نطاق واسع بين عامي ١٤٦٠ و١٤٩٦[٢]. ووفقاً لما أورده «الحنفي»، في كتابه «البرق اليماني»، فإن البرتغاليين استفادوا منه عن طريق الحيلة من دون أن يكون له النية في ذلك

قد تصحّ هذه المقولة، إلّا أنه على الجانب الآخر، أخبرني «بريان دوي» مدير قسم الآثار في عدن، بعد دراسة مستفيضة لسجلات «أحمد ابن ماجد»، أن العرب أرشدوا البرتغاليين طواعية[٣] منهم. ويقول «جاوا

---

(١) جون ستيفنس، ترجمة لكتاب «مانويل دي فاريا إي سوزا»: «آسيا البرتغالية»، المجلد الأول، الجزء الأول، (لندن ١٦٩٥)، ص ٤٢. «رحلات برتغالية، ١٤٩٨ ـ ١٦٦٣»، نشره تشارلز ديفيد لاي، (لندن ١٩٤٧)، ص ٢٦، وقد أخذ من كتاب «إي. جي. رافنشتين» «يوميات أول رحلة قام بها فاسكو دي غاما».

(٢) المخطوطات الأصلية وعددها ١٩، موجودة في المكتبة الوطنية في باريس. انظر «جي. آر. تيبتس» «الملاحة العربية في البحر الأحمر» «Arab Navigation in the Red Sea». المجلة الجغرافية، المجلد ١٢٧، الجزء ٣، (سبتمبر، ١٩٦١)، ص ٣٢٣ ـ ٣٣٤.

(٣) مصادر خاصّة لدى المؤلف.

دي باروس» في كتاب له نشر عام ١٧٧٨ بعنوان «Extract da Asia» (لشبونة، ١٧٧٨)، إن مرشدهم كان من البربر من قوم «جوزيرات»، وكان يسمّى «ماليمو كانو». ولكن اسم «ماليمو» هذا هو تحريف اللغة البرتغالية للاسم العربي والسواحلي «معلّم». وهناك دليل على أن «أحمد بن ماجد» منح خدماته للبرتغاليين طواعية. ووفقاً لما أورده «فريمان-غرنفيل» (الذي حصل على معلوماته من القبطان «آلان فيليريز») فإن البحارة في مدينة «ماليندي» كانوا يمقتون «أحمد بن ماجد» لأنه أطلع «فاسكو دي غاما» على سبيل الوصول إلى الهند. ثم واصل «دي باروس» روايته فقال:

«... وبعد أن عرض «فاسكو دي غاما» الاسطرلاب الخشبي الذي يملكه والاسطرلاب الحديدي الذي كان يقيس به ارتفاع الشمس في الأفق، لم يُثِر هذا دهشة البرابرة، وقالوا إن بعض مرشدي السفن في البحر الأحمر استخدموا الأدوات النحاسية التي تأخذ شكل المثلث أو المربع في الملاحة، فكانوا يقيسون بها ارتفاع الشمس والنجوم التي كانت ترشدهم ليلاً عند الإبحار». (**الملحوظة هـ**)

كان لنجاح رحلة «دي غاما» التي انتهت عند ميناء «كاليكوت»، ورحلته الثانية التي آذنت بنشوب حرب قاسية، بسبب الغزو الذي قام به البرتغاليون بدعوى حماية المسيحيين وتجارة التوابل، أثر فاجع على الملاحة والتجارة العربية في المحيط الهندي. ويرجع ذلك في جانب كبير منه إلى ميل البرتغاليين للقتال لأسباب اقتصادية بحتة. وسنستعرض في ما يلي مثالاً على سلوك «دي غاما» تجاه العرب بوجه خاص والإسلام بوجه عام. ففي رحلته الثانية باتجاه الهند عام ١٥٠٢، مع أسطول من السفن يبلغ خمسة وعشرين سفينة، قام «دي غاما» بالاستيلاء على مركب، كان خارجاً من ميناء «كاليكوت»، يحمل من مئتين إلى أربعمئة

من الحجاج المتجهين إلى مكّة، فقام بحصار السفينة، وأرسل في طلب قبطانها للمثول أمامه.

قال القبطان العربي لـ«دي غاما»: «يا سيدي، لن تنال شيئاً من قتلنا، فَمُرْ بوضعنا في الأغلال، واحملنا إلى «كاليكوت»، فإن لم يحمّلوا سفنكم بالفلفل والدواء دون مقابل، فلك حرقنا ...» فقال له «دي غاما»: «بل إنك ستحرق حيًّا ... فلا شيء عندكم يمنعني من قتل المئات منكم إن كان بيدي ذلك.» وكتب «كورية» عن ذلك قائلاً: «فوجد أحد البرابرة وهو يسبح رمحاً طافياً على الماء، فأخذه ورشق به قارباً فطعن بحّاراً فقتله، وأنا أجد في روايتي لما حدث أمراً عظيم الشأن». **(الملحوظة و)**.

ومن بين النساء والأطفال الخمسين الذين قام بتعميدهم «دي غاما»، عشرون من صغار الأطفال صاروا في النهاية رهباناً في «بليم»، أما الباقون -باستثناء بربري أحدب الظهر كان مرشداً بحريًّا- فقد أشعلت النيران فيهم في أكثر من موضع من أجسادهم، فعَدُوا وهم يصرخون وينتحبون من الألم طالبين الشفقة، بينما كان «دي غاما» يراقب الأمر من كوّة في السفينة، بلا رحمة ودون أن يختلج قلبه، وهو يمتّع نفسه بمشهد اقترفته يداه.

وتحكي لنا الروايات المعاصرة والشهود العيان عن معاملة البرتغاليين للعرب والأمم الأخرى، سواء أكانوا من شرق إفريقيا أو الهند أو عُمان نفسها، سجلاً طويلاً من القسوة والوحشية التي لا مبرّر لها.

وفي حادثة لا تنسى، لدى عودة «دي غاما» من «كاليكوت»، أرسل ملك «سامورين» أحد علماء الطبقة العليا لديه، وهو يرتدي رداء الرّهبان، فأعطاه «دي غاما» الأمان في الحال، بعد أن كشف عن هويته الحقيقية. وخاطب الرسول «دي غاما» قائلاً: «يا سيدي، لقد ارتديت هذا الزّي حتى لا أساق بعيداً عن السفن وأسلم إليك رسالة كريمة من الملك ...»، فأمر «دي غاما» بعد ذلك القوارب لتسلب ستين مركباً صغيراً وسفينتين من

السفن المحلية، ففعلوا ذلك. «ثم أمرهم القبطان «دي غاما» بقطع أيدي وآذان وأنوف جميع أفراد طواقم هذه السفن والمراكب، ووضعها جميعاً في أحد المراكب الصغيرة، ثم أمر بوضع الراهب في هذا المركب وهو مقطوع الأذنين أو الأنف أو اليدين، ثم أمر بلفّ حبلٍ من سعف النخيل حول رقبته [بعدما حصل على الأمان] وإرساله إلى الملك، وأخبره بأن يعدّ الكاري ليأكل ممّا أحضره له راهبه. ثم أمر بربط أقدام جميع الهنود ببعضها، فكانوا يعجزون عن فكّ أنفسهم لأن أيديهم قد قطعت، ثم أمر بضرب أسنانهم بالهراوات حتى لا يفكّون وثاقهم بها، ثم ذبحوهم ورموهم على متن السفينة فوق بعضهم، وكان الدم ينسال منهم، ثم أمر «دي غاما» بإحضار قطع من القماش والأوراق الجّافة لرميها عليهم وضبط الأشرعة بحيث تتجه صوب الشاطئ وإشعال النيران فيه، وكان في السفينة أكثر من ثمانمئة من البرابرة؛ أما القارب الصغير الذي رمي فيه الراهب ومعه جميع الأيادي والآذان المقطوعة، فقد أرسل إلى الشاطئ دون حرقه مع ما معه من أشلاء».

وأثناء هذه المجزرة، اتّجهت مراكب مليئة بالبربر نحو البرتغاليين فرأوهم وهم يقتلون إخوانهم، وذلك لأن البرتغاليين علّقوا بعضاً من الرجال في المراكب التي أرسلت إلى الشاطئ من أقدامهم، وأمر القبطان برشقهم بالسهام حتى يرى الناس على الشاطئ ما يُصيبهم، وعندما عزموا على القيام بالمثل للبربر المتجهين نحوهم، قالوا إن عليهم تعميدهم ليدخلوا في المسيحية، وصرخوا بذلك ورفعوا أيديهم إلى السماء يبتهلون، فذكر الأمر للقبطان بدافع من الشفقة لدى بعض أصحابه، فأمر رجاله بإخبارهم أن تعميدهم لن يمنعه من قتلهم. فقالوا إنهم لم يتوسلوا للحفاظ على أرواحهم وإنما ليهتدوا للمسيحية. فأمر القبطان أحد القساوسة بتعميدهم ... فرتّل القسّ الصلاة الربانية والسلام

المريمي، فردّدوا وراءه. وعندما انتهوا، قاموا بشنقهم حتى لا يشعروا بألم السهام»[١].

لم يكن هذا حدثاً منفرداً، بل كان يمثّل سياسة عامّة. فقد كانت طبيعة هذا الملّاح والغازي العظيم متمثلة في ما يتّسم به من وحشية سادية، فقد أمر في يوم من الأيام بقطع شفتي أحد الصفوة، الذي أرسل كمبعوث إليه من «سامورين» حاكم «كاليكوت»، حتى ظهرت أسنانه جميعاً، ثم أمر بقطع أذني كلب كان على متن السفينة وخيطتا كأذنين للمبعوث، بدلاً من أذنيه...[٢]»

وقد علّق المؤلف العربي الذي عاش في القرن السادس عشر على أسلوب البرتغاليين في التعامل مع الناس، وهو الشيخ «زين الدين»، والذي أعلن بقوة وصدق في مؤلفه «تحفة المجاهدين» قائلاً: «كم من النساء شريفات الأصل والمحتد أُسرن وسُجنّ بعد أن اعتدي على شرفهن ليلدن أطفالاً من النصارى عادوا دين الله وعُلّموا ظلم العلماء[٣]».

وهناك رواية معاصرة عن الجهود الأولى لتنصير العُمانيين القاطنين في شرق إفريقيا في «كلوا» عام ١٥٠٥، وهي تؤكّد أن تعليق الشيخ لم يَحُد عن الصواب. وكانت «كلوا» في تلك الآونة من أروع مدن المرافئ في العالم، وأوّل من زارها من الأوروبيين هو «بدرو كابرال» مكتشف البرازيل، وذلك عندما وصل إليها عام ١٥٠٠ وهو في طريقه إلى الهند. وروى قصة هذه الرحلة البحرية راوٍ مجهول، فقال إن البيوت في المدينة

---

(١) كاسبار كورية - «Caspar Correa», op. cit; p 329, 331.

(٢) المرجع السابق، ص. ٣٦٣.

(٣) «تحفة المجاهدين» ترجمه إلى الإنكليزية، «إم. جي. رولاندسون» تحت عنوان «Tohfut al-Mujahideen: An oering of Warriors Who Shall fight in defence of religion against Infidels (London, 1833).

كانت عالية كما هو الحال في إسبانيا. وكان في هذه البلاد تجّار أثرياء، وكان فيها الكثير من الذهب والفضة والكهرمان والمسك واللؤلؤ(١). وقد وصل «دي غاما» إليها عام ١٥٠٢، وعندما وجد أن تجارة الذهب كانت حكراً على «كلوا»، حنث بعهد قطعه على نفسه، وأجبر حاكم المدينة على أن يدين بالولاء لملك البرتغال، وأن يدفع له الجزية(٢). وبدأ البرتغاليون يتردّدون بعد ذلك على المدينة في زيارات مهّدت الطريق لوصول نائب الملك البرتغالي «دوم فرانشيسكو دي ألميدا» عام ١٥٠٥.

**وقد قال «جاوا دي باروس» عن ذلك:**

«وحسم الأمر على النّزول إلى اليابسة في اليوم التالي، فقد كنا عشية عيد القديس «جيمس». وقبل الفجر دوّى صوت الطبول مع مقدم «دوم فرانشيسكو». وتجمّع الكلّ، فأجبر كبير الإكليروس على الاستماع إلى اعتراف جماعي، ثم أنعم عليهم بالغفران الكامل، وذلك مع ذبح الثور عن روح من مات دفاعاً عن دينه...

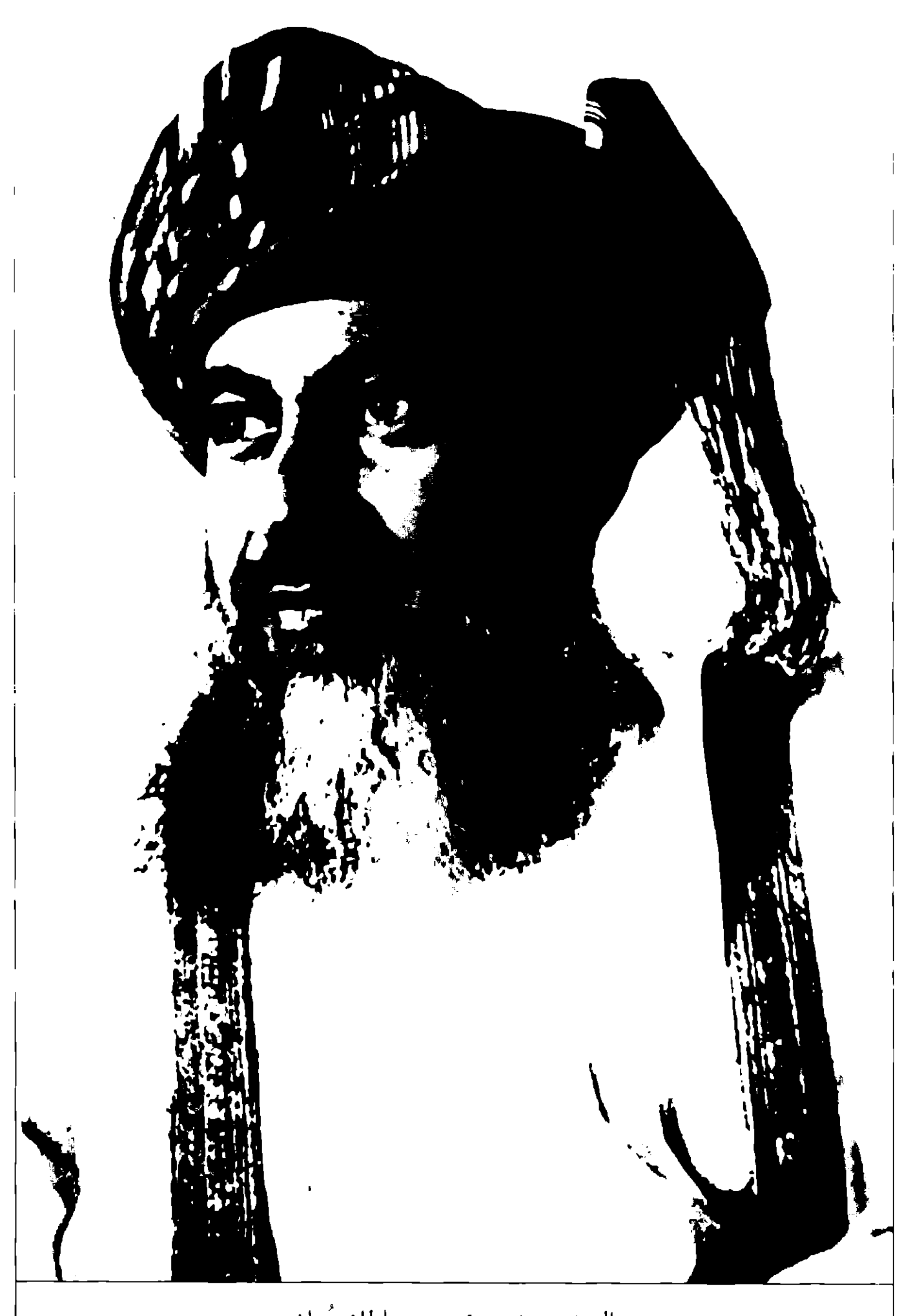
وبمجرّد الاستحواذ على المدينة دون مقاومة، جاء النائب العام وبعض الآباء الفرنسيسكان، وهم يحملون صليبين إلى الشاطئ، وهم يغنّون تسبيحة الشكر. وذهبوا إلى القصر فوُضِعَ الصليب وصلّى النائب العام. ثم بدأ الجميع بعد ذلك في نهب المدينة وسلب جميع البضائع التجارية والإمدادات .(**الملحوظة ز**)

لم يخضع العرب في شرق إفريقيا لهذه المراسم دون نضالٍ بالطّبع.

---

(١) «ساحل شرق أفريقيا: وثائق مختارة»، ص ٦٠. النّص مأخوذ من كتاب «دبليو. بي. غرينلي»، رحلة «بيدرو القاريز كابرال» إلى البرازيل والهند، (جمعية هاكلويت، ١٩٣٨)، ص٥٦ ـ ٥٧، ٦١ ـ ٦٨.

(٢) السير «جون غراي»، «البعثات الدينية البرتغالية الأولى في شرق أفريقيا»، (لندن، ١٩٦٠)، ص ٥.



السيد سعيد بن تيمور، سلطان عُمان

فقد يكون تسرّب إليهم شعور بقلّة الحيلة أمام القوة البرتغالية وفقدوا الأمل في الحصول على العون من الجزيرة العربية، بعدما انقطعت الصلات بينهم في هذه الفترة، إلّا أنّهم كانوا في تحالفٍ مع قوات مصر البحرية، وآخر سلاطين الدولة المملوكية «قانصوه الغوري» (١٥٠٠-١٥١٦)، فشنّوا حرباً متقطعة على البرتغاليين في المحيط الهندي. وفي عام ١٥٠٤، عانى الأسطول المصري من هزيمة نكراء، وهو إن نجح في الثأر بقتل «لورانزو دي ألميدا» في معركة بحرية عام ١٥٠٩، إلّا أن ذلك الأسطول اصطدم مع الدوق «فرانشيسكو دي ألميدا»، حاكم « جوا»، فدُمّر الأسطول البحري المصري، ما وضع بذلك نهاية لقوة الدولة المملوكية في البحر[١]. وظلّ الوضع على ما هو عليه عام ١٥١٥، وكان جليًّا أن البرتغاليين لديهم القدرة على التعامل مع أيّة قوة بحرية تقاومهم في هذه المياه.

في الثالث عشر من أغسطس عام ١٥١٥، وصل «دي ألميدا» إلى «ممبسة»، وكانت مكاناً ذا روعةٍ وجمالٍ في ذلك الوقت. وكانت بيوتها مرتفعة ومبنية من الحجارة والملاط، وهي تصطفّ في الشوارع بالنمط الذي عليه بيوت «كلوا»، وذلك حسب وصف «ديوارت باربوسا»، الذي كان وكيلاً تجاريًّا في «كانانور»، وقام بوضع كتابه بين عام ١٥١٧ و١٥١٨، ويصف فيه جميع الأماكن التي نزل فيها البرتغاليون في المحيط الهندي والشرق الأقصى[٢]. وجاء «دي ألميدا» بصحبة أسطول مكوّن من إحدى عشرة سفينة كبيرة وثلاث سفن صغيرة، فشنّ هجوماً في فجر يوم عيد رفع مريم العذراء إلى السماء، مما أدى إلى النتائج التي سنذكرها في ما يلي، وذلك كما وصفه ملك «ممبسة» المهزوم في خطاب أرسله إلى جاره ملك «ماليندي»:

«السلام عليك يا سيد «علي»! أنبئك خبراً بأن ملكاً عظيماً دخل الديار

---

(١) «أي. إس. عطية»: «حرب صليبية، تجارة وثقافة» (بلومينغتون، ١٩٦٢)، ص ٢٠٣.

(٢) يوجد وصف لـ «ممبسة» في أوائل القرن السادس عشر في «كتاب ديوارث باربوسا»، منشورات «إم. إل. ديمز»، (جمعية هاكلويت، لندن، ١٩١٨).

وأحرق الزرع وتركها خراباً. لقد جاء بقوةٍ لا حدّ لها وقسوة بلغت أقصاها، فلم يترك وراءه رجلاً ولا امرأة، أو عجوزاً أو شاباً، بل لم يرحم الطفل الصغير، وقد طالت يداه أولئك الذين فرّوا من جام غضبه. ولم يكتفِ بقتل الرجال، فقتل الطيور في السماء. وقد فاحت رائحة الموتى في المدينة فمنعتني من دخولها، وأعجز عن الوقوف على تقدير ما سلبوا من ثروات المدينة، وأبعث إليك هذه الأخبار الحزينة حتى تلزم الحذر[١]».

بعد مرور عامين على ذلك، أمر هذا «الإنساني» «دي ألميدا» نفسه، والذي أصبح الآن نائباً للملك على الهند، بقذف السجناء من فوّهات المدافع أمام «كنانور»، محيّياً المدينة بأشلائهم. وفي غضون ثماني سنوات على وصولهم، أصبح البرتغاليون «الحضاريون» مسيطرين فعلياً على الأجزاء الإستراتيجية من ساحل شرق أفريقيا (**الملحوظة حـ**) جنوب خط الإستواء، وكذلك على باقي الأجزاء بالترهيب؛ وهكذا بلغت البرتغال ذروتها الدموية في عصرها الذهبي القصير الأجل. كانت سياستها الوقحة المعتمدة على الغزو المدمّر، والهيمنة والإحتكار الكلي، مدمّرة بالنسبة لبعض المستعمرات العربية التي انهارت، بعد أن حُرم مواطنوها من سبل رزقهم كوسطاء تجاريين، وانطفأت، وكأن لعنة حلّت بها. وبهذا، فإن تاريخ «كلوا»، «كلو كيزيواني» التي تأسّست عام ٩٥٧ ميلادية، كمركز تجاري عُماني، لتصبح «شعلة الحضارة في ليل الهمجية» قد انتهى، ولم يكن للبرتغاليين من لمسة غير القتل. وقد كتب أحد مؤرّخي «كلوا» يقول: «الذين يعرفون الحقيقة، يؤكّدون على أنهم [يقصد البرتغاليين] كانوا فاسدين وغير شرفاء، إنما قدموا ليستكشفوا الأرض بهدف الإستيلاء عليها»[٢].

وضعفت بعض المستعمرات العُمانية الأخرى، مثل «زنجبار»

(١) فريمان - غرينفيل، «ساحل شرق أفريقيا: وثائق مختارة»، ص ١١١.

(٢) فريمان - غرينفيل «الساحل، ١٨٤٠ - ١٤٩٨»، تاريخ شرق أفريقيا، ص ١٣٤. انظر =

و«بمبا» في الشمال، ولكنها تمكّنت من البقاء في هذه الفترة الرئيسة من الاضمحلال السياسي، لتعيش مرة أخرى عزّتها ومجدها في تاريخ «عُمان».

ولم تكن المستعمرات العُمانية وحدها التي عانت من بطش البرتغاليين؛ فإذا كان «دي ألميدا» قد أنزل العذاب على العرب في شرق إفريقيا، فإن «ألفونسو ألبوكيرك» كان أكثر دموية ووحشية منه، عندما عذّب أهل المدن العُمانية بالعقارب. ففي عام ١٥٠٧، وبعد تسع سنوات من استكشافات «دي غاما» العسكرية، وخلال حكم الإمام «محمد بن إسماعيل» في «عُمان»، قام هذا الأميرال البرتغالي بإمطار ميناء ومدينة «عُمان» «مسقط» بقذائف ستّ بارجات حربية، فدمّرها عن بكرة أبيها. «كان مكاناً يمتاز عن غيره بما كان فيه من بيوت ومساجد حسنة المنظر، وكان ميناؤه مليئاً بالسفن». وبينما كانت قوارب «ألبوكيرك» على الساحل تخوض المياه، «بدأ إطلاق كثيف ومفاجئ لمدفع المدينة باتجاه سفننا، فانسحبت سريعاً، دون معرفة السبب في ذلك التحوّل. وبعد أن أدركوا الأمر بفترة، قام ملك «هرمز» بإرسال ألفين من الرجال [كان الخطّ الساحلي لعُمان على مدار قرنين يخضع لملك هرمز] للدفاع عن المكان [مسقط]، فوصلوا «مسقط»، ورفض الضباط الدخول في مفاوضات السلام [التي سبق لحاكم عُمان الدخول فيها، وكان يأمل في إنقاذ «مسقط» من الهزيمة]. ولم يتسبّب مدفع المدينة الذي كان يتمّ تشغيله بصورة تنمّ عن الذكاء في إلحاق ضرر يذكر بألبوكيرك، فأمر بنزول الرجال من السّفن في بداية اليوم، وهاجم المدينة ببسالة وحالفه الحظ، فكلمّا دخل رجالنا من بوابة، هرب البرابرة من بوابةٍ أخرى». **(الملحوظة ط)**.

كان «ألبوكيرك» هو العقل المدبّر لسيطرة الغرب على الشرق إنْ صحّ

= أيضاً كتاب «إس أي سترونغ» «تاريخ كلوا العربي»، في مجلة «الجمعية الآسيوية الملكية»، ١٨٩٥، ص ٣٨٥ ـ ٤٣٠.



ألفونسو دي ألبوكيرك



نادر شاه

هذا التعبير. ويرسم لنا عالم التاريخ البرتغالي المعروف، الذي عاش في القرن السابع عشر، «مانويل دي فاريا إي سوسا»، الصورة التالية التي تصف لنا «ألبوكيرك»: «كان متوسط القامة، جميل المحيّا، شديد بياض الوجه والجسم، ذا لحيةٍ طويلةٍ تضفي عليه وقاراً». وجاء هذا على خلاف ما وصفه القباطنة المتمرّدون، فقالوا عنه إنه «رجل صعب المراس، سريع الغضب، ولا يعبأ بكرامة رجاله».

أُرِّخَت أول زيارة قام بها «ألبوكيرك» إلى المحيط الهندي عام ١٥٠٣. وقد شرع في ذلك الوقت بتشييد ميناء في بلدة «كوشين». وأقرب الروايات صحةً لما حدث هو ما جاء في «تعليقات ألفونسو دي ألبوكيرك العظيم» في صفحات ٧٣ و٧٨ و٧٩ و٨١ و٨٢، وذلك على الترتيب الذي قرّره ابنه «براز دي ألبوكيرك»، بجمعه هذه التعليقات، معتمداً فيها على رسالات أبيه إلى الملك «دوم إيمانويل» (يُذكر هنا أنه دعى نفسه باسم «ألفونسو» بعد وفاة أبيه):

«بنى العمانيون سوراً أمام المدينة بعرض عشرةٍ من أشجار النخيل وارتفاع عشرين منها، ثم وضعوا عليه طبقة من الطّين، فصار منيعاً. وانتهى السور من الجانبين على سلسلتين شاهقتين من الجبال تمتدّان حتى البحر، فاستحال المكان بأكمله حصيناً منيعاً علينا ... فشنّ «ألبوكيرك» هجومه على السور بضراوةٍ وعنفٍ، وكان المدّ عالياً حينها، فكان على رجالنا الهبوط إلى اليابسة عند أسفل السور، فشرع الحراس في إطلاق سهامهم وإمطارنا بالصّخور من أعلى، فواجه رجالنا صعوبة في الهبوط على اليابسة...».

«ثمّ شكّل الجميع كتيبةً واحدةً وزحفوا للهجوم عليهم، إلّا أن الشوارع كانت شديدة الضيق، وأصاب الإرهاق الرجال لطول الطريق وهم يحملون أسلحتهم. ودفعهم حماسهم إلى المرور من أمام بعضهم البعض، فاختلط الأمر عليهم واضطربوا، فسنحت الفرصة للمدافعين، فأصابوا الكثير منّا بسهامهم».

«وترك «أنطونيو دو كامبو» «ألفونسو دي ألبوكيرك» الذي كان بصحبته ليلحق بجماعة من النساء وهنّ في طريقهن إلى التلال هرباً من المعركة، فقتل عدداً كبيراً منهن، ومثله فعل «جوا دا نوفا» ... فقتل الكثير من النساء والأطفال ... فلم يترك منهم أحداً، فقتل عدداً كبيراً منهم ... وكان من بينهم خَصِيّ، والذي كان يحكم البلد تحت إمرة ملك [هرمز] ... وفي النهاية، وضع «ألفونسو دي ألبوكيرك» جميع البرابرة ونساءهم وأطفالهم، ممن وجدوا في البيوت، وأعمل فيهم السيف دون رحمة أو هوادة ... وعندما عاد «ألفونسو دي ألبوكيرك»، هو ورجاله جميعاً إلى الضفة، للصعود إلى سفنهم، هبط أحد البرابرة من الجبال يحمل علماً أبيض، فأتاه دون أن يمسّه أذىً، وتوسّل إليه بلسان الحكام أن يكتفي بقتل زوجاتهم وأطفالهم، وألا يحرق ديارهم وسفنهم. فردّ عليه «ألفونسو دي ألبوكيرك» قائلاً إنه يرثي لما حدث لهذه المدينة الكريمة، ولكنه ألقى اللوم عليهم، لأنهم نكثوا العهد الذي قطعوه على أنفسهم باعتمادهم على القوم الذين أتوا إليهم من حدودهم الداخلية، فلا حقّ لهم في مطالبته بشيء، ولكن إذا أرادوا افتداء ديارهم وسفنهم ومواردهم وأن تظلّ كما هي، فعليهم أن يرسلوا إليه ظهر غد عشرة آلاف قطعة من الذهب[١] . . . وعندما تجاوز الوقت الساعة المحدّدة أمر بحرق المدينة، فاحترق عدد كبير من المؤن وجميع سفن المدينة البالغ عددها أربعاً وثلاثين سفينة، منها الكبير ومنها الصغير، وكان أكثرها من المراكب ذات الصواري الثلاثة. كما احترقت ترسانة مليئة بتجهيزات صناعة السفن. ثم أمر ثلاثة من المدفعية بقطع السبل إلى المسجد، الذي كان صرحاً مهيباً، بُني معظمه من الخشب المنحوت

---

(١) «جي ستاندس»: «البرتغاليون في شرق افريقيا» (١٨٩٩)، الترجمة الإنجليزية (١٩٦٠) تقدم جداول بأسعار تحويل العملات البرتغالية في القرن السادس عشر.

بدقة، وكان سقفه من الجصّ ... ووجد الرجال أن معهم عدداً كبيراً من البرابرة [أي العُمانيين] من الرجال والنساء كأسرى لديهم، ولم يَدُرْ بخلدهم أن يكون لديهم مثلهم أو حاجتهم إليهم، فلم يكن بإمكانهم اصطحابهم معهم في طريق عودتهم، فأمر «دي ألبوكيرك» بقطع آذانهم وأنوفهم ثم إطلاق سراحهم».

عانى العُمانيون الذين يسكنون المدينة المنكوبة «مسقط»، طوال حكم البرتغاليين، وتسلّل اليأس إلى قلوبهم لما كانوا يتعرّضون له من ابتزازٍ مارسه عليهم نائب الملك البرتغالي في «هرمز» «دييغو دي ميلو»، فثار المواطنون عليه عام ١٥٢٦، ولكن ثورتهم سُحقت تحت ضربات «لوبو فاس»، الذي أتى على رأس خمسةٍ من السفن وثلاثمئة من الجنود. ولا شك في أن تفوّق البرتغاليين بالمدفعية أتاح لهم أن تكون لهم اليد العليا على العرب. وعلى مدار ربع قرن، خضعت المدينة للبرتغاليين دون أن تسعى خلالها إلى استعادة حرّيتها. ولكن كانت «مصر» مرّة أخرى -وهي تحت الحكم العثماني- السبيل لإنقاذهم.

في عام ١٥٥٠، خرج الأسطول العثماني في مصر من «السويس» لتحرير «مسقط»، وكان يضمّ ثلاثين قادسة وسفينة شراعية، تحمل جيشاً، قيل إنه يبلغ ستة عشر ألف رجل. وكان على رأس هذا الجيش «بيري ريس» باشا، ويحتمل أنه مسيحي أوروبي المولد، وقد قال فيه «فيليب حتي(١)»:

«كان هذا القبطان العظيم أول رسّام للخرائط في الدولة العثمانية. وقد أعدّ دليلاً لرحلاته في البحر وخريطتين، إحداهما تمثّل رسماً تخطيطيًّا لسواحل البحر المتوسط، وقد أعطاها للسلطان «سليم»، والأخرى اعتمد فيها على الخرائط التي استخدمها «كولومبوس»، وتصف المحيط الأطلنطي والسواحل الأميركية والسواحل الغربية لكلٍّ من أوروبا

(١) فيليب حتّي، «الشرق الأدنى في التاريخ، (برنستون، ١)، ص ٤٧٠.

وإفريقيا. وكُتبت أسماء الأماكن في الخريطة على النّسق الإيطالي، وهو ما يكشف مصدر المعلومات. وكان من الواضح أن إنجازات «بيري رايس» الجغرافية ظلّت طيّ الكتمان في القصر الإمبراطوري، فلم يتمّ الكشف عن محتويات مكتبته إلا بعد عام ١٩٢٩».

وقد تمكّن الباشا من الاستيلاء على «مسقط» عام ١٥٥١، بعد شهر من الحصار. وربما كانت معاناة العُمانيين على يد محرّريهم بقدر ما عانوا على يد الطغاة الذين سبقوهم، إلّا أنه يبدو أن «بيري ريس» حاول التركيز على الأهداف العسكرية، «وظلّ يقصف الحصن لثمانية عشر يوماً، فانتصر على القائد «جوا دا ليسبوا» ودفعه إلى الاستسلام، وإن تعهّد له بالإبقاء على حياته. وبعد أن دخل «بيربك» [بيري ريس باشا] الحصن أمر بنقل جميع البنادق إلى سفنه، ثم تركها فارغة، ثم أمر بوضع القائد وستين من رجاله في الأغلال، وأجبرهم على العمل الشاق في سفنه»[(١)].

وعلى الرغم من عفوه عن الحامية البرتغالية بأكملها -الذي جاء كشرط للاستسلام الفوري- أعمل الأتراك القتل في العليل والمصاب منهم.

وقطع رأس «بيري» باشا (المعروف أيضاً باسم «بيري بك») في السنة التالية بأوامر من الباب العالي، لتجاوزه ما جاءه من أوامر، حيث كان هدفه الذي وضعه نصب عينيه، وخطؤه في الوقت نفسه، هو تجميع أكبر قدر من الثروات لنفسه، وليس لصالح الأغراض العسكرية الخاصة بالإمبراطورية العثمانية.

وبعد سنتين، تمكّن البرتغاليون تحت قيادة القائد العام «دييغو دي نورونها» من تثبيت أقدامهم مرة أخرى، بمحاصرتهم الأسطول التركي

---

(١) «إف. سي. دنفرز»، «البرتغاليون في الهند»، المجلد الأول، (لندن، ١٨٩٤)، ص ٤٩٧.

الذي يقوده «مراد باشا»، والذي كان يتألّف من خمسين قادسة، وذلك في قتال دامٍ شمال «مسقط».

ووقع النزاع الأخير بين الأتراك والبرتغاليين على السيطرة على «عُمان» في السنة التالية، بالقرب من جزيرة صخرية في «بحر العرب»، تبعد عن «مسقط» عدّة أميال. واستمرّت هذه المعركة الدموية العنيفة لاثنتي عشرة ساعة، فهزم «سيدي علي بن حسين»، الذي خدم تحت إمرة القبطان «بارباروسا» ذات يوم، عندما فقد ستةً من السفن التركية، بعد أن اقتحمها البرتغاليون وأسروها بعد قتالٍ بين الجنود، ثم قاموا بحرقها. وعرفت الجزيرة بعد ذلك باسم «جزيرة النصر» لدى البرتغاليين. وظلّ البرتغاليون ينعمون بلذة نصرهم لربع قرن آخر. ولكن مع نهاية شهر أغسطس من عام ١٥٨٠، أبحر أحد الأتراك وهو «مير علي بك» -الذي كان أحد الضبّاط البارزين لدى الأميرال التركي «حسن بارباروسا»، أو «حسن ذو اللحية الحمراء»- بطول الساحل العربي من «عدن»، على رأس أربعةٍ من السفن الشراعية الرديئة بعد تجهيزها في «موكا».

ووفقاً لما أورده «مانويل فاريا إي سوسا»، فإنّ هذه الحملة العسكرية قد أرسلت بأمر من حاكم «اليمن»، الذي يقيم في مدينة «صنعاء»، ويسمّى «مير أزنام» [سنان] باشا (وقد ولد لأبوين مسيحيين) «وذلك للاستيلاء على «مسقط»، بعد أن علم من البرابرة، الذين يعيشون فيها، أن في المدينة كثيراً من الثروات، ولم تجهّز بأيّة دفاعات»[1]، فأتت ريحٌ عاصفةٌ أغرقت إحدى السفن، وهي مليئة بالعبيد المصفّدين إلى مقاعدهم. فتجنّب «مير علي بك» القتال في «رأس الحدّ»، فاستسلمت القوات البرتغالية، وأهل المدينة في «مسقط» للنوم، غير مدركين لعواقب إهمالهم الوشيكة الحدوث. وفي الثاني والعشرين من شهر سبتمبر عام ١٥٨١ أُسقط في

---

(١) «جي ستيفنس»، «آسيا البرتغالية، المجلد ٢، الجزء ٢، ص ٣٧٠ ـ ٣٧١.

أيديهم عندما تعرّضوا لهجوم مشترك من البحر، حيث قامت السفن بإمطار المدينة بوابلٍ من قذائف مدافعها بشراسة، ومن البرّ عبر خليج «سيداب»، ثم عبر الممر الضيّق المؤدّي إلى «مسقط».

**دعنا نصف على نحوٍ ما هذا الموقف الذي تتعرّض له المدينة:**

قم ببسط يدك اليمنى بحيث تكون الرّاحة لأسفل، ثم قم بمدّ إصبع الإبهام بعيداً عن السبّابة، ثم افصل السبّابة عن إصبع الوسطى، ولكن لا تبعد الإصبعين الآخرين؛ فالمسافة التي تقع بين «الوسطى» و«السبّابة» هي خليج يسمى «سيبو» [سيداب]، وهو يتجه إلى أعلى، كما هو واضح في وضع اليد. أما المسافة التي تقع بين الإبهام والسبّابة فهي خليجٌ آخر، ليس بالعمق نفسه لخليج «سيبو» [سيداب]، وقد بُنيت المدينة على سواحله وتحيط بها سلسلتان من الجبال، تمتدّ واحدة منهما عند خليج «سيبو» [سيداب] إلى جانب ذلك الجزء حيث الأصابع الثلاثة المضمومة إلى بعضها، ولا يوجد فيه سوى ممرّ واحد ضيّق يؤدّي إلى «مسقط»، ولا يمكن لرجلين المرور فيه جنباً إلى جنب. ودخل «علي بك» المدينة من هذا الطريق، ولم يكن أحد ليتخيّل أن يقوم بذلك[(١)]، لأنه كان بمقدور أربعة رجال مجهّزين بمدفع واحد أن يحفظوا هذا الممرّ ضد أيّ هجوم.

وكان لتلهّف العبيد والدهماء على مدّ يد العون دورٌ في انتهاء المعركة بعد أربعٍ وعشرين ساعة فقط (وفقاً لما أورده «دييغو دو كوتو» «فقد أحرقوا خلالها الكنيسة وقتلوا الكلاب والقطط والخنازير)، ثم قاموا بجمع الغنائم ونقلها إلى سفن «علي» بك الثلاث، وتوجّهوا بها إلى «عدن»، فكان غرضه جمع الغنائم، وليس طرد البرتغاليين. ولكن خلال السنوات القليلة التالية، ظهر «مير علي بك» في صورة المدافع عن المظلومين والمقهورين، وتمكّن وهو على رأس أسطول من خمس

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٧١ ـ ٣٧٢.

سفن من الانتصار في صراعاته مع البرتغاليين في أعلى وأدنى سواحل شرق إفريقيا، وتعهّد بأن يحرّر مناطق الملاحة من استعباد النصارى لها.

لم تقتصر معاناة العُمانيين في شرق إفريقيا عند قمع البرتغاليين أو نشاطات التحرير التركية الدعائية، وكأنّ هذا لم يكن كافياً بالنسبة لهم، فصاروا يعانون أيضاً من أهل القارة نفسها. ففي عام ١٥٨٧، قامت قبيلة «زيمبا» -وهي من القبائل المقاتلة من «البانتو»، آكلي لحوم البشر- بتدمير المستعمرات القائمة في «كلوا»، وذلك قبل غزو جزيرة «كلوا» نفسها. وقد كتب «صامويل برتشاس»(١) عام ١٦٢٥عن هذا قائلاً:

«كانت هناك قبيلة «إيمبي» [زيمبا]، وهم كالوحوش البربرية الشيطانية، يعيشون في مكانٍ ليس بعيداً عن رأس الرجاء الصالح ... ويأكلون لحوم من يأسرون من أعدائهم ومن بني جلدتهم. وإن مرض أحدهم يسارعون في موته. ويستخدمون جماجم الرجال كآنية للشرب. وسلاحهم هو الأسهم المسمومة، ودروعهم صغيرة تصنع من الخشب، مكسوة بطبقة من الجلد».

وتقول بعض الروايات، إن قبيلة «زيمبا» جاءت من الشرق من «أنغولا» أو «الكونغو»، ودمّرت كلّ ما اعترض طريقها، وأعملت القتل في أيّ كائنٍ حيٍّ واجهها، ثم أكلته. وممّا لا شك فيه أنهم تلقوا العون من خائنٍ في الجانب العربي. ويُقال إنه أحد العرب الذين يعيشون في مدينة «كلوا». ويُقال إن الطموح والطمع قد دفعاه للذهاب إلى معسكر قبيلة «زيمبا»، فاصطحبوه إلى شيخ قبيلتهم، وقال له: «أيها القائد العظيم .. لقد جئت إليكم أقدم ولائي وأدين بطاعتي ... ولديّ أمل أن أكون دليلكم إلى الجزيرة فآخذكم عبر الطريق الذي جئت منه ... وذلك

---

(١) وفقاً لفريمان ـ غرينفيل، «ساحل شرق أفريقيا: وثائق مختارة»، ص ١٤٦. ربما أخذ مادته من كتاب «الحبشة الشرقية» لـ «جواو دوس سانتوس» الصادر عام ١٦٠٩.

شريطة أن تقسموا الغنيمة معي ...». وأوفى العربي بعهده معهم، فدخلوا المدينة وجميع أهلها نائمين، فأعملوا فيهم الذبح والقتل، وتركوا بعض الأسرى ليأكلوهم بعدما تنفد مؤونتهم من جثث القتلى. ويُقال إنهم أكلوا وحدهم ثلاثة آلافٍ من العُمانيين، من الرجال والنساء. ثم جُمعت الغنيمة، وأرسل سيد القبيلة إلى العربي الخائن وعائلته، وخاطبه بهذه الكلمات: « لا أجد عندي رغبة أو يرضيني أن أترك شخصاً سقيم الضمير مثلك يعيش بين ظهرانينا، فلا ندّ لقسوة ما جئت به، أتسلّم بلادك وإخوانك إلى أعدائهم في سبيل مصلحتك الشخصية». ثم توجه بالكلام إلى قومه، فقال لهم: «خذوا هذا الرجل الملعون وعشيرته، فاربطوا أيديهم وأرجلهم وألقوهم في البحر ليأكلهم السمك ... فأنا أخاف أن تأكلوهم لأنّ لحمهم بالتأكيد سيكون مسموماً».

وكانت قبيلة «زيمبا» كالجراد الذي لا يذر ولا يخلّف وراءه شيئاً، فشرعت في التهام كل ما واجهها أثناء تحرّكها البطيء نحو الشمال، مخلّفة وراءها رائحة الموت وآثار الدمار والخراب. ومضت سنتان حتى عرفت القبيلة طريقها إلى جزيرة «ممبسة» التعيسة، فوجدوا العرب يختبئون وراء أسوارها، وقد شدّ أزرهم وجود «مير علي بك» ورجاله من الأتراك بين ظهرانيهم، إلّا أن القبيلة الوحشية لم تلبث أن تحرّكت بآلاف من أهلها، فرصدت تحرّكات البرتغاليين، ثم انقضوا على السفن التركية فقضوا عليها واستولوا على المدينة. وبعد أسبوع من ذلك، سمح القائد البرتغالي «توم دا سوزي كوتنيهو» لهؤلاء الهمج برشق الجزيرة برماحهم، في حادثة هي أشنع ما تعرّضت له «ممبسة» في تاريخها الكالح.

وبعد أن فتكت قبيلة «زيمبا» بممبسة، لم تشبع رغبة القتل لديهم، فشنّوا هجوماً على مدينة «ماليندي» العُمانية حليفة البرتغال، ونجحوا في اختراق أسوار المدينة، بالرغم من وجود حامية أوروبية تتألف من ثلاثين رجلاً. ولم يوقف من تقدّمها إلا مقاومة قبيلة أخرى تتبع الأسلوب نفسه في

حروبها، كانت قد أبقت على أواصر الصداقة بينها وبين «ماليندي»، وهي قبيلة «واسيجي-جو» (**الملحوظة ي**). فهُزمت قبيلة «زيمبا»، ولم ينجُ منها سوى مئة فقط من أهلها. واختفت القبيلة، منذ ذلك الحين، من سواحل شرق إفريقيا والتاريخ. ورأى السير «جون غراي» أن معركة «ماليندي» تعدّ إحدى المعارك الفاصلة في التاريخ الإفريقي.

ومع نهاية القرن السادس عشر، كانت البرتغال هي القوّة الأوروبية الأبرز في الخليج العربي؛ إلّا أن «هولندا» و«إنجلترا» زاحمتا نفوذها في المحيط. ثم وهنت قواها لضعف جبهتها الداخلية، نتيجة لإلحاقها بإسبانيا طوال ستين عاماً. ومع نهاية هذا القرن، كان من الجلي أن ظهور أيّ قائد عربي يحظى بالقدر الكافي من القوة في هذه الفترة سيمكّن العُمانيين من ترسيخ ملكهم. وكان المستقبل يخبّئ لهم هذا الرجل وهو الإمام «ناصر بن مرشد».

كان الإباضيون يختارون أئمتهم على مدار تسعة قرون وفق ما يتّسمون به من فضائل شخصية، وما يحظون به من احترام الجميع، وذلك بغضّ النظر عن أصله ونسبه. ولم يختلف الأمر منذ تولّي «جلندة بن مسعود» الإمامة عام ٧٥١ ميلادية حتى تولّي «ناصر بن مرشد اليَعْرُبي» لها عام ١٦٢٠. وكان من مقتضيات الإمامة عند الإباضيين أن يكون الإمام رجلاً بالغاً، يخلو من العيوب أو الإصابات الجسدية. وقد اختير الأئمة من عائلات مختلفة تنحدر من قبيلة «الأزد»، التي كانت لها الغلبة في «عُمان»، فحظيت بعظيم الأثر على مجريات اختيار الإمام. وكان يحق للإمام تفويض سلطته إلى خليفة له شريطة ألا يكون ابناً أو أباً له. ولم يحدث أن انتقلت الإمامة بالوراثة إلا مرّة واحدة خلال فترة القرون التسعة.

وكان قبول «ناصر بن مرشد» إماماً للإباضية عام ١٦٢٠ بمثابة إيذان بتعديل المبدأ الأساسي الذي قام عليه انتخاب الإمام، وذلك بغضّ النظر عن نسبه وأصله؛ وذلك لأنه بعد وفاة «ناصر»، تمّ انتخاب الإمام، إلّا أنه

كان هناك ميل شديد لدى القوم بأن يخلفه أحد أبنائه -ليس بالضرورة أن يكون أكبرهم- وذلك دوناً عن باقي أفراد أسرته. ومن ثمَّ، أصبح «ناصر بن مرشد» هو أول الأئمّة من سلالة اليعاربة (بنو يَعْرُب)، وتمكّن عام ١٦٢٠ من إخراج البرتغاليين من «عُمان» باستثناء القلاع والحصون التي توجد في «مسقط» و«مطرح» و«صحار»، وقهر النّصارى والمشركين وشرار الأرض، وأخرج المتآمرين من جحورهم وكسر شوكتهم، وتغلّب على قادتهم، وأطاح بثورتهم، وأهلك طغاتهم وظالميهم. لقد أعطاه الله الغلبة عليهم، وأعانه عليهم، وأمدّه بنصره، وأغدق عليه بمدده من حيث لا يحتسب، فرفع راية الإسلام خفّاقةً عاليةً.

ولم يبقَ في ظلّ سلطان هذا الإمام «الإباضيّ العادل» سوى قلّة من النصارى احتموا بحصون وأسوار «مسقط»، بعدما أخذ على عاتقه شنّ الحرب عليهم، فازدادوا ضعفاً بعد ضعف، ووقعت الكآبة في نفوسهم، فانكسرت شوكتهم، وتفرّقت عصبتهم، وكان القتل والموت على مشارف أبوابهم.

وقيل إنه أثناء ولاية هذا الإمام، التي اتّسمت بالدموية والوحشية للحروب التي خاضها طوال ستة وعشرين عاماً حتى «لحق بجنّة ربه»، لم يمت عُماني مهما كبر شأنه أو صغر ميتةً «طبيعيةً»، وهو أمر مشكوكٌ في صحّته، لما فيه من مبالغةٍ صريحةٍ. ويورد الكاتب «جورج برسي بادجر» في مقدّمة كتابه «**تاريخ الأئمة والسادات في عُمان**»، والذي استشهدنا به في الفقرة السابقة، أن اليعاربة أول من استقرّ في «عُمان»، بعد رحيلهم عن «اليمن» «مثلهم مثل الأزديين، يرجع نسبهم إلى قحطان، ولكنّهم ينحدرون من فرع أكثر قدماً من هذا «النّسب». وينتمي من تبقّى منهم في عصرنا الحاضر إلى الحزب الغافري، ويعيشون حياة عزلة وفقر مدقع ولا يُلقى إليهم أيّ بال، وذلك بعد أن سلبت دولة «ألبوسعيد» ممتلكاتهم في القرن التّاسع عشر.

وقد وصف «توماس كريدج»، في خطابٍ أرسله إلى «شركة الهند الشرقية» عام ١٦٢٤، «مسقط» بأنها «مدينة تعيش في فقرٍ مدقع»، وذلك على الرغم من أنّه، وبعد مرور ستين عاماً، قدّر الحاكم العسكري البرتغالي قيمة ما يجنيه من المدينة بخمسين ألف «دوكاتيه» في السنة؛ بل إنه في عام ١٦٤٩، أصدر ملك البرتغال أوامره إلى قواته ببذل ما في وسعهم من جهودٍ حتى تظلّ «مسقط» تحت أيديهم؛ إلّا أنه لم يتبقَّ من قواته إلّا ثمانية عشر برتغاليًّا تعهّدوا بختن أنفسهم والارتداد عن المسيحية واعتناق الإسلام في السنة التّالية، وذلك بعدما تمكّن «سعيد بن خليفة» من الاستيلاء على حصن «ميراني»، بعد حصار دام شهرين ونصف الشهر. وقد ضرب الطاعون «مسقط» (فكان معدّل الوفيات خمسين شخصاً في اليوم) فأصيب به الإمام «سلطان بن سيف الأوّل» (ابن عم الإمام «ناصر» الذي مات قبله بسنة)، وهو ما أثمر عن انتهاء تاريخ مأساوي للاستعمار البرتغالي في «عُمان» (**الملحوظة ك**).

ومازالت قصّة القائد البرتغالي «بريرا» تُروى حتى يومنا هذا. فقد ارتكب هذا القائد خطأً كلّفه حياته، عندما حاول أن يجبر فتاة هندوسية محلّية «من عبدة الأبقار» على الزواج منه، مرّة بالإلحاح وأخرى بالتهديد والعقاب. وكان أبوها الذي يسمّى «ناروتم»، من كبار التّجار في «مسقط» وكان أحد العاملين لدى القوات البرتغالية؛ ورغم رفض الوالد لهذه الزيجة، فقد تظاهر بالقبول وكتب إلى القائد أنه أعدّ لاحتفالٍ مهيبٍ يليق بهذا الحدث الجلل، واقترح عليه تنظيف صهاريج المياه الفاسدة وملئها بماء نقي، والتخلّص من المؤن التي أصابها العفن والدود، ومن البارود القذر، وإحضار غيره. امتثل القائد التوّاق الذي أعماه الحبّ، معتقداً أن هذا الهندوسي العجوز يسعى إلى الحصول على حصّة من نفقات الحكومة، بأن تشتري منه مؤنها ومستلزماتها. وعندما حانت اللحظة، خلا أهمّ الحصون من متطلّباته الأساسية، فهاجم عرب «عُمان» أسوار

المدينة في صباح يوم أحدٍ من شهر مارس، وذلك بعد أن أعلمهم «ناروتم» بأنّهم لن يواجهوا مقاومة من البرتغاليين، سوى من بعض السّكارى العاجزين عن إطلاق النيران أو استخدام بنادقهم إلا بصورة متخبّطة». وبعد قتالٍ بالسيوف والبنادق، كفّ الجنود في الحصنين الرئيسين «الميراني» و«الجلالي» عن المقاومة، ثم قتلوا جميعاً. وغلبت الفرحة «ناروتم» لبلوغه منزلةً لا تُدانيها منزلةٌ عند الإمام. وكان ممن سقط في هذه المعركة المحارب الشهير «كابريتا» برماح العُمانيين. ووفقاً لما رواه أحد المؤرّخين المسلمين المعاصرين، والذي عاصر هذه الأحداث، وهو «حامد بن محمد بن رازق»، وكانت كنيته «سليل بن رازق»، «فإن الله خلّص المسلمين من شروره وممن كان معه من المشركين». ويقول هذا المؤرخ إنه قد حصل على هذه المعلومات من أكثر من رجلٍ من المعمّرين، من أهل الثقة «والذين عاشوا في زمن الإمام سلطان بن سيف بن مالك اليَعْرُبي ...». وقد أورد ابن رازق ذلك في كتابه «تاريخ الأئمة والسادات في عُمان»، إلّا أن «إيه سي روس»، وهو أحد المعاصرين لـ«سليل» ومؤلف كتاب «تاريخ عُمان»، فيقول إن «سليل» مات في «مسقط» عام ١٨٧٣، في حين أن الأحداث التي سجّلها المؤرخ وقعت في حوالى عام ١٦٥٠. ومن الجدير بالذكر هنا، أنّ ثمّة قصصاً أخرى تروي لنا نهايات مختلفة للبرتغاليين في «عُمان» **(الملحوظة ل)**. ولكن ما يهمّنا هنا أن جميع هذه القصص تخبرنا في النهاية أن واحدةً من أكثر مظاهر الطغيان قسوة ووحشية في تاريخ العالم قد انتهت بعد مئة وخمسين عاماً عاشت خلالها عُمان في تعاسة وشقاء متواصلين.

وقد نقل عالم التاريخ «مانويل دي فاريا إي سوسا» هذا الرأي عن أبناء بلده، فقال:

«كنا في شؤوننا نتغاضى عن العظام منها في سبيل ما حقر شأنه، فكان جنوح قادتنا إلى صغائر الأمور هو ما أنساهم بلادهم وشرفهم ...

يمكن للبرتغاليين استعادة ما ضاع من بين أيديهم، ولكنّهم يجهلون سبل الحفاظ على ما نالوه، وهو ما يأتي بنا إلى الجانب المشرق من هذا الواقع؛ فما تناله هو من صنع القدر، ولكنّ الحفاظ عليه هو من صنعك أنت». (**الملحوظة م**)

وهناك رواية أخرى في كتاب القبطان «ألكسندر هاميلتون» «تاريخ جديد لجزر الهند الشرقية» يروي فيها سقوط «مسقط»، وقد وصف «بادجر» هذه الرواية بأنّها -على الأرجح- إحدى الحكايات الملفّقة. ولكنّي أعتقد أنّ هذه الرواية نقلت عن شاهدٍ عيانٍ، وينبغي الأخذ بها على محمل الجدّ، وذلك لأنّ «هاميلتون» أبحر بنفسه إلى ميناء «مسقط». وفي ما يخصّ أحداث عام ١٦٥٠ المثيرة، نعلم أن «ملك المقاطعة»، (ويقصد هنا حاكم «عُمان» التي كانت آنذاك في حالة حرب مع بلاد «فارس»)، بعث برسالة إلى حاكم «مسقط» البرتغالي يطلب فيها السماح لأسواقه بشراء المؤن، فأرسل الحاكم في تصرّفٍ وقح ... قطعة من لحم الخنزير ملفوفة بالورق كهديةٍ إلى ملك «عُمان»، ظناً منه أنه بمأمنٍ وراء أسوار مدينته (أي مسقط) ... فشعر جيش «عُمان» بأكمله بالغضب الشديد لهذه الإهانة، وبدأ يعدّ العدّة للانتقام؛ بل إنّ الملكة «التي كان يملؤها غضبٌ شديدٌ» لامت الملك على عدم استيائه من هذه الإهانة وأقسمت بجدّها النبي محمد ﷺ، أنها لن تقرب فراشه حتى ينتزع «مسقط» من البرتغاليين.

وحاصرهم البرتغاليون من حصونهم التي تقع على الجبال، مطلقين عليهم وابلاً من القذائف الكبيرة والصغيرة، ولكن العرب لم يُولّوا أدبارهم، أو يلقوا بالاً لقتلاهم، فتسلّقوا الأسوار فوق جثث ضحاياهم. . . وفقد العرب في هجومهم على المدينة ما بين أربعة آلاف وخمسة آلافٍ من أفضل جنودهم، وقلّ عدد البرتغاليين في حصونهم إلى ستين أو سبعين رجلاً ... أمّا من كانوا في الحصون الصغيرة فقد قتلوا بالسيف، إلا من تعهّد منهم بالختان وترك المسيحية حفاظاً على حياته.

أمّا من كانوا في حصن «ميراني» الكبير، فقد تمكّنوا من الصمود لستة أشهر، حتى ضربتهم الفاقة والتعب، وانقطعت بهم جميع الآمال، فانتهى بهم الأمر إلى الإستسلام، فقام الحاكم -الذي كان السبب في هذه الكارثة التي حاقت بهم- بالقفز من فوق جرف يطلّ على البّحر، وكانت المياه تحته ضحلة فتحطّم جسده على الصّخور ... وقد حصلت على هذه الرواية من رجل طاعنٍ في السن، كان شاهد عيان عليها، وكان أحد الجنود الذين اشتركوا في المعركة. وقدّر هذا الرجل عمره بمئة عام، ولا يمكن أن يقلّ عمره عن ذلك وفقاً لهذه الرواية[١].

وتتمثّل أهمّية رواية «هاملتون»، التي يقبلها العقل والمنطق، في أن خبراته التي خاضها في جميع أنحاء الشرق (١٦٨٨-١٧٢٣)، قد ظهرت معالمها بغزارة، وذلك إذا ما وضعنا في أذهاننا أنّه من النادر أن نقرأ عملاً معاصراً يتناول جغرافية آسيا أو تاريخها طوال هذه الفترة الكبيرة، ويحتوي على هذا الكمّ الهائل من المراجع التي احتواها كتابه البارز، «فهو بوجه عام نموذج مدهش للمغامر البريطاني، وهو في أمثل حالاته، فهو يتمتّع بالدّهاء والبراعة ورباطة الجأش، ويستغلّ ما يُتاح له من فرص بلا تسرّع أو انفعال، ويستمتع بحياته المليئة بالاحتمالات الغنيّة»[٢].

وقد انصرف انتباه الإمام «سلطان بن سيف الأول»، أثناء حكمه إلى إفريقيا[٣]، إلى طرد البرتغاليين من جميع الموانئ التي تقع شمال قناة موزمبيق، ممّا جعل «عُمان» هي العامل الفاصل في شؤون شرق إفريقيا.

---

(١) الكسندر هاملتون، «تاريخ جديد لجزر الهند الشرقية (١٧٢٧)». أُعيد نشره من قبل السير «وليام فوستر»، المجلد الأول، (جمعية هاكلويت، لندن ١٩٣٠)، ص ٤٣ - ٤٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٧.

(٣) انظر «دبليو. إف. أوين» «قصة رحلات لإستكشاف سواحل أفريقيا وشبه الجزيرة العربية ومدغشقر»، المجلد الأول، (لندن، ١٨٣٣)، ص ٤٢٢.

وفي هذه الآونة، ضعف السواحيليون الذين كانوا خاضعين لسيطرة البرتغاليين، فسادت بينهم شريعة الغاب والبقاء للأقوى.

ويطلعنا كتاب «تاريخ ممبسة» السواحيلي، الذي نجهل مصدره، على أن أهل المدينة حاكوا خطّة للذهاب إلى «عُمان» ومناشدة الإمام «سلطان بن سيف الأول»، وهو يقول: «وعندما دخلوا عليه، اشتكوا إليه من استيلاء البرتغاليين على تجارة الحديد واضطهادهم لهم وما يرتكبونه من شرور في «ممبسة»[1]».

وربما كان من تداعيات هذه الزيارة، أو بعض الزيارات الأخرى المشابهة، أنه في عام ١٦٥٢، قامت أعدادٌ من المراكب العُمانية بالهجوم على «زنجبار»، وقامت بسلب المستعمرة البرتغالية، وقتلت عدداً من البرتغاليين. كما قاموا بتدمير الكنيسة وأخذوا فيمن أخذوا من الأسرى القسّ «مانويل دي نازارث»، وقتلوه في ما بعد، عندما أبى أن ينكر دينه، وتحوّل ولاء «الملكة» وابنها «ملك» «أتوندوي» في الأرض المواجهة لزنجبار إلى حاكم «عُمان» ودفعوا له الجزية **(الملحوظة ن).**

وعلى الرغم من اتساع رقعة شرق إفريقيا، فلم يخلّف بناة الإمبراطورية البرتغالية فيها أيّ تأثير اجتماعي أو اقتصادي أو سياسي، ولم يبقَ من هذه الإمبراطورية سوى الحصون والقلاع المنيعة، إلى جانب كره الأفارقة والعرب ومقتهم للبرتغاليين، الذين لم يتجاوز عددهم - على الإطلاق- في أيّ مكانٍ ٩٠٠ رجل[2].

---

(١) «تاريخ ممبسة»، (١٨٢٤)، لمؤلف مجهول، نقل عنه بعض النصوص «جي. إس. بي. فريمان ـ غرينفيل»، في كتابه «ساحل شرق أفريقيا: وثائق مختارة»، ص ٢١٣.

(٢) «جي. إم. غراي، «وصف ريزندي لشرق أفريقيا في عام ١٦٣٤»، «ملاحظات وسجلات تنجانيقا»، رقم ٢٣، (١٩٤٧)، ص ٢ ـ ٢٨.

**وقد عقب «ديفيد ليفينغستون» على ذلك بكلماته التالية:**

«كان الفنّ الوحيد الذي تعلّمته شعوب إفريقيا، بعد أربعة أعوام من الاحتكاك بالبرتغاليين هو فن إزهاق الأرواح بالبنادق، كما أن العقيدة الوحيدة والدائمة التي استقرّت في وجدانهم «بفضل» البرتغاليين هي أن الإنسان قد يبيع أخاه الإنسان»[1].

ويصف لنا «آزورارا» الأحداث التالية التي عاصر حدوثها، وسجّل فيها النشاطات الوحشيّة التي قامت بها إحدى الشخصيات المسيحية البرتغالية، وهو يدعى «لانزاروت»، حيث ترك عبيده العراة عُزّلاً يواجهون مصيرهم المحتوم:

«فعُلّقوا من رؤوسهم، وسالت دموعهم على خدودهم؛ ورفع البعض منهم أعينهم إلى السماء والنحيب يقطع أنفاسهم، وضرب آخرون وجوههم مرة أخرى بقبضات أيديهم، وألقوا بأنفسهم على الأرض وافترشوها، وبدأ البعض الآخر بالتّرنيم بأغانٍ حزينة من وطنهم» **(الملحوظة س).**

بعدما مات «سلطان بن سيف الأول»[2] عام ١٦٧٠ تقريباً، خلفه ابنه «بلعرب» في الإمامة، ودخل في إثرها في صراعات مع أخيه «سيف بن سلطان الأول». واشتعلت المعارك الدموية بين الأخوين فزادت من خبث طوّيتهما وعداوتهما؛ فأطلق على «بلعرب» لقب «الجزار»، في حين لُقّب أخوه بـ«السوط». وتمنّى «بلعرب» الموت في النهاية، فاستجاب الله له ومات على الفور، وذلك أثناء حصار أخيه لحصن «جبرين».

---

(١) ديفيد ليفنغستون، «رحلة استكشافية إلى زامبيزي وروافده»، (لندن، ١٨٦٥)، ص ٢٤٠.

(٢) إن تاريخ وفاة الإمام «سلطان بن سيف الأول» هو موضع اختلاف كبير: «روس» يحدّده بعام ١٦٨٠، و«غييوم» يعتقد عام ١٦٦٨ أو ١٦٦٩، فيما يؤكّد «بادجر» على عام ١٦٦٨.

وبعد أن اطمأنّ «سيف بن سلطان الأول» إلى إحكام قبضته على الإمامة، أصبح أعظم أئمة الدولة «اليعرُبية» في «عُمان». وقد لقب بـ«قيد الأرض»، في إشارة مبالغة لقبضته على العالم. وعاد الرخاء إلى «عُمان» في عصر هذا الإمام، الذي جمع بين طموحه وسعيه إلى المجد، وحبّه للثروة، فكان في سعيه إلى تحقيق أهدافه، لا يحيد عنها قيد أنملة، وإن كان في الوقت ذاته بارعاً يملؤه الحماس. قام الإمام «سيف» بإرسال قوّة بحرية إلى «ممبسة»، بطلبٍ من أهلها، الذين دخل اليأس قلوبهم بسبب طغيان الحكّام البرتغاليين. وتألّفت هذه القوة من سبع بارجات، وعشرة من المراكب الشراعية، وما يقرب من ثلاثة آلاف من العُمانيين والمرتزقة والرّقيق الزنوج، فحاصروا «حصن يسوع» (الذي أنشئ عام ١٥٩٣) لثلاثة وثلاثين شهراً (من الثالث عشر من شهر مارس عام ١٦٩٦، وحتى الثاني عشر أو الثالث عشر من شهر ديسمبر عام ١٦٩٨)، وذلك قبل أن ينتهي ثبات وجلد آخر من تبقّى من المدافعين عن المدينة، بعد أن ضربها وباء لا شفاء منه. ولم يتبقَّ، من بين ألفين وخمسمئة رجل وامرأة وطفل، كانوا يعيشون في الحصن، سوى ثلاثة من الهنود وامرأتين من الأفارقة، وثمانية جنود من البرتغاليين وجدهم المحاصِرون؛ وقد قُتل هؤلاء الجنود وهم يُقاتلون[١].

ومن غير الإنصاف أن نقول، إنّه لم يكن لدى البرتغاليين أيّ حلفاء وأصدقاء في إفريقيا. فلم تُقدم جميع الحكومات الإفريقية على إدانة حكمهم هناك كما فعل مؤلّف هذا الكتاب الماثل بين يديك. وقد رأى السير «جون غراي» أن فيه بعض الخير، فقال وهو يتناول حصار «قلعة يسوع»: «كان «بوانا داود بن بوانا شيخ» أمير «فازة» يدين بالولاء التّام

---

(١) انظر «جي سترانـدس» «Die Portugiesenzeit von Deutsch - und - English Ostafrica». وكذلك داتيسواري «Chronista da Tissuary»، المجلد المجدل ٣، ص ٣ ـ ١٠.

للبرتغاليين. ولا يمكننا أن نعزي مثل هذا الولاء إلى حبّه لهم فقط، فلا بدّ أن جانباً منه كان ثمرة للجهود التي بذلها الآباء الأغسطينيون ... الذين عملوا في هذه الأماكن، وحاولوا أن يكونوا النموذج الأمثل لسلوك المسيحيّ الحقّ[1]. وعلاوة على ذلك، يقول «مانويل دي فاريا إي سوسا» الذي استشهدنا بعمله في بعض ما سبق، إن ملكة «زنجبار» «فاطمة بنت يوسف» أرسلت سفناً إلى البرتغاليين لدعمهم. وتمّ ترحيلها بعد ذلك من «عُمان» لعدم وفائها للقضية العُمانية، وظلت سجينة في «مسقط» لعشر سنوات تقريباً[2]. ولم يمضِ على سقوط «ممبسة» فترة طويلة حتى انتزعت «بمبا» و«كلوا» من النصارى، فقُتل منهم من قُتل، وطُرد بعضهم، وسُلبت أموالهم وأملاكهم التي توجد في شمال موزمبيق، والتي جنوها بطرقهم الملتوية.

**ونُورد في ما يأتي هاتين الرسالتين المتبادلتين اللتين تحظيان بشهرة كبيرة في تاريخ «عُمان»:**

«من رجلٍ يؤمن بالمسيح [وهو أحد القادة البرتغاليين] إلى الإمام «سيف بن سلطان [الأول] اليَعْرُبي» «قيد الأرض».

الحمد لله خالق السموات والأرض. يا من تفصل بين عبيدك على اختلافهم بالحق فلتعلم أننا ضيوف الرّبّ، وقد خلقنا بغضبه، ووهبنا السلطة على من ينزل عليه غضبه، فلا نشفق على من شكا أو نعطف على من بكى، فقد نزع الرّبّ الرحمة من قلوبنا، وويل لمن لا يدين لنا بالطاعة. قد أهلكنا قبلكم مدناً وأبدنا شعوباً، وكشفنا الغطاء عن فساد

---

(١) السير جون غراي «البعثات الدينية البرتغالية الأولى في شرق أفريقيا» ص ٢٦ ـ ٢٨.

(٢) انظر «مانويل دي فاريا إي سوسا» في «Asia Portuguesa» المجلد ٢، الجزء ٤، الفصل ١٢؛ وكذلك «جي. ستراندس»، المرجع المذكور أعلاه، ص ٢٢٩، ٢٤٩، ٢٦١، ٢٧٥، ٢٧٦.

الأرض. إن كانت شروطنا لاقت لديكم القبول، ففي هذا منفعتكم لا نحن، وإن رفضتموها ودأبتم على ظلمكم، فلن تمنعنا عنكم حصونكم أو تحميكم منّا جيوشكم، فأنتم قد أكلتم ثمرة الشيطان فشتت جمعكم. . فتمتعوا اليوم في ذُلّكم ورعبكم، فإنّكم لا تلقون إلا جزاء ما اقترفتموه. وخضوعكم لنا إنما لأنكم من غير النصارى وأنكم لدينا يقيناً شرار الأرض، فإنّ قلوبنا كالحجر وأعدادنا كذرّات الرمال، ونعدّ كثرتكم قلّة، وقوتكم ضعفاً، ونحن لا مراء سنحكم العالم من شرقه إلى غربه. قد أرسلنا إليكم هذه الرسالة، فأسرعوا بالرّد، قبل أن تنزع عنكم حمايتكم، ولن يبقى لكم شيء. نرسل لكم هذا البيان، ومع تحياتنا».

**فكان ردّ الإمام «سيف بن سلطان الأول اليعربي» عليه في ما يلي:**

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ * وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ * وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ * وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ * بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. إن هذه الرّسالة [أي التي تلقاها سيف] التي تعلن فيها أن الله نزع الرحمة من قلوبكم، قد قرأتها. وإنّ ما قمت به لأقبح ذنب أتيتموه، بل هو أكثرها سوءاً. لقد نزل قولكم «أنتم [أيها المسلمون] من غير النصارى» منزل السبّ والإهانة، «ألا إن لعنة الله على الكافرين». و«إنّ من يحملون الأصل لا شأن لهم بالفروع». إننا نحن المؤمنون حقاً، ولن تعصمنا عيوبنا عنكم، ولن ترتجف قلوبنا خوفاً أو شكّاً. لقد نزل القرآن علينا، فكان رحمةً لنا. إن جيادنا لأهلٌ للحرب على الأرض وفي البحر، وعزيمتنا شامخة مهيبة. فإن قتلناكم كان خيراً، وإن قتلتمونا، فليس بيننا وبين الفردوس سوى هنيهة، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾. لقد قلت «إن قلوبنا كالجبال [الكلمة في الأصل هي كالحجر في الرسالة التي بعثت لسيف] وأعدادنا كذرّات الرمال». إن الجزّار لا تعنيه كثرة الخراف والماعز، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، وإننا على تحمّل الجلد لقادرون، فإن عشنا فرحنا، وإن متنا كنّا شهداء، ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾. لذلك قلّ

لسيدك [وهو يخاطب الرسول أمامه] إنه حتى لو رصّع رسالته بالجواهر، واعتنى بما يكتبه، فإنّ هذا الخطاب في أثره كما لو كان ما يخلفه صرير الباب أو طنين الذباب. «إنا سنكتب ما يقولون»، وليس لدينا ما يُقال عدا أنّ الجياد سوف تنزل فيكم الرعب، وأن النار هي التي ستفضح الرعديد، بينما نضرب بسيوفنا الأعناق. سلامٌ على من اتّبع الهدى، ولتخافوا عاقبة ما تفعلون من هلاك. أطيعوا مالك الملك واختاروا الآخرة بدلاً من الحياة الدنيا. وسلام على أفضل الرجال محمد ﷺ» **(الملحوظة ع)**.

كان «سيف» يمتلك عند وفاته في «الرستاق» عام ١٧١١-١٧١٢ سبعمئة من العبيد وعدداً كبيراً من الإماء، هذا فضلاً عن ثمانٍ وعشرين سفينة، وثلث نخيل «عُمان» بأسرها. وقد عيّن هذا الإمام ابنه الأكبر الذي حمل اسم جده «سلطان بن سيف» خليفةً له. وقد هاجم هذا القائد البحرين عام ١٧١٧، واستولى عليها من الفرس. وزرع الإمام الجديد الخوف والرعب في قلوب الناس، فلم يجرؤ أحدٌ على معارضته. ووفقاً لما أورده «ألكسندر هاملتون»، فقد كان لدى «سيف» في هذه الفترة -أي عام ١٧١٥ تقريباً - قوّة بحريّة لا يُستهان بها؛ فكانت لديه سفينة تحتوي على أربعةٍ وسبعين مدفعاً، وسفينتين بكلٍّ منهما خمسون مدفعاً، وثماني عشرة سفينة صغيرة أخرى، تحتوي كلّ منها على ثمانية مدافع. وقد حافظ الإمام بهذه القوّة على سيطرته على الساحل، من أول رأس «كورمورين» حتى «البحر الأحمر». وكان الإمام يستخدم أسطوله أيضاً في غزو المستعمرات البرتغالية على الساحل الهندي، فكان يهدّم قراهم دون أن يمسّ الكنائس فيها بسوء. ويقول «هاملتون» إن العُمانيين لم يسبق لهم أن قتلوا رجلاً بدمٍ باردٍ كما فعل أعداؤهم، وكانوا يستعملون أسراهم برحمة[١].

(١) القائد الكسندر هاملتون «تاريخ جديد لجزر الهند الشرقية» «A New Account of the East Indies»، المجلد الأول، ص ٥١.

وصار الإمام «سلطان» أسطورة بين شعبه مثل جميع الحكّام العادلين الأقوياء.

**ونذكر هنا بعضاً من القصص التي رويت عنه:**

ذات يوم ركب الإمام «سلطان» جمله وهو يحمل قربة من الماء على جانبه الأيسر، فما لبث أن اقترب عربيٌّ يركب جملاً محمّلاً بوعائين من البلح منه، وكان السّيف والدّرع معلّقين على كتفه الأيسر. فمرّ العربي الذي لم يتعرّف على الإمام، فقال له: «يا حامل قربة الماء، أعطني أشرب من قربتك»، فردّ عليه الإمام قائلاً: «وماذا لو لم أقبل، فماذا ستفعل حينها؟»، فردّ عليه العربي منفعلاً: «لماذا؟ لو لم يكن «سلطان بن سيف» حيًّا لضربتك بسيفي هذا»، فلمّا علم العربي بعدُ من كان يهدّده روى ما حدث للعامّة والخاصّة، فأثنى الجميع على الإمام قائلين: «حفظ الله الإمام العادل، فلا نظير له».

وبعد موت «سلطان بن سيف الثاني» عام ١٧١٨-١٧١٩ في «الحزم»، اختار الناس ابنه البالغ من العمر اثني عشر عاماً «سيف بن سلطان الثاني» ليخلفه فيهم، ولكن كان من الجلي لحكماء «عُمان» أنه لا يمكن لصبيّ أن يتولّى الإمامة ويُدير شؤون الرّعية وحروبهم؛ فقام فقيهٌ عالمٌ يُسمّى «عديّ بن سليمان» بالوقوف أمام الفريقين المختلفين ليمنع الجهل من تهديد جمعهم وشملهم، فقال إنه: «يبايع سيفاً الصغير أماماً [وليس إماماً]». فكانت حيلته في هاتين الكلمتين نابعة من أن كلتيهما مشتقّة من الجذر نفسه. وبعد أن استقرّ الأمر وافترق الناس، قام الشيخ «عديّ» باصطحاب شقيق «سيف» الأكبر «مهنّا بن سلطان» وغير المحبوب شعبياً، خلسةً إلى الحصن في «الحزم» وقلّده الإمامة.


السلطان سعيد بن سلطان


الأميرة سالمة بنت السلطان سعيد بن سلطان


السلطان حمد بن محمد بن جمعة


السلطان برغش حاكم زنجبار

وبعد فترة، ذهب «مهنّا» إلى «البريمي»، فقام ابن عمه «يَعْرُب بن بلعرب اليَعْرُبي» بالاستيلاء على «مسقط»، وسانده في ذلك تواطؤ قبيلة «مهنّا» ضده وقاطنو مدينة «الرستاق». وعاد «مهنّا» إلى «الرستاق» فهزم وحوصر في حصنه، بعدما فقد دعم شعبه له. وأعطى «يعرب» الأمان لمهنّا، إلّا أنه أمر بوضعه في الأصفاد وسجنه، فعانى «مهنّا» من الخزي والإهانة، ثم قُتل في النهاية غدراً على يد عبدٍ بأمر من «يعرب»، وهو راقد عديم الحيلة.

وفي عامي ١٧٢١-١٧٢٢، وبعد فترة من وصايته على الحكم، استحوذ «يعرب» على السلطة وانتخب إماماً في «الرستاق»، بعد أن أقنع قومه بأن «التّوبة تمسح ذنوب التائب». ولم يمضِ وقت طويل، حتى شعر أهل «الرستاق» بعدم الرضا عن اختيارهم، بينما كان «يعرب» في «نزوى». ثم كتبوا إلى «بلعرب بن ناصر» خال «سيف بن سلطان الثاني»، والذي كان مع «يعرُب» في «نزوى». وفي رده على هذا التوسّل الجادّ من أهل «الرستاق»، أسرع «بلعرب» بالذهاب إلى «بَلَد صَيْت» حيث تحالف مع قبيلة «بني حِنَا»، وتعهّد لهم بأنه سيسمح لهم ببناء الحصون وحمل السلاح مرّة أخرى بدلاً من نصرة ابن أخته، وذلك لأنه مع أوائل القرن السابع عشر في زمن الإمام «ناصر بن مرشد» كان يحظّر عليهم بناء الحصون وحمل السلاح.

حاصرت قبيلة «بني حِنَا» حصن «الرستاق»، في الوقت الذي كان فيه «يعرب» مازال في «نزوى»، واستولوا عليها بعد أن طردوا الوالي منها. ويُقال إنّه أحرق أكثر من مئة وخمسين رجلاً حتى ماتوا، وعندما أشعل «بنو حِنَا» النار في بوّابة ومقدمة القلعة، أحرقت الكثير من الكتب النادرة[1] على

---

(١) من بين الكتب التشريعية الإباضية النفيسة المفقودة، كان مؤلّف «المصنّف» (٤٠ مجلداً)، لكاتبه أحمد بن موسى، الذي توفي عام ٥٥٧ هجرية (١١٦١ - ١١٦٢ ميلادية)، وكتاب «الإستقامة» لصاحبه محمد بن سعيد، وكتاب «بيان الشرّ» (٧٠ =

الأرجح. ووجد «بنو نبهان» كنزاً كبيراً داخل القلعة . ثم هرب القاضي «عدي» الذي عمل على تولّي «يعرُب» الإمامة مع قاضٍ آخر إلى «الرستاق»، فأمسكت بهما طائفة «بلعرب»، ثم علّقوا على المُشهّرة وذبحوا، ثم جرّ كلاهما في الشوارع كالماشية الميتة.

صار «سيف بن سلطان الثاني» هو الإمام، بعد أن أجبر «يعرب» على التخلّي عن الإمامة (للحيلولة دون سفك المزيد من الدماء)، وكان ذلك عامي ١٧٢٢-١٧٢٣ . وكان من بين سادة القبائل الذين سافروا إلى «سيف» ليقدّموا فروض الولاء والطاعة «محمد بن ناصر الغافري»، الذي يقطن في «بهلة». ولسبب ما غير معروف استُقبِل استقبالاً جافًّا، ثم قام «بلعرب ابن ناصر» بتهديده وإهانته على لسان الإمام الجديد. فشعر «محمد بن ناصر» بالغضب الشديد وهو في طريق عودته إلى «بهلة»، فقام بجمع قبائل «بني غافر» للثأر لنفسه والثورة على قوات «بني حِنَا»[1] التابعة للإمام. وقد مثّلت هذه الحادثة نقطة تحوّل في تاريخ «عُمان»، وكانت إيذاناً ببداية الانقسام عام ١٧٢٢-١٧٢٣، فانقسمت جميع القبائل العُمانية منذ ذلك التاريخ إلى فئتين مناوئتين لبعضهما وهما «الغافرية» و«الحناوية». ومن باب التّصنيف، نجد أن «بني حِنَا» أو الحناويين (الإباضيين) يعتقدون أن أصلهم ينبع من اليمن، وأن نسبهم يرجع إلى «قحطان»، في حين أن «بني غافر» (وهم من السّنة والإباضية) يعتقدون أن نسبهم يرجع إلى «عدنان» من نسل «إسماعيل». وظلّت القبائل مع مرور الزمن تبدّل ولاءها من تلك الفئة إلى الأخرى لأغراض سياسية،

= مجلداً)، لصاحبه محمد بن إبراهيم بن سليمان، الذي توفّي عام ٥٠٨ هجرية (١١١٤ ـ ١١١٥ ميلادية).

(١) يقول بادجر إن «بني حِنَا» هم قحطانيون من أصل يمنيّ، لكنّهم ليسوا من سلالة «الأزد». ومن جهته، يعتقد «روس» بأن الجدّ الأول لبني حِنَا ينحدر من سلالة «الأزد»، وأن «بني حِنَا» هم عشيرة أزدية.

ولكن مازالت جميع القبائل العُمانية إلى يومنا هذا مقسّمة إلى فئة الحناوية وشعارهم اللون الأحمر، والغافرية وشعارهم اللون الأبيض[١]. ويرجع نسب الأسرة الحاكمة في وقتنا الحاضر وهي «ألبوسعيد» (انظر الفصل الثالث) إلى قبيلة الحناوية، إلّا أن أفراد الأسرة المالكة في عصرنا الحالي يترّفعون عن هذه الاختلافات الحزبية، ولا يدخلون في نزاعاتها.

ودار قتالٌ عنيفٌ قُتل فيه خلقٌ كثيرٌ، كان فيه «صوت طلقات البنادق يدوي كهدير الرعد والسهام اللامعة مثل البرق». وانتصرت جيوش «محمد بن ناصر»، ووقع «سيف» في الأسر، ووضع «بلعرب» في الأغلال، وأُجبر على أن يُرسل إلى جميع الولاة يحضّهم على تسليم حصونهم إلى رجال «محمد». وارتكبت جيوش «محمد» جرائم شنيعة في «الرستاق»، ومات ما يربو على مئة امرأة وطفل من العطش في كهف التجأوا إليه هرباً من صليل سيوف رجاله. وحكم «محمد بن ناصر» حصون وقلاع «عُمان» (باستثناء «مسقط» و«بركه») لخمس سنوات، وجعل من قلعة «جبرين» التي تقع وسط «عُمان» عاصمة له، حتى نزع عن نفسه وصاية العرش لينتخب القوم إماماً عليهم على النحو الذي أراده (١٧٢٤-١٧٢٥)، فأدّى مهام منصبه على أكمل وجه.

وقاد الإمام «محمد» سرية في إحدى الليالي للهجوم على حصن يعود إلى «البكرين» من «سمائل». وكانت ليلة مظلمة هطل فيها المطر غزيراً، فاعتلى الإمام سور الحصن بعد أن حجبه الرعد والبرق عن أعين من فيه، فسأل أحد الحراس قائلاً له: «من تراقب هنا؟» فردّ عليه الحارس: «أراقب «محمد بن ناصر» خشية أن يهجم علينا»، فقال له: «إنه أنا «محمد بن

(١) إن أحد الإختلافات المثيرة للإهتمام بين الفئتين هو أنهم عندما يأكلون «الكباب» على عود مشحوذ، فإنّ الحناويين يكسرون العود، في حين أن الغافريين يرمونه سليماً.

ناصر» الذي يقف إلى جانبك»[1]. وكان الإمام «محمد» يركب مهرةً له في المعارك، وكان يضرب بسيفه المعقوف ذات اليمين وذات الشمال فيقطع أوتار باطن أطراف جمال أعدائه لمنعهم من الهرب. ونحن نرى أن هذا المحارب بما كان يتمتّع به من عبقرية عسكرية اقترنت بموهبة استثنائية وطاقة لا حدود لها، قد بزَّ من كان من قبله من سادات «عُمان».

وكان موت الإمام «محمد» قصّة درامية، فقُتل بقذيفة بندقية انطلقت من أسوار حصن في «صحار»، وهو يلاحق أتباع عدوه اللدود «خلف بن مبارك»، الذي كان يلقب بـ«القصير»، والذي لقي حتفه في المعركة نفسها. وكان «خلف» قبل ذلك سيداً على «بني حِنَا» في غمار الانقسام الشديد الذي ضرب «عُمان». «وترجع أصول، وتركيبة، وحتى أسماء الحزبين الحناوي والغافري الحديثين، إلى الإئتلافات القبلية التي تشكلّت في هذه الحرب على يد خلف الحناوي الدّاهية، ومحمد الغافري» **(الملحوظة ص)**. وبعد وفاته عام ١٧٢٧ تقريباً ولّي «سيف بن سلطان الثاني» الإمامة للمرة الثالثة **(الملحوظة ض)**. ولم تأتِ ولايته الثالثة بخيرٍ على أهل «عُمان». كان أبوه «سلطان بن سيف الثاني» قد شنّ عام ١٧١٧ حرباً على «فارس»، فأخضعها إلى سلطانه وولّى عليها حاكماً معتدلاً، كان أبعد من أن ينال منه أحد وهو «شاه سلطان حسين» **(الملحوظة غ)**. واستولى هذا الوالي على «المنامة»، وأخضع البحرين لسلطانه، فجاءت كرة الفرس ليبادروا بالهجوم عليه، وإن كان على إمرتهم حاكم لم يكن كسابقه من حكّام «فارس» **(الملحوظة ظ)**، وهو «نادر شاه». وكان في دهائه وبأسه يلقّب نفسه «نابليون آسيا»، وكان من أبرع المحاربين في يومه ذاك، كما لو كان «تيمورلنك» قد ظهر في الأرض مجدداً، وشنّ أول هجماته على «عُمان» بخمسة آلاف من الرجال وألف

---

(١) «حوليات عُمان Annals of Oman»، ص ١٨٠.

وخمسمئة من الخيول[١]، وذلك على رضى من «سيف بن سلطان»، الذي كان يسعى إلى عون الفرس لنصرته على رعيّته المتمرّدين، والذين كانوا على وشك الثورة عليه، لما كان عليه من ضعف أشبه بضعف النساء. وقد آذت حياته الخليعة والماجنة قومه الورعين. وقد كتب واحد من قومه لا نعرف له اسماً هذا الخطاب:

«بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾. . ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾.

لقد وردت إلينا من قوم ثقات أنباء أدخلت الغمّ في قلوبنا، وحيّرت معها عقولنا ... أحقًّا بلغ الفرس «فقان» بجيش من الفجّار الطامحين إلى ما ليس لهم؟ ولو زاد عددهم وأنزلوا بك أشدّ العقاب، فسيذبحون أبناءك ويفتنون نساءك...

بالله عليك أأنت في غفلةٍ أم يقظةٌ؟ أم ملك الشيطان فؤادك ... جرى المثل عندنا أنه «لا يكن لديك في النفاق أو الخداع سبيل، أو تمكر على رجل يشتعل قلبك منه غيظاً» ... إن ما تحدّثك به نفسك وما تعتزم القيام به وتُمَنِّ به نفسك فيه هلاكك، فإن أغلقت عليهم الباب وفتحوه عليك فستجد في قلوبهم عداوةً تنفث اللهيب من أنوفهم.

فليحفظ الله سيدنا الكريم، الإمام ابن الإمام «سيف بن سلطان»[٢]

---

(١) انظر «إم غيّيوم»، «وثائق حول تاريخ وجغرافية وتجارة أفريقيا الشرقية» - «Document sur l'Histoire, la Géographie et le Commerce de l'Afrique Oriental»، ص ٥٢٩، المجلد ١.

(٢) يُقال «إن هذا الإمام «سيف بن سلطان الثاني» كان منغمساً في الملذّات، وكان يملك في حريمه عدداً كبيراً من الزّوجات المسلمات والوثنيات على حدٍّ سواء، كما أن بنات رعاياه لم يكنّ بمأمن من اعتداءاته». «كارستن نيبور»: «Beschreibung von Arabien» (كوبنهاغن، ١٧٧٢)، ص ٢٩٩.

اليَعْرُبي» ويغدق عليه بخيره الوافر، ويحفظ عليه شرفه، ويصون كرامته، والسلام عليك»[(١)].

وقصفت جيوش «نادر» «مسقط» بوابلٍ من القذائف، وذلك بعد أن استغلّ الحيلة القرطاجية، بأن أطلق عدداً من الماعز في التّلال وربط قضباناً حديدية إلى قرونها، فظنّ رجال «مسقط» أن الفرس آتون من التلال لمهاجمتهم، فانطلقوا إليها للدفاع عن المدينة وتركوها خالية تقريباً ممّن يدافع عنها، فلم يواجه «نادر» أية صعوبة في دخولها والاستحواذ عليها. وعلى الرغم من ذلك، فقد كان الفرس يعجزون عن الاستحواذ على الحصون الشرقية والغربية (وهي المعروفة بجلالي وميراني على الترتيب)، وقد قيل إنهم حاصروها خمسة أسابيع. وتمكّن القائد الفارسي الطموح «تقي خان» (**الملحوظة ث**) من إرسال قوة لمحاصرة «صحار»، ولكنه أجبر على التخلي عن الهجوم عليها وكذلك عن «مسقط» (عام ١٧٣٨) وعاد إلى مدينة «جلفار»[(٢)].

## الملاحظات

*** * الملحوظة (أ) * * * * * * * * * * * ***

«فاسكو دي غاما»، وموطنه مدينة ساحلية صغيرة تدعى «سينز»، وهو كبير إحدى العائلات الملكية، ولقبه بالتالي هو «الدوم فاسكو»، وهو القائد العام للأسطول وكونت «فيديجيريا» ونبيل البرتغال وقاهر

(١) «أئمة وسادات عُمان»، ص ١٣٩ ـ ١٤٠.

(٢) لورنس لوكهارت، «Nadir Shah's Campaigns in 'Oman 1737 - 1744» «Bulletin of the School of Oriental and African Studies» (١٩٣٥ ـ ١٩٣٧)، المجلد ٨، ص ١٦٣ ـ ١٦٤.

الهند. وفي وصفٍ له جاء بعد عقدين من موت «دي غاما»، كتب عنه «مانويل دي فاريا إي سوسا» أنه «ذو بشرة ورديّة، تغلب عليه ملامح «بني إسرائيل». له عينان واسعتان لونهما بنّي داكن وأنفٌ معقوف. تعلو ذقنه لحية ابيضت شيباً بعدما تقدّم به العمر».

* * الملحوظة (ب) * * * * * * * * * * * *

«قام «دي غاما» برحلتين بحريتين هما أعظم عمل بطولي تمّ في عصره، بل إنهما أكثر أهمية من رحلات «كولومبوس» نفسه. جاء ذلك في كتاب «الطريق البحري إلى جزر الإنديز» لمؤلفه «هنري هارت»، (نيويورك، ١٩٥٠).

وعندما مرّ «دي غاما» حول رأس الرجاء الصالح لم تكن لديه معرفة كبيرة بوجهته. انظر «إريك أكسلسون» في مؤلفه «جنوب شرق إفريقيا» «South - East Africa»، ١٤٨٨ ـ ١٥٣٠ (لندن، ١٩٤٠)، ص ١٥٣.

«لقد أسهم «دياز» أكثر من غيره من البحّارة في اكتشاف الطريق البحري للهند. فلم يَدُرْ حول إفريقيا فقط، وإنما وجد سبيلاً للقيام بذلك في أعماق البحار، ومكّنه التيار الدافئ بلا شك من إيصاله إلى المحيط الهندي». في كتاب «الأمير هنري البحّار واكتشاف الطريق البحري إلى الهند» لمؤلفه «إريك أكسلسون» «Prince Henry the Navigator and the Discovery of the Sea Route to India»، المجلة الجغرافية، المجلد ١٢٧، الجزء الثاني (يونيو، ١٩٦١)، ص ١٥٣.

* * الملحوظة (ج) * * * * * * * * * * * *

كان «مانديفل» مصنّفاً سابقاً ليكون «أعظم الرحّالة الآسيويين في العالم قاطبة»، وقد اتهمه أحد الكتّاب (يُعتقد أنه راهب) بأنّ أعماله مغرقة في الحكايات الخرافية والأساطير. وقد اتهم «أودوريك» الذي كان بلا شك هو أعظم رحّالة آسيوي بالسرقة عن «مانديفيل»، ولكن من المعروف في وقتنا

الحالي أن أحد المصنفين الذين يحملون اسماً مستعاراً قد سرق من أعمال «مانديفيل» التي كتبها عن رحلاته في الهند وغيرها دون إقرار من «أودوريك». أنظر «رسائل مانديفيل»، السير جون مانديفيل (لندن، ١٩٤٩).

** الملحوظة (د) * * * * * * * * * * * *

انظر «إي أكسلسون»: «South - East Africa, 1488- 1530». انظر «جورج ماكول ثيل، «Record of South - Eastern Africa»، والمجلد ٦ (Cape Colony, 1900)، وكتاب جواو دي باروس: «Extractos da Asia» (لشبونة، ١٧٨٨). وضع البرتغاليون هذا النصب التذكاري الذي يرمز إلى المسيحية على امتداد ساحل إفريقيا الشرقي، وهو الوحيد الذي صانه الزمن. وقد تحقق الكاتب من هذا المعلم القيّم عام ١٩٤٨ في رحلة استكشافية لجامعة كاليفورنيا في إفريقيا تحت قيادته، بدأت من القاهرة وانتهت في «كيب تاون».

** الملحوظة (هـ) * * * * * * * * * * * *

انظر «جورج ماكول ثيل»: «سجلات جنوب - شرق أفريقيا - Records of South - Eastern Africa»، المجلد ٦ (Cape Colonjy, 1900)، وكتاب «جواو دي باروس»: «Extractos da Asia» (لشبونة، ١٧٧٨). يعدّ «جواو دي باروس» (١٤٩٦ ـ ١٥٧٠) عند الكثيرين أعظم المؤرّخين البرتغاليين. وكان «دي باروس» قائداً لسفينة «إس خورجيه دا مينا» على ساحل إفريقيا الغربي، من عام ١٥٢٢ إلى عام ١٥٢٥، ثم وزير الخزانة في الوزارة الهندية من عام ١٥٢٥ إلى عام ١٥٢٨، وكان وكيل البرلمان الهندي منذ عام ١٥٣٢. كان «دي باروس» هو مسؤول الأرشيف لفترات طويلة في «لشبونة»، وكان بإمكانه الاطّلاع على جميع الخطابات والتقارير والصحف الخاصّة بالمستكشفين والضّباط الأوائل في «إفريقيا» و«الهند». ونشرت الطبعة الأولى من كتابه عام ١٥٥٢. ونشرت طبعته المبسّطة لكتابه «آسيا» (بالعنوان الفرعي عن الأفعال التي قام بها البرتغاليون في غزوهم

واستكشافهم لأراضي وبحار الشرق) (Of the Deeds which the Portgueses Performed in the Conquets and Exploration of the Lands and seas of the East) في «لشبونة»، عام ١٧٧٨.

** الملحوظة (و) * * * * * * * * * * * *

كاسبر كورية «The three vogages of Vasco de Gama»، وقد ترجم عن البرتغالية «Lendas da India» من قبل «هنري إي. جي. ستانلي»، (جمعية هاكلويت، لندن ١٨٦٩)، ص ٣١٣ ـ ٣١٥. ذهب «كاسبر كورية» إلى «الهند» عام ١٥١٤، حيث خدم لثلاث سنوات ككاتب لدى «ألبوكيرك». وقد دوّن تاريخ مفاسد البرتغاليين في «الهند» على مدار ثلاثة وخمسين عاماً، قبل موته بفترة قصيرة عام ١٥٨٣. ومن المفهوم أن «كورية» أراد أن ينشر هذا التاريخ بعد وفاته حتى يتجنّب استهجان من يحققون معه، وأن يدوّن ما رآه على حقيقته دون أن يخاف لومة لائم. وقد كان بإمكانه الاطلاع على مذكّرات «غوام فيجريا» -وهو كاهن صاحب «دي غاما» في رحلاته- لذلك فإنّ من رأيي أن روايات «كورية» أحقّ بالاستناد إليها قبل غيرها.

** الملحوظة (ز) * * * * * * * * * * * *

انظر فريمان ـ غرينفيل»، «The East African Coast: Select Documents»، ص ٨٦، ١٠٦. ربما كان وصف نهب «كلوا» قد جاء على لسان الكاتب «هانز ماير»، وهو ألماني سافر على متن سفينة «دي ألميدا» «سان رافاييل». ووُجد النص البرتغالي في كتاب «جنوب شرق إفريقيا، ١٤٨٨ ـ ١٥٣٠» لكاتبه «إي إكسلسون».

** الملحوظة (ح) * * * * * * * * * * * *

هناك عملان مهمّان يرتبطان بالفترات التي سيطر فيها البرتغاليون على شرق إفريقيا، هما كتابا «جنوب شرق إفريقيا، South - East Afria, 1488, 1530» (لندن ١٩٤٠)، و«البرتغاليون في جنوب شرق إفريقيا» «The

Portuguese in South - East Africa, 1600 - 1700» (جوهانسبورج، ١٩٦٠) لـ«إريك إكسلسون». ويحتل «إكسلسون» موقعاً فريداً بتجميعه لخمسة عشر ألف مخطوطة برتغالية من مكتبات «البرتغال» و«جنوا» و«الفاتيكان» لضمّها إلى أرشيف إفريقيا المركزي. وتعدّ هذه من الأعمال الموثوق بها، والتي حلّت محلّ أعمال «آر كوبلاند» ومن سبقه من كتّاب. ومن الأعمال المهمّة الأخرى كان لكلٍّ من «سي آر بوكسر» و«كارلوس دي آزفيدو»، وهو «حصن المسيح والبرتغاليون في ممبسة Fort Jesus and the Portuguese in Mombasa»، (لندن، ١٩٦٠)، والذي اقتبس عن بعض المخطوطات غير المستغلة حتى ذلك الوقت. وقد أورد «فريمان-غرينفيل» في كتاب «تاريخ شرق إفريقيا The History of East, Africa»، المجلد الأول، (أكسفورد ١٩٦٣)، والذي نقّحه كلّ من «رولاند أوليفر» و«جرفاسي ماثيو»، وتحديداً في الفصل الخامس، تحت عنوان «الساحل من عام ١٤٩٨ إلى عام ١٨٤٠»، بعض الإشارات إلى مخطوطات لم يستغلّها أيّ كاتب قبله. وقد سعى من خلال ذلك إلى أن يتتبّع، ضمن أشياء أخرى، قصة التدخّلات العُمانية في شرق إفريقيا، والتي يبدو لنا -في وقتنا الحالي- أن تاريخ هذه التدخّلات بدأ عام ١٦٥٠.

*** * الملحوظة (ط) * * * * * * * * * * * * ***

«آسيا البرتغالية The Portuguese Asia»، المجلد الأول، الجزء الثاني، ص ١٢٦. وصف الحدث نفسه في كتاب «تعليقات ألفونسو دي ألبوكيرك العظيم The Commentaries of the Great Alfonso Dalboquerque» المترجم عن الطبعة البرتغالية التي نشرت عام ١٧٧٤، وقد كتب حاشيتها ومقدّمتها «والتر دي غراي بريتش»، وهو يقول: «أشيع أن قبطاناً وصل مع عشرة آلاف رجل من المناطق الداخلية مسلّحين بالرّماح والدّروع، والذي أرسل إليهم «بانجبار» [ملك المقاطعات الداخلية لعُمان تحت إمرة ملك هرمز] لمساندة المدينة».

* * الملحوظة (ي) * * * * * * * * * * * *

«جي. جي. ماكول ثيل»، «Record of South Eastern Africa»، المجلد ٦، ص ٣٩٨ ـ ٤٠٠. انظر كتاب السير «جون غراي»، «Portuguese Records Related to the Wasege - ju», Tonganyika Notes and Records, N° 29 (1950) ص ٨٩. «تقع المدينة المعروفة في وقتنا الحالي باسم «جيدي» على بعد ثلاثة وخمسين ميلاً شمال شرق «ممبسة»، وثمانية أميال جنوب غرب «ماليندي»، وكلاهما مرفأ عربي قديم ... وقد أسّست مدينة «جيدي» في القرن الثاني عشر، ولكن أعيد بناؤها بأسوار جديدة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ... ولا شك أن الغارة التي شنّتها «زيمبا» عام ١٥٨٩، سواء استولت على «جيدي» أم لا قد هزّت ثقة سكّانها، وقد زاد الطين بلة عزل شيخ «ماليندي» ووصول البرتغاليين إلى «ممبسة» بعد أربع سنوات من ذلك».
«J.S Kirtman, «the Arab City of Gedi (Oxford, 1954) p. XIV» .

* * الملحوظة (ك) * * * * * * * * * * * *

تختلف المراجع المتوافرة حول تحديد التاريخ الذي طرد فيه البرتغاليون من «مسقط»، حيث يرى الرحّالة «نيبور» أنه قد وقع بعد «مئة وخمسين عاماً تقريباً من استيلائهم على المدينة عام ١٥٠٨». ويتفق معه «ولستيد» على تحديد التاريخ بحوالى عام ١٦٥٨، في حين أن «روس» يعجز عن تحديد التاريخ بصورة أكثر دقّة بقوله إن هذا قد وقع بين عامي ١٦٥٠ و١٦٥٨. و«جاستاموند» يقول ١٦٤٨؛ وبرتون يقول ١٦٥٩؛ ويقرّر هاملتون الحدث حوالى عام ١٦٥٠؛ ويقيّد «بادجر» التاريخ بين عام ١٦٥١ وعام ١٦٥٢. ويقول «كرزون» إن ذلك قد وقع عام ١٦٥٠، في حين يرى «لوريمير» أنه «وقع في يناير من عام ١٦٥٠، وانسحب البرتغاليون تماماً ممّا كانوا يعتقدون أنه حصنهم المنيع، ثم أخلوا البلاد». ويرى مؤلّف

الكتاب الذي بين يديك أن الرواية الموثوق بها هي رواية الشيخ «سرحان بن عمر بن سعيد السرحاني الإزكوي»، التي وردت في كتاب «كشف الغمّة الجامع لأخبار الأمّة» (إزكي، ١١٤٠ هجرية [حوالى ١٧٢٨ ميلادية]). وبالإضافة إلى ذلك، فإنّ مؤلّف الكتاب يعتمد على حوارات شخصية دامت لمئات الساعات مع جلالة السلطان «سعيد بن تيمور» استعرضت تاريخ «عُمان»، ما يعدّ بحدّ ذاته مصدراً موثوقاً به. ويعتقد السلطان أن «مسقط» سقطت بأيدي «ألبوكيرك» عام ١٥٠٦، وطُرد البرتغاليون تماماً عام ١٦٥٠.

*** * الملحوظة (ل) * * * * * * * * * * * ***

يُعطينا «روس» رواية أخرى، حيث «دخل العرب إلى «مسقط» على صورة فلاحين مسالمين، وأخفوا أسلحتهم بين أكوام الحطب، ثم تمكّنوا من مباغتة أفراد الحامية البرتغالية بعد أن تجمّعوا في كنيستهم وهم عزّل، فهاجموهم وتركوا من ورائهم مذبحة عظيمة، «Annals of Oman» P. 194. ويعتقد روس أن «سليل بن رازق» قد قام بنسخ نصيب كبيرٍ من كتابه القديم بصورة حرفية من كتاب «كشف الغمّة» للشيخ «سرحان بن سعيد» (١٧٢٨).

*** * الملحوظة (م) * * * * * * * * * * * ***

ترجمة «جون ستيفين» لكتاب «آسيا البرتغالية» «The Portuguese Asia» - لمؤلفه «مانويل دي فاريا إي سوسا»:

«ولد «فاريا اي سوسا» -وهو أحد المؤرخين والشعراء البرتغاليين- في مدينة «سوتو» في البرتغال عام ١٥٩٠ تقريباً. وأصبح سكرتير الماركيز «كاستل رودريغو»، والذي لحقت به إهانة بسببه، حيث أخلّ في تمثيله أمام بلاط الملك، فقبض عليه وسجن في «برشلونة»، ثم ظلّ سجيناً لفترة طويلة في «مدريد» حتى وافته المنيّة عام ١٦٤٩. وقد كتب كثيراً

من الأعمال التاريخية المتعلقة بالبرتغال وأراضيها البعيدة، بالإضافة إلى دواوين من الشعر». سيدني ماندلسون ـ Sidney Mandelsson، «ببليوغرافيا جنوب أفريقيا ـ South African Bibliography Vol. I (London, 1910) p. 532 - 533.

** الملحوظة (ن) * * * * * * * * * * * *

السير «جون غراي» في كتابه «تاريخ زنجبار»: من العصور الوسطى حتى عام ١٨٥٦، ص٥١ Sir John Gray: «History of Zanzibar: From the Middle Ages to 1856» P. 51. وقد كتب هذا المؤلّف نفسه، في كتابه «الإرساليات البرتغالية في شرق إفريقيا» «Portuguese Missionnaries in East Africa»، أنه بعد أعمال الغزو الأوّلية - وعلى النقيض من آرائهم - كانت العلاقات التي أقامها البرتغاليون سيّئة، باستثناء تلك المتعلّقة بالحوادث الفردية، التي انتقدها البرتغاليون أنفسهم. ولم يكن سلوكهم أسوأ من سلوك الأتراك والبريطانيين والهولنديين في المواقف نفسها.

** الملحوظة (س) * * * * * * * * * * * *

«جومز إينز أزورارا» في كتابه "Cronica do Descobrimentoe Conquista do Guine"، وقد عاش من عام ١٤١٠ إلى عام ١٤٧٣، يستغفر ربّه حتى يتجاوز عن دموعه التي يشعر بأنها ستلقى استياءً من السماء. «يا أبا السماوات ... أتوسّل إليك ألا تأخذ ضميري بجريرة دموعي، فليس الأمر عندي دينهم [يقصد الزنوج]، وإنّما الإنسانية التي تدفع الدموع إلى الخروج من مقلتي شفقةً عليهم». ومازال يقرّ بأنّه على الرغم من السلب والنهب فإنه «من الرائع أن يشاهد أمراً مثله».

** الملحوظة (ع) * * * * * * * * * * * *

يودّ مؤلف الكتاب الذي بين يديك أن يُعرب عن شكره الجزيل، للكولونيل «كولين ماكسويل»، و«أحمد غاما جلال»، والدكتور «راي كلفلاند»، لمراجعتهم ترجمة نصّ الخطاب، والجمل الواردة بين علامتي التنصيص التي وردت في القرآن الكريم، وهي ذات صيغة واحدة في جميع كتابات العرب.

** الملحوظة (ف) * * * * * * * * * * * *

«جيه. جي. لوريمير» في كتابه «دليل «الخليج العربي وعُمان» ووسط الجزيرة العربية»، المجلد الأول، ص٤٠٤ «J. G. Lorimer, Gazetteer of the Persian Gulf, 'Oman and Central Arabia» Vol I, (Calcutta, 1915) P. 404. جُمع هذا المعجم بأمر من اللورد «كرزون» عام ١٩٠٣، وبدأ العمل فيه في السنة التالية «جيه جي لورمير» الذي يعمل في قطاع الخدمات المدنيّة الهندي، وطبع عام ١٩١٥ ليكون بمثابة مصدر سرّي للمعلومات للمسؤولين. ويعتمد هذا العمل على أرشيف الحكومة البريطانية في الهند والمندوبين السياسيين في الخليج العربي، ويحتوي على ٤٦٩٣ صفحة.

** الملحوظة (ص)* * * * * * * * * * * *

نجد في هذه الفترة أن كتاب «تاريخ ممبسة» يُطلعنا على أن البرتغاليين تعاملوا مع أهل «ممبسة» باستعلاءٍ وكبرياءٍ. «قذفوا الصخور على النّاس وهم في صلواتهم، واعتادوا على إخراج الناس من بيوتهم والاستيلاء على حاجاتهم، وكانوا يأسرون زوجاتهم لأنفسهم، حتى شعر أهل «ممبسة» باليأس...» (هذا النص منقولٌ من كتاب السير «جون غراي: Early Portuguese Missionnaries in East Africa», P. 41. وفي ٢٦ من نوفمبر عام ١٧٢٩، نكّس العلم البرتغالي لآخر مرّة من فوق «حصن المسيح».

أدمن الشاه «سلطان حسين الصفوي»، الذي كان يتّسم بشخصية معتدلة وتقية، والذي حكم من عام ١٦٩٤ إلى ١٧٢٢، في سنواته الأخيرة الخمر. وستجد وصفاً له عند «كورنيليوس لي بروين» في كتابه «أسفار في «موسكو» و«فارس» وأجزاء من الهند الشرقية» «Cornelius le Bruyn, Travels into Musovy, Persia and Part of the East Indies» Vol. I (London, 1737), pp. 211 - 212. انظر أيضاً «فريدون أداميات» في كتابه «جزر البحرين: دراسة قانونية ودبلوماسية للجدل البريطاني الإيراني - Fereydoun Adamiyat «Bahrein Islands: A legal and Diplomatic Study of the British - Iranian Controversy» (New York, 1955)، وفيه يقول: «آذنت نهاية القرن السابع عشر ببداية انهيار سلالة الصفويين في «فارس» من جانب، وصعود العرب العُمانيين في «مسقط» من الجانب الآخر. وهو ما كان يمثّل تجلّياً لحقيقة تاريخية، وهي أنّه في غياب النشاط السياسي، يلزم على «فارس» أن تجابه التحدّي العربي في الخليج. وجاء هذا الصعود عندما انضمّ إليهم عددٌ من الأوروبيين - خاصّة من البريطانيين- وشلّت الحركة التجارية بين «الخليج العربي»، و«الهند» تماماً، فقام العرب في الحال بغزو الساحل الفارسيّ وجزر الخليج». ولمزيدٍ من المعلومات ارجع إلى كتاب «علي زارين قلم» «البحرين من الأزمنة السّحيقة حتى وقتنا الحاضر». «Sarzamin -i Bahrein az duran - i- Bastan ta imrus» - (Teheran, 1337/ 1958) p. 83 - 84. ويتناول مؤلّف هذا الكتاب الهجوم الذي شنّه «سلطان بن سيف الثاني» على البحرين، ويذكر رفض القائد البرتغالي في «قشم» دعم الأميرال الفارسيّ «لطيف خان» في نقل جنوده من الأراضي الفارسيّة إلى «البحرين»، للمساعدة على مواجهة الهجوم العُماني.

** الملحوظة (ر) * * * * * * * * * * * *

تكلّفت حملات «نادر شاه» العسكرية الطويلة -وعديمة الجدوى في الوقت نفسه- على عُمان ما يقرب من عشرين ألف رجل عانوا من الموت جوعاً، والأمراض، والقتل دون أن تقابل ذلك فائدة جنتها «فارس»؛ وتمكّنت سلالة «اليعاربة» من الاستحواذ على السلطة بطرد البرتغاليين، أما سلالة «ألبوسعيد» فتمكّنت من ذلك بطرد «الفرس». وفي التاسع عشر من شهر يونيو عام ١٧٤٧، تعرّض «نادر شاه» للاغتيال في خيمته على يد أربعةٍ من ضبّاط جيشه، وذلك بالتعبير الفارسي الدارج «ليأكلوه غداءً قبل أن يتناولهم عشاءً». ويختتم سكرتير الشاه الخاص «ميرزا مهدي» دراسته في السيرة الذاتية لـ«نادر شاه» (تسمّى «تاريخ حياة «نادر شاه» ملك فارس»)
«The History of the Life of Nadir Shah, King of Persia» (London 1773)
بقوله: «كان في الليل يحيك خطط المجازر والسّلب، ومع أوّل ضوءٍ للنهار كان رأسه بلا تاج، وجسده بلا رأس». ففي ثورةٍ واحدةٍ جاءت تحت لون السّماء الصافي، اختفى «نادر» وإمبراطوريته من الوجود». وخلف «نادر» ابن أخيه «علي قلي خان» (عادل شاه)، والذي قتل على الفور ثلاثة عشر ابناً وحفيداً لـ«نادر». ولم يمضِ أمد طويل حتى عُمي «علي» على يد أخيه «إبراهيم» الذي قتل تقريباً على الفور مثل أخيه «علي». وجاء بعدهما «الشاه رخ»، والذي تعرّض للعمى على يد «محمد ميرزا» ليغتصب العرش، والذي قتل عام ١٧٥٠. وعاد «الشاه رخ» إلى العرش مؤقتاً، ولكنّه سجن بعد ذلك. وبحلول عام ١٧٧٩، لم تعد لفارس المكانة المهيمنة على الخليج التي كانت لها في الماضي.

** الملحوظة (ش) * * * * * * * * * * * *

تولّى «تقي خان»، «بيغلار بيغي حاكم فارْس»، السلطة العليا في «عُمان» من «لطيف خان» «أميرال الخليج»، وكان في الفساد وعدم

الكفاءة سواء. وقام «تقي خان» بوضع السمّ لـ«لطيف خان»، الذي كان يعدّ أكثر القادة البحريين الواعدين لدى «نادر شاه» في «بركة» في «عُمان». فغالى «تقي خان» في الكبرياء والغرور، بعد أن تمكّن من الاستيلاء على «مسقط»، ولكنّه أخفق في تمرّده على «نادر شاه» الذي قام بخصيه (وفقاً للرحّالة «نيبور»، حيث اقتطع عضوه الذكري)، ثم ربطه على ظهر أتان وربط ذيل ثعلب برأسه. وإلى ذلك فقئت إحدى عينيّ «تقي خان»، وتُركت العين الأخرى ليرى أحبّ زوجاته إليه، وهي تسلّم إلى الجنود بحضوره، ويرى ابنه الصغير وهو يعدم؛ إلّا أنه ممّا يُثير الدهشة أن «تقي خان» قد نال الحظوة الملكية مرّة أخرى، وعيّن «مستوفي الممالك» (أي وزير خزائن المملكة).

## * الفصل الثالث *

# تأسيس أسرة «ألبوسعيد» الحاكمة

ورد في القرآن الكريم: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ﴾، وهو ما حدث في «عُمان»؛ فقد بدأت أقرب ملحمة إلينا من حيث الزمن في تاريخ «عُمان» مع وصول عائلة «ألبوسعيد» إلى السلطة. بدأ مؤسّس هذا الكيان السيد «أحمد بن سعيد» أعماله التجارية بشكل متخبّط. لكن بشجاعته وقدرته نهض ليكون أوّل حاكم لبلدة «صحار»، ثم حاكماً لعُمان بأكملها، حيث انتخب في النهاية، لما قدّمه من إنجازات كإمام. ولست على يقينٍ تامٍ من تاريخ حدوث هذا، وإن كان من المؤكّد حدوثه بين عامي ١٧٤٢، ١٧٤٩ (**الملحوظة أ**). وكما ورد في كتاب «تاريخ أئمة وسادات عُمان» «History of the Imams ans Seyyids of Oman»، فإنّ الناس امتثلوا له طواعية، وشهد الجميع بعدل حكمه. وهو أمر طبيعي، ولِمَ لا؟! وقد أخرج جنود «الفرس» المرتزقة، الذين ارتكبوا أبشع الجرائم من مذابح مروّعة، رموا خلالها الأطفال مقيّدين من فوق التلال والجبال، وباعوا الحرائر من النساء في سوق «شيراز». بهذا الفعل أطاح القائد الجديد بالإمام «سيف بن سلطان الثاني» آخر اليعاربة الذي استدعى «الفرس» لينصروه على شعبه، وهو أيضاً الذي أدّى سلوكه الخليع في بلاط حكمه في «الرستاق» إلى إهانة قومه وشعبه.

ومن المعروف أنّ من يستدعي أجنبيًّا لنصرته على شعبه يقع تحت

سيطرته وينتهي به الحال ليكون يداً أو أداة لهذا الأجنبي. وقد عاد «نادر شاه» بعد طرده، إثر الحركة الشعبية عام ١٧٣٨، متولّياً زمام الأمر في «مسقط» والمدن المحيطة بها حتى عام ١٧٤٢. وكان «سيف بن سلطان الثاني» لا يزال قويًّا بما يكفي ليمنع حلفاءه من دخول قلاع وحصون «جلالي» و«ميراني». وقد وضع القائد الفارسي «تقي خان» حدًّا لهذا العبث، فقام بدعوة الإمام وحاشيته إلى مأدبة، وقتل معظمهم وهم ثملون، إثر تناول خمر «شيراز»، الذي كان «سيف بن سلطان» يضعف أمامه. ثم سرق «تقي خان» خاتم الإمام واستخدمه لتزوير أمرٍ لعساكر القلعة يسمح للفرس بالدّخول إليها. وعندما أفاق «سيف» من سكره وجد قلاعه في أيدي حلفائه القساة، فلم يلبث أن مرض ومات بعد ذلك.

كان الخليفة في الإمامة هو «سلطان بن مرشد اليعربي» ابن عم «سيف»، الذي تمّ انتخابه للإمامة على يد مجموعة من أبرز الشيوخ الأوفياء للعائلة الحاكمة، وإن ضاقت صدورهم بمن سبق أن أمسك زمام البلاد منها. ولم يمضِ على ذلك زمن طويل حتى مات الإمام «سلطان» أيضاً[١]. وفي الوقت الذي كانت تقع فيه هذه الأحداث في «مسقط»، كان «أحمد بن سعيد» كوالٍ على «صحار» يدافع عن المدينة ضد أحد جيوش الفرس التي تحاصره، وكان يسانده «سلطان بن مرشد»، الذي كان يبدو كأحد ضبّاط جيشه، وإن كان هو قائده الرئيس. وقد كان «سيف بن سلطان الثاني» قبل مماته يشعر بغيرة شديدة تجاه ما لحاكم «صحار» من شعبية عند جميع طبقات الشعب، حتى إنه حاول التخلّص منه. وربما كان هذا هو السبب وراء تأييد «أحمد بن سعيد» لتنصيب «سلطان بن مرشد» إماماً. وعلى أية حال، قاد «سلطان بن مرشد» هجمات ضد «الفرس»، ورأى

(١) طبقاً لمخطوطةٍ مجهولة المصدر عن تاريخ «عُمان» في المتحف البريطاني، كانت وفاة «سلطان» في السابع والعشرين من ربيع الثاني لعام ١١٥٦ هـ، ١٧٤٣م.

أحد أقاربه المحبوبين لديه مقتولاً فاستشاط ودخل غمار المعركة إلى أن قتل فيها[١].

وأثناء الحصار الفارسي الثاني عام ١٧٤٢ لمدينة «صحار»، صمد «أحمد بن سعيد»، بالرغم من قلّة إمداداته لمدّة تسعة أشهر، بشجاعته وثباته، أمام آلاف من الجنود الذين أطلقوا الآلاف من قذائف المدفعية التي دوّت في المدينة كالرعد. وفي يوليو، أقام «أحمد بن سعيد» صلحاً مع «الفرس» الذين فقدوا ثلاثة آلاف[٢] رجل، فلم يكن لديه أمل في انفراج الأزمة، وتمّ التصديق على هذا الصلح بتنصيب «تقي خان» حاكماً على بلدتي «صحار» و«بركه». وكان أحد شروط التسوية مع «تقي خان» هو التزام العُمانيين بإعطاء جزية في فترات محدّدة للفرس في «مسقط». وبعد رحيل «تقي خان» بقليل، رفض الداهية «أحمد» دفع الجزية في الموعد المحدد، زاعماً عدم امتلاكه للوسيلة المناسبة لإرسال المال إلى «مسقط». ونتيجة لذلك لم يستطع القادة «الفرس» في «مسقط» دفع رواتب الجنود، فتخاذل الكثير منهم. ومن ثمّ حرّر «أحمد» «مسقط» من «الفرس»، وأنجز هذا الواجب الوطني، آخذاً بأن مبدأ الخديعة في الحرب له ما يبرّره. وبكرمٍ شديدٍ دعا جميع جند جيش «الفرس» إلى وليمة عظيمة احتفالاً بنهاية العداءً ورحيلهم. وما أخبرته هنا جاء رواية عن «سليل بن رازق» عن أبيه عن الشيخ «معروف بن سالم الصايغ» عن الشيخ «خاطر بن حامد البيداي» وعن الشيخ «محسن» (الجزار الفارسي)، حيث تتفق جميع رواياتهم بالتّفصيل.

ولم يمضِ كثيرٌ من الوقت حتى قرعت طبول الحرب مرّة أخرى،

---

(١) «كارسن نيبور»، كتاب «الجهاد العربي» «Beschreibung von Arabien»، صفحات ٣٠٠- ٣٠١.

(٢) انظر «غرومبرون»، (مذكّرات قائد وفد الهند الشرقية في غرومبرون .Grombroon» Diary of the Agent and Council of teh East India Company at Gombroon» المجلد الخامس، ٢١ يوليو ١٧٤٣.

وذلك عندما نادى المنادي قائلاً: «من كان له في صدره ضغينة للفرس فليثأر الآن». فكان هذا النداء إشارة لبدء تنفيذ خطّة أعدّ لها العُمانيون العدّة مسبقاً، الكبير منهم والصّغير، فهجموا على ضيوفهم الضعفاء والعزَّل، فذبحوا الضباط والرجال، عدا مئتين من الجنود رأفوا بهم وقاموا بترحيلهم على سفينة متّجهة إلى بلاد «فارس».

ومع ذلك، فعند وصول السّفينة عرض البحر التهمتها نيران مجهولة المصدر ومات كلّ من عليها باستثناء جنود «أحمد». ويعدّ هذا بالنسبة للكثير جزاءً وفاقاً لما ارتكبه هؤلاء الغزاة.

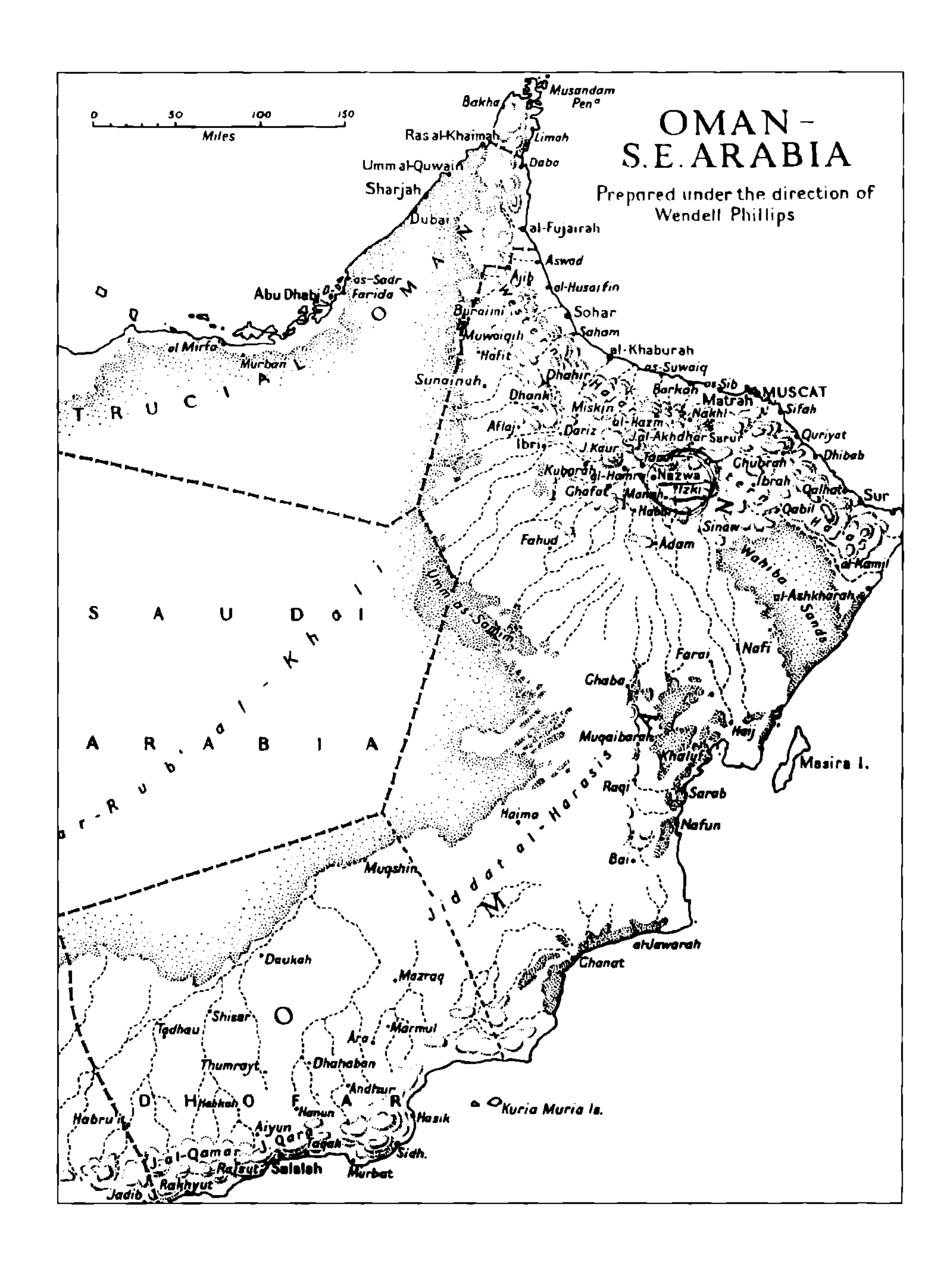
**وثمّة رواية مختلفة على لسان الرحّالة «كارسن نيبور»:**

«أثناء الوليمة، تظاهر «أحمد» بإصابته بوعكة صحّية دفعته للانصراف، لكنه أغلق الباب وراءه، واستدعى جنوده الذين اقتحموا الغرفة ونزعوا الأسلحة من جميع الفرس وغلّلوهم، ثم أطلقوا رصاص البارود عليهم. وقيل إن «أحمد» عاقب فئة منهم بالقتل، وأطلق سراح الباقين للذهاب أينما شاءوا أو العودة إلى بلاد «فارس»»[١].

كان ردّ فعل «محمد بن عثمان» حاكم «ممبسة» **(الملحوظة ب)** إزاء تغيير الأسرة الحاكمة من اليعاربة إلى «ألبوسعيد» هو إعلان استقلاله، معلناً ولاءه لعُمان بهذه الكلمات: «إن كان الإمام قد اغتصب عرش «عُمان»، فأنا قد اغتصبت «ممبسة». وجابه «أحمد» هذا التحدّي بإرسال خمسة من العُمانيين المخلصين إلى «ممبسة» تظاهروا بانشقاقهم عن الإمام، وقالوا له: «لقد انقلبنا على الإمام وجئناك راغبين في الانضمام إليك ولتفعل ما تريد، فسنتبعك في السراء والضراء». فرحّب بهم «محمد» كإخوة، لكنه لم يمضِ كثيرٌ من الوقت حتى اغتالوه وحاصروا «قلعة يسوع»، وأصبح «سيف بن خليفة» حاكماً عليها، وقد كان أحد هؤلاء الخمسة.

---

(١) كتاب «الجهاد العربي» «Beschreibung Von Arabien»، ص ٣٠٣


OMAN -
S.E. ARABIA
Prepared under the direction of
Wendell Phillips
Miles
0 50 100 150
Musandam Pen
Bakha
Ras al-Khaimah
Limah
Umm al-Quwain
Daba
Sharjah
Dubai
al-Fujairah
Aswad
Abu Dhabi
as-Sadr
Farida
al-Husaifin
Sohar
Saham
al-Khaburah
as-Suwaiq
Buraimi
Muwaiqih
Hafit
al Mirfa
Murban
Sunainah
Dhahir
Dhank
Barkah
as-Sib
MUSCAT
Matrah
Sifah
Nakhl
Miskin
al-Hazm
Aflaj
Ibri
Dariz
J. al-Akhdhar
Sarur
Quriyat
Dhibab
J. Kaur
Kubarah
al-Hamra
Nazwa
Izki
Chubrah
Ibrah
Qalhat
Sur
Ghafat
Manah
Habib
Qabil
Sinaw
Fahud
Adam
Wahiba Sands
al-Kamil
al-Ashkharah
Umm as Samim
TRUCIAL
OMAN
SAUDI ARABIA
ar-Rub' al-Khali
Nafi
Farai
Ghaba
Muqaibarah
Khaluf
Hajj
Masira I.
Raqi
Sarab
Haima
Jiddat al-Harasis
Nafun
Bai
Muqshin
al-Jawarah
Ghanat
Daukah
Mazraq
Shisar
Tedhau
Marmul
Ara
Thumrayt
Dhahaban
Andhur
Kuria Muria Is.
DHOFAR
Habbah
Habru
Hanun
Hasik
Aiyun
J. Qara
Taqah
J. al-Qamar
Raisut
Salalah
Sidh
Rakhyut
Murbat
Jadib

بعد ذلك، أُسر «علي»، شقيق «محمد»، وسُجن في القلعة. ثم لم يلبث «علي» أن هرب بمساعدة المقرّبين من أصدقائه، بواسطة حبل معلّق من أعلى القلعة إلى أسفلها، دون معرفة العسكر. وكانت هناك سفينة إنجليزية راسية في ميناء «كلنديني»، وقائدها يدعى «موزنغو كوجو»، جاء لمساعدة «علي» ضد «سيف بن خليفة». وفي المعركة التالية، وضع مدفعاً على السّفينة، وأحدث ثغرة في أحد جوانب الحصن الكبير داخل القلعة، فطلب الحاكم «سيف» رحمتهم به، ونزع أسلحته ثمّ أُسِر وضرب عنقه، وأصبح «علي بن عثمان» حاكماً جديداً، حتى أعادت «ممبسة» إعلان استقلالها عام ١٧٤٦.

في تلك الأثناء، تزوّج «أحمد»، بعد اختياره إماماً من «سيدة يعرُبية» -إحدى بنات البيت الذي عزله- فأنجبت له ولداً اسمه «محمد»، لم يُعرف الكثير عن حياته الشخصية. وقد شكّل جيشاً تألّف من ١٠٠٠ جندي و١١٠٠ من العبيد الأفارقة، وكلّما زحف من مكان لآخر تبعته أربعة ألوية مرفوعة على ساريات: رأس أول اثنتين منها من الذهب ورأس الباقيتين من الفضة. وكان من عادته أنه أينما تحرّك بجيشه اصطحب معه عدداً من القضاة والعلماء والوجهاء ومجموعة من الجلاّدين.

**وقد قال الإمام «أحمد» شعراً يروى:**

إن الرجل الطموح يرث الجنون،
ويملأ صدره بالحنق،
فيبدو صحيح البدن لكنه سقيم،
ويكون صحيح البدن فيبدو عليلاً[1].

---

(١) انظر كتاب «أئمة وسادات عُمان» «Imams and Seyyids of Oman»، ص١٨١.

ويقول الرحّالة «نيبور» إن الإمام «أحمد» لم يستنكف عن أن يزيد من دخله بالمتاجرة بنفسه.

وكان يمتلك أربع سفنٍ حربيةٍ، وعدداً من العربات الصغيرة، كان يستخدمها في وقت السلم في نقل البضائع، من وإلى الساحل الشرقي لإفريقيا بشكل رئيس، حيث يسيطر على منطقتي «كلوا» و«زنجبار»، لكن بتهاونهم هناك تجرأ القراصنة على الطريق الرئيس لمسقط. **(الملحوظة ج)**

وهناك ملحوظتان بشأن «كلوا» يبدو أنهما قد كتبتا بواسطة أحد ربابنة السفن الكادحين وهو «جوزيف كراسونز». وقد أوحى ما جاء بهما للمؤلف «فريمان» أنهما كُتبتا في أواخر عام ١٧٨٤ في حياة «سيف بن أحمد ألبوسعيدي». وقد خلط «فريمان» بين «سعيد بن أحمد»، الابن الثاني للإمام «أحمد»، وآخر إمام بايعه الإباضيون في «عُمان» لتولّي عرش «الرستاق»، وبين «سيف بن أحمد»، الابن الرابع للإمام «أحمد» الذي ولِّي الإمامة، وأُطلق عليه «ابن إمام مسقط»، كما يشير الربّان الفرنسي في ما كتبه:

«بينما كنّا مشغولين بأمر ملك أو سلطان «كلوا»، وصلت سفينةٌ حربيةٌ عليها «ابن إمام مسقط». وقد سلبه أخوه حقّه في الإرث لأنّ شيعته أقوى. ولخوف هذا الابن من عدم استعادة سيطرته على «مسقط»، ورؤيته حماس سلطان «كلوا» لطلب حماية فرنسا، قرّر الانضمام إليه، واعداً بتقديم كلّ ما يلزم فرنسا من حاجتها التجارية على البحار وفي الموانئ العربية و«الخليج العربي»، وتعهّد أيضاً بإمداد قلعة ودار للولاية يقعان في «مسقط» تحت الراية الفرنسية بما تحتاجه. وتعهّد فوق ذلك بدفع جميع النفقات اللازمة في هذا الشأن مبدياً حماسه في الذهاب إلى فرنسا شخصيًّا لطلب هذه الأمور»[١].

---

(١) انظر في «مكتبة الكتب النادرة» «Rare Books Library» بجامعة شيكاغو؛ قسم المخطوطات ١٠٥١، وأيضاً الساحل الإفريقي الشرقي «The East African Coast: Select Documents»، وثائق مختارة، ص ١٩٢، ١٩٤، ١٩٥.

وفي عام ١٧٨٤ أقام «سيف بن أحمد» حصاراً على «ممبسة»، وعلى الفور أرسل الإمام «سعيد بن أحمد» ولده «أحمد» لإغاثة المدينة. وأُجبر «سيف» على العدول عن هدفه واعتزل بنفسه إلى بلدة «لامو»، حيث مات تاركاً خلفه ابناً يدعى «بدر».

وحين وفاته، أصبحت «مسقط» المستودع الأساسي للتجارة بين «الخليج العربي» و«الهند» من ناحية، و«البحر الأحمر» من ناحية أخرى. وقد روي عن سخاء الإمام أنه ذات مرّة أمر بإحضار كيسٍ فيه ألف مسكوكة فضيّة وأعطاها لعاملٍ نظير إتقانه صنعته. وعندما فتحه العامل في بيته، اكتشف أن خادم الإمام أعطاه عن طريق الخطأ ألف مسكوكة ذهبية، فعاد من فوره إلى الإمام الذي استمع إليه باهتمام، ثم قال: «هذا من فضل الله، فاشكره على نعمته».

وبعد ٣٤ سنة متقلّبة ومضطربة من الحكم، وهي فترة كدّرها ولداه العاقان «سيف» و«سلطان»، ولداه الرابع والخامس، اللذان ولدا في مدينة «آدم»، عاش الإمام «أحمد» ثماني سنوات[1]، ثم مات في «الرستاق» (**الملحوظة د**)، ودفن قرب المسجد الكبير في يناير عام ١٧٨٣، وترك وراءه سمعةً طيّبةً لوطنيته وعدله وسماحته الدينية التي شملت حتى الهندوس.

ولمّا كان «هلال»، أكبر أبناء «أحمد» وأكثرهم دهاءً في الوقت نفسه، قد حُرم من منصب الإمامة بسبب إصابته بالعمى، فقد وقع الاختيار على الابن التالي «سعيد»، آخر إمام بايعه الإباضيون في «عُمان». وقد أثبت «سعيد» ضعفه ولامبالاته وعجزه، ممّا جعله -كما يقول «سليل بن رازق» - بغيضاً عند جميع قومه. وخلال الجيل الثالث من حكم «ألبوسعيد»، نقلت العاصمة التقليدية من «الرستاق» إلى «مسقط»، تحت قيادة «حمد

---

(١) «جيه. مالكولم»، من كتابه «إطلالة على بلاد فارس» «Sketches of Persia»، (لندن، ١٩٢٨)، المجلد ١، ص ١٣.

بن سعيد»، الذي استولى على الحكم وليس الإمامة، بالاحتيال والغشّ عنوة عن أبيه «سعيد»، الذي جعل «مسقط» أغنى ميناء على «الخليج العربي»، قبل موته بالجدري. فعلى لسان «سيّدة» بنت الإمام:

«مسقط» الآن هي الكنز الأعظم في «عُمان»، ولا بدّ من الدفاع عنها بواسطة رجال أوفياء لا يولّون الأدبار عند الحاجة إلى مساندتهم».

ويُقال إن العلاقات الغربية الحديثة مع «عُمان» بدأت عام ١٧٨١، عندما أسرت مراكب القرصنة الفرنسية البارجة العُمانية «صلاح». ولكن عندما عادت إحدى السفن الفرنسية التي تسمّى «لا فيليبين» عن حمقٍ إلى «مسقط» من أجل المؤن، نجح «حمد» في إرغامها على الاستسلام، وقبض على طاقمها. بهذا الفعل حافظ على كرامة واستقلال «عُمان». ظهر ذلك عام ١٧٩٠ في معاهدات الصداقة التي أبرمت بينهما، وكان من بنودها إعادة تسمية السفينة الفرنسية «اسكوريال» باسم « صلاح» وتسليمها لـ«حمد» كتعويضٍ.

**وها هو خطاب «حمد» الذي عبّر فيه عن شكره لاسترداد حقه:**

«لقد كان لكلماتكم عظيم الأثر في أنفسنا، فقد وصلتنا هديتكم الكريمة. وعلى الرغم من أنّ السفينة التي وصلتنا صغيرة جداً ولا تساوي ربع التي فقدناها نحن، فهي في أعيننا أكبر وحيازتنا لها أعظم. فكلّ شيء مشاعٌ بيننا، ونحن نقدّر هذا حتى لو لم نتسلّم الهديّة».

وأثناء عام ١٧٨٤، وهو العام الذي نقلت فيه العاصمة إلى «مسقط»، أُرغم «سلطان»، الابن الخامس للإمام «أحمد»، على ترك «عُمان». فخلّف «أحمد» من ورائه صراعاً بين الأخوة، كما هو الحال مع كثير من مؤسّسي الأسر الحاكمة في «عُمان». ووصف «سليل بن رازق» هذا الأمير بأنه طويل النجاد، رفيع العماد، شجاع، مفعم بالحيوية، لا يكترث بعدد أعدائه،

يفضّل قلّة الأنصار على كثرة الأتباع، وكان لا يميل في حكمه على أحد. ووجد ملاذه عبر خليج «عُمان» في «مكران»، وهناك كوّن صحبة تمكّن عن طريقها من الوصول إلى «ناصر خان الأول» حاكم «كلات»، الذي وافق في بادئ الأمر على أن يساعد «سلطان»، على أن يكون والياً على «عُمان». ثم غيّر رأيه ووهبه ميناء ومقاطعة «جوادر» التي كانت في ذلك الوقت قرية صيد لا يؤبه لها. كانت «جوادر»، على بعد ٣٠٠ ميل غرب منطقة «كراتشي» الحالية. وقد زعم «ناصر خان» حكاية لطيفة بشأن «سلطان»، وهي أنّه سيمتلك أرضاً على مدّ البصر، وسيعتمد سلطانه على المرتفعات وعلى حالة الطقس. وحتى عام ١٧٩٢، جعل «سلطان» «جوادر»[١] قاعدة للبعثات الاستكشافية على الساحل العربي المقابل. لكن في هذا العام، مات ابن أخيه «حمد»، الذي قال إنّه لم يكن هناك ملك أو بطل يضاهي عمه «سلطان» في جلده وشجاعته. وقد استطاع بالغدر والعنف[٢] الممتزجين بالفطنة والشجاعة المفرطة أن يتغلب على كلّ منافسيه، وأن يصبح حاكماً لعُمان يدعمه الحزب الغافري، لكنه لم يبايَع أبداً كإمام. كان هذا اللقب الروحي لا يزال يحمله أخوه الأكبر «سعيد بن حامد» الذي تمكّن من البقاء على مدار أربع ولايات من الحكم عاصرها في حياته، وكان بالرغم من ضعفه يحذّر من الجبن، ويعتبره صفة ذميمة. وزادت هذه النجاحات غير الطبيعية من شهرة «سلطان»، وأثارت ظمأه للغزو، فلم يلبث أن أرسى قوته في «مسقط» حتى أقام حدوداً لتأمين «جوادر»

---

(١) بعد ١٦٦ عاماً، في الثامن من سبتمبر ١٩٥٨، نقل السلطان «سعيد بن تيمور» «جوادر» إلى باكستان تعويضاً عن خسارة الإيرادات، وكذلك للحصول على دخل ونسبة مئوية من أيّ بترول مستقبليّ يتمّ إكتشافه في المنطقة.

(٢) بناءً على حفيظة شخصية، أمر «سلطان بن سعيد» بأسر وسجن «خاسف بن مطر» في القلعة الغربية في «مسقط» ومنعه من الطعام والشراب حتى يموت تدريجيًّا، ثم يوضع جسده في قارب ويقذف في اليمّ بعيداً عن اليابسة.

كمنطقة مستقلة عن «عُمان». وقد أوفد «سيف بن علي» بكتائب لحكم المنطقة وبناء قلعة هناك.

لم يتضح الخلاف على الهوية في الإسلام بين كونه إمبراطورية ودين إلا مع معاهدة شركة الهند الشرقية الإنجليزية عام ١٧٩٣، حيث ورد فيها ما يصرح بأن «إرسال مبشّرين إلى أراضينا في الشرق يعدّ عملاً يتّسم بالتهوّر الطائش». وفي الثاني عشر من أكتوبر عام ١٧٩٨، وهو العام الذي أحرز فيه «نيلسون» نصره الباهر عند نهر النيل، قامت شركة الهند الشرقية بإبرام معاهدة تجارية تتكوّن من سبعة بنودٍ في محاولة لإخراج الفرنسيين من إقليم «سلطان» وإخراج سفنها من موانئه، وكذلك طرد حلفائهم الهولنديين من «عُمان»[1].

وقد تمّ التفاوض بنجاحٍ بشأن هذه المعاهدة بواسطة ماركيز بلدة «ويلسيلي» «ميرزا مهدي علي خان»، ليتولّى منصب المندوب السامي في «بوشهر». مثّل هذا الانتصار الدبلوماسي لبريطانيا أول تدخّل وتجاوز سياسي في شؤون «عُمان» وأوّل احتكاك سياسي بحاكمٍ عربيٍ. وتمّ التصديق على هذه المعاهدة وتعزيزها في عام ١٨٠٠. كانت ستتضح أهمية هذا الإنجاز إذا صحّ وقوع «سلطان» تحت تأثير طبيبه الفرنسي الخاص، وربّما أنّ هذا التأثير كان له دورٌ. ففي العام التالي، كتب «نابليون»، الذي بهر ظهوره اللامع، ونجاحه غير العادي، وشخصيته الجريئة، عقول العرب، فضلاً عن حلمه بتدمير «إنجلترا» بغزو غرب آسيا عن طريق مصر، معرباً عن مكانة «عُمان» لديه في ذلك الوقت، فقال:

«أكتب لك هذا الخطاب لأؤكّد لك ما قد تكون علمته بشأن وصول

---

(١) انظر «إيتشيسون»، مجموعة معاهدات والتزامات متعلقة بالهند والدول المجاورة «A Collection of Treaties, Engagements and Sanads relating to India and Neighbouring Countries»، مجلد ١١، (دلهي ١٩٣٣)، ص (٢٨٧ - ٢٨٨).

الجيش الفرنسي إلى «مصر». وحيث إنك كنت صديقنا في جميع الأحوال، فتأكد من رغبتنا في حماية سفن شعبك. وعليك أن تتولى إرسالها إلى «السويس» حيث سيجدون الحماية الكاملة لتجارتهم».

وتمكّن النقيب «صامويل ويلسون» العميل البريطاني في «موكا» من اعتراض طريق هذا الخطاب وآخر غيره، أرسلهما «نابليون» إلى «تيبو صاحب» سلطان «ميسور»، ويُشير فيه إلى إمكانية مساعدة «تيبو» في إجلاء البريطانيين. وتجنّباً لإضاعة الوقت والكلام، كتب المندوب السامي في «بوشهر»، بناءً على تعليمات من ماركيز «ويليسلي» الحاكم العام في الهند، إلى «سيف بن محمد» نائب حاكم «عُمان»، أثناء غياب الحاكم بصورة مؤقتة، بسبب قيامه بحملة ضد «القواسم»، يخبره فيها أن يرعى صداقة وتقدير الحكومة الإنجليزية، بما أنها الروح التي تتنفس بها «مسقط» وتحفظ بها كيانها، وليخفّف من المؤاخاة الفرنسية كمصدر إزعاجٍ[1]. وتمكّن الفرنسيون، خلال هذا العام، من أسر السفينة العربية «بيرل»، التي تحمل العلم البريطاني وسيقت إلى «عُمان» حيث عرضت كجائزةٍ.

استمرّ «سلطان» في مصافاته للفرنسيين، وكان رفضه قبول مندوب فرنسي دائم في «مسقط»، وقرارة بقبول مندوبٍ سامٍ إنجليزي، يرجع إلى أهمّية التجاره الهندية التي يسيطرعليها البريطانيونً، والتي تمّ التفاهم بشأنها بناءً على مبادرة اللورد «مورتنغتون»، بواسطة القائد «جون مالكولم» في ١٨ يناير عام ١٨٠٠.

«يجب تفويض رجل إنجليزي ذي مكانة ليعمل وكيلاً للوفد الكريم، حتى لا تنشأ أيّة فرص لتدبير المكائد ضد الرجال، الذين لم تكن لديهم

---

(١) لوريمير، «دليل الخليج العربي وعُمان ووسط الجزيرة العربية» مجلد ١، ص ٤٢٩.

الرغبة أبداً في تأييد الشقاق والنزاع، وحتى لا يكون هناك ما يعكّر صفو العلاقة بين البلدين دائماً أبداً[1].

**وقد كتب السيد «جون مالكولم» عن «سلطان»:**

«لقد وجدناه بسيط الهيئة، مرتدياً شالاً وعمامة حول رأسه، وكان عليه عباءة من القماش القطني أو الحريري ليست مزخرفة. لا يتحلّى بأيّ حلي، ولا يسبل ثوبه، يتّسم بالبساطة والرّجولة»[2].

وهكذا قال السيد «جون مالكولم» أيضاً أمام محكمة «فتح علي شاه» الفارسية في أولى مهامه السياسية التاريخية:

«ماذا كان سيحدث لتجارة «مسقط» إذا أغلقت مرافئ الجزيرة الهندية أمام سفن تجّار «مسقط» بأمر من السلطة العليا؟ فوضع «سلطان» يده على رأسه، ثم على صدره، ثم أعلن قبوله العرض بكلّ جوارحه، واستعداده لتوقيع الاتفاقية في الحال. وصرّح عن استعداده للقبول، حتى لو كان نصّ الاتفاقية يلزمه بتوكيل ألف رجل انجليزي. وقال «مالكولم» «إنه لا يشكّ في إخلاصه لأنه يدرك كيف يدبّر مصالحه» **(الملحوظة هـ)**.

ومع ذلك، لم يسمح للمندوب السامي أن يرفع العلم البريطاني في مسقط. وكانت خشية «سلطان» من أن تحدث إعاقة لتجارته التي يعتمد عليها في إمداداته أكثر من محاباته للإنجليز الذين كان تعاملهم مع

---

(١) انظر: «سي. إف. أدم»، «حياة اللورد لويد» «Life of Lord Loyd» (لندن، ١٩٤٨)، ص ٣٨. انظر أيضاً «جيه. إتش. ميد»، سلطنة مسقط وعُمان «The Sultanote of Muscat and Oman», Asiatic Review، مجلد ٢٤، (١٩٢٨)، ص (٥٧٤- ٥٧٥)

(٢) انظر: تعليمات إلى «مالكولم»، ١٠ أكتوبر ١٧٩٩. راجع «مارتين»، «مهام وبنود مراسلة ماركيز ويليسيلي خلال إدارته في الهند» «The Dispotches, Minutes and Correspondence of Marques Wellesly during his Administration in India»، مجلد ٥، (لندن، ١٨٣٧)، ص( ٨٢ - ٩٠). انظر أيضاً «جون مالكولم»، «إطلالة على بلاد فارس» «Sketches of Persia».

الأمر يثير الغيظ لدى الفرنسيين، الذين أعاروه في يوم من الأيّام اهتماماً كبيراً وأسبغوا عليه العطايا. وفي عام ١٨٠٢، كتب «تاليران» لنابليون أن «مسقط» مكان له أهمّيته. وفي العام السابق قام أحد فيالق الجيش الفرنسي بمساعدة «سلطان» ضد «البحرين».

وفي خطاب كُتب عام ١٨٠٤ للقائد العام، قال القائد الفرنسي (العامل بنقل العبيد) «ب. دالونز»:

في عام ١٧٨٨، أمرت الحكومة الفرنسية قائد سفينة حربية يدعى «روسيلون» بزيارة كلّ موانئ التجارة في أفريقيا، ثم الذهاب إلى «مسقط» ليدرس هو و«سلطان» الرسوم الواجب دفعها من قبل الفرنسيين. وقد اتفقا على خمسة قروش [نظير العبد] بخلاف البضائع. ولم تَدُمْ هذه الاتفاقية طويلاً. فعند قيامي برحلة إلى «زنجبار» و«كلوا» عام ١٧٩٩، طلب مني دفع ثمانية قروش بدلاً من خمسة. واستمرّت الرسوم في الارتفاع. فالعرب -لتأكّدهم من الحصانة التي يحظون بها- أصبحوا يأتون أفعالاً أكثر غيظاً ويبالغون في مزاعمهم. وكان الأحرى بالقائد العام أن يُعلم سلطان «مسقط» بما يعانيه الفرنسيون من سوء معاملةٍ، وافتقادهم للثقة عند التجارة مع الموانئ العربية، حتى ينظّم معدّل الرسوم التي يدفعها الفرنسيون، وأن يخوِّل السفن حقوقاً خاصّة»[1].

ولكن في العام نفسه -١٨٠٤- انتهى حكم «سلطان». ولتفسير هذا، يجب أن نعود إلى ما قام به المؤسّس الأكبر لهذا البيت «أحمد بن سعيد»، وهو تدميره للأسطول الفارسي. أحرز الإمام هذا الانتصار ومعه عشر سفن مجهّزة حربيًّا، يدعمها عشرة آلاف رجلٍ في مراكب شراعية. فقام الفرس

---

(١) «الساحل الإفريقي الشرقي؛ وثائق مختارة» «East African Coast: Select Documents»، ص (٢٠٠ - ٢٠١). الوثيقة الأصلية من سجلات «موريشيوس»، رقم ١١٩، ١٨٠٤.

بمدّ سلسلة طولها ٤٢٠ قدماً، تدعمها المراكب كسُورٍ دفاعي عبر شطّ العرب، إلّا أن الإمام كسر كلّ هذا بسفينته الشراعية «الرحماني». ثم تبعت ذلك معركة متلاحمة انهزم فيها الفرس هزيمةً نكراء. وتقديراً لهذه الخدمة للأمراء الآخرين، الذين اعتبروا أن الفرس كانوا مصدر تهديد بالنسبة لهم، بادر السلطان التركي العثماني «مصطفى الثالث»، عام ١٧٥٦ بتقديم دعمٍ سنويٍ يدفعه السلاطنة الأتراك إلى حكام «عُمان». وفي عام ١٨٠٤، ذهب «سلطان» شخصيًّا إلى «البصرة» لتحصيل هذا الدعم. وعند عودته إلى «مسقط»، هوجمت سفينته «البدري» بواسطة أسطولٍ صغيرٍ مكوّن من ثلاثة مراكب للقرصنة يقودها «الشويحيون»، من شبه جزيرة «مسندم»، عند «لنجه» على الساحل الجنوبي لبلاد «فارس».

حدثت المواجهة الأولى في منتصف الليل. فصاح «سلطان» قائلاً: «هذا مركب «سلطان بن أحمد» الذي يجيبكم»، فردّ القراصنة: «نحن نبحث عن «سلطان»، فأجاب «سلطان»: «أرخو أشرعتكم وبمشيئة الله نتقاتل عند الفجر». وعندما ناشده بعضٌ من أتباعه الهرب في الليل في قارب صغيرٍ، أجاب «سلطان»: «إن الله يُحرّم أن أترك رجالي عند الخطر». وفي قتالٍ ضارٍ عند الفجر كان سلطان يتفادى الضربات والسهام الموجّهة إليه. وعندما لاح له النصر، واتته النهاية الأليمة غير المتوقعة على أيدي أحقر الناس شأناً، فقد أصابته طلقة بارودة في فمه ومات بجرحه. وأسر أفراد طاقمه ثم أُطلق سراحهم، لكنّ القراصنة سلبوهم السفينة. وطبقاً لما قاله «سليل بن رازق» من أخبار وفاة «سلطان»، فقد سبّب خبر وفاة «سلطان» حزناً عمّ أرجاء «عُمان» بأسرها. ولم تكن وفاته بداية انهيار «عُمان» كما تنبّأ الكثيرون، لكنها كانت بداية النهضة.

وفي حين أن أسرة «ألبوسعيد» سيطرت على «عُمان» عند وفاة «سلطان»، فقد بدأت «ظفار» تدخل في إحدى فترات استقلالها، تحت قيادة مغامر جسور؛ وهذه فترة تاريخية فاصلة مليئة بالإثارة.

وفي عام ١٨٠٥، أسرت السفينة الحربية ذات الصاريين «إيسكس» وأبعدت عن جزيرة «كَمَران» المحصّنة على يد «محمد بن عقيل» من حاكم «موكا»، الذي لقّب نفسه بـ«رعب البحر الأحمر». ربح هذا النخّاس ١٢٠,٠٠٠ دولار من أجل فعلته هذه. وقد ذبح القائد «جوزيف أورم» وطاقمه، ولم ينجُ إلا صبي، كان يعمل خادماً للسفينة وعمره ١٠ سنوات، وقد تبنّاه قائد القراصنة.

وفي العام الذي أعقب هذه المذبحة، تمكّن «محمد» من تفادي الوقوع أسيراً لسريّة من الخيالة، واستحوذ على «ظفار». وهناك حكم بعدل ومعه حاشية كبيرة تتكون من خمسمئةٍ من الرقيق من عاصمته «صلالة»، حتى اُغتيل غدراً عام ١٨٢٩ على يد الشيخ «سالم بن ثوري» من فرع «بيت قَطن» من قبيلة «قَرَا» بسبب ضغينة قبَلّية. وقد أصيب السيد[1] «سلطان» بفتيل مشتعل في منطقة بها شجيرات، عندما كان عائداً من «مُرباط»، وتخلّت عنه حاشيته فأجهز عليه الشيخ «سالم». وعرض السلطان «سعيد الأكبر» حكم منطقة «ظفار» على ابني «محمد»، فلم ينتفعا بهذا العرض بسبب ذكرى وفاة والدهما التي لم تفارقهما.

أثناء السنوات التي أعقبت أسره، كبر خادم السفينة وحقّق نجاحاً في «ظفار»، وكانت كنيته «المسلم عبد الله»، وتزوّج، وأصبحت له أسرة. كان «عبد الله» قد نسي لغته الأم تقريباً. وفي عام ١٨٣٦، كان المواطن العُماني الأميركي الأصل قد بدأ يقوم بحملاته العسكرية ضد قبيلة «قَرَا»، وأسس

(١) يصف القائد «هاينز»، وهو شاهد عيان، السيد «محمد» على أنه عاد إليه ضميره في آخر سنواته فأصبح مخلصاً وتقيًّا، ومعارضاً لسفك الدماء وأصبح موقراً من أجل حياديته. ويقول «هاينز» إنه في ظلّ حكمه العادل ازدهرت بلدة «ظفار» وزادت التجارة فيها. سيرة عن السواحل العربية الجنوبية والشرقية، الجزء الثاني، مجلة المجتمع الجغرافي الملكي «The Journal of the Royal Geographical Society»، المجلد ١٥، (١٨٤٥)، ص١٢١.

كياناً خاصًّا به حافظ عليه طيلة حياته[1]. ثم اضطرب الإقليم بالكامل بعد وفاته. وفي عام ١٨٤٣، لاحظ الدكتور «إتش جي كارتر»، منذ اغتيال السيد «محمد»، أمراً قال فيه:

الآن، ومنذ ١٤ عاماً، أكّد أمراء كلّ مدينة استقلالهم السابق، وكنتيجةٍ طبيعيةٍ ثارت حالة من الغيرة بين كلّ المدن، والتي انتهت بكراهية مميتة بين سكّانها لدرجة لا يجرؤ معها أحدهم على الذهاب من مدينة لأخرى إلا باصطحاب حارس، بينما أصبحت «ظفار» المدينة الخصبة الآن في حالة من الضياع والفوضى.

في الجبال المطلّة على ساحل «مالابار»، يعيش ما يقرب المليون من «المبلاح» -وهم من نسل نساء هذه البلاد والتجّار العرب- وهم أيضاً من المسلمين المتعصّبين. في عام ١٨٥٢، طُرد رجل دينٍ من «المبلاح» يدعى سيّد «فاضل بن عَلَوي»، (وهذا اسم حضرمي)، من ساحل «المالابار»، وذلك لإثارته المتاعب. فقد اُعتُقِد أنه حرّض على جريمة اغتيال الحاكم البريطاني. وفي فبراير عام ١٨٧٦، وصل «فاضل» إلى «ظفار» وأصبح سيّد المسرح السياسي. وعندما أتى الذكر على راية سلطان «عُمان»، نصح بازدراء كلّ من اهتمّ بها بـ «صنع وسادة منها». وكان قد دُعي إلى «ظفار» من قبل بعض أسياد قبيلة «الغُرَّة» الذين قابلوه أثناء الحج إلى مكة. وكان تعداد قبيلة الغرّة يبلغ ٣٥٠٠ مقاتل، بالإضافة إلى ألفين من قبيلة «بيت كثير»، فكانت هذه قاعدة سلطته في «ظفار».

وثمّة ريبة في أن «فاضل» حاول أن يجعل ملكه الجديد نموذجاً على

---

(١) كانت حياة ومغامرات الصبي الأميركي مروّعة وشيّقة كما يتمنّاها أيّ روائي. وإنه لمن دواعي الشفقة أن أحداً لم يقابل هذا الشيخ قبل مماته، والذي حدث منذ أكثر من ٢٠ عاماً. السيد «تيودور بينت»، «البلاد العربية الجنوبية» «Southern Arabia» (لندن ١٩٠٠)، ص ٢٤٧.

الطراز الحديث. فقد أسس قلعة في «صلالة» جعلها عاصمته، وفرض ضريبة قدّرها بخمسة في المئة على جميع الواردات والصادرات. وتألّفت إدارته من ستين رجلاً انشغلوا جميعاً في جباية الضرائب. كان أمل «فاضل» هو زيادة صادراته من المطّاط الذي ادعى أنه ينمو خلف الساحل، وأرسل مبعوثاً إلى الهند ليُحضِر أحداً ممّن لديهم دراية بانتاج المطّاط. وبعدما اغتصب «فاضل» السلطة بحوالى ١٨ شهراً، وبالرغم من شهرته بالورع، طُرِد بسبب تصرّفاته القهرية والتعسفية (فقد حدث أن سجن ٨٠ رجلاً لممارسة السحر). والأخطر من ذلك بالنسبة لرجل يعرف بحكمته وورعه أن «ظفار» عانت قحطاً شديداً في صيف عام ١٨٧٨، فكانت هذه هي القشّة التي قصمت ظهر البعير. وسعى «فاضل» حينها ليؤكّد على أن هذا العقاب السماوي كان نتيجة لتراخي القبائل في دفع الزكاة، إلّا أن طرده كان لطمة شديدة لهيبته. وقد مات كثيرٌ من قطعان الماشية في هذه الفترة، وارتفعت أسعار الغلّة والحبوب. وبينما أرسل فاضل في طلب الإمداد من «اليمن» و«جدّة»، هرب ثلاثمئة من أهل «ظفار» إلى «مسقط» لعجزهم عن تحمّل هذا العناء وعملوا في خدمة السلطان تركي[١].

وبالرغم من وعيه في تلك الأيام بأنّ البريطانيين نظروا إليه نظرة عدو لا صديق، فلم يمنعه ذلك من الدخول في مفاوضات مع المندوب السامي في «عدن»، عام ١٨٧٧، أملاً في نيل أيّ اهتمام من البريطانيين. وفي العام التالي، اقترح على شركة الملاحة البريطانية الهندية حيازة إحدى بواخرها

(١) انظر «الخطاب السرّي إلى عدن» «Aden Secret Letter»، رقم ١٨٨/٩ (١٢/٢/٧٦) محتويات رقم ١٥٤/٢٨ (٧/٢/٧٦)، ١٣٢٢/٣٩ (٢١/١١/٧٧)، ٧٩/٣ (١٨/٢/٧٨)، ١٤٣٦/٢٦ (٢٩/١٠/٧٨)، ويحتوي أول دليل على الاعتراض ضد حكم «فاضل»، و١٥٥٩/٣٠ (٢٢/١١/٧٨)، ويعتمد على تقارير شهداء عيان عن المتحدث باسم «عدن»، الذي يكشف نشاطات «فاضل» الإقتصادية.

بناءً على استدعاء شهري في «صلالة»، وعرض أن يضمن شحن ما يساوي مئتي دولار من البضائع على متن كلّ باخرة. وتجنّب البريطانيون أخذ أيّ موقف من شأنه الاعتراف بمنصب «فاضل»، حيث إنهم لم ينسوا حياته المهنية الماضية في الهند. فقد كان يعتبر من أخطر المتعصبين الدينيين، وهو ما قد يدفعه إلى التدخّل في الشؤون السياسية للهند نكايةً ببريطانيا، كما أن علاقته بالإمبراطورية العثمانية التي لا تعترف بأذرع بريطانيا في جنوب شبه الجزيرة العربية زادت من ريبتها تجاهه.

وسعى «فاضل» إلى تمهيد طريقه لدخول القسطنطينية، في مايو عام ١٨٧٩، فعرض على السلطان «عبد الحميد الثاني» الاستيلاء على بلد آخر، وطلب بالمقابل باخرتين وخمسمئة جندي. وقد قيل إنّ «فاضل» جُعل وزيراً ثم عُيِّن حاكماً على كلٍّ من «ظفار» و«حضرموت» بعد ذلك[1].

في غضون ذلك، أرسل أهل «ظفار»، بعد سنوات من الاضطراب والإضراب الداخلي، وفداً ممثلاً إلى «مسقط»، يرأسه الشيخ «عوض بن عبد الله»، من شِعب «شنفري»، وهم من بيت «كثير»، لمطالبة السلطان تركي بمدّ السلطة العُمانية لتشمل معها «ظفار». ووصل الوفد في وقت كان السلطان فيه هائجاً، لأن خادمه السابق «سليمان بن سويلم»، تحوّل إلى قائد في الجيش بعدما كان في خدمة البيت. لذا قال مستشاروه: «لِمَ لا ترسل مستشارك إلى «ظفار» والياً عليها، فإن نجح كان خيراً، وإن قتل فليس المصاب كبيراً».

لذلك عندما شقَّ «فاضل» البحر الأحمر بسفينة محمّلة بالجنود

---

(١) ارجع إلى «خطاب عدن السرّي» رقم ٩١٧/٢٦ (٧٩/٦/٥)، ورقم ١٣٤٥/٢٩٢ (٧٩/٩/٣)، ورقم ١٥٧٣/٣٤ (٨٠/١٠/١٣). انظر أيضاً رقم (٧٨ تركيا) ١٨٧٩ الهند.

الأتراك وكتائب مسلّحة ببنادق «مارتيني-هنري» والعتاد والدعم المعنوي من قبل أمير «جدّة»، علم بأن «ظفار» عادت تحت حكم سلطان «عُمان». لذا، عاد الأتراك المحبطون صفر اليدين، فلم يكن أيّ جزء من «عُمان» تحت سيطرة الحكم العثماني بالرغم من أن معظم البلدان العربية كانت خاضعة لهذا الحكم في وقتٍ ما.

وصل العبد المعتوق «الوالي سليمان» إلى «صلالة» بصحبة الشيخ «عوض» ومعه أقلّ من عشرين جنديًّا، حيث تمكّن بشجاعته وقوة شخصيته وصرامته وقدرته على التنظيم الجيّد من إعادة «ظفار» تحت راية السلطان.

ولم تنته محاولات «فاضل» في تثبيت أقدامه في «ظفار». ففي عام ١٨٨٦، وصل ابنه «محمد» إلى «عدن» على متن سفينة بريطانية مع مئة من العرب وأسلحة كثيرة للاستيلاء على «ظفار»، فقام المندوب السامي بتأخير السفينة لعدم وجود ضابط طبيب مؤهّل على متنها، وصادر الأسلحة، مرغماً بذلك «محمد بن فاضل» على ألا يصدر منه أيّ ردّ. أعلن «محمد»، وعلى الفور، نفسه ضابطاً تركيًّا تمّ إرساله ليحكم «ظفار»، بينما أخبره المندوب السامي أن حاكم «ظفار» هو سلطان «عُمان». وقيل إنه لمّا شعر «محمد» بالإحباط، توجّه إلى «الحُديدة» عام ١٨٧٧، وهو في طريقه إلى مكة، في محاولة منه للوصول إلى «ظفار» برًّا، وهذا مبلغ علم الكاتب[(١)].

في غضون تلك الفترة، حاول أحد أبناء «فاضل» وهو «أبو بكر» أن يوطّد نفسه في «المكلّا» بمساعدة البريطانيين، بعد فشله في الحصول على

(١) «خطاب عدن السرّي» «Aden Secret Letter» رقم ٣ (٢٧/ ١/ ٨٩)، مرفقاً برسالة من المندوب السامي إلى حكومة «بومباي» (٢٠/ ١/ ٨٦)؛ و«خطاب عدن السري» رقم ١٥/ ١٤٨٠ (١٨/ ٧/ ٨٧)، مرفقاً برسالة من المندوب السامي إلى حكومة «بومباي» ٢٤٢/ ١٤٧٩(١٨/ ٧/ ٨٧).

مساعدة التُرك، فقابل السيد «إيفيلين بارينغ» في القاهرة، مقترحاً أن تكون «المكلّا» تحت حماية البريطانيين مع تنصيب «أبي بكر» في الحكم. وقد أُخبر السير «إيفيلين» بألا يتخذ أيّ إجراء تجاه «أبي بكر». وقد أقنع هذا الحدث البريطانيين بأنه قد حان الوقت لإعلان وصايتهم الكاملة على «حضرموت». (**الملحوظة و**)

ومع حلول عام ١٨٧٩، أصبح «فاضل» أحد مستشاري السلطان «عبد الحميد» القلائل في قصر القسطنطينية. وفي صيف هذا العام، قدم تقريراً للسلطان عن الهند البريطانية، وعن السبل الممكنة لهدم السلطة البريطانية في الشرق. فتبيّن له أن البريطانيين لديهم القدرة على إخضاع الهند بقليل من الكتائب، وأرجع هذا إلى مهارتهم السياسية في المحافظة على العرف، والقوانين المحلية، واستمالة الأمراء والقادة الهنود بالمال والتجارة. فبدا له أن الحكم البريطاني لن يضمُر، وإنما سيزداد قوة.

ونعود إلى المشهد في بلدة «ظفار»، فقد ترك لنا المستكشف «تيودر بينت» نظرة شاهد عيان عن «ظفار» التي صارت أسيرة لدى الوالي «سليمان»، فقال عنها: «فيها كثرة من السجناء المغلّلين بالحديد، أما أسوأهم فمقيّدون إلى ألواح من الخشب. ويؤدي هؤلاء السجناء صلواتهم ليلاً في أحد الأركان خلفَ أحد الموالي المسجونين، ويتفجّعون على ما اقترفوا من ذنوب في ساعات الليل القليلة. وهذا يدلِّل على هيمنة الوالي «سليمان» على جيرانه، فلم يكن له مثيل بين سلاطين «حضرموت»[(١)].

كان الوالي مشتركاً في الحركة العربية التي تسمّى «سيقود الذي عنده قوة وسيبقى الذي يستعتي». وبقيت هذه الحركة لفترة استوطن فيها التمرّد

(١) «تيودر بينت»، «استكشاف بلد البخور، البلاد العربية الجنوبية» «Exploration of the Fronkincense Country, South Arabia»، المجلة الجغرافية، المجلد ٦، (١٨٩٥)، ص ١١٧.

واستفحلت الضغينة. فإذا كان لديك ثلاثة من الإبل، طلب «سليمان» اثنين منهما للعمل لصالح الحكومة دون مقابل. ولمّا رفض «سليمان» مطلب الشيخ «عوض» بشأن قتله أناساً كثيرين، غادر الشيخ «عوض» «ظفار» ومات في «حضرموت».

وازداد الاستياء القبلي في «قَرَا» بسبب جباية الضرائب، بالرغم من أن الوالي خفضها من خمسة بالمئة إلى أربعة بالمئة. وانتشر القتل فيهم بالرغم من أن العرب يقاتلون سنين طويلة دون سقوط أحدٍ منهم. وأخيراً، أوقف الوالي استيراد الأسماك المجفّفة من الجبال، رغم أنها كانت المصدر الرئيس لعلف الماشية والإبل في الموسم الجّاف، ثم انقطع العداء الصريح في هذه الفترة.

وبعد سنوات من الحكم المتعسّف، اندلعت المتاعب، فألحّ «سليمان» في طلب المساعدة من السلطان التركي. فأوفد السلطان على الفور ابنه «فيصل» الذي عاد بعدها بقليل إلى «مسقط» بخمسةٍ وثلاثين من «بيت كثير» مغللّين بالأصفاد. وفي غضون فترة قصيرة، مات السلطان التركي وأطلق السلطان الجديد «فيصل» سراح المساجين، وسمح لهم بالعودة إلى بيوتهم في «ظفار»، وليس في ذهن أحدهم سوى قتل «سليمان» وأسرته.

وفي أواخر عام ١٨٩٥، غادر الوالي «سليمان» إلى «مسقط» ليستمتع بإجازة ينتفع بها، تاركاً خلفه ثلاثة أبناء وابن أخ يدعى «مسعد بن سعد». وقبل أن يرحل عيَّن «مسعد» والياً مؤقتاً. وكان هذا خطأً كبيراً، حيث كانت شخصية «مسعد» بالغة السوء، ولم تكن له فئة ينصرونه عند قيامه بإرغام الناس على العمل الشّاق وإعاقته ومضايقته لنساء البلد.

وذات يوم، عندما كان «مسعد» جالساً في قاعة القصر، اقتحمته فئة من «بيت كثير» وانقضوا عليه وعلى ابن سليمان الأعرج «علي»، وقطَّعوهم إرباً، هم وأحد عشر فرداً من العسكر، وواصلوا تدمير القلعة وكلّ ما فيها، بالرغم من اعتراض العسكر طريقهم. وهرب ابنا «سليمان» الثاني

والثالث، وهما: «سالم» و«مظفّر»، الذي كان عمره ١٠ سنوات آنذاك، من «رزات» (قرب المعمورة حاليًّا) مع النساء إلى «مُرباط»، على بعد ٤٠ ميلاً إلى الشرق. في هذه الفترة، قام أحد خدم «سليمان» المقرّبين، وهو «بخيتْ النوبي» مع ٥٠ من الجنود باللجوء إلى «مرباط».

تنتشر الأخبار في شبه جزيرة العرب بسرعة الريح، فعلم السلطان فيصل بما حدث. أوفد من «مسقط» «أحمد بن ناصر» مع مئتي رجل في سفينته «السلطاني». ورست السفينة في «رأس ريسوت» أثناء اشتداد الرياح الموسمية. وأرسل «أحمد» جيشه من قرية «الحَفَه»، وهي إحدى قرى «ظفار»، إلى «بيت كثير» وقيّد خمسة من الشيوخ المتمرّدين ووضعهم على متن السفينة.

ثم عاد «سليمان» وولّى خادمه «بخيت» مسؤوليتهم. وبالرغم من أن جميع الأحزاب المتمرّدة قد عُفي عنها عند صدور العفو العام في «مسقط»، إلّا أن «بخيت» نفّذ تعليمات «سليمان» بعدم السماح بإطلاق سراح أحد من هؤلاء الخمسة. وبهدوء تام خلال السبع سنوات التالية، تمّ قتل العشرة المسؤولين عن قتل الصبيّين واحداً تلو الآخر جرّاء فعلتهم.

وبعد سنوات، وفي عام ١٩٠٧، عندما بلغ «سليمان» من العمر ستين عاماً، سافر إلى «الشرقية»، وهي مقاطعة في الجنوب الشرقي من «مسقط» داخل حدود «عُمان»، حيث انزعج السلطان «فيصل» منذ آخر تمرّد من بعض الشيوخ الحناويين، فاستدعاهم «سليمان» إلى «مسقط» ليقدّموا ولاءهم. وفي طريق العودة، أشعل هؤلاء الشيوخ النيران في «سليمان» عند منطقة ضيقة في «وادي سمائل». ولم يمثّل التعرّف عليه صعوبة؛ لأنه كان يحمل سيفه الذهبي الطويل. وعندما حمله خادمه، قاموا بالإجهاز عليهما معاً على الرغم من قتال حامية «سليمان»، ثم فرّوا إلى الجبال. وسمع السلطان بموت «سليمان» فارتعد وحزن حزناً شديداً.

وفي عام ١٩١٦، إبّان حكم السلطان «تيمور»، كان «بخيت» الذي أصبح والياً على «ظفار» منذ ممات «سليمان» يواجه المتاعب مع «بيت كثير»، الذين عزموا على قتل كلّ من كان من «مسقط». وبينما كان السلطان «تيمور» في «صلالة» دعا قوم «بيت كثير» للاجتماع به، فخشوا ألا يخرجوا بقرار آمن يضمن لهم حقوقهم. وعندما أُعطوا القهوة ألقوا بها على الأرض ظناً منهم أنها مسمومة. وبعد رؤية السلطان خيّموا في سهل خارج «صلالة» لرؤية السلطان في اليوم التالي. ولمّا كانت السماء ملبّدة بالغيوم في الليل، فرّوا جميعاً إلى جبال «قَرَا»، لأن الغيوم في الليل كانت عندهم نذير سوء يؤذن بغدٍ مليءٍ بالدماء. ثم عادوا نازعين أسلحتهم تقديراً منهم للسلطان.

عيّن السلطان «تيمور» «عبد الله بن سليمان» من قبيلة «بني حرّاص» بدلاً من الوالي «بخيت». وقد أبلى الوالي الجديد الذي كان الخادم القديم للولاية بلاءً حسناً في السنوات الأربع الأولى، ثم ضعف تدريجيًا حتى تضاءلت هيبته. وفي عام ١٩١٩، أصيب بالشلل، ومات عام ١٩٢١ أثناء علاجه في «المكلّا»، ولم يحزن عليه خيار الناس في «ظفار». وقام أحد رجال الحاشية بتنصيب نفسه والياً، في وقت نشبت فيه النزاعات بين القبائل فيمن أحقّ منهم بمنصب الوالي. فأرسلت الرسائل إلى السلطان تنبئه بما حدث، فندم على تركه لظفار، حيث كان في «الهند» حينها. وفي عام ١٩٢٣، عاد إلى «ظفار» عازماً على أن يجعل منها بلداً جديداً بوالٍ جديد، وهو «سعود بن علي» من نسل الإمام «أحمد بن سعيد» مؤسس أسرة «بوسعيد» الحاكمة. بقي السلطان لمدة عشرة أشهر، استقرت الأمور خلالها بين القبائل، حيث أعفاهم من الضرائب لمدّة عام، واعتذر إليهم عن الإساءات الماضية، قائلاً: «لنَنْسَ كلّ ضغينة بيننا». (في «ظفار»، عندما يريد أحد رجال قبيلة أن يعلن الإذعان لسيّده يقوم بخلع عمامته أمام سيّده، ويضع يده على ركبة السلطان. بينما في بقية أنحاء عُمان، يقوم الرجل برمي خنجره أمام سيّده. وفي بعض الأحيان، يمسك بلحية

سيّده متوسلاً). اكتسب الوالي «سعود» شعبية لدى أهل «ظفار» وعمل حتى بداية عام ١٩٣٢، عندما قام بأول زيارة له إلى «ظفار»، وقدم الشيخ «حمود بن حامد الغافري» الذي كان لا يزال والياً عليها.

لم تقطع يدٌ أبداً في هذه الآونة، وهذا دليل على استتباب الأمن والاستقرار في «مسقط» لمدة تُقارب النّصف قرن. ولم تقطع يدٌ في «ظفار» إلا في عام ١٩٢٥. كان اللصّ هو «كنشاف»، الذي قال: «تيمور هو سلطان السهل، وأنا سلطان الجبل». واجتمع الناس أمام قصر «صلالة»، فقام اثنان بالقبض على «كنشاف» من ذراعيه، بينما قطع يده ثالث. وغمست ذراعه في الزيت المغليّ لوقف نزيفها، وعلّقت اليد المبتورة على البوابة لمدّة ثلاثة أيام(١).

وقد انصلح حال «كنشاف» بعد سنوات من قطع يده. وأثناء عهد الوالي «حمود»، عاد «كنشاف» إلى عادته القديمة. فذات يوم رأى امرأةً في سهل «ظفار» ترعى غنمها، فاختبأ خلف شجيرات قطعها بيده السليمة وتحرّك بها صوب المرأة. فدهشت المرأة لرؤيتها شجيرة تقترب شيئاً فشيئاً، فاستغاثت برجال قومها ففرّ «كنشاف»، فحبسه الوالي إثر ذلك. وبعد فترة أخذ عهداً على نفسه أمام القاضي بألّا يسرق ثانيةً. وارتحل السلطان الحالي إلى «ظفار» في العام التالي، وبعد مطاردة طويلة في الجبال، قتل اللص اللوّاذ.

كان من الأنسب أن نبدأ تاريخ «ظفار» بعد النقطة التي وصلنا إليها في تاريخ عُمان العام. وعلينا الآن أن نعود إلى عام ١٨٠٤ وعهد «سعيد المعظّم».

---

(١) في ١٨ أغسطس عام ١٩٥٩، نشرت الصحافة الحرّة بمومباي مقالاً بعنوان القضاء الحديث، جاء فيه «جحدت السعودية عادتها القديمة في القضاء. ومن الآن فصاعداً، لن يتم بتر يد السارق بالفأس. لكن سيتمّ هذا والسارق تحت تأثير المخدّر. ولن يتمّ رجم الزانيات حتى الموت، لكن سيتمّ رميهن بالرصاص».

## الملاحظات

*** * الملحوظة (أ) * * * * * * * * * * * ***

يقول الأستاذ «سي. إف. بيكينغهام»، في اتصالٍ مباشرٍ بمؤلف الكتاب: إن تاريخ تخلّي «أحمد بن سعيد» عن العرش ليس محدّداً. يُقال إنه عام ١٧٤١، لكن لم نتأكد من صحّته. ويعتبر عام ١٧٤٤ هو الأقرب إلى الصواب. وهناك ما يدلّل على أن ذلك قد حدث عام ١٧٤٩، لكنه كان لا يزال مسيطراً على البلد في هذه الفترة.

*** * الملحوظة (ب) * * * * * * * * * * * ***

هناك رواية عن أسرة «مزروي» الذين نجحوا واحداً بعد الآخر، وبدوا كما لو كانوا من «صلالة» أسرةً حاكمةً، موجودةً في كتاب «جون غراي»: «البريطانيون في ممبسة» (١٨٢٤-١٨٢٦)، (لندن- ١٩٥٧)، ص١-٢٢. وهناك تنقيحٌ لتاريخ «ممبسة» يعتمد على كتاب «تاريخ زنجبار عن ممبسة» الذي نشر عام ١٨٢٤، وهو موجودٌ في كتاب «فريمان»: «الساحل الإفريقي الشرقي» «East African Coast: Select Documents»، ص ٢١٣-٢١٩. وهناك نسخ مختلفة لتصريحات «محمد بن عثمان» في كتاب: «جون غراي»، ص٩. وأيضاً في كتاب «فريمان» ص٢١٧، وهي تقول: «هذا الإمام مثلي، فقد استحوذ على «عُمان» وأنا استحوذت على ممبسة».

وطبقاً لهذه الرواية، أُرسل أربعة رجال من الخمسة لقتل «محمد بن عثمان»، وأُطلق عليهم اسماً واحداً هو «سيف». وهناك رواية أخرى عن «محمد بن عثمان» انظر كتاب «ستيغاند»: «أرض الزنج» «The Land of Zinj» (لندن- ١٩١٣)، ص٧٩.

* * الملحوظة (ج) * * * * * * * * * * * *

«كارسن نيبور»: «رحلات في بلاد العرب» «Travels through Arabia». ترجمه إلى الإنجليزية «روبرت هيرون»- المجلد الثاني- إيدينبرغ-١٧٩٢، ص١٢٢-١٢٣.

تعتبر رواية «كارسن» هي المصدر الموثوق، فأحياناً كان يمتنع عن ذكر الحقيقة، لكنه نادراً ما كان يخطئ. كما أن «كارسن» هو الذي بقي على قيد الحياة من الستة الذين أوفدهم «فريدريك الخامس» من الدنمارك عام ١٧٦٢. فقد أبحر «نيبور» من «موكا» إلى اليمن في نهاية أغسطس عام ١٧٦٣، وظلّ ١٤ شهراً في «مومباي»، وعاد إلى أوروبا عن طريق «مسقط»، «الخليج العربي»، «العراق»، «سوريا». وبسبب الميزات التي قدّمها، تعطي الأولوية لنيبور على كلّ المستكشفين العرب. وهناك رواية اشترك فيها هذا الرجل، وردت في كتاب «توركيلد هانسن»: «البعثة الدنماركية» «Arabia Felix: The Danish Expedition» ١٧٦١-١٧٦٧، (لندن- ١٩٦٤).

* * الملحوظة (د) * * * * * * * * * * * *

طبقاً لتايلور، مات «أحمد بن سعيد» عام ١٧٧١. ويقول «بادجر» إن العام هو عام ١٧٧٥. ويقول «بالغراف» عام ١٧٨٠. ويقول كلّ من «مايلز» و«لوريمر» و«بيكينغهام» عام ١٧٨٣. ويُقال إنّه في نهاية عام ١٧٨٣، أو عام ١٧٩٤.

يقول «بيكينغهام» في اتصالٍ مباشرٍ مع الكاتب: «أعتقد أن عام ١٧٨٣هو التاريخ المقبول للوفاة، فهو الموجود على لوحة قبره. وبعد سنوات قلائل انتقلت السلطة إلى «حمد»، لكن «سعيد» كان لا يزال حيًّا. ولم يكن هناك تاريخٌ دقيقٌ للوفاة، لكنه لم يكن قبل عام ١٨١١. يقول «سليل بن رازق» إن أبناء «أحمد» سبعة وهم: هلال، سعيد، قيس، سيف، سلطان، طالب، محمد. ويذكر أيضاً ثلاث بنات، لكنّي أمتنع عن ذكر أسمائهن.

* * الملحوظة (هـ) * * * * * * * * * * * *

«جون كاييه»: «حياة القائد العام: جون مالكولم»، المجلد الأول (١٨٥٦)، ص ١٠٨-١١٠. وجد «مالكولم» أن «سلطان» رجل له سيماء غير حادّة، ومهذّب. ص١٠٩.

وطبقاً لمذكّرة «مالكولم» الشخصية، كانت الأهداف الرئيسة لمهمّته هي: أن يستردّ الهند من خطر «زيمون شاه» حاكم أفغانستان، وأن يواجه المحاولات الممكنة لهؤلاء الأرذال، وأن يستعيد جزءاً من ازدهارها السابق.

* * الملحوظة (و) * * * * * * * * * * * *

ارجع إلى وثيقة ٧٨/ ٤٥٢٩، السيد «إيفيلين بارينغ». التدخل البريطاني الحاسم في «حضرموت» حدث عام ١٨٨١، وتمثّل بالمساعدة لحاكم «شيهر» ضد مناهضه الضعيف نقيب «المكلّا». هذا سبَّبَ بعض الاعتراض في العالم الإسلامي، وكذلك جريدة البرهان في الإسكندرية، وأشير إلى أن المنطقة تحت حكم «فاضل». وبناءً على طلب نقيب «المكلّا»، قال الترك إن الميناء تحت إشراف «فاضل»، وإن الناس انتظروا وصول «فاضل» في أكتوبر عام ١٨٨٢. ولكي يمنع مجيئه، قام المندوب السامي في عدن بإرسال السفينتين، «دراغون، و«عرب» إلى «المكلّا»، وأخذت الأحداث مجراها أو تجاوز الضباط التعليمات وساعدوا «جامادار» بلدة «شيهر» لاحتلال «المكلّا» وإخراج نقيبها. وحتى هذا الحين، عزمت السلطات البريطانية على تأييد النقيب أكثر من الـ «جامادار». انظر إلى الخطاب الهندي السري رقم ٦٦ (١٤/ ٧/ ٨٢) في حكومة بومباي (٢٤/ ١٠/ ٨١). انظر أيضاً مجموعة مطبوعات البحر الأحمر والساحل الصومالي ١٨٨١، ص١٣٣ (٢٧/ ١٠/ ٨١)، والخطاب السرّي الهندي رقم: ٦٦ (١٤/ ٧/ ٨٢): مقتبس من جريدة «البرهان» بالإسكندرية ٦/ ١٠/ ٨١.

# * الفصل الرابع *

## السلطان سعيد بن سلطان المعظّم
## ١٨٠٦-١٨٥٦م



السلطان سعيد بن سلطان

لقد وُصِف الرجل الذي حكم «عُمان» نصف قرن، منذ عام ١٨٠٤ حتى عام ١٨٥٦، على لسان «رودولف سعيد ـ رويت»، كاتب سيرته الذاتية، «**كواحدٍ من أقوى الشخصيات المؤثّرة منذ عهد النبي محمد** ﷺ». كما وصف على لسان «برتون» «كأدهى وأعقل أمير عرفته الجزيرة العربية[١]». إنه «سعيد بن سلطان» الذي جعل بلده أهمّ بلد في الجزيرة العربية، خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، مسيطراً على إمبراطورية واقعة عبر البحار في «زنجبار»، وعلى امتداد ساحل شرق إفريقيا. **وعن الأمير نفسه، يقول «سليل بن رازق»**:

«**بسم الله الرحمن الرحيم!** والحمد لله الذي بنعمته نال سعيد نجاحاً لا نزاع عليه ومجداً خالداً. كما وصل إلى مكانةٍ رفيعةٍ في عالم السعادة والشهرة. وحباه الله بعونه ومدده حتى أخضع ملوك زمانه، ونال شرفاً وعزةً بانتصاره في المعارك التي خاضها وبسط طريقاً فوق رقاب المتمرّدين»[٢]!

تبدأ قصته البطولية عندما دخل الصراع الفرنسي ـ البريطاني مرحلته الأخيرة، حين كان عمره سبعة عشر عاماً. وكانت «عُمان» آنذاك تحت حكم ابن عمه «بدر بن سيف» (ابن سيف بن أحمد الذي مات في منفاه في «لامو»، بعد فشله في الاستيلاء على «ممبسة» عام ١٧٨٤. حكم بدر كوصيٍ على العرش بعد ممات عمّه «سلطان بن أحمد»، فلم يكن مرغوباً

---

(١) «رودولف سعيد ـ رويت»: «سعيد بن سلطان» «Said bin Sultan» (لندن، ١٩٢٩)، ص ٧٠؛ «ريتشارد إف. برتون»: «زنجبار ـ «Zanzibar»، المجلد الأول، (لندن، ١٨٧٢)، ص ٣٠٤، «خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، وبقيادة السلطان سعيد ابن سلطان (١٨٠٤ ـ ١٨٥٦)، كانت عُمان الدولة الأكثر أهمية والأكثر إشراقاً في شبه الجزيرة، وقد حكمت «زنجبار» وجزءاً آخر من شرق افريقيا». د. «فيليب ك. حتّي»: «الشرق الأدنى في التاريخ ـ «The Near East in History»، (برنستون، ١٩٦١)، ص. ٤٧٠.

(٢) «أئمة وسادات عُمان» «Imams and Seyyids of Oman».

ولا موثوقاً به تقريباً من قبل النّاشطين ورجال الدين في «عُمان»، بسبب رغبته في اعتناق المذهب الوهابي.

ظهرت في بداية حكم «سلطان» رسالة بحثية عنوانها «كشف الشبهات»، كتبها الشيخ «محمد بن عبد الوهاب»، وقد نقلها من «الدّرعية» إلى «عُمان» بغرض تناقلها بين حكّامها ورعاياها حتى يحدث تدميرهم نيابة عن الملك «عبد العزيز»، الذي خلف أباه «محمد بن سعود» أول قائد سياسي للوهّابيين. وكانت الرسالة بالنسبة للعُمانيين بصفة عامة -وفق رواية سليل بن رازق- «تضمّ من الأفكار ما هو متنافرٌ منها مع الواقع والحقيقة، فلم يُلقِ أحد إليها بالاً»؛ وبناءً على ما شرحه الشيخ العلامة المنفي، محمد الزواني، للسيد «سالم بن سلطان» (الأخ الأكبر والمحبّب للحاكم «سعيد بن سلطان»):

«قد أباحت الرسالة قتل جميع المسلمين المنشقّين عن الجماعة والاستيلاء على متاعهم وسبي ذرّيتهم والزواج من نسائهم دون الطلاق من أزواجهم، وحتى دون انقضاء العدّة إن وطلّقن. والعدّة هي الفترة التي يجب أن تنتظر مرورها المرأة المطلقة أو الأرملة، قبل الزواج مجدداً»[١].

كان المذهب الوهابي يعيش في تلك الآونة أوّل مرحلة يشهد فيها ذروة قوّته (التي لم تدم فترة طويلة). وكان الوهابيون يمثّلون في عدة فترات، في النصف الأول من القرن التاسع عشر، تهديداً لسلامة وأمن «عُمان». بل إن الحكومة دُفعت في كثيرٍ من الظروف إلى دفع أموالٍ لحكام «نجد» من آل سعود، الذين كانوا يمثلون الحكام التقليديين للفرقة الوهّابية، وذلك نظير حمايتهم من هذا العدوان. ويرجع نجاح الغارات الوهابية بشكل أساسي إلى العناصر المنشقّة من بين «الحزب الغافري»، الذين تضامنوا مع الغزاة ضد قبائل «الحناويين». وفي مناسبةٍ لاحقةٍ،

---

(١) «أئمة وسادات عُمان Imams and Seyyids of Oman»، ص ٢٣٠، ٢٤٦، ٢٤٨.

ضمن «سعود بن عبد العزيز» (ثاني الأمراء الوهابيين) لصديق «سعيد» السابق الشيخ «محمد بن ناصر» الغافري، أن يوفد «مطلق المطيري» لنصرته وتدعيمه، ضد كلّ من في «عُمان» وكلّ من يريد أن يشنّ الحرب عليهم خارج «عُمان»، وذلك وفقاً لما أورده «سليل بن رازق».

إلّا أنه بعد ذلك بحين، تبيّن للقائد المقدام، الذي أرسله «سعود»، وهو «مطلق المطيري»، أن إخضاع «عُمان» يعدّ مهمة مستحيلة؛ فقام بسلب منطقة «صحار» ومعه «تركي بن فيصل» واثنين من أبناء الأمير الوهابي، ثم أغار على «الشرقية» و«رأس الحدّ»، إلى أن قتل في أول مواجهة عام ١٨١٣ عندما هاجم قبيلة «الحجريين». واستخدمت أسلحة «مطلق» وسترته ودرعه ورأسه كنصبٍ تذكاريةٍ في «مسقط»، حيث إنه بوفاته تضاءل تهديد سيطرة الوهابيين على أرض «عُمان». وقد وُصف «مطلق» على لسان أحد معاصريه - الشيخ منصور- على «أنه شخصٌ بارعٌ مولعٌ بالحرب، بالإضافة إلى بعض خصال النبل والشرف التي جعلته ينال احترام وحبّ تابعيه».

ثم جاء وقتٌ صارت فيه هذه الفرقة محلّ تأييد حاكم «عُمان»، كما كانت هذه هي الظروف العامة التي واجهت السلطان الشاب «سعيد»، في ظلّ الصراع السياسي الذي يبقى فيه الأصلح. ولمّا علم من عمّته السيدة «بيبي موزة بنت أحمد» -وهي سيّدة ماضية العزم- أن عمّه كان يخطّط لقتله، قرّر أن يعاجله قبل أن يكون هو الضحية، حيث كان القتل إحدى الطرق التقليدية للوصول إلى الحكم عند العرب، فقام هو ومستشاره «خلفان بن محُسَّن»، وأحد أفراد الحاشية من «الجُبُور» باستدعاء عمه للذهاب إلى دار «نعُمان»، وهو منزلٌ ريفيٌ يقع على بعد بضعة أميال من «بركه». وعندما اجتمعوا، سأل مستشاره -على سبيل المزاح- عمّن يكون خنجره أفضل، فأخرج كلّ من «سعيد» و«بدر» خنجريهما المزركشين بالذهب والفضة بغرض مقارنتهما. وأخذ المستشار كلا الخنجرين في يده ليختبر مدى حدّة الشفرتين. ودون تردّد، قام «سعيد» بطعن عمّه في صدره.

تعتمد هذه الرواية على ذاكرة كلّ من «سعيد بن تيمور» وأبيه «تيمور ابن فيصل»، لكنّها تختلف عن رواية «سليل بن رازق»، والتي تنصّ على أن «خلفان بن مُحسَّن» مولى «الجُبُور» استلّ خنجر «بدر بن سيف» من جرابه، واستلّ «سعيد» سيفه وبدأ يهدّده بضربه على سبيل المزاح. لكنّه اتجه فجأة نحو «بدر» وضربه على ذراعه فكسر عظامه.

وتختلف رواية «سعيد» التي وردت في كتاب «تاريخ بيت» «History of Pate» (١٢٠٤ إلى ١٨٨٥)، أثرى كتب التاريخ السواحلية وأكثرها دقة، عن الروايات الأخرى. فوفق هذه الرواية، بكى الصبي «سعيد» ذات يوم، وعندما رآه عمه «بدر» ناداه بالمرأة، فأغضب ذلك «سعيداً» وقتل عمّه بالسيف.

على الرغم من جرحه الشديد وصراخه، ألقى الحاكم نفسه من أقرب نافذة فسقط على كومة روث، ثم هرب عادياً بأقصى سرعة على حصانٍ رشيقٍ. واستغاث مراراً، ولكن لم يتحرّك أحدٌ لنجدته بعد أن صرخ «محمد بن ناصر» أقرب الأصدقاء لـ«سعيد» في الناس يحذّرهم قائلاً: «دعوا أحفاد الإمام يفعلون ما يحلو لهم بحقّ بعضهم البعض».

وأوضح المقرّبون من «سعيد» أنه لم ينجز سوى نصف مهمّته، لأنه في حالة هروب عمّه حيًّا لن يكون بمأمن على عرشه، فاعتلى سعيد جواده وتبعه «محمد بن ناصر»، فوجد عمّه مستلقياً تحت شجرة صغيرة لا يستطيع الحراك من جرّاء الصدمة والنزيف. هناك ضرب «محمد» «بدراً» على كتفه بسيفه المعقوف، فقام «سعيد» بغرز رمحه في جسد «بدر». وبعد رحيل «سعيد» إلى «مسقط»، خرج وجهاء «بركه» من منازلهم إليه ثم صلّوا عليه ودفنوه. وفي صباح اليوم التالي، وفي ثورة وطنية، هُتف لـ«سعيد» في أرجاء «عُمان» لمكره وسطوته العربية المخلصة من خلال نضاله الداخلي وحيلولته دون السيطرة الأجنبية. كان ما فعله موافقاً لما قاله المشرّع «ابن جمعه» -قاضي دمشق في القرن الرابع عشر: «إن الحاكم له الحق في أن

يستمرّ في الحكم حتى يأتي من هو أقوى منه فيسلبه القوة ويحكم بدلاً منه». حكم السلطان «سعيد» لاثنين وخمسين سنة، (وقد شاركه في البداية أخوه «سالم»، السلطة إلّا أنه مات مشلولاً عام ١٨٢١) كحاكمٍ مؤقّتٍ (من الناحية المدنية والسياسية)، مقتفياً أثر ابن عمه «حمد» وأبيه سلطان، دون أن يحقق ذلك الدور الديني الذي ينطوي عليه لقب الإمام وما يحمله من دلالات ثيوقراطية[1]. ولم يكن هذا بالأمر المستغرب، حيث كانت الإمامة المنتخبة معطّلة في فتراتٍ كثيرةٍ من تاريخ «عُمان». ولم يكن من «سعيد» إلّا أن عزل السيادة الدينية عن الإمامة، بسبب ما ينطوي عليه تولّي مثل هذا المنصب من قيود. لذلك، فإنه يعدّ أول حاكم عُماني يلقّب بـ«السلطان»، بدلاً من لقب «السيّد» الذي ظهر عام ١٧٨٤، بواسطة «سلطان بن أحمد»، فلقّب به بعض الأفراد من الأسرة الحاكمة احتراماً لهم. ولم يستخدم لقب «السيّد» من قبل «ألبوسعيد»، بحيث يوحي بانحدار نسلهم من النبي ﷺ، كما هي العادة عند المسلمين في استخدام هذا اللقب (وذلك لأن استخدامه بهذا المعنى لن يلقى قبولاً لدى الإباضيين). وأوّل ما استخدمت كلمة «السلطان» للإشارة إلى الحاكم -وهي في الأصل مشتقة من السلطة- عام ١٠٠٢ ميلادية، وإن كانت الكلمة نفسها تُستخدم في اللغات السامية القديمة بمعنى السلطة والهيمنة، قبل ذلك بكثير (**الملحوظة أ**).

مضت السنوات الأولى من حكم «سعيد» بسلام. ولكن كان من الضروري أن يجتمع مع البريطانيين عام ١٨٠٩ في محاولة للتعامل مع القراصنة من قبيلة القواسم وشيخ قبيلتهم الوهّابي، وذلك عبر مهاجمة

---

(١) قدّم «رودولف سعيد ـ رويت»، الذي كانت والدته سلمى (إميلي رويت) ابنة «سعيد ابن سلطان»، وصفاً للوضع في كتابه «سعيد بن سلطان ـ «Said bin Sultan» (لندن، ١٩٢٩)، ص ١٨، يقول فيه: «إن سطوة الإمام أو السيّد، ومنذ ذلك الحين، أصبحت تتمثل، ليس في ما يقدّم إليه، وإنما في ما ينحته لنفسه».

عاصمتهم في «رأس الخيمة». ويلزم هنا تفسير بعض النقاط عن شحن السفن والقرصنة في «الخليج العربي» والمياه المتاخمة له.

في عام ٣٢٥ قبل الميلاد، أبحر «نيركس الكريتي»، وهو أميرال معروف، كان يسير تحت قيادة «الإسكندر» -كما ورد في سجّلاته التي وضعها عن كل مرسى وجزيرة نزل بها- خلال مضيق «هرمز» ليكون أول أوروبي يرى أرض «عُمان»، واستطاع أن يدخل المياه الضحلة التي تبلغ مساحتها ٩٧٠٠٠ ميلٍ مربّعٍ، والتي تسمّى الآن «الخليج العربي». وفي عام ١١٦ بعد الميلاد، حاصر الإمبراطور «تراجان» العاصمة «الفرثيه» «قطسيفون»، ثم نشر السلام حتى وصل إلى «الخليج». وقد تحدّث المؤرخ «الحاخام بنيامين» عن هذا الحدث في منتصف القرن الثاني عشر. وبعدها بأكثر من مئة عام، كان «ماركو بولو» قد وصل إلى «الخليج» الذي اعتبره امتداداً لنهر «دجلة»، كما وصل الرحّالة المغربي «ابن بطوطة» إلى الخليج عام ١٣٣٠، إلّا أنه لم يصل إلينا رسمٌ توضيحيٌّ لهذه المسطحات المائية إلا مع مجيء «نيبور»، الذي وضع رسماً توضيحيًّا لهذه المسطحات المائية، أو كما كانت تسمّى «بحر اللعنات» «Sea of Curses».

وبسبب هيمنتها البحرية الفذّة وموقعها الجغرافي المتوسط، استمتعت «عُمان» باحتكار تجارة الشرق، مثلما كان يفعل الإغريق في البحر المتوسط في القرن العاشر قبل الميلاد. وعلى الرغم من أنه في عهد النبي ﷺ كان الساحل العربي للخليج يقع تحت سيطرة الفرس (لم يتم التخلّص من آخر حاكم ساساني إلا بحلول عام ٦٥١ بعد الميلاد)، ففي القرن العاشر كان البحّارة العُمانيون من قبيلة «الأزد» يبحرون إلى أقصى الجنوب في بلدة «قنبلو» (مدغشقر الحالية). واضمحلت هذه السيطرة بعد مقدم أول أوروبيين إلى الخليج بعد الإسكندر، ونعني هنا

البرتغاليين ذوي القلوب القاسية، والوحشيّة الضارية، والسيوف المتعطشة للدماء.

وفي عام ١٥٠٧، أبحر رجل الدولة «ألفونسو دي ألبوكيرك»، تحت قيادة المستكشف «تريستاو دي كُونها»، مع ١٦ سفينة إلى الشرق، فقامت معركة استمرّت سبع ساعات، وانتهت بانتصارٍ بحريٍ على أسطولٍ مكوّنٍ من ٤٠٠ سفينة ذات أحجام مختلفة، فصارت الغلبةُ للقوة البرتغالية في «الخليج العربي»، وصار البرتغاليون يسيطرون على مدخل «الخليج». وما منع قيام «البوكيرك» بتنفيذ مخطّطه المجنون إلا موته في ١٦ من ديسمبر عام ١٥١٥، كمداً على خيبة أمله، لضياع المستعمرة البرتغالية «جوا» (**الملحوظة ب**)، فكان يطمح إلى تحويل اتّجاه النّيل[١] بشقّ قناةٍ قريبةٍ من جزيرة «فيلة»، عند أوّل شلال عبر الصحراء إلى البحر الأحمر، لحرمان الدلتا المصرية من خصوبتها، وتوجيه التجارة الهندية إلى أوروبا عبر «الخليج العربي». وقد كان طموح «ألبوكيرك» مقتفياً أثر «الإسكندر» بتأسيس امبراطوريةٍ أوروبيةٍ في الشرق.

وتألفت إمبراطوريته المزعزعة من قلاعٍ متراميةٍ تبعد عن بعضها بمسافاتٍ بعيدةٍ وتنتشر على امتداد الساحلً. وفي خطابه إلى ملكه البغيض «مانويل»، كتب جنرال الهند الشرقية وأول حاكم للهند: «إنني مغادر المكان الرئيس بالهند تحت سلطة جلالتكم، وليس هناك ما لم يتمّ إنجازه إلا غلق مضيق «عدن».

---

(١) أخبر البروفسور «سي. إف. بيكينغهام» المؤلّف بأنه من الصحيح أن «ألبوكيرك» ذكر فكرة تحويل مجرى نهر «النيل»، في خطاب أرسله إلى الملك «مانويل»، لكن لا يوجد دليلٌ على أنه أخذ الفكرة على محمل الجدّ. فبعد فشله في الإستيلاء على «عدن» عام ١٥١٣، وخسائره الكارثية في جزيرة «كمران»، لم يكن في وضع يؤهّله لمحاولة تنفيذ مثل هذا التصوّر.

وفي منتصف ليلة ٣٠ من نوفمبر عام ١٥٢١، قامت قبيلة «بني زابيا» بانتفاضةٍ بقيادة الشيخ «حسين بن سعيد»، حيث عذّبوا وصلبوا «روي بيل» الوكيل البرتغالي في البحرين، فتمّت مهاجمة جميع المخافر وتدميرها في آن واحد. وقرب نهاية القرن السادس عشر، استولت إسبانيا على صولجان ملك البرتغال دون إراقة دماء، إيذاناً ببداية اندثار قوة البرتغال في «الخليج» إلى أن تلاشت تماماً عام ١٧١٥. وقد قال المبشّر البرتغالي الأكبر -الأب «أنطونيا فييرا»- عن ذلك: «لقد أعطى الربّ أبناء أرضه أرضاً صغيرة كمكان ولادتهم، وأعطاهم العالم كله ليموتوا فيه».

وفي الثاني والعشرين من سبتمبر عام ١٥٩٩، ظهرت الشركة الهندية الإنجليزية (**الملحوظة ج**)، والتي كانت مصدر التنافس التجاري بين «لندن» و«أمستردام»، فكان هذا أول ظهور لها على مسرح التاريخ، وأدرجت من خلاله في الوثيقة الملكية (٢٦ صفحة)، التي منحتها الملكة «اليزابيث» الأولى في ٣١ من ديسمبر عام ١٦٠٠، مع ٢١٧ شريكاً. وبلغ رأسمال الشركة ٣٠١٣٣ جنيهاً إسترلينيًّا. وخلال الاثنتي عشرة سنة التالية، تمّ إرسال ١٢ أسطولاً تجاريًّا إلى الشرق. وفي عام ١٦١٥، بدأت التجارة مع الشاه «عباس الأول» من بلاد «فارس»، ليكون ذلك بداية التدخّل السياسي لبريطانيا في «الخليج العربي». وفي عام ١٦٢٠، كتب الملك «جيمس» إلى الشاه يشكره على صنيعه وحمايته للإنجليز. وبعد عامين، ساعد أسطولٌ إنجليزيٌّ صغيرٌ من الهند الشرقية مشاة جيش الشاه في الاستيلاء على مضيق «هرمز» (وهو مفتاح الاستحواذ على الخليج العربي) من البرتغاليين الذين كانوا يعانون التشرذم، وذلك دون تبرير من الجانب البريطاني، حيث كان الجانب البريطاني في حالة سلم مع «إسبانيا».

وفي خطاب من «أصفهان»، بتاريخ عام ١٦٢٢، كتب «إدوارد مونيكس» إلى شركة الهند الشرقية، يقول:

«إذا حدا الإنجليز أملٌ في نيل أرباحٍ دائمةٍ من مشاركتهم في هذه الصفقة، فسوف تخيب آمالهم. لقد انتقموا لأنفسهم ضد عدوهم ودمّروا مستوطنةً مزدهرةً لإشباع طموح الشاه «عباس»، الذي وعد بتأييدهم (بمشاركتهم الرسوم الجمركية المستقبلية)، والذي كان عليهم أن يدركوه أنه لن يحميهم حتى أثناء حياته من عنف وجور ضبّاطه وورثته».

وبعد عامين من تأسيس الإنجليز لشركتهم عام ١٧٣٧، والتي أصبحت منظّمة سياسية عملاقة، ظهرت الشركة الهندية الهولندية كمنافسٍ سياسيٍ وتجاريٍ. ومنذ أن اندلعت الحرب في أوروبا بين هولندا وحكومة «كرومويل» الإنجليزية عام ١٦٥٢، بدأت السيطرة الهولندية على «الخليج» بالصعود. وبعد ٢٥ عاماً، زار الجرّاح «جون فراير» «بندر عباس»، تحت رعاية شركة الهند الشرقية، ليعمل هناك نظير راتبٍ شهريٍ يقدّر بما يعادل ٥٠ شلناً، وجد «الهولنديين منغمسين في تجارة الطيب والتوابل». وبحلول عام ١٧٦٦، عند قيام العرب بأسر آخر المراكز التجارية الهولندية -وهي مستوطنة على جزيرة «خَرْج»- انتهى الوجود الهولندي من منطقة «المحيط الهندي».

في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر إزداد عدد الأشخاص الذين يقومون بأعمال السلب والنهب فكان هؤلاء ينتشرون في الخليج تحت مسمّى ديني، ويقومون بنهب جميع السفن أيًّا كان منشؤها، مفضّلين قتل العاملين في السفن المنكوبة دون أسرهم.

وبحلول عام ١٨٠٠، كادت «مسقط» أن تكون الميناء الوحيد للانتقال بين «الهند» و«الخليج». وكان الأسطول التجاري العُماني أهمّ من أسطول أية دولة أخرى في «الخليج»، وكان يتألف من المراكب

الشراعية والسفن ذات الصواري الأربعة. وكان شعب «عُمان» يعدّ من أنشط وأقوى البحّارين. وفي عام ١٨٠٤، زادت الاعتداءات البربرية المتغطرسة بالهجوم على تسع سفنٍ بريطانيةٍ حربيةٍ. وبعد عام، تعرّضت بارجة إنجليزية تجارية يطلق عليها «شانون» للأسر، وهي في طريقها من «بومباي» إلى «البصرة»، بعد مقاومة واهية وقتل طاقمها الهندي. وتعرّض كابتن «بابكوك»، عندما رأوه على وشك إطلاق طلقة مدفعية، لقطع ذراعه إثر ضربة سيف، لكنّه استطاع منع النزيف بوضع بقية ذراعه في قدر فيه «جيه» ساخنة (نوعٌ من الزبدة).

وعندما استعلم «جون مالكولم» -الحاكم المستقبلي لبلدة «بومباي»- من خادمه العربي «خداداد»، عن سكان هذا الشاطئ القفر في الجزيرة العربية، أخبره أمرهم، إلّا أنه حذّره منهم:

«هم من الوهابيين واسمهم «القواسم» **(الملحوظة د)**، لكن الله يقينا شرّ هذه الوحوش. عملهم القرصنة ومتعتهم القتل، والأنكى أنهم يسبغون شرّهم بتقوى الدين. فهم يتقيّدون بكتاب الله، طارحين أيّة تفسيرات أو أعراف أخرى عرض الحائط. فإذا وقعت أسيراً في أيديهم وقدمت لهم كلّ ما تملك للذود عن حياتك، يقولون: «لا، إن الله حرّم علينا سرقة الحي، ولكنه لم يحرم علينا سلب الميت»، فيضربون عنقك[١].

كان هؤلاء القراصنة يتميّزون بالكبرياء، والثقة بالنفس، والجرأة، ويشعرون بالسرور والحبور بانتصاراتهم؛ لأنها كانت طريقهم إلى الجنة. وحظي هؤلاء القراصنة بتأييد من «السياسة المتذبذبة لحكومة «بومباي» متمثلة في شركة الهند الشرقية التي اعتبرت هؤلاء الوحشيين أبرياء،

---

(١) السير «جون مالكولم»: «Sketches of Persia from a Journal of a Traveller in the East»، لندن، ١٨١٥، وأعيدت طباعته عام ١٨٦١.

وأجمعت على ألا يطلق أيّ من ضباطها النيران على أيّ عربي، إلّا إذا ابتدأه بالضرب». كلّ هذا التأييد أعطى هؤلاء المتعطشين للدماء الفرصة، حيث إن طريقتهم المفضّلة في الهجوم هي السطو على السفن، دون أن يردعهم ضعف أو استعطاف الفريسة، وأمسى القانون معطلاً فيما مُنحوا حق انتهاك الحقوق. وفي عام ١٨٠٨، دُعي الشيخ «سلطان بن صقر» قائد القراصنة «القواسم»، وهو في العقد السادس من عمره إلى «الدرعية»، وتمّ عزله من قبل الوهابيين، وتمّ تنصيب ابن عمّه «حسين بن علي»، أحد شيوخ «القواسم» من منطقة «رمس» (ميناء قريب من «رأس الخيمة»)، كحاكم نائب على ساحل القراصنة كلّه. وتبيّن بعد ذلك تعطّشه للدماء، إذ كان جشعاً. وتحت رايتهم القانية، أُمر «حسين» بأن يشرع في القرصنة النظامية عن طريق أسطول حربي هائل يشمل ٦٣ مركباً ضخماً (كان بعضها يحمل خمسة مدافع و٣٠٠ رجل) و٨١٣ مركباً صغيراً لحمل ١٩٠٠٠ من هؤلاء المتوحشين، ولإرسال خمس الغنيمة المأخوذة من المنشقّين إلى حكومة «نجد» الوهابية في «الدرعية». وفي أغسطس من العام التالي، تجدّدت تجاوزات واعتداءات القراصنة بشكل أخطر، ممّا حرّك الضمير الغائب لشركة الهند الشرقية. وتغيّر الخمول المخزي لحكومة «بومباي» في أول انتقام عقابي من قبل البريطانيين تجاه السلطان «سعيد». وبعد مقاومة لم تؤتِ ثمارها التي تمنّاها السلطان «سعيد»، دمّرت عاصمة «القواسم»، بعد معارك طالت جميع البيوت والديار في «رأس الخيمة» (**الملحوظة هـ**)، بالإضافة إلى تدمير ٥٣ من سفنهم الضخمة من أسطولهم الصغير، بما فيها غنيمة شركة الهند الشرقية «مينيرفا»، التي أسرت العام الماضي.

وهو في طريقه من «بومباي» إلى «بوشهر»، اعترض هذا الأسطول ٥٥ سفينة وخمسة آلاف رجل، واستمرّ القتال يومين حتى نفدت ذخيرة الأسطول، وفشل قائده في تفجير البارود. وتمهيداً للمذبحة المدروسة، تمّ

نعطير السفينة وتطهيرها بالماء. وفي ظلّ هذه الطقوس المريعة التي أضفت طابعاً دينيًّا على هذا العمل، تمّ تقطيع القائد المجروح إرباً على مؤخّرة متن السفينة. وكان الركاب وأفراد طاقم السفينة مقيّدين، فسيقوا حتى قطعت رقابهم وهم يهتفون: «الله أكبر»[1]، ثم أطلقوا سراح أحدهم بعد قطع يديه لينقل هذه الأخبار البشعة.

لم تكن هذه الحادثة نهاية المتاعب، التي تعرّض لها السلطان مع الوهابيين أو نهاية تحالفه مع البريطانيين. فبحلول عام ١٨١٢، وعلى الرغم من اضمحلال قوة الوهابيين ووصولهم إلى الهاوية عام ١٨١٣، عندما أخرج «ابراهيم باشا» «عبد الله بن سعود»، إلّا أن نشاط القراصنة كان في أوجه في تلك الفترة. وكان من أكثر القراصنة إزعاجاً ووحشية قائد يدعى «رحمة بن جابر»، الذي تولّى أسر كلّ الأساطيل. وكان رحمة يقوم بذبح أطقم السفن، وكان يرتدي قميصاً لا يغيّره أو يغسله قطّ، كما كان وجهه مليئاً بالندب. وكانت ذراعه اليسرى قد تحطّمت جرّاء إصابة بقنبلةٍ عنقوديةٍ، إلّا أن هذا لم يمنعه من تقطيع الرقاب، فكان هذا المخلوق يدخل الرعب في «الخليج» حتى وهو في سن السبعين من عمره.

وحاول «رحمة» ذات يوم السطو على سفينة ضخمة من نوع «بغله»، تابعة لـ«أحمد بن سليمان»، وهو ابن شقيق شيخ «البحرين»، فجوبه بقوةٍ غاشمةٍ لا قبل له بها، فما كان منه بعد أن أخبره طاقمه بأنهم سيهلكون عاجلاً أم آجلاً على يد أعدائهم إلّا أن نزل على الفور تحت متن السفينة، وأشعل النيران في الذخيرة، ثم اعتلى سطح السفينة محتضناً ابنه البالغ من العمر ثماني سنوات. وكانت السفينتان في ذلك الوقت قد ربطتا معاً

(١) «جي آر. ولستيد»: «رحلات في مدينة الخلفاء» «Travels in the City of the Caliphs»، المجلد الأول، ص ١٥١.

بسلاسل حديدية، وعندما انفجرت الذخيرة تناثرت أجزاؤها، وارتمت أجساد المقاتلين على ساحل «البحرين»[1].

وهاجم القراصنة «القواسم» عام ١٨١٤، في مكان يبعد عن «رأس قريات»، مركباً شراعياً فيه أربعون مدفعاً يسمّى «كارولين»، وهو يخصّ السلطان «سعيد» (في حين أن باقي سفنه تراجعت عند حدوث ذلك)، باستخدام أسلوبٍ جديدٍ يربط السفن ببعضها عند القتال. ولم يتمكّن «سعيد»، الذي أُصيب بطلقةٍ من بندقيةٍ من فكّ السلاسل من بين جنود العدو المحتشدين، إلّا أنه أنقذ في النهاية من هذه الكارثة المحتومة.

وشهد عام ١٨١٩ محاولة لإخضاع «رأس الخيمة» وإبادة أسطول القراصنة المكوّن من ٦٤ دهواً حربيًّا و٧٠٠٠ رجل اشتركوا مؤخراً في هذا الكرنفال البحري. وساهم السلطان «سعيد» في ذلك بأربعة آلاف رجل وثلاثة مراكب حربية، في حملةٍ مشتركةٍ، تحت قيادة الجنرال «وليام غرانت كير» و٣٠٦٩ من الجنود البريطانيين (يضمّون ١٦٤٥ من الأوروبيين و١٤٢٤ من الهنود المجنّدين ـ السباهيين)، بالإضافة إلى مجموعةٍ من المراكب الإنجليزية، التي لم يرها «الخليج العربي» من قبل.

ومع استمرار الهجوم، براً وبحراً، واستمرار القصف لليوم السادس من قبل الأسطول، ضعفت قوة حصون القراصنة، ممّا أتاح للسلطان «سعيد» فرصة الهجوم عليهم من جانبه. وتعرّض القراصنة لقصورٍ في الذخيرة أثناء الحصار، فاستخدموا الحجارة كطلقاتٍ لمدافعهم، ثم بعد تكرار وابل طلقات المدفعية البريطانية، بدأوا في تجميع طلقاتهم واستخدامها ضدهم.

---

(١) «جيمس غرانت»: «Cassel's Illustrated History of India» المجلد الأول، ص ٥٥١ ـ ٥٥٤.

استسلم «حسن بن رحمة» حاكم «رأس الخيمة» مع ألفٍ من أتباعه تقريباً. وقيل إنه خلال الحصار، وبينما كان يُقيم جلسة مشورة، انفجرت قذيفة مدفعية، في الحجرة، فقتلت وجرحت حوالى ١٠٠ من المحاربين، وأشاعت حالةً من الرعب بين العسكر[١]. وفي شهر يناير من العام التالي، أبرمت «معاهدة السلام العامة» (**الملحوظة و**) بين عربان «الساحل المتهادن» و«البحرين». وقد نُص في أحد البنود على «وقف أعمال السّلب والقرصنة، براً وبحراً، من جانب العرب الذين يمثلون طرفاً في هذه المعاهدة، إلى الأبد»، دون أن يحظر هذا البند النشاطات العسكرية العادية، التي تتمّ في زمن الحروب. واقتصرت هذه المعاهدة على شيوخ العرب في «الخليج»، واتُفق على أن يُعاقب من أدين بتهمة القرصنة بالقتل والتعويض. دام هذا السلام لسنةٍ واحدةٍ حتى عام ١٨٢١، عندما قام قراصنة «رأس الخيمة» بأسر وسلب سفينةٍ تجاريةٍ صغيرةٍ، فقاموا بتغليل طاقمها المكوّن من خمسة أفراد وأغرقوهم. وفي عام ١٨٥٣، ظهرت «معاهدة السلام الدائم»[٢]، إلّا أنه بالرغم من يقظة الحكومة البريطانية في رصدها لجميع أنشطة القرصنة، فقد استمرت لعنة «الخليج العربي» حتى اختراع السفينة البخارية في أواخر القرن التاسع عشر.

وعلى أية حال، لم يعنِ هذا إقرار السلام من جانب السلطان «سعيد». فقد كانت هناك قبيلة تميل إلى الحروب، قاطنة في منطقة

---

(١) «سي. آر. لو»: «تاريخ البحرية الهندية - «History of the Indian Navy» (لندن، ١٨٧٧)، المجلد الأول، ص ٣٥٧ - ٣٥٨.

(٢) إن «معاهدة السلام العامة» لعام ١٨٢٠، و«معاهدة السلام الدائم» لعام ١٨٥٣، لا تنطبقان على مياه أو سواحل مميّزة، وإنّما على رعايا الأطراف الموقّعين عليهما، أينما وحيثما، يتواجدون». «جي. جي. لوريمير»، «دليل الخليج الفارسي، عُمان ووسط الجزيرة العربية» - «The Gazetteer of the Persian Gulf, Oman and Central Arabia»، (كالكتا، ١٩١٥)، ص ٧٢٤.

«صور» بإقليم «جعلان» في الجنوب الشرقي من «عُمان»، تُسمى بنو «بو علي» وهي على المذهب الوهّابي، الذي كان يبدو في ذلك الوقت أنه رخصة للقرصنة. وكان دافع «سعيد» لمحاربة هؤلاء الرعايا في تلك المنطقة النائية هو كراهيته لفكر الوهّابيين. لكن بني «بو علي» عُرفوا كقراصنة، ويبدو أنهم قد سلبوا سفينة إنجليزية على أطراف «رأس الحدّ». كما اغتيل الضابط الإنجليزي الذي بعث ليحتجّ أمام الشيخ المحلي مع مرافقيه. وتجدر الإشارة هنا إلى أن «ويلستيد»[(١)] قد أثار الشكوك حول أعمال القرصنة التي يقوم بها هؤلاء القوم، فيُقال إنه لا بدّ وأن «سعيد» كان على علم بأنه «ليس من أخلاق العرب أن يقترفوا ما يؤدّي إلى إثارة حفيظتهم». على أية حال، أدّى هذا إلى القيام بحملة سيئة التدبير ضد بني «بو علي». وقد أظهر السلطان في تلك الحملة بسالةً رائعةً، وقد جرح في يده عند قيامه بإنقاذ أحد رجال المدفعية الإنجليز من تحت نيران مضطرمة. كانت مقاومة هؤلاء المتمردين غير متوقعة من قبل البريطانيين، فقُطِعوا إربا مع موت ٧ ضباط و٢٤٩ رجلاً في الجزيرة، بينما فرّ العُمانيون. وعندما علم السلطان «سعيد» بخذلان جنوده، قال برباطة جأش: «فليدعني هؤلاء لألاقي مصيري[(٢)]»، وذلك على الرغم من قدرته على الانسحاب. وفي مارس من العام التالي، حقّق السلطان مع البريطانيين تحت قيادة الجنرال «ليونيل سميث» نصراً على رجال ونساء «بو علي» المسلحين بالسيوف بشكل غير مسبوق في تاريخ الحروب. وفي ما يلي رواية لشاهد عيان لهذه المعركة:

---

(١) «جي. أر. ويلستد»: «رحلات إلى مدينة الخلفاء» «Travels in the City of Caliphs» المجلد الأول، (لندن، ١٨٤٠)، ص ٢٩.

(٢) تجدر الإشارة إلى أن القائد الوهابي «بطّال المطيري» قاتل إلى جانب السلطان «سعيد».

«إن كلّ من شاهد هذا الهجوم الخارق سوف يشهد بالبسالة والعزيمة التي لم يبدها أيّ من العرب قطّ. فقد دافعوا عن قلاعهم بشجاعة جنونية، فلم يبادروا فقط بالنيران المستمرّة التي قهرت أعداداً جمّة على الفور، بل اقتحموا أيضاً صفوفهم ولم يهابوا شيئاً، وضحّوا بأنفسهم ليستأصلوا شأفة عدوهم. وقبل أن يتوقف غمار المعركة، كانت النساء تمشين بين القتلى ويمُتْن إثر ذلك. كان غرضهن من هذا أن يجدن أخلّاءهن الذين قتلوا أو جرحوا، وقد ظهر أن منهن من كن مشغولات في الهجوم. وعلى الرغم من فقدان الأزواج والأطفال، لم تبدُ عليهن أية علامات حزنٍ ولم يَنُحْن بكلمة، ولم تقطر منهن أية دموع»[١].

وعلى إثر ذلك، حُمِل ثمانون أسيراً إلى «مسقط»، حيث ماتوا جوعاً في سجن السلطان، بينما قامت ستّ كتائب من جيش «بومباي» بإدراج بني «بو علي» لديهم.

وفي عام ١٨٢١[٢]، تسبّبت الحرارة الشديدة في انتشار الكوليرا المميتة (حيث وقف الترمومتر عند درجة ١٠٤ف). وجاءت رياح كألسنة النيران أطاحت بما يقرب من ١٠٠٠٠ من رعايا السلطان «سعيد».

وفي عام ١٨٢٤، حجّ السلطان «سعيد» إلى مكّة. وكان حقاً انتصاراً رائعاً، حيث رحّب به أمير مكّة. وقد لاقت لياقته وأناقة مظهره ما يكافئها من شعبية ومكانة. وقد أسهم كرمه في شعبيته، خاصة بين ضبّاط «محمد علي» في مصر، والذي وصف بأنه مؤسس الوطنية في العالم العربي.

---

(١) «أي. كريشتون»: «تاريخ الجزيرة العربية» «History of Arabia»، المجلد ٢، (إيدينبرغ، ١٨٣٣)، ص ١٧٦ ـ ١٧٧.

(٢) في ذلك الوقت، كان أسطول السلطان يضمّ، إضافةً إلى بعض المراكب المحلية، خمس سفن بما فيها فرقاطتين مجهّزتين، الأولى بأربعين مدفعاً، والثانية بخمسين مدفعاً. «جميسن فرايزر» رحلة إلى «خراسان».

وبعد أربع سنوات، بعدما ثبطت همّته إثر محاولة هجوم فاشلة ضد البحرين، قرّر السلطان «سعيد» زيارة «زنجبار». وكان أحد أهداف الزيارة هو إخماد ثورة تمرّد خطيرة اندلعت على الجزيرة. وحيث إنه قرر أن يغيب عن «عُمان» فترة كبيرة، فقد أعدّ ترتيبات من أجل ابن أخيه «سالم»، ليُدير الحكومة من «مسقط»، مع تخويله جميع الصلاحيات. وفي الوقت نفسه، استمال الشاب «سيّد هلال»[1] -وهو ولد ابن عم «سعيد» وحاكم «سويق»- بضمان أكثر المواثيق جديّة لزيارة «مسقط»، حيث حاصر هذا الحاكم المحبوب وسجنه في إحدى القلاع؛ ذلك لأن «سعيد» خاف من طموحه المتزايد وشعبيته. وبعد علمها بأخبار أخيها واعتقاله المنافي لكل العهود المقدّسة، جمعت أخت هلال أكابر «سويق»، الذين بايعوها على التضحية من أجلها. ثم استولت على قلعة «سويق» القوية، وبدأت تُغير على أقاليم «سعيد». وقد أضعفت نجاحاتها آمال «حمود بن عزّان»، وهو أحد أبناء عمومة «سعيد»، الذي انتهز الارتباك الحادث، وفاجأ عساكر «صحار» في الليل مع خمسين من أتباعه. وفي غضون شهرٍ واحدٍ، فُقد ساحل «الباطنة» المأهول بأكمله من «سعيد»، بسبب السياسة غير الرشيدة التي فشلت في النهوض بهدوءٍ بالعاصمة «عُمان».

وفي ما بعد، وفي عام ١٨٣٠، عندما عاد إلى «مسقط»، حرّر السلطان السيد «هلال»، وسمح له بالعودة إلى «سويق». لكن عواقب سياسته كانت ذات أمدٍ طويلٍ، فعلى الرغم من أن النصيب الأكبر من منطقة «الباطنة» تمّ استرداده، فإن «صحار» على سبيل المثال لم تسترد إلا عام ١٨٥٢.

---

(١) في بحثه المتأني الأخير حول حكم السلطان «سعيد»، يخلط السير «جون غراي» بين هلال، الابن البكر لسعيد، وبين هلال حاكم «سويق». تاريخ «زنجبار» منذ العصور الوسطى حتى عام ١٨٥٦ «History of Zanzibar From the Midel Ages to 1856»، ص ٢٦٠.

كانت «صحار» ولمدّة طويلة محل نزاع كثير من الأطراف، وسنستطرد في الحديث عن تاريخها الآن.

في الفترة التي امتدت بين عامي ١٠٤١ و١٠٤٢، رسا أسطول فارسي في مكان بعيد عن «صحار»، واحتل المدينة وغزا شعبها. وفي منتصف القرن الثاني عشر، استحوذ عليها حاكم اليمن (من الجدير بالذكر أن كلّ المساحة التي كانت تقع على الشاطئ الجنوبي للخليج العربي يُطلق عليها «اليمن»)، محوّلاً اتجاه تجارة «صحار» مع الشرق الأقصى إلى «عدن». ومع ذلك، فبعدها بقليل، قال «ياقوت» إن «مدينة «صحار» ذات مناخ جيد، ولها ميزات أخرى -تشمل الفاكهة- وهي مبنيّة من «الطوب» وخشب «الساج»، كما أنّها ضخمة وليس لها نظير في هذه السلطنة». وفي عام ١٢٧٦، أثناء حكم «هلال بن عمر النبهاني»، تعرّضت «صحار» لغزو من قبل قوّة قوامها ٤٥٠٠ من مغول «شيراز»، الذين سلبوا وحرقوا ما في طريقهم إلى «نزوى». نتيجة لذلك، استمتعت «صحار» بانتعاشٍ تجاريٍ محدودٍ، حيث إن «ماركو بولو» (أول نصراني بعد «كوزمس إينديكوبليستس» يكتب عن «الهند»)، الذي زار منطقة «الخليج العربي» حوالى عام ١٢٩٣، يذكرها باسم «سوير»، ويضيف أنها تاجرت بالخيول مع «مابار» (مالابار الحالية)[١].

وهناك «أبو الفداء الدمشقي» (١٢٧٣-١٣٣١)، أحد معاصري «ماركو بولو»، والذي أُشير إليه على أنه حاكم «حماه» في سورية، قرب بداية القرن الرابع عشر بواسطة أحد السلاطنة المماليك من مصر وسوريا، وقضى وقت فراغه في جمع الكتب، وتأليف كتبه الخاصّة من المعلومات التي جمعها من كتّابٍ آخرين. وقد ورد هذا الوصف لمدينة «صحار» في

---

(١) السير هنري بول: «كتاب السير ماركوبولو - «The Book of Ser Marco Polo» المجلد الثاني، (الطبعة الثالثة، لندن ١٩٠٣)، ص ٣٤٠.

كتابه «الجغرافيا» بأن «صحار» مدينة تعيش بين الأطلال، وأكثر الأماكن ازدهاراً في «عُمان». وتعتبر «صحار» بلد النخيل والفاكهة. و«عُمان» كدولةٍ تتّسم بشدّة حرارة جوّها. وقد بدأ اضمحلال «صحار» كقوةٍ في بداية القرن الرابع عشر. ويأتي استخدام اسم «عُمان» في هذا السياق كدلالةٍ على خطأ الكتّاب، أو ربّما وجود مدينة ودولة تحملان الاسم نفسه في أيام العرب القديمة. ويحتمل أن تكون هناك مدينة في «الخليج العربي» أطلق عليها اسم «عُمانا»، في القرنين الأول والثاني بعد الميلاد، وفقاً لما جاءت به مصادر يونانية. وبالتالي فإنّ مدينة «عُمان» الأخرى المذكورة في كتب عربية هي بالتأكيد المدينة نفسها. ويأتي بعد ذلك، أن الميناء اليونانية «عُمانا» لا بدّ أن تكون مدينة احتلت في العصور الإسلامية، وربما استمرّ احتلالها تحت اسم آخر.

يوضح مؤلف كتاب «بريبلوس البحر الإريتري» «The Periplus of Erytrean Sea» أن «عُمانا» تقع على الساحل العُماني، على مقربةٍ من الشاطئ. ويقول مؤلّف الكتاب نفسه إنه أبحر من «مهرة» (ظفار) إلى الهند؛ لذا فهو يخبر بما سمعه فقط، فربما تكون هذه المعلومات خاطئة. في هذه الحالة، ربما تكون «عُمانا» في مكان آخر على ساحل «عُمان»، ومع ذلك فليس هناك الكثير ممّا يؤيّد ذلك. لذا، لا بدّ من بذل جهود على صعيد الأبحاث الأثرية حتى نصل إلى معلوماتٍ حقيقيةٍ. وبسبب مرساها المتميّز، فإنّ الكاتب يعتقد أن «مسقط» قد احتُلَّت منذ زمن بعيد، بالرغم من أن عمرها ليس أكثر من بضعة قرون.

وحسب ما قاله «ابن بطوطة»، فإنّ ساحل «الباطنة» بالكامل كان تابعاً لملوك «هرمز»، عندما كانوا هناك في أوائل القرن الرابع عشر، والضرائب السنوية التي كانت تتمّ جبايتها كانت ترسُل إلى «هرمز». وكانت جزيرة «هرمز» في ذلك الوقت تتمتع باستقلال تامّ، لكنها كانت ذات طابعٍ

فارسيٍ، وتابعة للحكومة الفارسية (لم تقع تحت سيطرة العرب إلا بعد اضمحلال دولتي «التيموريين» و«الصفويين»). ولما كان ما يتميّز به موقع «هرمز» من روعة المكان، فقد كان هناك مثل شرقي يقول: «لو أن العالم خاتم، لكانت هرمز درّته».

وفي عام ١٥٥٢، تمّ تعيين موظف جمارك على مدينة «صحار»، فقتله البرتغاليون في العام التالي، بأمرٍ من «دوارت دي مينزيس». ثم قام البرتغاليون عام ١٥٨٨ ببناء حصنٍ جديدٍ عليها. وفي عام ١٦١٦، قام البرتغاليون بمساعدة شيخ القبيلة الخائن «عمر بن حِميَر» بتحويل «صحار» إلى أطلال، فقتلوا حاكمها وأخاه، وسبوا عدداً من بنات «عُمان» بزعم تربيتهن ككاثوليكيات(١) متحرّرات. ولم يقتصر الأمر على تدمير المدينة، بل انتهكوا أيضاً شروط المعاهدة باعتدائهم على المدنيين دون تمييز بينهم وبين الجنود، وأجلوا أهل المدينة التي كانت تضاهي «هرمز» و«مسقط» في إيرادات الجمارك. وعاد الفرس إلى «صحار» للاستيلاء عليها عام ١٦٢٣، عندما هاجم الأميرال البرتغالي «روي فرير دا أندرادا» المدينة ومعه ١٦ سفينة. وكان النصر حليف «أندرادا» في المعركة، ولكن بعد أن فقد أربعة من ضباطه و٢١ من رجاله، ثم سمح للفرس بالعودة إلى موطنهم إعمالاً لمبدأ شرف الحروب.

وبعد عامين، لاحظ «بيترو ديلا فالا» أن البرتغاليين يفتقدون إلى شعبية أهل «الخليج» كما هي الحال دائماً، فعجزوا عن الهبوط بسلام على ساحل «الباطنة» ليتزوّدوا بالماء. وطُرِد البرتغاليون من «صحار» عام ١٦٤٣ على يد العُمانيين العرب من أتباع الإمام «ناصر بن مرشد»، ثم أعمل السيف في حاميتهم.

---

(١) فريد تشارلز دنفرز: البرتغاليون في الهند «The Portuguese in India»، المجلد الثاني، ص ١٩٢.



رحلة العبيد الطويلة الدامية



عبيد متروكون لحتفهم



إحدى الوسائل الوحشية لقتل العبيد

وتعرّضت «صحار» لحصار من قبل قوة الفرس التابعة لـ«نادر شاه»، في أول حملة له للاستيلاء على «عُمان»، ولكنها فشلت في تلك المرّة في الاستحواذ على المدينة، بالرغم من قدرتها على ضمّ «مسقط». وخلال حملته الثانية عام ١٧٤٢، احتلت قوات «نادر شاه»[١] مدينة «صحار» بشكل مؤقت، وقد دافع عنها «أحمد بن سعيد» ببسالةٍ لا نظير لها. وقد أشار الرحّالة

(١) في عام ١٧٤١، أخبر «نادر شاه»، المقيم الروسي في طهران، السيد «كالوشكين»، «لو تحرّكت بساقٍ واحدة، استولي على الهند؛ ولو تحرّكت بالساقين معاً، أغزو العالم بأسره».



عبيد زنجبار النّاجون

«كارسن نيبور»، أثناء زيارته لعُمان عام ١٧٦٥، إلى أن «صحار»[١] مدينة قديمة بلغت شهرتها الآفاق، إلّا أن قوّتها وهنت حتى كادت تذوي».

وقد تعرّضت «صحار» إلى أيادي التدمير من حين لآخر على يد القراصنة، منذ بداية القرن التاسع عشر؛ فكان أن دارت معركة بحرية كبيرة بين البريطانيين وأسطول من القراصنة عام ١٨١٩، أثمرت عن أمن وسلامة البريطانيين في «الخليج». لكن هذا لم يستمرّ طويلاً (حتى عام ١٨٢٩ تقريباً)، حيث تعرّض حصن «صحار» لحصار من قبل «حمود ابن

(١) كارسن نيبور: «رحلات عبر الجزيرة العربية» «Travels through Arabia»، المجلد الثاني، (إيدينبرغ ١٧٩٢)، ص ١١٥.

عزّان» الذي كان يتّسم بطموحه، وهو «ابن عزّان بن قيس» الابن الثالث للإمام «أحمد». وقد قام السلطان «سعيد» بمحاصرة المدينة براً وبحراً عام ١٨٣٦، دون أن يحقّق من ذلك نتائج حاسمة. وقبل أن يرحل «سعيد» متجهاً إلى «زنجبار»، أحضرت سفينة حربية إنجليزية «حمود» إلى «مسقط»، حيث تعرّض لضغط هائل لإقناعه بتوريث حكم «صحار» إلى ابنه سيف مع وعد كتابي بألا يُثير أية نزاعات ضد السلطان وأبنائه.

وفي عام ١٨٤٩، تخلّى «حمود» عن حياة الزهد والورع التي كان يتّسم بها، فاستأجر خادم ابنه المقرّب ليغتاله وهو نائم على سريره، ومنع البكاء والنواح على وفاة ابنه. واستردّ «حمود» من هنا السلطة مرّة أخرى بدعوة من ابن السلطان، السيد «الثويني» **(الملحوظة ز)**، الذي نكث الوعد وخان ضيفه وابن عمه قرب شاطئ «شِناص». وتعرض «حمود» لحصار مفاجئ، فوضع في الأغلال، وسِيق إلى البارجة «فايز عَلوم» لتقلّه إلى قلعة «جلالي» في «مسقط»، حيث كُبِّل بالسلاسل، وحبس في مكان شديد الحرارة يخلو من أيّ سبل للراحة وحرّية في الحركة، إلى أن وهنت صحته ومات من جرّاء ذلك التعذيب(١). وعندما وصلت أخبار موت «حمود» إلى أخيه «قيس بن عزّان» ثارت ثورته للانتقام، فكان ضحيته هو الشيخ الشجاع «قحطان بن سيف»، الذي كانت الشكوك تحوم حول دوره في محاصرة «حمود»، فألقي في السجن وذبح. وصارت «صحار» منذ عام ١٨٥٢ جزءاً لا يتجزأ من سلطنة «عُمان».

وجاء وصف لوصول السلطان «سعيد» إلى زنجبار **(الملحوظة ح)** عام ١٨٢٨، في خطاب أرسله التاجر الأميركي «إدموند روبرتس» إلى السيناتور «ليفي وودبيري» من «نيو هامبشير»، فقال: «أتى السلطان

---

(١) «مختارات حكومة بومباي» «Bambay Government Selections»، رقم ٢٤ (١٨٥٦)، ص ٢٣٠.

«ومعه قوّة مكوّنة من ٦٤ سفينة حربية وثلاث فرقاطات، بكلٍّ منها ٣٦ مدفعاً، وبارجتين بكلٍّ منهما ١٤ مدفعاً وحوالى ١٠٠ دهو مسلّح وستة آلاف جندي. وأثمرت أولى قراراته الإدارية في الجزيرة عن فوائد جمّة على اقتصادها دامت لفترات طويلة، فكان منها تشجعيه على زراعة الثوم. أما محاولاته لتدعيم التجارة فيها فقد جوبهت بمعارضةٍ شديدةٍ، إلّا أنه ثابر على هذا الأمر إلى أن تمكّن من تحقيق هدفه».

وقد فشلت أولى محاولاته لاستقدام كبش القرنفل (إسمه العلمي: «Eugenia Carophyllata»)، من موريشيوس (كان الفرنسيون هم أول من زرعه هناك عام ١٧٧٠، إلى زنجبار عام ١٨٠١، لكن نجحت ثانية محاولاته بعد ١٧ عاماً. وبعد مصادرة مزارع كبش القرنفل في الجزيرة، أمر «سعيد» أصحاب الأراضي تحت التهديد بمصادرة مزيد من المزارع، وزراعة ثلاث أشجار من كبش القرنفل مكان كلّ نخلة ماتت أو قطعت، وهو ما وضع أساساً لتوفير موارد أساسية لزنجبار. وكما أشار الرائد إف. بي. بيرس[(١)]:

«إن اتجاه السلطان «سعيد» بشأن زراعة كبش القرنفل في «زنجبار» و«بمبا» يضعه ضمن فئة رجالٍ تتمتّع بسلطة استثنائية وقوّة لا يُستهان بها، وربما ينظر إلى هذه الأشجار كتراث يخلّد السلطان «سعيد»، صانع زنجبار.

وبعد وصوله بقليل، عيَّن «سعيد» ابنه خالد البالغ من العمر ١٣ عاماً حاكماً على الأراضي الإفريقية الشرقية التي تخضع لسيطرته. وعلى الرغم من حبه لأرض «عُمان»، فقد جعل هذه الجزيرة الخصبة الخضراء الهادئة مقرّه الرسمي وعاصمة «عُمان» الجديدة ومركز التجارة في شرق إفريقيا. وقد تبع الكثير من أصدقاء «سعيد» العُمانيين قائدهم، وارتحلوا إلى أرض زنجبار الغنيّة.

---

(١) «زنجبار» ـ Zanzibar، (نيويورك، ١٩٢٠)، ص ١٢٣.

ويعني اسم «زنجبار» (هي كلمة فارسية معرّبة اشتقّت من كلمة «زنج»، التي تعني الزنوج، و«بار» التي تعني ساحل) «ساحل الزنوج» أو «أرض السود». ويعدّ هذا الآن خطأ في التسمية؛ لأن ساكني «زنجبار» هم خليط من سلالات مختلفة، أكثرها فرس «شيراز» وعربان «عُمان» وشعوب «البانتو» من زنوج إفريقيا. وحيث إن «البانتو» ليسوا من الزنوج الصرف، وإنّما هم خليط من الحاميين (نسل حام بن نوح) وعناصر زنجية، نفهم من ذلك أن نسبة كبيرة من دماء سكّانها الحاليين من أصول آسيوية. ولا يزال عدد صغير من الشعوب المنعزلة من الزنوج، وهم سكان «زنجبار» الأصليون، موجودين. وطبقاً لرؤية البروفيسور «آر. بي. سيرجنت»، «فإنّ الحضرميين، وربما اليمنيين، كان لهم أثر في الطبيعة السكانية لزنجبار، حيث إن الشافعية يمثلون أغلبية سكّانها وليس الإباضيين»[1].

وكما يُشير «ريتشارد ماتيسون»، فإن أفارقة «زنجبار» ينقسمون إلى فئتين: الشيرازيين -أو «واشيرازي»- والأفارقة الحقيقيين الذين جاءوا، إما كعبيد أو كمهاجرين إلى الجزر، خلال المئتي عام الماضيتين. فالشيرازيون هم السكّان الأصليون، وهم العنصر الرئيس من السكان. ويعني هذا أنهم كانوا هناك قبل مجيء العرب، خاصة العُمانيين. وينقسم الشيرازيون إلى ثلاث قبائل: «الواهاديمو»، «الواتمباتو»، «الوابمبا»، على الرغم من أن هذه القبائل لم يكن لها دور أساسي في تاريخها، ولكنها ذات أصولٍ متفقٍ عليها. وهناك أيضاً بعض الفروق في النظام الاجتماعي، حيث يقطن «الواهاديمو» أساساً شرق وجنوب «زنجبار»، والواتمباتو في جزيرة «تيمباتو»، و«الوابمبا» في جزيرة «بمبا». ومع الوقت، انتقل كثيرٌ منهم من أراضيهم الأساسية. ويبلغ عدد أهل قبيلة «الواهاديمو» في وقتنا

(١) في اتصالٍ خاصٍ مع المؤلف.

الحالي ٤١٨٠٠ نسمة، وعدد «الواتمباتو» ٤٦١٠٠ نسمة، وعدد «الوابمبا» ٥٩٨٠٠ نسمة. وعلى ذلك، يكون إجمالي عددهم هو ١٤٨٥٠٠ نسمة، فيما يبلغ عدد السكان الأصليين ٥١٠٠٠ نسمة[١].

كان اهتمام «سعيد» كلّه منصبًّا على التجارة (**الملحوظة ط**)، وشكّلت كلّ وارداته إلى أراضيه الإفريقية نسبة منتظمة تقدّر بـ٥٪ من دخل الدولة.

وكان «سعيد» يقول والابتسامة تعلو وجهه: «أنا لست إلا تاجراً[٢]». لذا، فإن الميزات التجارية والاستراتيجية الواضحة لزنجبار بمرفئها الواسع المليء بالشعاب المرجانية («زنجبار» هي أكبر جزيرة مرجانية على الساحل الإفريقي) ساعدته على كسر العادات السحيقة لموطنه، ممّا أثار انشقاقاً داخل «عُمان»، (بعد أن عيّن ابنه الأكبر «هلال» والياً على «مسقط»)، ونقل عرشه على بعد ٢٥٠٠ ميل.

لم يكن لون اللواء الذي يرفرف على هذه الأرض أنسب لمكان غيرها. فكان رمز الفرد من أهل «زنجبار» هو العمامة العربية المغموسة بدماء الرجال والعبيد المقتولين، وكان صولجانها مصنوعاً من نابٍ من العاج لفيلٍ مذبوحٍ[٣].

أصبح «سعيد» -الذي ضاعف عائدات الضرائب عشر مرات- المالك الأساسي للأراضي في «زنجبار»، فكان يمتلك (٤٥) مزرعة فيها. وداخل بستان من أشجار الجوز والمانغو يبعد (٤) أميال عن المدينة، بنى

---

(١) في اتصال خاص مع المؤلف.

(٢) «أي. دي جوبينيان»: ثلاث سنوات في آسيا» «Trois ans en Asie, de 1855 à 1858» (باريس، ١٩٠٥)، ص ٩٩.

(٣) «إي. دي. مور»: «سوط أفريقيا العاجي» «Ivory Scourge of Africa»، (نيويورك، ١٩٣١)، ص ٢.

قصراً، هو «بيت المتوني» (**الملحوظة ي**)، ولا يزال هناك بقايا منه. ثم امتلك قصراً في المدينة يسمّى «بيت الساحل» (وقد دُمّر بالقصف عام ١٨٩٥) ويضمّ الخدم والعمال هناك أعداداً من العرب والأتراك والفرس والنوبيين والحبشيين والسواحليين، وبعضاً من أهالي أواسط إفريقيا.

في كتاب «تاريخ كلوا كيسيواني القديم» «The Ancient History of Kilwa Kisiwani»، كما تُرجم من اللغة الأصلية السواحلية، نعلم أن «سعيد»:

«بدأ عادته بإرسال ثَوبين من القماش كلّ عام إلى الحاكم كان سبب هذه الهدايا من «سعيد بن سلطان» هو النزاعات التي كانت تحدث على الساحل، ممّا يعوّق حركة القوافل؛ لأنه إذا انطلقت القوافل بشكل طبيعي، ستنزل من الأرض الأساسية للواشينزيين [البربر]، ثم تمرّ على سكّان الساحل، ومنه إلى السكان الداخليين الذين يتاجرون معهم. لذا، فإن قدراً كبيراً من التجارة سينتقل إلى بلاد أخرى مثل «زنجبار»، وعليه سيتمّ جمع كثير من رسوم الجمارك»(١).

مثل جميع السلاطنة العظماء، استخدم «سعيد» الزواج كما استخدم القادة الماكرون الحرب. ففي عام ١٨٣٣، تقدّم للزواج من أميرة فارسية، إلّا أن طلبه قوبل بالرفض، فوجّه نيّته إلى الزواج من الجميلة المتعجرفة «رانافالونا»، أرملة ووريثة المتوفّى حديثاً «راداما الثاني» ملك مدغشقر(٢). ولم يكن هدفه من ذلك هو الزواج بحدّ ذاته، حيث كانت له أهداف

---

(١) ساحل شرق أفريقيا: وثائق مختارة «The East African Coast: Select Document»، ص ٢٢٤. تُرجم عن اللغة السواحلية الأصلية وطُبع في «سي. ڤلتن»، تحت عنوان «Prosa and poësie der Swahili»، ص ٢٤٣ ـ ٢٥١.

(٢) «إتش ديشامب»: «تاريخ مدغشقر» «History of Madagascar»، (باريس، ١٩٦٠).

وطموحات في شرق إفريقيا بصفةٍ عامةٍ، حيث استردّ أسطوله «مقديشيو»، ثم اتّجهت عيونه إلى القلعة المنيعة «مومباسا». وقد تألف جيش «سعيد» الأساسي من البدو المسلمين سكان «بالوتشستان» الذين احتدمت رغبتهم في النزوح إلى شرق إفريقيا[1]، بينما لم تكن هذه رغبة كتائب جيش الملكة. وقد أرسل وفداً محمّلاً بالهدايا على متن الفرقاطة «بيدمونتيز» للتمهيد لعرض الزواج. وحيث إنه كان من المنافي لتقاليد بلدها الزواج مرة أخرى، فقد أرسلت خطاباً مكتوباً بالإنجليزية تعرض فيه إرسال أميرة صغيرة بدلاً منها إذا رغب «سعيد». كما أنها طلبت عِقداً من المرجان تبلغ قيمته ألف دولار، فكان رد السلطان «سعيد» أن اضّطرته الحاجة إلى الاستعانة ببارجةٍ إنجليزيةٍ راسيةٍ على الطريق، وكان قائدها من حسن حظه يعرف القراءة، «فالجديّة التي طغت على الموقف يمكن تخيّلها بصورة أكثر تعبيراً من كلماتي» [القبطان إتش هارت]. ومن حسن الحظ أن الموقف لم يكن ينطوي على قصة حبّ، أو أن السلطان فرض سرّية على الموضوع، أو كان على هذا الرجل الطيب أن يندب قدرته على القراءة، إذا وجد نفسه محكوماً عليه بقطع رأسه[2].

ربما يكون «سعيد» محظوظاً، حيث إنه أثناء حكم الملكة «رانافالونا» قامت بذبح أكثر من مليون من رعاياها، وأمرت بقتل مئة ألف من الرجال والنساء والأطفال، وقامت بتوزيع ٢٠٠٠٠٠ من النساء على جنودها

---

(١) انظر «رودلف سعيد ـ رويت» في: «سعيد بن سلطان، وأيضاً «سجلات جنوب شرق أفريقيا» «Record of South Eastern Africa»، المجلد الأول، ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤، وأيضاً «ريتشارد رويش» في «تاريخ شرق أفريقيا» «History of East Africa» (Stuttgart, 1954).

(٢) «مختارات حكومة بومباي» «Bombay Government»، السلسلة الجديدة، رقم ٢٤ (بومباي، ١٨٥٦)، ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨.

لمتعتهم الشخصية. وبسبب عدم ثقتها في المبعوثين والتجار الأجانب، قيل إنها عَبَدتْ إله القسوة، وكانت تحدوها رغبة طاغية في تعذيب جميع المبشّرين الأوروبيين، واستمتعت بطرق قتلهم ما بين تسميم وغلي في الماء وتمثيل بالجسد.

وفي العام نفسه، وقت محاولة التحالف مع مدغشقر، أبرمت معاهدة ودّ وتجارة بين «عُمان» و«الولايات المتحدة» في عهد الرئيس «أندرو جاكسون». كانت هذه أول معاهدة يوقّعها حاكم «الخليج» مع قوّة عالمية. كانت المعاهدة مكتوبة بالإنجليزية والعربية على ورقة جلدية، وأصبحت النموذج للمعاهدات التجارية المستقبلية للبريطانيين عام ١٨٣٩ والفرنسيين عام ١٨٤٤.

يعتبر تاريخ المعاهدات[١] بين «عُمان» و«الولايات المتحدة» مثالاً رائعاً للمعاملات التجارية الأميركية القديمة. اقترض تاجر أميركي يدعى «إدموند روبرتس» أموالاً عام ١٨٢٧ ليتمكّن من تأجير البارجة «ماري آن»، فخسر أمواله في «زنجبار»، ملقياً اللوم على المعاملات الروتينية الحكومية، والضرائب الباهظة، والمعاملة غير العادلة، مقارنة بالمعاملة التي يلقاها البريطانيون[٢].

وثمة رواية مختلفة على لسان «جون غراي»[٣]، عندما اقتبس مما كتبه «إدموند روبرتس» إلى «سعيد»: «لمّا فقد ثروة كبيرة، شعر أن جزءاً من ثروته يمكن استعادته بالقيام برحلةٍ إلى «زنجبار» وموانئ أخرى تخصّ

---

(١) تم توقيع أقدم معاهدة بين الولايات المتحدة ودولة عربية في «عُمان» ١٧٨٧، وكانت مع سلطان المغرب؛ أما الثانية فكانت مع سلطان «عُمان» في عام ١٨٣٣.

(٢) انظر «سي. تي. بْرَبْريدي جونيور»: «Commerce and Conquest in East Africa».

(٣) «تاريخ زنجبار من العصور الوسطى حتى عام ١٨٥٦».

«سعيد». ثم اقترض «روبرتس» أموالاً وأجّر «ماري آن» وأبحر إلى «زنجبار». وقد أظهر سخطه كتابيًّا وشخصيًّا لدى السلطان فاستقبله بلطف بالغ، وأصبحا صديقين. وبعد العودة إلى الولايات المتحدة، قام «روبرتس» بتكرار الزيارة إلى «مسقط» ستّ مرات في المركب الحربي وحيد الصاري «بيكوك» في مهمة رسمية، ومسلحاً بخطاب من الرئيس إلى السلطان يخاطبه فيه خطاب الأصدقاء.

زار السيّد «سعيد» البارجة «بيكوك» ذات الاثنين والعشرين مدفعاً في موكب ومراسم عظيمة، ووافق على إعطاء المراكب الأميركية وطواقمها أفضل الامتيازات، فكان الاعتراف الدبلوماسي بالمساواة من قبل أحد أعظم دول العالم الجديد بمثابة وعد لإتمام توسيع تجاراته عبر البحار.

**وفي السابع من أكتوبر عام ١٨٣٣، كتب السلطان رداً على خطاب «جاكسون»:**

«إلى الموقّر «جاكسون»، الذي يسطع اسمه في سماء العالم. إنني أدعو أن يصل هذا الخطاب إلى سمّوه، رئيس الولايات المتحدة وهو في أتمّ الصحة، وأن تكون سعادته دوماً في ازدياد. في ساعة هي الأوفر حظاً، استلمت خطاب سعادتكم الذي تسطع كلّ كلمة من كلماته كالشمس في وقت الظهيرة.....»

ولما انتشرت الشائعة بأن «سعيد» عرض على الأميركيين حقوقاً خاصّة، لإقامة منشآت تجارية عبر أراضيه الإفريقية، بما فيها «زنجبار» (مقابل ما عرضته أميركا من تعاونٍ مسلحٍ للاستيلاء على «مومباسا»)، زار «إتش هارت» -بناءً على أوامر بحريةٍ ملحة - السيّد «سعيد» على متن السفينة الملكية «إيموجين» في «زنجبار» في ٣٠ يناير عام ١٨٣٤، وتأكّد من أنه لن تكون هناك مستعمرات أميركية على الساحل الإفريقي الشرقي (**الملحوظة ك**).

حصلت المعاهدة على إقرار مجلس الشيوخ بالولايات المتحدة في يناير عام ١٨٣٤ (**الملحوظة ل**)، فأرسل «روبرتس» يطلب إقرارها بالمثل. وكان في الطريق من «زنجبار» إلى «مسقط» في ٢١ سبتمبر في البارجة «بيكوك»، عندما حدث ما وصفه المؤلّف في خطاب خاصّ لروبرتس أرسله إلى أسرته عام ١٨٣٥ :

«وفجأة طرقت أصوات مرعبة آذاننا، تُحاكي في شدّتها ما تأتي به الزلازل. كانت السفينة تذهب يميناً ويساراً وكادت أن تتفكّك قطعاً، حيث جنحت إلى حيد بحري مليء بالمرجان بالقرب من جزيرة «مصيرة». وبعد محاولتين غير مجديتين لدفع السفينة إلى المياه العميقة، خوفاً من أن تتحوّل إلى حطام مع أول رياح شديدة تهبّ عليها، وكانت أقرب السواحل إلينا هي سواحل «مسقط» التي تبعد أربعمئة ميل، إلّا أن خطر القراصنة كان يحدق بها من كل جانب، فسلبونا الطوف الذي استعنا به في الإبحار وصنعناه من بقايا سارية السفينة... . تطوّعت بالذهاب إلى «مسقط» في قاربٍ مفتوحٍ صغيرٍ لتدبير العون والمساعدة من السلطان ... فلاحقنا أحد القراصنة لخمس ساعات في ذلك اليوم... . ولو تمكّنت سفينة القراصنة من اللحاق بنا، لكان لزاماً علينا استقبالها بطلقات البنادق، ولكنّا أرسلنا القارب باتجاه الريح، فإن منينا بالفشل في ردعها، لوجب علينا أن نطلق عليهم المزيد من الطلقات والنزول عليها بسيوفنا المعقوفة ومسدساتنا، وأن نغنمها إن كان لنا سبيل لذلك. وأنا أشعر بالغبطة لعدم استسلام أحد من الرجال، إذ حمل الجميع سلاحه دفاعاً عن نفسه، فإن كان الموت بانتظارنا، فإن سلاحنا بأيدينا نقاتل دفاعاً عن حياتنا، وذلك أفضل من الاستسلام لموتٍ مخزٍ. وأبحرنا بالقارب في البحر طوال هذه الليلة، حتى وصلنا آمنين إلى «مسقط»».

فأرسل السلطان على الفور سفينته الحربية «سلطان» - وهي سفينة شراعية ذات صارٍ واحدٍ- إلى «مصيرة». وفي غضون ساعة ونصف من

هبوط «روبرت» على الشاطئ، أرسل رسولاً يرافقه أحد الأشخاص المسلحين إلى والي «مصيرة» وشيوخ القبائل، «يحمّلهم مسؤولية فقدان حياتهم، إن مات أيّ شخص من طاقم السفينة، أو سرقت أيّة ملكية منها من قبل أيّ شخص يعيش في الأراضي الخاضعة لهم». وإلى جانب ذلك، أرسل السلطان فرقة تتألّف من ٣٥٠ من البدو، لمرافقة أيّ شخص من الطاقم هبط على الساحل وأراد التوجّه إلى «مسقط». ويورد القبطان الأميركي في خطاب أرسله إلى أسرته بعد ذلك، أن السلطان استقبله استقبالاً حاراً ودوداً، عبّر فيه عن ألمه لمعاناتنا. «لم يمنع عنّا أيّ لون من ألوان المساعدة والعون، بل إنّه أصرّ على أن يقدّمها بنفسه. واحترازاً من فقدان سفينة «بيكوك» في النهاية، خصّص السلطان سفينة حربية لتتجه إلى الولايات المتحدة مع شركة السفينة، إلى جانب تجهيز سفينة أخرى خاصّة بي. وفي صباح اليوم الثامن والعشرين، وتحت شمس الظهيرة، أرسل إلينا السلطان أروع ما رأته عيوننا في تلك اللحظة، فقد أبصرنا سفينته «سُلطانة» آتية مع «بيكوك»».

وبعد أسبوعين أمضاهما القبطان «روبرتس» ورفاقه من الأميركيين في ضيافة السلطان، استأذنوا السلطان للمغادرة، وتبادلوا هدايا الوداع؛ فقبل السلطان علماً أميركيًّا وخريطة للولايات المتحدة إلى جانب كتاب من الأشعار وعددٍ من المصابيح.

وفي الشهور القليلة التالية، رست تسع سفن أميركية في ميناء «مسقط»، وهو أمر عكس نجاح هذه المعاهدة المتبادلة، في الوقت الذي لم ترسُ فيه سوى سفينة أميركية واحدة فقط في «مسقط» خلال السنوات السبع السابقة. وقد أرست المادة التاسعة والأخيرة من هذه المعاهدة مبدأً تاريخيًّا يتعلق بحقوق المناطق غير الإقليمية، ومنح مسؤول أجنبي (أميركي) سلطة شرعية يمارسها على أتباعه ومواطنيه في جميع موانئ مملكة السلطان، «ويكون هؤلاء القناصل هم القضاة

الوحيدون في جميع المنازعات والقضايا، التي يكون طرفاها من المواطنين الأميركيين».

كانت الولايات المتحدة في ذلك الوقت دولة حديثة نسبيًا، فلم يكن عمرها يتعدّى خمسة وسبعين عاماً. وكان الأميركيون حينئذٍ قد بدأوا في خوض غمار البحار السبعة، في حين أن الإمبراطورية العُمانية كانت تستحوذ على جميع الطرق التجارية الأساسية في «الخليج العربي» والمحيط الهندي لقرونٍ طويلةٍ.

وكان هذا الاحتكار الأميركي المزعوم في نظر البريطانيين صورة أخرى من صور القرصنة، وإمعاناً في مصابهم بمزيدٍ من الإهانات. وكان السلطان «سعيد» قد علّق لوحتين محاطتين بإطارين مذهّبين في حجرة الاستقبال الرسمية على جانبي عرشه. وكانت اللوحتان تصوّران وتوضحان المعارك البحرية بين السفن الأميركية والبريطانية، وصوّرت السفن الإنجليزية بأنها استسلمت للأميركيين المنتصرين، وأن رايتهم قد نكست لتحلّ محلها راية الأميركيين أعلى الصاري، وهو ما كان يعكس حسّ السلطان الفكاهي. وتمكّن القنصل البريطاني في النهاية «أتكينز هامرتون» من إقناعه باستبدال هاتين الصورتين البغيضتين بغيرهما من ألوان زاهية تصوّر انتصار الإنجليز في معركة «نافارينو».

وممّا تجدر الإشارة إليه، ويُثير دهشتنا في الوقت نفسه، أن الصورة الحالية الوحيدة للسلطان «سعيد» معلّقة في متحف «بيبودي» في مدينة «سالم» في ولاية «ماساشوستس» الأميركية. ويرجع ذلك إلى احتكار سفن مدينة «سالم» ذات الصاريين للأنشطة التجارية في المحيط الهندي خلال القرن التاسع عشر، وذلك منذ أن شقّت سفينة «إلياس هاسكت دربي» ذات الثلاثة صواري «غراند ترك»، والتي تصل حمولتها إلى ثلاثمئة طن، طريقها في هذا المحيط عام ١٧٨٤. ويُعتقد أن الفنّان الذي

رسم هذه اللوحة هو الملازم «هنري بي لينش»، وكان قد رسم لوحة لـ«سعيد بن سلطان» في «مسقط»، وهو يعمل كمترجم من العربية إلى الفارسية لقائد الأسطول في «الخليج العربي»، وذلك في الفترة ما بين منتصف عام ١٨٣٠ وبداية عام ١٨٣٢. وكان المعاصرون للسلطان «سعيد» يصفونه بأن «ملامحه عربية، وكان لونه يضرب إلى الصفرة»، فلونه الأسمر في اللوحة إنما سببه قدم القماش الذي رسمت عليه اللوحة. واعتقد أهل «زنجبار» أن جميع الأوروبيين أتوا من «سالم»، وأن إنجلترا لم تكن سوى ضاحية من ضواحيها، وهو ما كان يثير حفيظة مندوبي بريطانيا العظمى في «زنجبار» إلى أقصى درجة. وكان السلطان «سعيد» يتحمّل مجمل تكاليف الإنفاق على البحّارة الأميركيين الذين غرقت سفنهم، وإعادتهم إلى وطنهم. فكان لا يفرّق بينهم وبين بحارته - على حدّ قول القبطان «إتش هارت»- «فعندما يكون على متنها [أي «سعيد»] يقوم بكل شيء بنفسه، فيعمل على ملئها، وينقل مرساها ويأتي بمرساتها». وكانت بحرية السلطان «سعيد» تتألف من خمس وسبعين سفينة تحتوي على ما يربو على ستة وخمسين مدفعاً في كلٍّ منها. ويسجّل لنا أحد المراقبين البحريين البريطانيين في ذلك الوقت أنه «إذا ما أراد «سعيد» يوماً أن ينافس على السيادة البحرية في المحيط الهندي، فسيجده البريطانيون مناوئاً وخصماً تصعب مضاهاته».

وهناك في واشنطن، كتب «إدموند روبرتس»، في معرض كلامه عن حاكم «عُمان» قائلاً:

«كان يحوز قوّة بحرية كفوءة، تفوق عدد قطع الأمراء مجتمعة من رأس الرجاء الصالح وحتى اليابان. وكانت موارده تفوق احتياجاته. واستطاع الحصول على هذه السفن من التجارة، فكان يقوم بنفسه بتشغيل عددٍ كبيرٍ من السفن التجارية. ويُضاف إلى هذه الموارد أيضاً

الرسوم التي كان يحصّلها من التجار الأجانب، إلى جانب الإتاوات والهدايا التي كان يتلقاها من عدد كبير من الأمراء، فجميع هذه الموارد تثمر في النهاية مبالغ طائلة»[١].

وفي نهاية عام ١٨٣٩، أرسل «سعيد» سفينته الحربية القديمة «سلطانة» محمّلة بالبضائع والسلع (منها التمر والسجاد الفارسي والصمغ والعاج وكبش القرنفل) وهدايا إلى الرئيس «فان بورين» في زيارةٍ إلى نيويورك[٢]. ووصلت «سلطانة»، التي سمّيت بذلك تيمّناً بزوجته الأولى، إلى الميناء الأميركي في ربيع العام التالي، فأثارت زيارة هذه السفينة وطاقمها اللافت للنظر كثيراً من الزخم والاهتمام العام، بل انتشرت شائعة بأن من الهدايا التي تحملها السفينة إلى الرئيس «أَمَتَيْن أو ثلاثة من الجراكسة ذوات جمالٍ فتّانٍ». وبينما كان يتمّ تفريغ «سُلطانة» في ميناء مدينة نيويورك ثم تجديدها من قبل البحرية الأميركية على نفقة الحكومة، وتحميلها بالمنتجات الصناعية الأميركية، تعرّض طاقمها لمصاعب نتيجة ما لاقوه من عصابة من الأميركيين، الذين احتشدوا بدافع الفضول لرؤية العرب، فقاموا بشدّ لحاهم، وصبّوا عليهم الإهانات إلى أن غادرت السفينة صوب «زنجبار» في شهر أغسطس. وأبحرت «سلطانة» عام ١٨٤٢ إلى إنجلترا، ثم توجّهت السفينة عام ١٨٤٩ إلى رصيف مدينة «مرسيليا».

وجاء على لسان الملازم «جيه. آر. ولستيد»، وهو أحد رواد الاستكشاف في «عُمان» أنّه: «كان ما يميّز حكومة هذا الأمير غياب

---

(١) مطبوعات «هانتر ميلر»: معاهدات وقوانين دولية أخرى خاصة بالولايات المتحدة الأميركية»، المجلد ٣، (١٩٣٣)، ص ٧٩٠ ـ ٧٩٨.

(٢) قصة رحلة «سلطانة»، وشرحها بالتفصيل دهرمان فريدريك إيلتس» في «بعثة أحمد ابن نعمان إلى الولايات المتحدة في عام ١٨٤٠: رحلة الـ «سلطانة» إلى مدينة نيويورك» ـ «Essex Institute Historical Collections»، المجلد ٩٨، الرقم ٤، (أكتوبر ١٩٦٢) ص ٢١٩ ـ ٢٧٧.

الضرائب القاسية والعقوبات الاستبدادية، ولفتت عطاياه انتباه جميع التجار من جميع الأمم، فتوجّهوا إلى الإقامة في «مسقط»، ناهيك عن التسامح الديني الذي امتدّ ليشمل جميع المعتقدات والطوائف».

وكانت ملابس السلطان «سعيد» -كما كانت توصف في ذلك الحين- لا فرق بينها وبين ملابس أفراد شعبه، فكان من الصعب تمييزه من خلال الملبس، سواء في «زنجبار» أم في «مسقط». وكانت أحبّ زوجاته إليه على جانب آخر تتزيّن بأروع ما جاءت به الكنوز الشرقية. وكان يزور أمه كل يوم، التزاماً منه بما يمليه عليه دينه وعاداته الاجتماعية، وذلك لما روي عن أبي هريرة أن النبي ﷺ ردّ على سائل قال له: «من أحقّ الناس بصحبتي؟» قال له: «أمك.» فقال: «ثم من؟» قال: «أمك» قال: «ثم من؟» قال: «أمك» قال: «ثم من؟» قال: «أبوك».

ونجح السلطان «سعيد» عام ١٨٣٧ في وضع مؤامرة بهدف إنهاء سلسلة إخفاقاته في حروبه ضد «ممبسة» [مومباسا] (حيث كانت هذه ثالثة محاولة له)، فخان حاكمها «راشد بن سالم» بحصاره هو وثلاثين من أفراد أسرته الحاكمة الطائشة والحمقاء (فقد طالبت هذه العائلة العُمانية المتغطرسة والقديمة بحكم جنوب الساحل حتى «بانجاني»)، وذلك بعد تعهّد بتوفير الأمان لبندر عباس بالملاحة، وقد قام بطرح البعض منهم وهو في طريقه عن ظهر السفن، وترك الباقين يعانون من الجوع حتى الموت، وشد وثاقهم بالسلاسل في سفينة «سعيد». وبالقضاء على عائلة «راشد»، آخر الحكام المازوريين، أطفئت جذوة آخر مصدر للعصيان في أراضي شرق إفريقيا[1].

---

(١) انظر: «نمو الإمبراطورية الجديدة «The Growth of the New Empire» ١٧٨٣ - ١٨٧٠، لمؤلفيه: «جي. هولند رود»، «أي. بي. نيوتن وإي». «أي. بنيانز»، المجلد الثاني، (كامبردج، ١٩٤٠)، ص ٦٢٥. السير «جون غراي»: «تاريخ زنجبار منذ العصور الوسطى حتى عام ١٨٥٦. «أر. كوبلاند»: شرق أفريقيا =

وتمّ فتح قنصلية أميركية في السنة نفسها في «زنجبار»، ثم تمّ إبرام معاهدة توسّع بعد سنتين بين البريطانيين والسلطان «سعيد»، حظرت مجدداً بيع العبيد «للنصارى من أيّ مذهب أو ملة» من قبل أو عبر رعايا السلطان. وقد أقرّت المادة الثالثة من هذه المعاهدة التي أبرمت عام ١٨٣٩ أن بيع الصوماليين كعبيد سوف يخضع لعقوبة في المستقبل مثله مثل القرصنة، وذلك من منطلق أن الصوماليين ولدوا أحراراً، ولأنهم ينتمون إلى عرق لا يصحّ معه استعبادهم على ما جاء به الفقهاء من المسلمين. وقد خوّلت البحرية الهندية، بالإضافة إلى ذلك، سلطة تفتيش أيّ من سفن العبيد العُمانية والاستيلاء عليها ومصادرتها، حيث كانت البحرية الهندية هي أعظم القوى المحاربة الخاصة بشركة الهند الشرقية (وقد أنشئت البحرية الهندية منذ عام ١٦١٣ حتى عام ١٨٦٣)، وذلك بما يتفق مع ما ورد في «المعاهدة الملزمة»[1] الأوّلية، التي أبرمت عام ١٨٢٢، حيث مُنحت هذه الحقوق للبحرية الملكية، وذلك وفق ما أنجزه القبطان «فايرباكس مورسبي»، التابع للبحرية الملكية وقائد السفينة «مناي» الخاصة بجلالتها.

ووفق معاهدة «مورسبي» عام ١٨٢٢، تعهّد السلطان «سعيد» بحظر تجارة الرقيق خارج أراضيه في إفريقيا وآسيا، فهذه المعاهدة:

حظرت بيع العبيد إلى شعوب النصارى من قبل رعايا السيد [السلطان]، كما أنّها جعلت من شراء الرقيق من قبلهم للغرض نفسه - وهو بيعهم للنصارى- أمراً يخضع لعقوبات، كما أنها خوّلت للحكومة البريطانية أن تبعث مندوباً لها إلى الأراضي الخاضعة للسيد [السلطان]

---

= وغزاتها»؛ السيد غيلان: وثائق حول التاريخ والجغرافيا والتجارة في أفريقيا الشرقية»، المجلد الأول، ص ٥٨٤ ـ ٥٨٩، والمجلد الثاني، ص ٢٦ ـ ٢٧.

(١) النص الحرفي لمعاهدات ١٨٢٢ و١٨٣٩، وارد في «مختارات حكومة بومباي»، رقم ٢٤، وفي «دليل الخليج الفارسي، عُمان ووسط الجزيرة العربية» لمؤلفه «جي. جي. لوريمير»، المجلد الأول، ص ٢٤٧٦.

في شرق إفريقيا لمراقبة هذه التجارة، والاستيلاء على أيّة سفن «عُمانية تحمل على متنها عبيداً، وتتجه بهم إلى دول نصرانية بعد مضي أربعة أشهر.

وهذا يكشف لنا بُعد نظر السلطان «سعيد»، ونُبل أخلاقه بتضحياته، أو كما جاء على لسان السير «ريتشارد بورتون»: «صداقته لنا كلّفته غالياً»، حيث إن هذا الامتياز قضى على ربع دخله السنوي الذي يقدّر بثمانين ألف جنيه إسترليني، والذي كان يأتيه من تجارة الرقيق المربحة. ولكن تُضاف إلى ذلك خسارته حجماً كبيراً من احترام ورضى رعاياه من العُمانيين، حيث كانت تجارة العبيد هي المصدر التجاري الوحيد بالنسبة لهم، فكان تحريمها عندهم مخالفة واضحة لما جاء به القرآن الكريم. ولم يكن للسلطان «سعيد» من يكافئه منزلة بعد قيامه بهذا، ففي الوقت الذي عمدت فيه «إسبانيا» المسيحية التي نشأت حملاتها التبشيرية على الإعدام حرقاً و«المَخْلَعة» وأدوات التعذيب التي يضغط بها على إبهام اليد، وذلك بعد ملحمة من المداهنة والمضايقة والرشوة، دفعت بريطانيا العظمى ما يربو على أربعمئة ألف جنيه إسترليني عام ١٨١٧ كتعويضات قومية للغرض نفسه.

ولكن إنجلترا، تلك الدولة التي وقفت من أجل قضية يقال إنها طغت على غيرها من القضايا في زماننا هذا، والتي طبعت نفسها في الوجدان كأنقى جوهر عملي للمسيحية، غلبها كرم ذلك الحاكم في ذلك الجزء النائي من الجزيرة العربية[١].

وكان عدد العبيد في «عُمان» في تلك الفترة يؤلّف ثلث عدد

---

(١) «جي. أر. ويلستيد»: رحلات في شبه الجزيرة العربية» ـ «Travels in Arabia»، المجلد الأول، ص ٣٨٨.

السكان، إلّا أنه في «زنجبار» التي قدّر عدد سكانها في تلك الآونة بمئتي ألف نسمة، فقد بلغ عدد العبيد فيها مئة وخمسين ألفاً تقريباً[1].

## الملاحظات

*** * الملحوظة (أ) * * * * * * * * * * * ***

خدم «فينسنزو موريزي» كمندوب عن الحكومة الفرنسية في «موكا» لبعض الوقت قبل عام ١٨٠٩، ثم عمل بعد ذلك كطبيب إيطالي للسلطان «سعيد بن سلطان» (والذي أطلق عليه اسم الشيخ «منصور»). وهو يشير إلى رب عمله باسم «السلطان» في الصفحة الأولى من كتابه «تاريخ السيد سعيد» الذي نشر في لندن عام ١٨١٩. ويورد الكاتب على الرغم من ذلك أن «ابن بطوطة» أشار في وصفه لزيارته إلى «عُمان»، خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر، إلى أن الحاكم يُطلق عليه لقب «سلطان»: «كنت يوماً عند السلطان «أبي محمد بن نبهان»، فأتته امرأة صغيرة السنّ حسنة الصورة بادية الوجه، فوقفت بين يديه، وقالت له: يا أبا محمد، طغى الشيطان في رأسي. فقال لها: اذهبي واطردي الشيطان. فقالت له: لا أستطيع، وأنا في جوارك يا أبا محمد. فقال لها: اذهبي فافعلي ما شئت. فذكر لي لمّا انصرفت عنه أن هذه ومن فعل مثل فعلها تكون في جوار السلطان، وتذهب للفساد، ولا يقدر أبوها ولا ذوو قرابتها أن يغيّروا عليها، وإن قتلوها قُتلوا بها، لأنها في جوار «السلطان». ومن المشكوك فيه ما إذا كان العُمانيون أنفسهم يستخدمون لقب «السلطان» في تلك الفترة المبكرة، ويحتمل أن استخدامه يعكس تراث «ابن بطوطة» الشمال ـ إفريقي، على الرغم من أنه عام ١٧٢٨ كتب الشيخ «سرحان بن سعيد»

(١) «لاين» من البحرية الملكية: «زنجبار في الأزمنة المعاصرة» «Zanzibar in modern times»، (لندن، ١٩٠٥)، ص ٣٩.

عن الإمام «راشد بن الوليد» (٩١٤ ميلادية) قائلاً: «وإن كل إقليم في «عُمان» بايعه كسلطان».

وفي عام ١٠٠٢ ميلادية، قام «محمود» حاكم «غزنة بتكريم «خليف ابن أحمد» في أفغانستان -وهو حاكم سجستان- بلقب «السلطان»، وهو لقب اتخذه المماليك في مصر والأباطرة العثمانيون. وعلى الرغم أن «محمود الغرنوي» كان معروفاً بأنه أول من استخدم لقب «السلطان» في الإسلام، فإن البراهين تشير إلى أن هذا اللقب الكبير أول ما ظهر كان على يد الحكام السلاجقة. وكان «طغرل» هو أول حاكم مسلم يحمل هذا اللقب، فصار لقب «السلطان» اللقب المعتاد على يد السلاجقة». انظر «تاريخ العرب» لفيليب حتّي (نيويورك، ١٩٦٠)، وأيضاً «التاريخ القروسطي لساحل تنجانيقا» (لندن، ١٩٥٧).

*** * الملحوظة (ب) * * * * * * * * * * * * ***

كان السرور يعمّه بتلك المجزرة الشنيعة التي ارتكبها، في الوقت الذي كانت الدماء تسيل في شوارع «جوا». وصوّر «ألبوكيرك» إنجازاته تلك بأنها ذروة تعظيمه لملكه: «ثم قمت بإضرام النيران في المدينة، وأعملت السيف في الجميع، وكانت الدماء تسيل من الناس لأيام. ولم نكن ندع أيًّا من المسلمين، وكنا نملأ مساجدهم بهم ثم نشعل فيها النيران. وقد قتلنا ستة آلاف نفس. وهو أمر يا مولاي عظيم، أحسنا فيه القتال وأجدنا فيه الإنجاز». «كي. إن. مينون»: «الجيوب البرتغالية في الهند» (نيودلهي، ١٩٣٣)، و«فارس النهضة» (لندن) لمؤلفته «إلين سانسو».

*** * الملحوظة (ج) * * * * * * * * * * * * ***

عهدت الوثائق التاريخية والجغرافية لتأسيس شركة الهند الشرقية إلى «ريتشارد هاكلويت» الذي أنهى كتابه «الرحلات البحرية الرئيسة» عام ١٦٠٠» «The Principal Navigation in 1600». وبعد موت

«هاكلويت» بأربع سنوات -عام ١٦٢٠ تقريباً- عهدت هذه السجلات والصحف السمينة إلى الموقّر «صامويل برتشاس» ليقوم بنشرها. وقام «برتشاس» بتصريف هذه المواد، وقام بنشرها عام ١٦٢٥ في أربعة مجلدات تحت عنوان «منشورات هاكلويت بعد وفاته» أو «رحلات برتشاس». «وتمّ تقديم صحيفة احتفظ بها «جون جورديان» في رحلة بحرية متجهة إلى الهند الشرقية بواسطة الشركة المبجّلة، عام ١٦٠٧ [١٦٠٨] في سفينتين بحالة جيّدة هما «أسنشن» و«يونيون». وكانت لدى حوائط المدينة وحصونها [عدن] -وفقاً للتقارير- مئتا قطعة من النحاس الأصفر، والتي وجدها الأتراك عندما استولوا عليها من العرب. ويبدو أنها كانت مدينة عظيمة ذات شهرة كبيرة كما تنبئنا أطلالها. وكانت في الماضي هي المركز الرئيس في الجزيرة العربية، ولكن لا يأتيها الآن سوى سفينتين صغيرتين أو ثلاث فقط من «الهند» و«مسقط» بالقرب من مضيق هرمز كلّ سنة» «The Journal of John Jourdain» (جمعية هاكلويت، كامبريدج، ١٨٠٥)، ص ١ و٧٧.

*** * الملحوظة (د) * * * * * * * * * * * ***

كان «القواسم» -وفقاً لمصدر غير موثوق به- من قبيلة «بني جشم» (وهي من نسل ناصر بن معاوية، ٣١٥ ميلادية)، والتي تركت موطنها بالقرب من مكة عام ٥٩٠ تقريباً للاستقرار في «نجد». وهي قبيلة سنية المذهب، وخضعت للمذهب الوهابي عام١٨٠٠ وقَبِل به أفرادها. «ويرى بعض الكتاب أنه لا وجود فعلي لقبيلة «القواسم»، فليس منها سوى بعض أفراد عائلة شيخ قبيلة «الشارقة»، ولا يتجاوز عددهم في وقتنا الحالي عشرين من الذكور البالغين. ومن غير الصواب أن يستخدم هذا الاسم للإشارة إلى جميع رعايا شيخ قبيلة «الشارقة»، على الرغم من أن البعض منهم يستخدمونه». «جي. جي. لوريمير»: «دليل الخليج العربي،

«عُمان» ووسط الجزيرة العربية» (كالكتا ١٩١٥) المجلد الأول، ص ١٤٣١ ـ ١٤٣٢.

*** * الملحوظة (هـ) * * * * * * * * * * * ***

يطلق علماء الجغرافيا اليونانيون على «رأس الخيمة» اسم «رجما بوليس». وقد صوّر كتاب «آر. تمبل» «ستة عشر مشهداً لأماكن في «الخليج العربي»، من عام ١٨٠٩ إلى عام ١٨١٠، تصوّر تقدّم القوات المستخدمة في الحملة المرسلة من «بومباي»، تحت قيادة القبطان «واينرايت»، على سفينة جلالتها «شيفون»، والملازم «سميث» على فوج جلالتها الخامس والستين ضد القراصنة العرب» (لندن، ١٨١٣). الحملة التي أرسلت لمحاربة «القواسم» عام ١٨٠٩. وتمّ تصوير هذه المشاهد الستة عشر بألوان رقيقة للغاية، وتضمّ مشهدين «مسقط» ومشهداً آخر لصحار.

*** * الملحوظة (و) * * * * * * * * * * * ***

«تمّ التصديق على معاهدة السلام من قبل الحكومة العليا في «الهند»، ولا يمكن إنكار انعكاسها الكبير على «مصير الخليج العربي». وقد أمّنت هذه المعاهدة من الناحية النظرية لبريطانيا حق التصرف ضد القرصنة. أمّا من الناحية العملية فقد طبّقتها بريطانيا العظمى في جميع علاقاتها السياسية في المنطقة، فرسّخت لنفسها وضعاً سياسيًّا استراتيجيًّا أقوى مما كانت تتمتّع به في السابق. «فريدون أداميات»: «جزر البحرين»، (نيويورك، ١٩٥٥).

*** * الملحوظة (ز) * * * * * * * * * * * ***

تسبّب السيد «الثويني» عام ١٨٤٧ بحرج شديد لأبيه السلطان «سعيد»، عندما خرق ارتباط أبيه الوثيق، في السنة نفسها، مع البريطانيين لقمع تصدير العبيد من الأراضي الخاضعة لعُمان في إفريقيا. وقام «الثويني» بشراء ثلاثة

عبيد (من الحبشة) بصورة علنية، من مجموعة تتكوّن من اثني عشر عبداً، نقلوا إلى «عُمان» تحت ستار الليل، وقد جاءوا من «الحديدة» (اليمن) عن طريق «مرباط» في «ظفار». وأصرّ «الثويني» على خطئه في غضب شديد؛ لأنه «لا يوجد حظر لشراء وبيع العبيد من الحبشة في المعاهدة». ثم عرف «الثويني» من أبيه بعد ذلك أن العبيد عبيد «سواءً أكانوا من الزنوج أم من الصوماليين أم من الحبشة»، وأن «الجميع سواء في الحظر»؛ «مختارات حكومة بومباي»، العدد ٢٤، (بومباي، ١٨٥٦)، ص ٢٢٠ - ٢٢١.

* * الملحوظة (ح) * * * * * * * * * * * * *

كانت «زنجبار»، كما هي عليه الآن، تضمّ عدداً هائلاً من النخيل، ويحفّها الرمل المرجاني. وزارها «فاسكو دي غاما» ليوم واحد في الثامن والعشرين من فبراير، أو الأول من مارس عام ١٤٩٩، كان يطلق عليها اسم «جامجيبر»، وذلك في أول رحلة عودة له عبر البحر من «الهند». ثم زارها، بعد أربع سنوات من ذلك، القبطان «روي لورنكو رافاسكو» (وهو يبحر تحت قيادة أنطونيو دي سالانا)، فتقدّم صوب «زنجبار» بسفينة واحدة، «واستقرّ فيها شهرين تمكّن خلالهما من الاستحواذ على عشرين قارباً محمّلة بمؤن الدولة، فأمر ملك [«زنجبار»] بحشد أربعة آلاف من الرجال عند الشاطئ تحت قيادة أحد أبنائه. وخلفت أول طلقة مدفعية [من البرتغاليين] خمسة وثلاثين قتيلاً على الأرض، وكان من بينهم ابن الملك الذي كان يقودهم. وفرض القبطان [روي لورنكو] ضريبة عليهم تقدّر بمئة عملة من الذهب سنويًّا وثلاثين عنزة للقبطان الذي سيأتي لاستلامها».

وكانت أول سفينة إنجليزية ضخمة ترسو في «زنجبار» هي السفينة «إدوارد بونافنشر»، التي تبلغ حمولتها مئة وستين طناً، قادمة من «بليموث»، وكان قائدها القبطان «جيمس لانكستر»، الذي قاد أول رحلتين بحريّتين لإنجلترا إلى الهند الشرقية، وهو ما أثمر في النهاية

نشوء الإمبراطورية البريطانية في «الهند». «أطلعنا الزنوج [العُمانيون في «زنجبار»] على المعلومات الخاطئة والحاقدة التي أطلعهم عليها البرتغاليون عنّا، فكانوا يعتقدون أننا قوم قساة القلوب من آكلي لُحوم البشر، وأنهم إذا قبلوا بسلام البرتغاليين فلن يدعونا نقترب منهم». «رحلة السيد جيمس لانكستر» «The Voyage of Sir James Lancaster»، كتبها «كليمانتس أر. مركهام» (جمعية هاكلويت، لندن، ١٨٧٧)، ص ٧.

«وبعد فترة تمرّد الطاقم، وبينما نحن في رحلة العودة إلى إنجلترا، ثارت السفينة على القبطان «لانكستر»، وهي في الهند الغربية، ولكنه تمكّن في النهاية من الوصول إلى إنجلترا، حيث نزل بها في الرابع والعشرين من شهر مايو عام ١٥٩٤، وذلك بعد غياب عنها استمرّ ثلاث سنوات وستة أسابيع». «سي. آر. لو» «تاريخ البحرية الهندية» «History of the Indian Navy»، (لندن، ١٨٧٧)، ص ٤.

وفي ما يخصّ العلاقات التي تربط بين العُمانيين و«زنجبار»، يعدّ أهم الأعمال التي تناولتها في العصر الحديث كتاب السير «جون غراي» «تاريخ «زنجبار» من العصور الوسطى حتى عام ١٨٥٦». ويُعدّ «جراي» هو العامل الوحيد الذي كان لديه تصريح بالاطلاع على الأرشيف الخاص ب«زنجبار»، والذي بدأ من عام ١٨٤٠ حتى يومنا هذا. وقد أمضى أيضاً عشرين سنة يقوم بتجميع المواد من المصادر الأميركية الخاصة بالعلاقات العُمانية الأميركية في القرن التاسع عشر. ومن وجهة نظري تعدّ دراسة هذه المصادر هي أكثر الأعمال عمقاً وشمولاً حتى الآن. «وفقاً لتقرير كتبه حاكم جزر القمر

* * الملحوظة (ط) * * * * * * * * * * * *

ومن بين ذكريات الطفولة لابنة «سعيد» السيدة «بيبي سلمى» في «زنجبار»، والتي غادرتها أثناء حكم السلطان «ماجد»، وتزوّجت من أحد الموظفين الألمان العاملين في شركة «في. إم. إوزوالد وشركاه» في «زنجبار»، تذكّرت نظام أبيها الدقيق في المقايضة. «ففي إحدى السنوات، أبحر أسطول من سفنه محمّلاً بمنتجات محلية -أغلبها من كبش القرنفل والتوابل- باتجاه الموانئ البريطانية والفرنسية والهندية والصينية، فكان من خلال وكلاء هذه الدول الذين يعملون هناك يقوم باستبدال البضائع المحلية بأخرى أجنبية».

وبعد سنوات، رفض سلطان «زنجبار» «برغش» رؤية أخته التي كانت أقرب الناس إليه، فقال: «لقد ماتت الأميرة منذ زمن بعيد، وقد حزنا على فراقها، ولكن كان هذا هو أمر الله، فأستجديك ألا تحقّر من شأني وتهين ذكراها بأن تقول لي بأنها ارتدّت عن دينها وصارت محظيّة كافر حقير المولد والشأن». السير «أرثر. إتش. هاردينغ»: «دبلوماسي في الشرق» «A diplomatist in the East» (لندن، ١٩٢٨) ص ٨٨ ـ ٨٩.

«وأنا أتذكّرها [سلمى] جيداً [منذ عام ١٨٩٠ تقريباً]، كانت أماً مخلصة قبل كل شيء، وذات جمال فتّان وجسد نحيل هشّ، تثير الشفقة في العيون. كانت تشعر بغربة روحها. كانت أميرة بكرامتها التي حملتها على أكتافها». «زنجبار وتجارة العبيد «Zanzibar and the Slave Trade» لمؤلفيه «تشارلز وإي. بي. راسل» (لندن، ١٩٣٥).

* * الملحوظة (ي) * * * * * * * * * * * *

وفقاً لما رواه السير «جون غراي» في كتابه «البريطانيون في مومباسا»، من عام ١٨٢٤ حتى عام ١٨٢٦، في الصفحة ١٨٠، لم يقم

السلطان «سعيد» ببناء القصر في «المتوني». وكان في فهم «جي إس بي فريمان-غرينفيل» أن السلطان «سعيد» قام بمصادرته، حيث كان مملوكاً بصورة غير شرعية لمالك عربي قام بانتهاك معاهدة «مورسبي». انظر أيضاً: «الدليل إلى «زنجبار»» «A Guide to Zanzibar» (مطبعة الحكومة. «زنجبار»، ١٩٥٢)، وهو يتناقض مع ما جاء في كتاب «كوبلاند»: «أفريقيا الشرقية وغزاتها» «East Africa and Its Anvaders».

* * الملحوظة (ك) * * * * * * * * * * * *

«وضع أحد الكتّاب المناهضين لأميركا في «تنقيح إيدينبرغ» تفسيره الخاص عن مهمة «هارت». فقد أُرسل للحصول على تفسيرات، ومن ثم كان يشعر بالإحباط، وفق ما افترضنا، بسبب مخطط الغزو الذي رعاه السلطان مع الأميركيين».

وكان أول سيّد يظهر العلم الأميركي في ميناء «زنجبار» هو القبطان «جوناثان لوفيت»، قائد السفينة «لاوريل» التابعة لمدينة «سالم» في العشرين من شهر يوليو عام ١٨٢٥. وبحلول عام ١٨٧٠، تجاوزت التجارة الألمانية مع «زنجبار» إجمالي النشاط التجاري الأميركي والفرنسي معها، وجاءت في المرتبة الثانية بعد الهند البريطانية.

* * الملحوظة (ل) * * * * * * * * * * * *

انتهت هذه المعاهدة بين الولايات المتحدة و«عُمان»، والتي أبرمت في الحادي والعشرين من سبتمبر عام ١٨٣٣ مؤخراً، واستبدلت بمعاهدة جديدة للصداقة والعلاقات الاقتصادية والحقوق القنصلية، وعمل بها في البداية لسبع سنوات.



من الجهة اليمنى، السلطان «فيصل بن تركي» وهو يحتضن حفيده البكر، السلطان «سعيد». والواقف خلفه هو والدُ الطفل، السلطان «تيمور».

وتحتوي المادة الرابعة عشرة من هذه الوثيقة، المهمة والجديدة، على الكلمات التالية:

«بحضور الشاهدين «والتر. كيه. شوين» القنصل العام للولايات المتحدة الأميركية، نيابة عن رئيس الولايات المتحدة الأميركية «دوايت أيزنهاور» والسلطان «سعيد بن تيمور بن فيصل»، حررت في نسختين



أعيان «عُمان» في «برقش» عام ١٩١٤



السلطان «تيمور بن فيصل» في قصر «مسقط»، وسط مجموعة من القادة العُمانيين

باللغتين العربية والإنجليزية أصليّتين، في «صلالة» بسلطنة «عُمان» في اليوم العشرين من شهر ديسمبر سنة ألف وتسعمئة وثمانية وخمسين ميلادية، الموافق للتاسع من شهر جمادى الآخرة سنة ألف وثلاثمئة وثمانية وسبعين للهجرة».

وكان البيان الختامي لنائب مساعد وزير الدولة للشؤون الاقتصادية أمام لجنة العلاقات الأجنبية بمجلس الشيوخ، يتضمّن الفقرة التالية:

«إن هذه المعاهدة التي سوف توقّع الولايات المتحدة عليها، خلال فترة ما بعد الحرب، - وهي المعاهدة السابعة عشرة في فئتها - تضع أساساً تقليديًّا للعلاقات العامة بين الولايات المتحدة والسلطنة [عُمان] بصورة لا تؤثر على المصالح الأميركية في هذه الدولة والمرحلة الحالية من تطورها الاقتصادي. ومن ثَمَّ، فإنها تبشّر بمزيد من التطوّر المثمر في هذه العلاقات. وكما هي الحال في مثل هذه المعاهدات، فإنها سوف تُسهم بصورة كبيرة في تقوية دور القانون في التعاملات بين الأمم والشعوب».

# * الفصل الخامس *

## السلطان «سعيد» وتجارة الرقيق

سوف تتضح لنا مدى أهمية تجارة الرقيق ودورها المحوري في اقتصاد السلطان «سعيد» ونبل تضحيته التي قام بها، عندما حرّمها وتخلى عنها، في عرض سريع لهذا الموضوع في الفصل الأخير من الكتاب؛ إلّا أن ما لهذا الموضوع من أهمية بالغة من المنظور الاقتصادي والنفسي في الوقت نفسه يدفعنا إلى أن نمعن النظر فيه ولو بعض الشيء في سياقنا هذا. ويتّبع سردنا لهذا الموضوع تسلسلاً زمنياً، فهذه التجارة، ورغم أنها تضرب بجذورها إلى أزمان سحيقة، هي على الأرجح قد بلغت ذروتها قبيل حلول نهايتها بحكم القانون، وأفول زمانها بحكم الواقع.

وأقدم ما وصلنا من إشارة إلى السلطان «سعيد» وتجارة الرقيق جاء على لسان «جيمس بريور»، الذي عمل جرّاحاً عام ١٨١١ على البارجة الحربية «نيسوس»، وهو يقوم بأبحاث عن البحار والمحيطات غرب المحيط الهندي، فكتب لنا، وهو على متنها، قائلاً:

«وخرجت بارجة [فرنسية] أخرى من جزر القمر لإبرام معاهدة تجارية دائمة مع سلطان «كلوا». وقد استقرّ هذا الاتفاق على أن يكون ثمن العبد الجيّد هو اثنين وثلاثين دولاراً، أو ما يقارب ثمانية جنيهات إسترلينية على الرأس الواحدة، فكان هذا أحد الأساليب السريعة لزيادة عدد الرجال، وهو

ما وقع مني موقع الدهشة؛ لأن أحداً من نافخي أبواق الحروب في أوروبا لم تدُر هذه الفكرة بخلده. بل إني لأبدي عجبي من أن «نابليون» لم يكتشف هذه الوسيلة البخسة لدعم جيوشه بمزيد من الرجال، أو حتى يُخيفنا بها هنا في الهند. وكان تحت أيدينا كلّ ما نحتاج إليه، فلم نلقَ مشقة في تدريب هؤلاء العبيد، ولم نجد منهم من المؤامرات ما كنّا نختبره في موطننا، فكان القليل من الطعام والمؤن يكفيهم، ولا تبرق أعينهم للمال، ولا يعنيهم أينما استقرّوا حتى لو سرنا بهم من القاهرة إلى كالكتا!

وبالرغم من كفاف ثمرتها، لم ينعم السلطان باحتكاره لتجارة الرقيق كثيراً، فتعرّض لهجوم، ودفع الجزية إثر هزيمته، بعد أن أبرم إمام [أي سلطان] «مسقط» [«سعيد»] معاهدة، في الوقت الذي كان يروم فيه أخذ نصيب من أرباح هذه التجارة»[1].

كانت إفريقيا في الأزمنة السحيقة موطناً للخراب والدمار لأمد طويل، فكانت الحروب التي يشعلها تجار الرقيق تأتي على خلق كثير منهم، «فكانت الجيوش يؤتى بها عن ليل وهم غافلون»، وكانت القبيلة تقاتل القبيلة في «وحشية جمعت الأسود بالأسود»، ولم يكن ذلك إلا لغرض واحد هو الإتيان بأكبر عدد من الأسرى، فكانوا يقعون في الشراك والشباك، ويُخطفون[2] **(الملحوظة أ)** من بين أهليهم، ثم يباعون أو تطلق عليهم النيران أو يُرمَون بالسهام ويباعون كعبيد، فصار الرجل الحي هو عملة إفريقيا في التجارة، فكانت هذه أحلك أيام إفريقيا سواداً في تاريخها بأسره.

---

(١) «ساحل شرق أفريقيا: وثائق مختارة» «The East African Coast: Select Document»، ص ٢٠٤. مقتطفات من «جيمس برابر»: «رحلة الفرقاطة نيسوس» «Voyage of the Nisus Friçate»، (١٨١٩)، ص ٦٧ ـ ٧١.

(٢) «إي. دي. مور»: «سوط أفريقيا العاجي» «Ivory Scourage of Africa»، ص ٤ و١٧.

كان هذا هو المطمع والغاية التي أفضت بالعرب في «زنجبار» إلى ما اقترفوه من أفعال يندى لها الجبين، ففاقوا من سبقهم في ذلك السبيل قسوة ووحشية، استعبدوا من استعبدوا وقتلوا من قتلوا، وتعذّب ملايين من خلق الرّب في الأرض على أيديهم، وجرّدوا آلاف الأميال من أرض إفريقيا من سكانها بعد تدميرها، وقتلوا قطعاناً هائلة من أفيال إفريقيا المهيبة، كل ذلك من أجل العاج. وإن هذا لأمر يحيّر العقل، فذلك العاج الذي يثير الفرحة ويضفي الجمال على العالم بالخارج، هو نفسه الذي أتى برائحة الموت والمعاناة والقسوة لموطنه، وكشف لنا الستار عن عصور كانت أكثر عصور إفريقيا ظلاماً. فالعاج والعبيد ليسا إلا وجهان لعملة واحدة».

كان القبطان الشهير «إس. بي. هاينز»، في الفترة التي امتدت بين عامي ١٨٣٤ و١٨٣٦، قائداً لسفينة شركة الهند الشرقية «بالينوروس» التابعة للبحرية الهندية، فجاب بها السواحل الجنوبية لشبه الجزيرة العربية، ثم اكتشف في «المكلّا» «تجارة الرقيق المروّعة إلى حد يفطر الفؤاد»، فورد عنه أنه رأى سبعمئة فتاة نوبية عرضن للبيع في سوق النخاسة وهن يتعرّضن لفحص وضيع من المشترين. وكان سعر الواحدة منهن يتراوح ما بين سبعة جنيهات وخمسة وعشرين جنيهاً إسترلينيًّا[١].

وفي شهر يناير عام ١٨٦٣، كان «دافيد ليفنغستون» -ذلك الصبي الذي علّم نفسه، وهو في رحلة يستكشف فيها نهر «أبر شاير» في منطقة بحيرة «نياسا»، وكانت شهرته كمستكشف عظيم أقلّ شأناً من شهرته كأحد الصليبيين- قد وقعت عيناه على «الآثار المروّعة للمذابح الأخيرة التي

(١) «إس. بي. هاينز»: «مذكرة مرفقة بخارطة للساحل الجنوبي من شبه الجزيرة العربية»، (مجلة الجمعية الجغرافية الملكية)، المجلد ٩، (١٨٣٩)، ص ١٥٠.

ارتكبها «ماريانو» (البرتغالي ذو الأصول المختلطة)». فوضع لنا هذه الصورة التي تجسّد الوحشية في تجارته للرقيق:

«كانت جثث الموتى ورائحتهم تفوح في كلّ مكان، وكان الصبيان والفتيات بأجسادهم النحيلة وعيونهم التي ضاع بريقها يزحفون بجوار بعض الأكواخ ... وكنّا نرى جماجم بشرية أينما اتجهنا. واعتصر الألم قلوبنا ونحن نرى هؤلاء البؤساء وهم يغمضون أعينهم ويطلقون آخر زفراتهم. وألقيت أجساد الموتى عند منحدر يقع وراء القرية ... وأنهى كثير منهم عذابه بنفسه تحت ظلّ الأشجار، وألقى البعض الآخر بنفسه من فوق التلال، في حين أن آخرين مكثوا داخل أكواخهم وأغلقوا أبوابها عليهم، فإن فتحت، وجدت وراءها تلك الأجساد التي ضرب العفن بها وقطع من القماش الرث تحيط بخاصرتها، وترى جمجمة ساقطة على وسادة، جمجمة صغيرة لطفل كان أول من هلك منهم، وقد التفّ حول نفسه فوق حصير بين هيكلين عظميّين آخرين. وملأت العظام البشرية هذه الصحراء التي كانت قبل ثمانية عشر شهراً فقط وادٍ يعجّ بأهله وسكانه. وهو ما عزّز اليقين في أن الدمار الذي لحق بالحياة البشرية في «الممر الأوسط»، مهما عظم، إنما شكّل جزءاً صغيراً فحسب من المأساة ككلّ».

وانظر إلى أيّ حدّ كان «ليفنغستون» صادقاً عندما أضاف، قائلاً:

«لقد أغرقت البلاد بهذه التجارة [تجارة الرقيق] وليس في ذلك أدنى مبالغة، ويستحيل[1] علينا أن نخلّص الأرض من شرورها».

---

(١) «جي. إي. تشامبلس»: «حياة وأعمال ديفيد ليفنغستون». «The Life and Labours of David Livingstone»، (فيلادلفيا، ١٨٧٥)، ص ٤١٢ ـ ٤١٣. و«إتش والر»: يوميات ديفيد ليفنغستون الأخيرة» «The Last Journals of David Livingstone»، (لندن، ١٨٧٤)، المجلد ٢، ص ٢١٢.

من الصعب بالطبع رسم هذه الصورة على حقيقتها، إذ يعجز القلم عن وصف تلك الرحلات الطويلة، التي تشبّعت طرقها بدماء العبيد، وعُبِّدت سبلها بجثثهم. فكان المئات من العبيد يعبرون تضاريس شرق إفريقيا الوعرة في رحلة مضنية، وهم يحملون على رؤوسهم العاج، مكبّلين بالسلاسل، وتنهش ظهورهم سياط وحوش لم تأخذ من البشر سوى هيئتهم. فمن لم يسقط منهم من الألم أو العذاب أو الجوع، سقط من الوهن أو المرض. وكان بعضهم يُكمّم بقطعة من الخشب الخشن وتربط إلى أفواههم. وكان يوضع على رقابهم المتقرّحة نير من الخشب مربوطه بمسمارٍ من الحديد طوال الليل، وهم ينازعون سكرات الموت غارقين في قيئهم وإفرازات أجسادهم وبولهم، فانطفأتْ شعلة الحياة بداخلهم وماتت أرواحهم قبل أجسادهم. وزاد من عذابهم نهم الذباب وهو يمتصّ دماءهم التي تسيل من جروحهم. وعبّر الكاهن «هوراس والر» (كاهن إرسالية الجامعات إلى وسط إفريقيا) عن هذا قبل انعقاد لجنة ١٨٧١ الخاصة بالرقيق في مجلس العموم، فقال:

«فالأمر أشبه بأن نكون قد أرسلنا قالباً ضخماً من الثلج إلى لندن وهي تعاني زمهرير الحرّ، فأنتم على يقين بأن كمّية منه ستذوب قبل أن تصل إليكم، إلّا أن ما سيتبقى منه سيكفي احتياجاتكم».

**ونجا أحد العبيد من أرض الحبشة ليكتب لنا ذكرياته وهو يحمل اسمه المسيحي «سالم سي ويلسون»؛ فقال:**

«لم أتعرّف على ظهر أيّ واحد من الرجال الأربعة الذين ربطوا من رقابهم إلى السارية أمامي ... فلطم السوط وجه الرجل البائس، فانطلقت منه صرخة نطقت بآلامه وعذابه، ثم لم يتوقف عن الصياح. وكنت أستطيع أن أرى الدّم وهو يتدفّق من خدّيه ويسيل على كتفيه. وبعد هنيهة، عجزت قدماه عن حمله، فلم يحمل ثقله سوى النير المحيط برقبته. وبينما هو معلّق هكذا، دار بجسمه نصف دورة وقدمه زاحفة على

الأرض، فرأيت عينيه متدلّية من جوفها بعد أن أصابتها ضربة سوط ... ثم رأيت أحدهم [العرب] وهو يرشق هذا البائس بسهم في بطنه ... وهو ما كان يعدّ مهمّة أخرى من مهام يومه (أو في الواقع هذا ما أعتقده). وجاء السائق الذي حرّر الطفل من ظهرها [وهي امرأة شابة متزوجة]، فأخرج سكّينه الطويل والمعقوف وذبح الطفل أمام عيني أمه! فأطلقت المرأة صرخة تقتلع القلوب، وهي ترى الدم ينفجر من طفلها الرضيع؛ رأت طفلها وهو ينتفض بجسمه الصغير، فسكنت بعد ذلك وسارت مطأطأة لأقصى ما سمح لها النير ... وكان أول أحداث اليوم التالي أن جُنّت هذه المرأة التي رأت ابنها يقتل أمام عينيها فجأة ... وبعد دقائق قليلة نقلونا بعيداً وتركوا هذه البائسة التي فقدت عقلها وهي تصرخ وتصيح وتحوم في المكان، لكي تموت بضربة شمس أو جوعاً[1].

وقد قدّر «ليفنغستون» أن أربعة من كل خمسة من هؤلاء البؤساء كانوا يقضون نحبهم، وهم ما يزالون في الرحلة (كثير منهم يربطون إلى الشجر ويتركون حتى يموتوا). وأنا على يقين من أن هذا المبشّر الذي ألحّ على الرّب أن يأتي زمن لا يغزو فيه أحد إفريقيا بالسلاسل أو أيّ قيد آخر سوى حب المسيح، قد كان على خلاف تام مع رؤية المستكشف المعروف السير «ريتشارد بورتون»، والتي كان محورها «أن أغلى طموح لدى العبد ليس حريته، وإنما أن يكون له عبد خاص به». وقد رأى البارون «فون دير ديكين» نساءً بلغن من النحافة أشدّها، حتى إنه كان بالإمكان رؤية حدود جسم الجنين في بطن الحامل منهن بكلّ وضوح. وكانت الظروف إمّا سيّئة أو كالحة بطول طريق تجارة الرقيق، من «فزّان» مروراً بالصحراء الكبرى وحتى «كاوار». وعلى الرغم من أن الفتيات والنساء كن يسرن عادة دون أن

(١) «إس. سي. ولسون»: «كنت عبداً» «I was a slave»، (لندن)، ص ١٠٠ ـ ١٠٣ و١٠٩ ـ ١١٠.

يثقلهن عبء يحملنه، فإن الذكور (وأكثرهم من الصبيان) يوثقون بالسلاسل من رقابهم وتربط أقدامهم بالحديد، ولا تنجو منهم سوى نسبة قليلة من هذه الهياكل العظيمة الحيّة ليتمّ بيعها في أسواق «بنغازي» و«طرابلس». لم يُر أوروبي سافر إلى هذه المناطق الملطخة بدماء العبيد إلا وأصابه الهلع لآلاف الهياكل العظمية البشرية التي تنتشر في أرجائها. وكان معظم تلك الهياكل من النساء والفتيات الصغيرات في السنّ، اللواتي كان أكثرهن يتجمّعن عند الآبار، في دلالة على أن آخر جهد يائس بذلنه كان للوصول إلى الماء، وقد أدى إلى موتهنّ إرهاقاً وتعباً[١].

ويقدّر «نايجل هسلتاين[٢]» أنه خلال عصر تجارة الرقيق عند العرب، والتي كان لعُمان و«زنجبار» النصيب الأكبر منها، اقتيد أكثر من مليوني شخص إلى الشمال عبر طريق العبيد هذا. وكان ما يزيد هؤلاء الرقيق رعباً، إلى جانب أسرهم ورحلتهم القاسية إلى الساحل، هو رحلتهم البحرية وهم يجتازون تلك الممرّات الضيّقة بين شرق إفريقيا و«زنجبار».

وقع أحد قوارب «الدهو»، في أسر السفينة البخارية «ليرا» بعد ساعات من مغادرتها لكلوا، وقد تبيّن أنها تحمل المئات من الفتيات ليكنّ خادمات في جنوب «شبه الجزيرة العربية». وعندما صعد الرجال على متن القارب، زكمت الرائحة أنوف جميع البحارة ... وكانت الفتيات مكدّسات على بعضهن، حتى إنه كان من المشكوك فيه أن تنجو إحداهنّ في تلك الرحلة القصيرة إلى «زنجبار» ... ووصف القبطان «فايرفوكس مورسبي» قوارب «الدهو» العربية

---

(١) «إي. دبليو بوفيل»: «تجارة البرابرة الذهبية» «The Golden Trade of the Moors» (لندن، ١٩٥٨)، ص ٢٤٣.

(٢) في: «من الرمال الليبية إلى التشاد» «From Libyan Sands to Chad»، (لندن ١٩٦٠)، ص ١٨.

بأنها «قوارب كبيرة غير واسعة، وليس لها ظهر. ويوضع عليها بساط مؤقت من شجر «البامبو»، بينها ممرّ ضيق يستخدم للمرور. ويعبّأ الزنوج بعد ذلك فيها بكل ما لهذه الكلمة من معنى، فيوضعون جملةً، بطول الأرض أولاً، وذلك بأن يستقرّ شخصان بالغان، جنباً إلى جنب وبينهما صبي أو فتاة حتى يكتمل الصفّ. ويوضع فوقهم البساط الأول، ويُبعد عن رؤوسهم مسافة خمسة سنتيمترات تقريباً من فوقها لتملأ بالرجال. ثم توضع طبقة ثانية وهكذا حتى حافة القارب. وهم يتوقعون أن رحلتهم لن تستغرق أكثر من أربع وعشرين ساعة أو ثمان وأربعين ساعة، ولكن غالباً ما تؤخّرهم الرياح الخفيفة عن تقدّمهم، وفي هذه الحالة تحدد بعض الساعات القليلة مصير حملة السفينة. فالأشخاص الذين يموتون في الطبقة السفلية لا يمكن التخلص منهم، فيظلون مكانهم حتى يموت مَن في الطبقة العليا ويتخلصون من جثثهم. وكان من المعروف أنه من حمولة القارب التي تتراوح ما بين مئتين إلى أربعمئة، لا يتبقّى منها سوى اثني عشر شخصاً بعد مرور عشرة أيام من الوصول إلى «زنجبار». ومع وصول القوارب إلى «زنجبار»، يتمّ تجهيز العبيد الذين بإمكانهم السير على الشاطئ لتفتيشهم من قبل الضبّاط ودفع الرسوم. أما الذين أصابهم الضعف والوهن أو أقعدوا بسبب الرحلة فيتركون مكانهم [على الشاطئ الموحل] حتى يأتي المدّ التالي ليخلّصهم من مآسيهم[(١)]. وهم يموتون تعبيراً عن أكثر صور الفساد البشري في الشرق. «إن عقلي يكاد ينفجر لهذه الصور المريعة. أنا أبغض، بل أمقت الجنس البشري الذي لا يخلّف وراءه سوى الضحايا والجلادين، فإن لم يأتِ يوم ليكون فيه أفضل من ذلك، فقد يُباد عن آخره»[(٢)].

---

(١) «سي. لويد»: «البحرية وتجارة الرقيق» «The navy and the Slave trade» (لندن، ١٩٤٩)، ص ١٩٤ - ١٩٨.

(٢) «جي. جستاموند»: «تاريخ فلسفي وسياسي لمستوطنات وتجارة الأوروبيّين في شرق وغرب الإنديز» «Philosophical and political History of the Settlements and =

وقد شهد القبطان «فيليب كولومب» بعينيه عام ١٨٦٠ هبوط حمولة جديدة من العبيد في «زنجبار»:

«كان المشهد مريعاً في أبسط تعبير له، ولا أجد كلاماً أو شعوراً يعبّر عنه أصدق تعبير. لقد كانوا هياكل عظمية تُحيط بها طبقة سقيمة من البشرة، وقد برزت عيونهم من محاجرها، بعد ضمور ما حولها من اللحم. وكانت صدورهم منكمشة ومقوّسة، وكانت مفاصلهم بارزة بصورة مخيفة إذا ما قارناها بأوصالهم، وكانت أصواتهم جافة مبحوحة؛ لقد كان مشهداً أقرب إلى الكابوس منه إلى الواقع»(١).

وكانت أوّل رواية موثوق بها عن أسواق ومزادات النخاسة في «زنجبار» قد جاءتنا في صورة خطاب، كتبه القبطان الفرنسي الذي كان يعمل في تجارة الرقيق «بي. دالون»، وذلك عام ١٨٠٤، خلال فترة الوصاية المؤسفة لـ«بدر بن سيف» على عرش «عُمان»، فقال عن ذلك:

«كان العبيد من الزنوج يُباعون في مزاد وسط صِياح النخّاسين. فكانت المعاملات التجارية التي تفلس الفرنسيين تتمّ بين هؤلاء النخّاسين وبين المترجمين. وكانوا يضعون أسعار العبيد حسب ما يتراءى لهم، ثم يخيفونا بأننا قد لا نحصل على هؤلاء العبيد مهما كان السعر، وذلك لأن دينهم -كما يقولون- يحرّم عليهم في مثل هذه الحالات البيع للبيض ... ثم يأتي الحاكم بعد ذلك [كانت الجزيرة في ذلك الوقت تحت حكم «بهدور» القائد العسكري، إلى جانب أحد المخصيّين، ويُدعى

---

= «Trade of the Europeans in the East and West indies»، (لندن، ١٧٧٦)، المجلد ٣، ص ١٦٧ .

(١) «فيليب كولومب»: «أسر العبيد في المحيط الهندي Slave Catching in the Indian Ocean»، (لندن، ١٨٧٣)، ص ٣٩٦.

«ياقوت»، وكان هو كبير الجمارك] ويصعد على متن السفينة، ويعدّ الزنوج، ويجبرنا على دفع رسوم قدرها أحد عشر قرشاً عن كل رأس»[١].

ولدينا علاوة على ذلك شاهد عيان على تجارة الرقيق في «زنجبار» خلال السنوات الأولى من حكم «سعيد»، وهو القبطان «توماس سمي»، قائد سفينة «ترنات» التابعة لشركة الهند الشرقية. وكان تقريره الرسمي إلى الشركة يحتوي على ما يأتي:

«وكانوا يزيّنون الإماء ليكنّ في أفضل صورة لهن، فتنظّف بشرتهن ويُدهنّ بزيت جوزة الهند، وتُطلى وجوههن بخطوط من اللون الأحمر والأبيض، وهو بمثابة مظهر أنيق لديهم هنا. وتزيّن أيديهن وأنوفهن وآذانهن وأقدامهن بعدد كبير من الجواهر والحلي الذهبية والفضية، ثم يوضعن في صفّ تتقدمه أصغرهنّ سناً فالأكبر حجماً وسناً إلى آخر الصف.

وكان المشتري يتقدّم لفحص الشخص: فيُعاين الفم والأسنان أولاً، ثم كلّ عضو من أعضاء الجسم، حتى دون استثناء أثداء الفتيات وما إلى ذلك. وكنت أرى كثيراً منهنّ يعاملن بصورة مهينة أمام العامة في السوق من قبل المشترين؛ وهذا ما يدعونا إلى تصديق ما يقال عن النخاسين عامةً الذين يُفقدون صغار الإناث شرفهن قبل أن يتمّ بيعهن ... وكنّ ممن يبعن في هذا السوق نساء يحملن أطفالهن على أكتافهن، ونساء بلغن من الكبر عتيًّا فلم يعدن يستطعن السير ... وقد لاحظت أن جميعهن كانت تعلو وجوههنّ ملامح تنمّ عن عزيمة واهنة. وكانت هناك مجموعات منهنّ قد برزت عظامهن حتى ظننت أنها ستخترق بشرتهن»[٢].

---

(١) «ساحل شرق أفريقيا: وثائق مختارة»، ص ١٩٩: الوثيقة الأصلية مأخوذة من سجلات أرشيف «موريشيوس»، ورقمها: «GA11, N° 119, 1804».

(٢) من: «Transactions of the Bombay Geographical Society»، ص ٢٣ ـ ٦١.

وبعد مرور ربع قرن على «عُمان»، وهي لازالت تحت حكم «سعيد»، دوّن جراح أميركي، يدعى «دبليو. إس. دبليو. روشنبرغر[1]» في كتابه «الطاووس»، أن العبيد كانوا يباعون في ميدان عام في «زنجبار»، وهم داخل أقفاص خشبية كلّ يوم من شروق الشمس لمن يدفع أكثر. «كانت مساحة القفص عشرين قدماً مربّعة. ورأيت في إحدى المرّات خلال زيارة قصيرة، أن عدد مَن في القفص لا يقلّ عن مئة وخمسين عبداً من الرجال والنساء والأطفال محبوسين داخله». وكان العبيد الباقون، بمن فيهم الفتيات الصغيرات، يوثقون من الرقاب بطوقٍ من الحديد، ثم يأتون بهم بكلّ قسوة في مجموعات من عشرين إلى ثلاثين فرداً ويوضعون في سلسلة كبيرة، ثم يعرضون بصورة بربرية على العامة إلى أن يشتريهم مَن يشتريهم.

وكانت ضريبة الحكومة في «زنجبار» تبلغ دولاراً واحداً عن كل عبد، في حين أن السعر الإجمالي للرأس الواحدة يتراوح بين دولارين إلى خمسة دولارات. وبعد مرور فترة من ذلك (١٨٥٩-١٨٦٣) كتب «كوب ديفيرو»، الذي كان يعمل صرافاً للرواتب على متن الباخرة «جورجون»، والتي تبلغ حمولتها ١٦١٣ طناً، في سياق حديثه عن «زنجبار»، فقال: «كان العبيد يباعون بسعرٍ زهيدٍ بحيث أن آكلي لحوم البشر، يمكنهم أن يعيشوا على الكائنات البشرية، بتكلفة أقلّ من لحم الجزّار، فكانت أسعارهم أقلّ من أسعار الأغنام». وكان يُباع في سوق «زنجبار» ما يقرب من أربعين إلى خمسة وأربعين ألف عبد في السنة الواحدة، يُصدّر منهم عشرة آلاف إلى «الهند» و«جزر القمر» و«مسقط». وعندها يتمّ شحنهم في رحلة تستغرق من ثلاثين إلى خمسة وثلاثين يوماً

(١) «دبليو. إس. دبليو. روشنبرغر»: «A Voyage Round the World, Including an Embassy to Muscat and Siam in 1835, 1836 and 1837)، (فيلادلفيا، ١٨٣٨)، ص ٣٤.

ليباعوا في سوق «مسقط» المفتوح للعبيد. وكما يقول «ولستيد»، «كانت نساء «دنقلة» من «دارفور»، ونساء الحبشة ذوات الجمال النحاسي، يُبعن بسعر يتراوح بين خمسين ومئة دولار لقاء الرأس الواحدة، ونادراً ما كانت زنجيات «زنجبار» أو وسط إفريقيا يبعن بسعر يزيد عن ثمانين دولاراً». ويقول الشيخ «منصور» إنه في عام ١٨١٤: «كان العبيد السود يُباع ويُشترى فيهم دائماً في أسواق «مسقط». وقد سمح لي السلطان بشراء إفريقية تدعى «طرونجية»، وهي تعني البرتقال، فأخبرتني أنها كانت تعيش في غوندار في الحبشة، وأنها نقلت براً إلى «بربرة» ثم إلى «موكا»[١].

أما الرواية التالية، التي جاءت من شاهد عيان، عن سوق الرقيق في «مسقط»، فقد جاءت على لسان الملازم «وليام هيود»[٢]، الذي زار «مسقط» لفترة قصيرة، وكان أحد المتفرّجين على سوق الرقيق في مساء يوم الثاني عشر من شهر نوفمبر عام ١٨١٦.

«بدأ البيع منذ قليل، فتوقّفت لأشاهد المنظر الذي كان جديداً عليّ. فُوضع عشرون أو ثلاثون إفريقيًّا وإفريقية أوتي بهم من ساحل «زنجبار» في أكثر من صفّ في جانب الدكان وقسّموا حسب جنسهم ... ثم قام عربي كان يبدو عليه أنه يدّعي ملكيته لهؤلاء العبيد بعرض أحد الصِبية، الذي يتراوح عمره بين العاشرة والثانية عشرة، ويَصيح بسعره في السابلة لينبئهم، وهو يصرخ بصورة تنمّ عن حرفية وخبرة بعمره ومكانته وصفاته وهيئته: «أربعون دولاراً»، قالها الرجل لي باللغة الهندية، وأنا أقترب منه

---

(١) الشيخ منصور: «تاريخ السيد سعيد» ـ «History of Seyd Said»، (لندن، ١٨١٩)، ص ١٣٢.

(٢) من: «A voyage Up the Persian Gulf»، (لندن، ١٨١٩)، ص ٢٤.

«فيكون لك، تطعمه أو تمنع عنه الطعام، ليعمل لك أو تربّيه كابن لك» فاشتراه على ما أظن أحد العرب من كبار السّن، والذي لاحظت أنه كان يحسن اختيار الإناث المعروضات».

وفي عام ١٨٢٤، قال الرائد «جورج كبل[١]» في محضر كلامه عن سوق الرقيق في «مسقط» واصفاً إياه: «كانت مساحة مفتوحة بالقرب من موضع رسوّ السفن. وسيق ما يقرب من عشرين إلى ثلاثين فتاة زنجية صغيرة وممتلئة الجسم، وحول رؤوسهن قطع من القماش مطوية بصورة حسنة، وأجسادهن مطلية بالزيت حتى يضفي عليهن ذلك مظهراً أملس، ثم وقفن في صفين على جذع من الخشب. لم يحتل ذلك الوضع المخزي مكاناً في فكرهن الغضّ الساذج، فجلسن يقهقهن ويثرثرن بلا مبالاة وعدم اكتراث تامّين».

لم يكن من الغريب أن يحظى أحد من أهل «زنجبار» من الأثرياء بألف عبد. وإذا ما قارنا هذا الوضع على ما كانت عليه الحال في الماضي، فسنجد أن «أغسطس» مات وفي يمينه ٤١١٦ من الرقيق، في حين أن العائلات الثرية من أهل «سومر» أو «بابل» لم يكن لديها عادة سوى عبد أو اثنين على الأكثر.

واشترى أحد العرب سيفاً جديداً في «بمبا» [جزيرة كبيرة تقع شمال «زنجبار»]، واحتاج إلى تجربته، فبينما هو في رحلته إلى موطنه أتى بعبدٍ وضربه بالسيف من قفاه، فسقط الرجل صريعاً، فأمر السيد العبيد الآخرين برميه بعيداً. وربطت أمه الصغيرة السّن من يديها إلى جذع شجرة، وكان

---

(١) من كتابه «A Journey from India to England»، المجلد الأول، (لندن، ١٨٣٤)، ص ٢١ ـ ٢٢.

الحبل موثوقاً بشدّة، مما سبّب لها ألماً حاداً، فما كان من السيد إلّا أن قطع يدها اليمنى، بدلاً من أن يحلّ وثاقها، وتركها مشوّهة بقية حياتها[١].

واختير القبطان «أتكينز هامرتون»، قائد الفوج الخامس لمشاة البحرية في «مومباي» عام ١٨٤١، ليكون مستشاراً وممثلاً لجلالة ملكة بريطانيا في شركة الهند الشرقية في «زنجبار»، ورُوِّع هناك عندما رأى قتلى العبيد وقد انبعثت منهم رائحة نتنة، لأن أحداً لم يدفنهم، فكانت جثثهم تُلقى على الشاطئ دون أن يتحمّل أحد عناء دفنهم. «وفي الليل، كانت [الرائحة] تفوح في المكان وتزكم الأنوف، حتى إن الواحد منّا قد يفكّر في تسميد حديقته بها، فالأحرى أن نسمّيها «ستِنْكِبار» وليس «زنجبار»[٢]». وكان ممّا ذكره «هامرتون» في خطاب أرسله إلى الحكومة الهندية بعد مرور سنة من ذلك: «لقد رأيت خمسين جثة إفريقية لرجال ونساء، وهي ترقد على الشاطئ والكلاب تمزّقها إلى أشلاء، كما كنت أرى الكلاب تأكل الجيفة في الهند».

وبعد أربع سنوات، اقتنع السلطان «سعيد» بأن نهاية تجارة العبيد أمر «قد كتبه الله»، فوافق على معاهدة[٣] «تنشد تعزيز النفس البشرية»، وليقطع بها آخر حلقة أساسية من هذا النشاط الفاسد، وأن «يحظّر تصدير العبيد من الأراضي الإفريقية، ومن يخالف ذلك يلقى أقصى العقوبات». وفي عام ١٨٣١، علّق القبطان «إيزاك» على ذلك الأمر بعنف شديد وهو في «لامو»،

---

(١) «هنري ستانلي نيومان»: «Banani» (لندن، ١٨٩٨)، ص ٩٨ و١٧٨. انظر أيضاً «توماس لامسدن» في: «A journey from Merut in India to London»، (لندن، ١٨٢٢)، ص ٦٤.

(٢) «هوراس والر»: «The Last Journals of David Livingstone»، المجلد الأول، ص٦ ـ ٧.

(٣) نص المعاهدة الحرفي موجود في «مختارات حكومة بومباي»، العدد ٢٤، (بومباي، ١٨٥٦)، ص ٦٥٩ ـ ٦٦٨.

وهي ميناء صغير يقع شمال «زنجبار»، فقال: «لم يزرها سوى عدد قليل باستثناء رجال الصناعة الأميركيين. وكانت راياتهم ذات النجوم والخطوط ترفرف في بعض الأحيان، في الوقت الذي تتنازل فيه الأمم الأخرى عن تجارتها[١]». ولكن هذه المعاهدة استثنت - بناءً على طلب من السلطان «سعيد»- تجارة الرقيق ونقلهم إلى الساحل الذي يتوسّط «لامو» و«كلوا»، بما فيها جزر «زنجبار» و«بمبا» و«مافيا». ووافقت جلالة الملكة على هذا الامتياز، فكتب رئيس حكومتها اللورد «أبردين» إلى السلطان «سعيد»: «لن يكون لدينا الحق في التدخل في مسارات سفنكم التي تحمل العبيد بين موانئ وجزر ساحل الأراضي الإفريقية الخاضعة لكم». ووافق السلطان «سعيد» - ضمن أمور أخرى- على أن يساعد في القبض على البريطانيين الذين يعملون في تجارة الرقيق، لأنه «كان في حالة نفسية شديدة السوء نتيجة مشكلة العبيد هذه»، ولكنه أصرّ على ألا يتمّ تفتيش سفن رعاياه أو سفنه وهي في طريقها إلى أراضيه عبر بحر العرب أو «البحر الأحمر». وكان السبب الذي دعاه إلى ذلك سرّاً يعرفه الجميع، «فكان ذلك حتى يضمن استمرار إمداداته من الإماء الحبشيات، خاصة من «المخا» إلى جانب المخصيين من «زنجبار» والمدن العربية الأخرى في شرق إفريقيا[٢]».

كان خصي العبيد من أكثر العادات التي ابتدعها الإنسان بشاعة في ذلك العصر. وقد عزا المؤرخ الروماني «أميانوس مارسيلينوس» (٣٢٥-٣٩٨ بعد الميلاد) هذه العادة إلى الملكة «سميراميس» التي حكمت «آشور» من عام ٨٠٨ حتى عام ٨١١ قبل الميلاد. ولكن في الواقع

(١) «دانيال. بي. مانيكس» بالتعاون مع «مالكولم كاولي»: «Black Cargoes»، (نيويورك، ١٩٦٢)، ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥.

(٢) «أر. كوبلاند»: «East Africa and Its Invaders»، ص ٥١٦. انظر أيضاً كتاب «جون غراي»: «History of Zanzibar from the Middel Ages to 1856»، ص ٢٤٨.

يحتمل أن هذه العادة ترجع إلى زمن أقدم من ذلك، حيث كانت منتشرة في جميع أنحاء آسيا، فكان هناك مخصيّون في خدمة بلاط الأباطرة الصينيين، وأقدم تاريخ لذلك -على أقلّ تقدير- هو عهد الإمبراطور «ين وانغ» (عام ٧٨١ قبل الميلاد) (**الملحوظة ب**). ومن الملاحظ أنه في الوقت الذي لم تتوقف فيه الكنيسة الكاثوليكية الرومانية عن القيام بهذا الفعل البربري الوحشي، واستخدمت المخصيّين في القرن التاسع عشر (حيث ظلّ الأمر قائماً حتى عام ١٨٧٨)، قبل عام من تولي البابا «كلمنت السادس عشر» للبابوية، نجد أن حكومة الإمبراطور «دوميشان» قد حرّمت هذا الفعل الشنيع في القرن الأول الميلادي، بل إن الرسول محمداً ﷺ نفسه قد أدان هذه التقاليد البائدة[١].

ونجد أنه في الفترة التي نستعرضها هنا، كان هناك مصدر رئيس للمخصيّين، وهو الدير القبطي على «جبل الدير» في «أبو جيرجي» في «السودان»، فكان الرهبان يجنون الكثير من الربح من إمداد أسواق المسلمين والمسيحيين بالمخصّيين. ويُعطينا «بي. سي. ريموندينو»[٢] رواية مثيرة للاهتمام لحرفة المخصيّ، وذلك على لسان مستكشف في القرن التاسع عشر هو «راؤول دي بيسون»؛ فيقول إنه كانت هناك حجرة للعمليات في الدور الأرضي للدير الذي يشبه في بنائه القلاع:

«كانت هذه الغرفة مجهّزة بجميع الأدوات والمعدّات اللازمة لإجراء هذه العمليات المريعة ... فيأمرون السجين أو العبد الصغير البائس الذي لا حيلة له بالنوم على منضدة عمليات، وكانوا يشدّون عنقه بطوق مربوط بالمنضدة، ويباعدون ما بين ساقيه، ويربطون كاحله بحلقات

---

(١) «جميع العبيد المستوردين كانوا مخصيّين»، انظر كتاب «مكّة ـ Mekka» لمؤلفه «سي. سنوك هورجرونجي»، (ليدن ١٩٣١)، ص ٢٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٩٩ ـ ١٠٠.

من الحديد. وكان أحد المساعدين يمسك بيديه. فيمسك الجرّاح بقضيبه الصغير والصفن، ثم بحركة سريعة بموس حاد الشفرة يزيل هذا العضو. فيكشف هذا الجرح عظام العانه ويخلّف وراءه جرحاً عميقاً لا يشفى بسهولة. ثم يتمّ إدخال قنّينة من البامبو أو أنبوب قسطرة في الإحليل، ولا يسمح أن يبرز منها سوى بوصتين تقريباً، ولا يُلقي بالٌ إلى نزيف شرايينه. ثم يغطّى الجرح بأكمله بمركّب قاطع للنزف، ثم يدفن الضحية الصغير في الرمال الدافئة حتى رقبته، فيتعرّض لأشعة الشمس الحارقة. وكان الرهبان يتحرّون الدقّة في تكديس الرمال والطين من حوله حتى يعجز عن الحركة تماماً، لأن السكون التام كان في نظرهم أحد عوامل نجاح العملية. ويقدّر أن ثلاثةً وخمسين ألف طفل إفريقيّ يعانون من هذه العملية سنويًّا، ويمثل نصيب السودانيين منهم ٣٨٠٠ شخص مخصيّ.

كانت عمليات الخصي في طبيعتها إحدى إفرازات العبودية بوجهٍ عام. ولا شكّ في أن أحد العوامل الأخرى هو القياس على خصي الثيران والأحصنة حتى تكون سهلة الانقياد، فالعبيد في جميع المجتمعات المستعبدة ليسوا سوى قطيع من القطعان، ومن المنطقي ألا يلقوا معاملة غير معاملة أمثالهم من قطعان الحيوانات.

ولكن تجدر الإشارة هنا إلى أنه في ظلّ استعراضنا لتجارة الرقيق في «عُمان» وإدانتها في بداية ومنتصف القرن التاسع عشر، نجد أن الشعوب الآسيوية والإفريقية نفسها، بل والأميركيين من أميركا الشمالية وأميركا الجنوبية ومعظم الشعوب الأوروبية، كانت تتاجر بالعبيد وتستغلّهم. بل إن تجارة العبيد في المحيط «الأطلنطي» كانت أكثر قسوة من تجارة العرب آنذاك. وإن كان لدى القارئ أيّ شك في ذلك، فسوف أشير هنا إلى روايات موثوق بها عن هذه التجارة لرجال عاصروها وسجّلوا ما كانوا عليه شهوداً (**الملحوظة ج**). فالإنجليز لديهم أسوأ سجلّ وتاريخ وأفضله في الوقت نفسه في ما يخصّ هذه التجارة الشنيعة. فكانوا أكبر تجار

للرقيق في العالم أجمع، حيث قاموا بنقل أكثر من أربعة ملايين عبد إلى أميركا؛ ولكن في العام ١٨٠٧، ونتيجة للعمل النبيل الذي بذله كلّ من «ويلبورفورس» و«غرانفيل شارب» و«توماس كلاركسون»، تمكّنوا من تمرير قانون في البرلمان يحرّم على أيّة سفينة أن تنقل أيّ عبد إلى أيّ ميناء يقع تحت السيطرة البريطانية، أو إلى أية مستعمرة بريطانية بعد شهر مارس عام ١٨٠٨. ثم، بعد أربع سنوات من تولّي السلطان «سعيد» حكمه في «عُمان» و«زنجبار»، انخرط البريطانيون في محاولة وسعي جاهد لإيقاف هذه التجارة، ولكنّهم لم يكتفوا بالتخلّي عنها، بل بدأوا بإقناع ورشوة، بل وإجبار الشعوب على أن تحذو حذوهم، وهو كما يصفه القبطان الفرنسي «شارل غيلان»: «... نبلٌ واضحٌ في أناس عملوا ككيان واحد - حكومة وشعباً وبحماس متّقد - للخلاص من هذه الجريمة الاجتماعية المتمثّلة في العبودية، فأفرغوا خزائن أموال من عمل بها، وقضوا على سفنهم، وحاربوا بحّارتهم، بل شاركوا بأنفسهم يوماً بعد يوم في صراعات وقتال حتى يحقّقوا هذا الهدف النبيل». وينبغي أن نذكر أيضاً أن أكثر الأعداء الذين تأذّوا من هذه المهمّة التي تحملت إنجلترا عبئها هي حكومة وبحرية «الولايات المتحدة».

وكما سبق أن رأينا، فالسلطان «سعيد» قد وافق على إبرام معاهدتين مع بريطانيا لإيقاف تجارة الرقيق، إلّا أنه يتحتّم علينا أن نذكر الآن أنه أخفق في القيام بذلك؛ وذلك لأنّه كان يفتقد الوسائل التي تُعينه، على الرغم من أن إجراءاته وتدابيره كانت في بعض الأحيان تتسم بالقسوة الشديدة. ففي عام ١٨٤٩ على سبيل المثال، انخرطت قرية «مويتنج» في خليج «ليندي» - وهي جزء من الأراضي الخاضعة للسلطان في شرق إفريقيا- في علاقات تجارية مع أحد تجّار الرقيق البرتغاليين، فقام حاكم «كلوا» بأمر من السلطان بإحراق القرية وتسويتها بالأرض عقاباً لها. ولكنّ العبودية كمؤسسة ونظام ظلت أمراً شرعيًّا في «زنجبار» حتى عام ١٨٩٧، وفي

شرق إفريقيا حتى عام ١٩٠٧. وكانت الطريقة الوحيدة لإعمال قانون تحريم تجارة الرقيق هي القبض على تجّار الرقيق. وبوجه عام، لم يتجاوز تأثير الإجراءات التي اتخذها السلطان إلى جانب التعاون مع الإنجليز سوى ١٠٪، في حين أن ٩٠٪ من تجّار الرقيق تمكّنوا من البقاء.

**كان حكم السلطان «سعيد»** بلا شك حكماً مطلقاً، ولكنه دمج بين السلطة المطلقة، واللين، والمرونة، والنزعة إلى الخير. وكان شعبه يراه أباً وليس حاكماً، وهم يرون فيه طبعاً يدفعه إلى زيارة عبيده وتهنئتهم شخصياً إذا تزوّجوا[1] على سبيل المثال. وفي العدل، اعتبر أن أقلّ العبيد منزلة لا يزيد عن أبنائه في شيء، حيث كان السلطان «سعيد» «أخلص صديق للجميع، وكان يرغب في أن يعمّ الخير الجميع[2]». ولا شك أن «جي. إس. بي فريمان - غرينفيل» كان مصيباً عندما قال: «**في هذه الكلمات الأخيرة يكمن سرّ طول حكم السلطان «سعيد» ونجاحه**».

على الرغم من أن الأمر يبدو متناقضاً في ظاهره، إلّا أنه دون نبل هذا السلطان المسلم، وسماحة تفكيره، وكرمه الحاتمي، ورضاه الصادق، وعقليته المستنيرة، وأياديه الخيّرة، لما تمكّنت حركات التبشير المسيحية من النجاح في مهامها في شرق إفريقيا. فيقول «إدموند روبرتس»: «لم تحظ جميع الديانات في عهد السلطان بالتسامح فقط، وإنّما كانت تحظى بحمايته أيضاً». وعلى الرغم من إسلامه القويّ ولم يدخل الريب

---

(١) للإطلاع على تفاصيل حول إدارة السلطان «سعيد» في «زنجبار»، انظر «أر. كوبلاند» في: «East Africa and Its Invaders»، ص ٣٢١ ـ ٣٢٨. «شارل غيلان»: «Document sur l'histoire, la géographie et le Commerce de l'Afrique Oriental» المجلد الأول، ص ٢٣٧. «أر. إف. بورتون»: «زنجبار ـ Zanzibar»، المجلد الأول، ص ٢٦٣.

(٢) «أي. هامرتون»: «Report on the Aairs of the Iman of Muscat» (١٨٤٤) «سجلات بومباي ـ Bambay Record»، ص ٥.

قلبه أبداً، فإن السلطان «سعيد» كان مجرداً تماماً من أيّ تمييز ديني، فلم يسمح أبداً لوجهات نظره الدينية أن تكون ستاراً يخفي بها ما لغيره من البشر من صفات حسنة، ويؤمنون بعقائد مختلفة. وقد حرّم السلطان «سعيد» قتل البقر بجوار منزل مسؤول الجمارك الهندي في عيد الفطر، كما أنه هو الشخص الذي وضع اعتباراً لمشاعر خادمه «جيرم سيوجي» الدينية. وفي مناسبة أخرى، مع بداية عام ١٨٤٤، عندما منع المبشّر الرائد والمستكشف في الوقت نفسه «يوهان لودفيغ كرابف» من قبل إثيوبيا، من العمل بين قبائل «الغالا»، (أقام مدّة ثلاثة أشهر في «زنجبار» في سعي منه لاختراق وسط إفريقيا الاستوائي، عبر مدينة «مومباسا» (ممبسة) باتجاه أرض «الغالا»، ممثلاً عن هيئة التبشير التابعة للكنيسة البريطانية) حمل من السلطان أمراً كتابيًّا تمّ الامتثال له بعد ذلك، وكان فيه: «من السلطان «سعيد»، تحيّة إلى شعبنا وأصدقائنا وولاتنا، هذا الخطاب خاص بالدكتور «كرابف» الألماني، وهو رجل طيّب المعشر، يروم إلى هداية البشر إلى الخالق، فاسلكوا معه مسلكاً طيباً، وكونوا في خدمته جميعاً[١]».

«يوهان لودفيغ كرابف» الذي قام بعد ذلك بترجمة «العهد الجديد»، بأكمله إلى اللغة السواحلية، أشار مرّة في صحيفته، بعد تأسيس سلسلة من الإرسالات التبشيرية، إلى أنه «لا يختلف المبشّر في أحلامه ورغباته عن أحلام ورغبات الغزاة».

وفي لفتة طيّبة للتعبير عن صداقته لبريطانيا، قام السلطان «سعيد» عام ١٨٣٤ بإهداء الملك «ويليام الرابع» درّة ما يملك، وهي أكبر سفينة في

(١) «جي. إل. كرابف»: «Travels, Researches and Missionary Labours During an Eighteen Years, Residence in Eastern Africa» (London, 1860). و«أر. أوليفر»: «The Missonary Factor in East Africa» (London , 1852).

قواته البحرية، وفيها أربعة وسبعون مدفعاً وسطحان، واسمها «ليفربول»، وكانت قد بنيت في «بومباي» عام ١٨٢٦، مرفقة برسالة تقول: «إنه ليسعدنا أن يقبل ملك إنجلترا هذه الهدية». فأضيفت السفينة إلى قوّة البحرية الملكية، وأعيد تسميتها «إمام» في مجاملة لمانحها. وأرسل الإنجليز في المقابل للسلطان «سعيد» يختاً من أروع يخوت الملك «جورج الرابع» الراحل، وكان مليئاً بالديكورات الأسطورية والخرافية تتنافى مع تقوى المسلمين، فلم يكن بإمكان السلطان أن يصلّي وهو على متنه. وفي عام ١٨٥٤، قام السلطان «سعيد» بلفتة أكثر كرماً عندما قدّم للملكة «فيكتوريا» جزر «الحلانيات»[١]، وكانت وثيقة نقل الملكية تنصّ على ما يأتي:

**«بسم الله القدير من «سعيد بن سلطان» إلى كلّ من يهمه الأمر،** مسلمين وغيرهم ... أنا هنا أمنح جلالتها المفخّمة ملكة إنجلترا، الملكة «فيكتوريا»، الجزر المذكورة آنفاً، وبالنيابة عمّن يخلفني في أبنائي، وبمحض إرادتي دون أن يحقّ لي الرجوع من طرفي».

لم تكن هذه صفقة عادلة، فقام اللورد «كلارندون» -في فعل أحمق يبغي به أن يريح ضميره وردّ التحية - بإرسال علبة سعوط إلى الملك.

كان السلطان «سعيد» حقاً رجلاً نبيلاً ونموذجاً رفيعاً للعربي الشّهم، المتماسك الذي يعتمد على نفسه. وقيل عنه إنه ليس ذلك الرجل الذي يجلس ويسلم نفسه لإرادة الله إلا بعد أن يدخل إلى قلبه اليقين بأن إرادة الله لا رادّ لها. وكان آخر شاهد عيان وصف السلطان «سعيد» هو «ويليام.

---

(١) أثناء الحرب العالمية الأولى، كان هناك خليج صغير في الطرف الشرقي من أكبر واحدة من جزر «الحلانيات» (كوريا موريا)، اختبأت فيه غواصة ألمانية قصفت حوالى ٢٣ سفينة بريطانية. وفي ٢ أغسطس من عام ١٩٦٠، تحطّمت حاملة النفط «وورلدسكاي» على واحدة من هذه الجزر، ممّا أسفر عن خسائر كبيرة في الأرواح.

إيه. شيبرد»، الذي زار «مسقط» عام ١٨٥٦، قبل أن يُقلع السلطان «سعيد» في آخر رحلة بحرية يقوم بها، فيقول:

«ترى رجلاً كبيراً لطيف المحيّا، يعلو رأسه الشيب، فيضفي عليك إحساساً بأنك قابلت أحد الإنجليز. وكان من ورائه ثلاثة من الرجال في منتصف العمر، ابنه وحفيداه».

**ويواصل «شيبرد» وصفه فيقول:**

«كان جبينه عريضاً، ولديه عينان رماديّتان واسعتان، وفم مضموم يعلوه شاربٌ وتحيط به لحية فضّية طولها ما يقرب من ست بوصات أسفل ذقنه. وتجد في مجمل سيماء وجهه الحزم وسلامة الطويّة. وينتابك شعور بأنك أمام شخصية صاحبة قرار، ويمزج كلّ هذا بترحيبه الخالص، ودفء صحبته، فتشعر بالتقدير في الحال[1]».

وعند وفاته التي عجّل بها مرضه بإسهالٍ مميت، وانغماسه في رغباته وشهواته وإسرافه في تناول المنبّهات، في التاسع عشر من شهر أكتوبر عام ١٨٥٦، جاءت عبقرية حكمه وشجاعته الباسلة وسحر شخصيّته بمَثلٍ مازال يتردّد على ألسنة العرب، حتى يومنا هذا في جميع أنحاء دار الإسلام، وهو: «**إذا عزف المزمار في «زنجبار»، رقصت عليه كلّ إفريقيا حتى البحيرات**». ووصف «برتون» وفاته بأنها كانت صدمة لكلّ من علم بها، «فكان اسمه وحده يستحق الاحترام». ومن الجدير بالذكر هنا، أنه حتى هذا التاريخ فإنّ أوروبياً واحداً، فقط هو «كرابف» - رأى جبل «كينيا»، ولم يرَ سوى اثنين فقط - هما «كرابف» و«ريبمان» - جبل «كليمنجارو». وبعد سنتين من وفاة «سعيد»، تمكّن «برتون» من رؤية بحيرة «تنجانيقا»، وتمكّن «سبيك» من اكتشاف بحيرة «فيكتوريا». ولم يكن بإمكان

---

(١) «وليام. أي. شيبرد: «From Bombay to Bushire and Bussura»، (لندن، ١٨٥٧)، ص ٥١ ـ ٥٤.

«ليفنغستون» اكتشاف بحيرة «نياسا» إلا عام ١٨٥٩ ، وأن يصل إلى حدود سهل «كاتانغا» والمياه التي تقع أعلى «الكونغو» في السنوات الأربع التالية. ومع وفاته، وفي غضون سبع سنوات من وفاة السلطان «سعيد»، انتهت فترة الاستكشافات الإفريقية إلى الأبد.

**ولا يمكننا أن نلخّص إنجازات السلطان «سعيد» كما سبقنا إلى ذلك «كوبلاند» ، فقال:**

«لقد جعل من «عُمان» دولة عظيمة وأكثر ثراءً وأشدّ قوّة ممّا كانت عليه في العصور المظلمة. فقد وضعها في مكانة جديدة على خريطة العلاقات الدولية ... كما أنه استعاد ووحّد الأراضي العربية في شرق إفريقيا، ومنحها الفرصة مرّة أخرى لتتصل بالعالم الخارجي»[١] .

وقد أحسن «فريمان - غرينفيل» وصف الأراضي الخاضعة لحكمه، فقال إن سلطانه امتدّ إلى عدد كبير من المقاطعات التجارية التي يتميّز معظمها بالصغر ونطاقات نفوذها الخاصة، كما أنّ لكلّ منها تاريخها السياسي الخاص بها. «ولم يكن افتقادها للوحدة السياسية في القدم عائقاً أمام نموّ ثقافة مشتركة بينها[٢]». فهذه الإمبراطورية ضمّت من الناحية الجغرافية -إلى جانب «عُمان» و«زنجبار» وجزر معيّنة في «الخليج العربي» - ما يقرب من تسعمئة وستين ميلاً على طول سواحل شرق إفريقيا، إلى جانب الأراضي الداخلية التي لم يتمّ تحديدها بشكل سليم، باستثناء غرب بحيرة «فيكتوريا» و«الكونغو». لقد كان لدى هذه

(١) «أر. كوبلاند» (أفريقيا الشرقية وغزاتها): «East Africa and Its Invaders»، ص ١٠٧.

(٢) من كتاب (التاريخ القروسطي لساحل تنجانيقا): «The Medieval History of the Coast of Tanganyika»، ص ١٠.

الإمبراطورية من القوّة ما يمكّنها من مناوأة «تركيا»، وهو ما عبّر عنه «ولستيد»، قائلاً: «لقد كان «عمر» الثاني، و«هارون» زمانه، و«محمد علي» الشرق».

عندما أعلن خبر وفاة السلطان «سعيد» في «مسقط»، «انتشر العويل والبكاء في جميع أنحاء البلاد حتى إن التلال كادت تهتزّ ألماً». وانخرط العُمانيون في حداد عام لثلاثة أيام وليالٍ يدعون الله أن يلهمهم الصبر والسلوان، «فقد قال جلّ علاه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾».

**وقد كتبت سلمى «بيبي» سعيد (إميلي رويتي) عام ١٨٨٨:**

«على قدر ما أتذكّر، كان أبي السيّد أو السلطان لديه زوجة واحدة تقع في المرتبة الأولى منذ أن ولدت، أمّا الزوجات اللاتي يقعن في المرتبة الثانية -وكان عددهن ٧٥ عند موته- فقد اشتراهن من وقت لآخر ... وكان لكلّ ابن من أبناء أبي -وكان عددهم ٣٦ عندما مات- زوجة ثانوية، فكنّا جميعاً على قدم المساواة[١]».

وأوصى ذلك الوالد الجليل وأب كلّ فرد من أفراد شعبه، لكل ابن من أبنائه الأربعة والعشرين بـ٦٠٠٠٠ كراون، ولكل بنت من بناته الاثنتي عشرة (**الملحوظة ج**) بـ٩٠٠٠ كراون. وبينما كان السلطان «سعيد» يرقد على فراش الموت سُمِع وهو ينادي في هذيان حمى الموت على صديق عمره مراراً وتكراراً «أتكنز هامرتون»، القنصل البريطاني. وتعتقد معظم الشهادات منذ ذلك الحين أن سرّ مكان كنز السلطان «سعيد» (حيث كان يُشاع أنه مدفون داخل حدود قصره المطلّ على البحر ببيت «المتوني») مات معه في بحر «سيشل»، وهو في طريقه إلى «زنجبار»، على متن باخرته الحربية الإضافية «فيكتوريا»، والتي تحتوي على اثنين وثلاثين

(١) من «مذكرات أميرة عربية» ـ «Memoirs of an Arabien Princess»، ص ١٠.

مدفعاً (**الملحوظة د**). وكان الاستثناء لهذا هو أن السلطان الحالي «سعيد بن تيمور» قد شعر بأن ابن جدّه العظيم «ماجد»، الذي أصبح سلطاناً على «زنجبار» كتم أمر الكنز عن الجميع وجد أن من صالحه أن يكتم الأمر عن الجميع، رغم أنه من المحتمل أن يكون قد اكتشف موقع كنز أبيه وخصّ به نفسه.

## الملاحظات

*** * الملحوظة (أ)** * * * * * * * * * * * *

«ومن الأمثلة على عمليات الخطف، أن خُطف طفل رضيع جميل فحاول أهل البلد بيعه لجميع السفن التجارية التي مرت عليهم، فلم يفلحوا، فقاموا بالتهديد برميه إن لم يقم أحد بشرائه، قائلين بأنهم قاموا بخطفه مع عدد كبير من الناس، ولكنهم عجزوا عن بيعه على الرغم من أنهم تمكنوا من بيع الآخرين. فقام السير جورج يونغ، وهو قبطان في البحرية الملكية بشرائه نظير بعض النبيذ». ملخص للبراهين التي سلمت أمام لجنة الاختيار في مجلس العموم في السنتين ١٧٩٠ و١٧٩١، ضمن التماسات تحريم تجارة الرقيق.

*** * الملحوظة (ب)** * * * * * * * * * * * *

«بي. سي. ريموندينو»، «تاريخ الختان» «History of Circumcision» (فيلادلفيا ولندن، عام ١٨١٩)، ص٩١. ونجد في وصف «زينوفون» لانتصارات ملك الفرس على بابل عام ٥٣٩ قبل الميلاد أول حالة موثّقة لتوظيف المخصيين في أجنحة الحريم، على الرغم من أن ممارسة هذا الأمر أقدم من ذلك بكثير. فمن ضمن الضرائب السنوية التي تحصل عليها «فارس» من «بابل» خمسمئة صبي تمّ خصيهم. وقد وضع الرومان القدماء ثلاث فئات لأصناف هؤلاء الرجال المثيرين للشفقة. أوّلها هو «المخصيّ»

الذي أزيلت جميع أعضائه التناسلية الخارجية كاملة بضربة موس واحدة، ممّا يؤدّي إلى ظهور المخصيّ بمظهر الأنثى، (يذكر في هذا المجال «فولاير كسلاف آغا» أحد المخصيين في القسطنطينية، حيث أزيل قضيبه والصفن، وكان يمتلك عدداً كبيراً من الحريم). أما الفئة الثانية فهم أولئك الذين دمّرت خصيتهم عمداً ولكن ظلّت في مكانها. أما آخر الفئات فهي أكثرها قيمة حيث يحتفظ المخصي بالقضيب ولكنه يفقد خصيتيه فقط، ويمكنه الاستمتاع بالعلاقات الجنسية لفترة طويلة. ثم، إن الخطط العسكرية القاسية قد وجّهت إلى النساء المنغمسات في الملذات لتدمير روما: «هل تسأل يا «بانيكوس» لماذا لا تعاشر زوجتك «كاليا» إلا المخصيين فقط؟ فلتعلم أن «كاليا» ترغب في زهور الزواج، وليس ثماره». وكان لدى «بلانيناس» مئة صبيّ مخصيّ، وأعطاهم لابنته كهدية زواج.

** الملحوظة (ج) * * * * * * * * * * * *

انظر على سبيل المثال، التالي: الكابتن «ث. كانّوث»: «Adventures of an African Slave: His Own Story as Tald in the year 1854 to Brantz Mayer» (مغامرات عبد أفريقي: قصته الخاصة كما أخبرها بنفسه لـ «برانتز ماير»، نُشرت مع مقدمة بقلم «مالكولم كاولي» في نيويورك عام ١٩٢٨، ص ١٦، وأيضاً:

◆ R. Coupland, «Kirk on the Zambesi (Oxford, 1928), P. 7».

◆ R. Coupland, «Wilberforce» (London, 1945).

◆ R. Unwin, «the Defeat of John Hawkins» (London, 1960).

◆ David P. Mannix and Malcolm Cowley, «Black Cargoes», (New York, 1962), P. 22.

◆ E. B. d'Avergne, «Human Livestock» (London, 1853), p. 31.

◆ William Goodell, «The American Slave Code» (London, 1853). P. 69.

◆ T. Clarckson «An Essay on the Impolicy of the African Slave Trade» (1788), P. 25.

◆ B. Davidson, «Black Mother» (London, 1961), p. 88.

◆ John Newton, «The Journal of an African Slave Trader, 1750 - 1754» (London, 1962), pp. 75, 104, 105.

◆ «An abstract of the Evidence delivered Before a Select Committee of the House of Commons in the Years 1790 & 1791; On the Part of the Petitioners for the Abolition of the Slave Trade» (London, 1791)m pp., 35 - 36, 39.

◆ James Duffy, «Portuguese Africa» (1959), p. 118.

◆ Elaine Sanceau, «Henry The Navigator» (London, 1946), p. 89.

◆ Andrew H. Foote, «Africa and the American Flag», (New York, 1863), P. 27.

◆ «A Philosophical and political History of the Settlement and Trade of the Europeans in the East and West Indies» Vol. 3 (London, 1776), P. 154.

*** * الملحوظة (د) * * * * * * * * * * * ***

كانت أحبّ بنات السلطان «سعيد» إليه هي «خولة»، وهي امرأة ذات جمال وهيئة قلّما تراها العين. ولقّبت باسم «نجمة الصباح»، لعينيها الواسعتين اللامعتين. وذات يوم رأى أحد العُمانيين «خولة» الجميلة، فبُهر بهذا المشهد الأخّاذ، فوخز قدمه بموسٍ حادةٍ دون أن يشعر، وظلّ يحدق من النافذة دون أن يشعر بالدم الذي ينزف من قدمه.

* * الملحوظة (هـ) * * * * * * * * * * * *

اعتقد الكولونيل «سي. بي. ريجبي» وهو الممثل السياسي البريطاني والقنصل في «زنجبار»، من العام ١٨٥٨ وحتى العام ١٨٦١، أن «سعيد ابن سلطان» خلف وراءه ثروة تبلغ «ملايين الدولارات». «وكانت العائلة [عائلة «سعيد»] على يقين تام بأن الكولونيل [أتكينز] يعلم مكان هذا الكنز، ولكنه يأبى الكشف عنه. ريتشارد إف. برتون: «زنجبار» - Zanzibar»، المجلد الأول (لندن، ١٨٧٢)، ص ٣١٦.

# * الفصل السادس *

## جرائم قتل وعبودية وعصيان

لم تُنشر وصية السلطان «سعيد» عند وفاته إلى من يخلفه أو من يحكم بعده إمبراطوريته. وكان من تداعيات هذا الإهمال والنزاع الحاد الذي نشب بين ابنيه أن هدّد هذه الدولة خطر نشوب حرب أهلية، وهو ما تمّ تجنّبه باللجوء إلى التحكيم لدى بريطانيا ممثلة بشخص اللورد «كانينغ» نائب الملكة على الهند. وقد كتب أن «من كانوا من صلب رجل واحد ورحمين فإنّ الحبّ مفارق صدورهما»، فكانت هذه حال وريثي «سعيد» - السيد «الثويني» والسيد «ماجد»، حيث كانا من أمّين مختلفتين. كان «الثويني» هو ثاني أبناء «سعيد»، ولكنه كان أكبر من عاش منهم، وقد ولد من محظيّة جورجية، في حين أن «ماجد» كان رابع أبنائه، وثاني أكبر من عاش منهم، وولد لأم حبشيّة. فقام اللورد «كانينغ» بتقسيم الإمبراطورية إلى قسمين رئيسين، فأعطى «عُمان» للسيد «الثويني»، وأعطى «زنجبار» والأراضي التابعة للدولة في شرق إفريقيا للسيد «ماجد»، والذي كان على أية حال هو حاكم «زنجبار» **(الملحوظة أ)**. وقد جنّبت هذه القسمة وقوع الدولة في صراع أهلي يهدّدها، عندما حاول «برغش» **(الملحوظة ب)** شقيق «ماجد» الأصغر -والذي يتّسم بجسارته وتهوّره- أن يدبّر انقلاباً بمساعدة الفرنسيين للاستيلاء على العرش. وقد كتب «كانينغ» وهو يقسّم الدولة عند التحكيم يقول:

«أشعر بالرضا لأنّ هذه الشروط كانت عادلة وحازت على إجلالكما. ولأنّكما خضعتما لتحكيمي عن رضى منكما وإجلال، أرى أنكما ستفيان به عن حبور وإخلاص، وأنه سيقع محلّ التنفيذ دون إرجاء لا باعث وراءه»[1].

كان الأمر عند هذا الحدّ على ما يرام، وتجنّبت الدولة صراعاً دمويًّا وربما اندلاع حرب إن ظلّ ابنا «سعيد» مطالبين بإرث أبيهما المترامي الأطراف. وعلى الرغم من ذلك، كان الحكم غير عادل، حيث كانت «زنجبار» وأراضي شرق إفريقيا ذات قيمة كبيرة من الناحية الاقتصادية، في حين أن «عُمان» كانت على العكس من ذلك، وهو ما جعلها تواجه مشكلات اقتصادية عسيرة.

ولا بدّ هنا من التطرّق إلى السبب الذي منع الابن الأكبر لـ«سعيد» - وهو الخليفة المنطقي للسلطنة- من الحصول على هذا الحق. فلسبب غامض كان السلطان «سعيد» يشعر بمقتٍ شديدٍ لا حدّ له تجاه ابنه الأكبر «هلال»، الذي وصف بأنه طويل القامة، وسيم الملامح، جميل المنظر، وقد عرفه العرب بشجاعته، وكانوا يكنّون له كلّ الاحترام. وقد ولد في عام ١٨١٥ من أمة حبشيّة توفيت وهو مازال صغيراً. وليس صحيحاً ما قيل بأن «هلال» يتيم الأم، وأنه قد انتهك حرمة نساء والده كما كانت الشائعات تحدّث بذلك. ولعلّ الرأي الصحيح أن والده قد خاف منه كمنافسٍ على حكمه، وأدخل الرعب في قلبه لخوفه من أن يخلفه شخص آخر في ثورة عليه، وهو أمر غير مستبعد لديه. وفي عام ١٨٤٩، اتسع الشقاق الملكي فأنهاه «سعيد» بنفي «هلال» إلى الأبد من «زنجبار». وقد انتهت قصته المؤلمة بعد عامين من تلك الأحداث في «عدن» حيث تُوفي هناك بمرض السلّ. وقد وجد الحزن طريقه إلى قلب «سعيد» عند سماعه خبر

---

(١) «أر. كوبلاند»: «استغلال شرق أفريقيا - The Exploitation of East Africa»، ١٨٥٦ - ١٨٩٠، (لندن ١٩٣٩)، ص ٣١.

موت ابنه الأكبر «هلال»، فأخذ يصرخ «آه ثم آه عليك يا «هلال»، دمع وحزن عليك، هكذا صارت حالي».

وبعد تفكير طويل يملؤه طموح جامح، قام السيد «الثويني» في أواخر العام ١٨٥٨ بإرسال أسطول مكوّن من سبع قوافل، قوامه ٢٥٠٠ فارس مدجّجين بالسلاح لغزو «زنجبار» وإعادة توحيد شرق إفريقيا مرة ثانية تحت إمرته وسلطانه. وقد حققت تلك الحملة العُمانية نجاحاً كبيراً، إلّا أنها اصطدمت عند رأس الحدّ بالبارجة الملكية «بونجاوبا»، وهي بارجة حربية تابعة لقوات جلالة الملكة البحرية، وقد أرسلها اللورد «إليفينستون» حاكم «بومباي». فكتب «الثويني» إلى سكان الخليج العربي «حرصاً مني على إبداء صداقتي المخلصة، وجزيل احترامي للحكومة البريطانية عدت أدراجي إلى «مسقط»». وقد كان من حظ «الثويني» أنه عاد كامل العدّة والعتاد، كما غادر أول مرّة، لأن أخاه «تركي» (الذي عيّنه «سعيد المعظّم» والياً على صحار) كان قاب قوسين أو أدنى من شنّ هجوم سريع على «مسقط». ولعل «ماجد» في «زنجبار» كان هو صاحب تلك الأحداث المتضاربة.

وفي عام ١٨٢٩، دوَّن العقيد «سي. بي. ريجبي» الفارس الصنديد، والجهبذ المغوار، رفيع الهمة، وصاحب الوقار، والممثل السياسي البريطاني، والقنصل في «زنجبار»، في مذكراته اليومية، ما يلي: «الآن ستبصر بأمّ عينيك النذالة في أبشع صورها متجسّدة في شخصية السيّد «الثويني»، فهو غارق حتى أذنيه في خدمة التحريض الفرنسي المتعطّش لتوسيع دائرتهم العدوانية حول ممتلكات «زنجبار»(١).

وبعدها بعامين، قامت كلّ من فرنسا وبريطانيا العظمى (بدون علم الحكومة الهندية) بتوقيع إعلان بالتخلي المشترك، وهي اتفاقية تلزم كلتا الدولتين باحترام استقلالية دولة «عُمان» وسلطنة «زنجبار» (**الملحوظة ج**).

---

(١) العقيد ريجبي: «زنجبار وتجارة الرقيق «Zanzibar and the Slave Trade»، ص ١١١.

وسواء كان «كانينغ» قد اعتزم في نفسه تدمير إمبراطورية «سعيد» كقوة يعمل لها حساب أو لم ينوِ القيام بذلك، فالأمران سواء، والنتيجة واحدة، اقتصر التاريخ العُماني لعشرات السنين بعدها على كتابة صراعات المملكة وهفواتها. ويمكن بالتالي المرور عليها مرور الكرام، وبكثيرٍ من الإيجاز والاختصار.

وفي عام ١٨٧٠، سأل الدكتور «جون كيرك» السلطان «ماجد»، الذي كان يتسم بالفجور ويميل إلى السكر (**الملحوظة د**)، وإن كان في بعض أحواله يتّسم بالودّ، سأله ساعة ضعفه ولحظة احتضاره عن خليفته في الملك ووريثه في الحكم في «زنجبار»، فكانت إجابته الوحيدة أن أرخى يده بضعفٍ ووهنٍ على مقبض سيفه، كما لو كان يقول له إنها للأقوى، أو بعبارة أخرى، كأنه يقول «السيف الأقوى هو من يرشّح صاحبه»، وبعدها فارق الحياة. وهذا يذكّرنا بـ«فتح علي شاه» حاكم بلاد فارس، حينما طُلب منه وهو على فراش الموت أن يوصي بوريثه وخليفته في الحكم، فاستلّ سيفه وأظهر ما يصنع الملوك القادمين «القانون مِلك للسيف الأمضى حداً»[1].

وبعد وفاة السلطان «ماجد» (لم يكن له ولد يرثه في الحكم)، توجّه شقيقه «برغش» ليتفقّد جثمانه. وبينما هو منحنٍ على جثمان أخيه لينظر إليه عن قرب، انزلق خنجره من غمده. فقام شقيقه الأكبر «خليفة» -وكان واقفاً خلفه- بالتقاط الخنجر، وأعطاه لشقيقه «برغش» في يده، فكان ذلك بمثابة الخيبة وانقطاع الأمل للناظرين من العرب، وقد كانوا على دراية كبيرة بـ«برغش»، فقاموا فزعين وصاحوا قلقين «ما رجاؤك في تولية رجل غفل عن الولاية هكذا؟».

---

(١) إنه لأمر متداول بين الفرس، أن من يستحق الحكم هو فقط من شعر بمضي حدّ السيف، أو أقلّه، قد عرّض نفسه له». فريدريك شوبرك: «بلاد فارس Persia»، (فيلادلفيا، ١٨٢٨)، ص ٢٦.

وفي عام ١٨٦٣، ذكر المستكشف البريطاني «وليام غيفورد بلغريف» -الذي تشوّهت رواياته عن الجزيرة العربية كثيراً على أيدي الرحّالة التّالين له- أنه كان على متن سفينة حطّمتها الأمواج بالقرب من «سيب» على شواطئ «الباطنة» في «عُمان»، وترك لنا وصفاً حرفيًّا للسلطان «الثويني». وقبل الوقوف على ذلك، ينبغي علينا أولاً أن نذكر شيئاً عن «بلغريف» كأحد المستكشفين الثقات.

وفي ذكر جاء به صاحبه سانت جون. بي. فيلبي» عنه لمؤلف الكتاب الذي بين يديك، يقول إن «بلغريف» عاش في دمشق وجمع رواياته، ولم تطأ قدمه قطّ أرض الجزيرة العربية. وفي سياق آخر، قال الرائد «آر. إي. تشيزمان» -الذي يُعدّ ثاني أكثر المستكشفين صيتاً في شرق الجزيرة العربية، مع العلم بأنه استوطن المكان ذاته- عن «بلغريف» و«فيلبي»، في معرض حديثه عن موجز أغفله كلاهما، وهو موجز تنبثق منه مزايا كليهما:

«عندما يأتي «فيلبي» على ذكر أن قدمي «بلغريف» لم تطأ «الأحساء» قطّ، لا يسعني هنا إلا التصديق، فالصورة التي رسمها «بلغريف» عن «الهفوف»، وحدائقها، وقنطرتها، وصناعتها، والشعب الذي يعيش فيها، لم تختلف في كثير عمّا أبصرته أنا هناك، ولا يمكن وصفها بهذه الدقة إلا لمن سبق له رؤيتها رأي العين. وفي النهاية يجدر بي القول إن الخريطة التي رسمها «بلغريف» عن «الهفوف» كانت مليئة بالمغالطات، حتى أنني عجزت عن الاسترشاد بها»[١].

وهذا هو ما أراه أيضاً، فـ«بلغريف» كان كاتباً ذا حسّ شاعري سامٍ، وتتسم كتابته بالرشاقة والحيوية، إلّا أن ما يعيبه هو افتقاره للدقة في

---

(١) العقيد «أر. إي. تشيزمان»: «في شبه الجزيرة العربية المجهولة» «In Unknown Arabia» (لندن، ١٩٢٦)، ص ٢٧ - ٧٠ ـ ٧١.

ملاحظاته ومشاهداته. ولكن من المؤكد لنا أنه قد قام بزيارة الكثير من البلدان التي كتب عنها، كما أنه كانت له مكانة عالية بين أولئك الذين عاصروه.

وقد كتب الرائد «إتش. آر. بي. ديكسون[1]» في خلاصة لتجاربه الحياتية الطويلة في منطقة الشرق الجديد، بعد وقوفه على ما وصل إليه معاصروه، ممن عاشروا حياة العرب في بيئتهم، وهو يأتي لدينا بمنزلة أحد ثلاثة من الخبراء الذين نستند إليهم، يقول: «وأما وصف الحياة في منطقة «الرياض» أثناء احتفال المنطقة، فليس بوسع المرء أن يأتي بأفضل ممّا قام به «بلغريف» في روايته». وهي قصة رحلة استغرقت عاماً في وسط وشرق الجزيرة العربية، وهي تحكي بصدق وإخلاص إقامته المؤقتة، وتنكّره بزيّ أحد المواطنين السوريين في تلك العاصمة التي أتاها من دمشق».

ثم لا شيء يمنعنا من تقبّل ما جاء به من أوصافٍ دقيقةٍ، ومن أن نضعها بمنزلة المصادر الموثوق بها. وقد قال وهو يروي لقاءه مع السلطان «الثويني»:

«لقد وقفنا أمامه فوجدناه وسيم الطلعة، بهيّ المنظر، يرتدي ثوباً أبيض غاية في الجمال، ناصع البياض، مطرزاً بنقوش زاهية، وعلى رأسه عمامة بيضاء كبيرة من الكشمير، تعلوها جوهرة من الماس المتلألئ، وممسكاً بخنجر من الذهب الخالص معلّق في حزام مرصّع بالجواهر. وهو يتمتع بشخصية قوية، ووجه بهيّ، وتعبير ذكي، وهو ليس بأقلّ ممّا يبدو عليه، فهو واحد من أتباع «أبيقور» المخلصين، بل إنه زاد عليهم فاختار من كل شيء قمته. كان يتمتع بالقسوة والطبيعة السمحة في آنٍ واحد، وقد علت وجهه أمارات حبّ المتعة، وقد جمع بين الأناقة

---

(١) «الكويت وجيرانها» «Kuwait and Her Neighbours»، (لندن، ١٩٥٦)، ص ١٢٤.

والشخصية معاً. يجلس بجواره صبي، وإن كان ذا قسمات حالكة السواد، إلّا أنه يرتدي أحلى وأجمل الثياب. يضع تاجه وسط مجموعة من الأحجار الكريمة. وهذا الفتى الذي بجواره هو أكبر أولاده الذكور، قد أنجبته له أَمَةُ الحبشية[١].

وبعد ثلاثة أعوام، وبينما كان السلطان «الثويني» في «صحار» مع شقيقه «تركي» وابنه المحبّب «سالم»، توجّه الابن الأصغر «عبد العزيز» إلى عمّه المحبّ للمتعة، وقال له إن شقيقه السلطان قد أمر بسجنه في التو واللحظة. وبهذا الادعاء الكاذب تمكّن «عبد العزيز» من سجن عمه، ووضع قدميه في الحديد، بينما قام «سالم» -ذلك الشرير القُحّ- في ستار عمّا يحدث بالتسلّل خفية إلى حجرة نوم أبيه، وأطلق عليه النار مرتين ببندقية ذات ماسورتين، فأرداه قتيلاً في وحشية بلغت منتهاها (ليصدق عليه القول بأن أبناء الملوك لا رَحِم بينهم). وحيث إن السلطان لم يدرِ من الذي هاجمه فقد رقد في بركة من دمائه، وتعالت الصرخات العربية للوالد الذي كان يفخر بأبوته (وأحياناً يستخدمها على سبيل التباهي)، يقول أنا «أبو سالم». وعندما أدرك أن قاتله كان ابنه المقرّب نادى عليه: «أنت سالم!» **(الملحوظة هـ).**

وفي رحلته الاضطرارية إلى دمشق، استخدم «سالم» ثلاثة جمال، وعندما وصلها في ظهر اليوم التالي، طالب بالعرش مدّعياً أن أباه قد مات بالحمى بعد ثلاثة أيام من المرض، بينما أن والده ولدهشة الجميع قد عاش بعد ذلك الحادث ليومين. وقبيل وفاته كان يحكي أنه عندما كان «سالم» صغيراً أصيب إصبعه في أحد الأيام، فوضع أبوه المحبّ إصبع ولده في فمه طوال الليل ليبثّ فيه الدفء. وممّا روي عن النبي

(١) «دبليو. جي. بلغريف»: «Central and Eastern Arabia» (وسط وشرق شبه الجزيرة العربية)، (لندن، ١٨٦٥)، المجلد الثاني، ص ٣٥٥.

«محمد» ﷺ أنه قال: «إن الابن يعطّر حياة الأب لسبع سنوات، ويخدمه مثلها، ثم إمّا أن يكون له صديقاً وفيًّا أو عدوًّا إلى آخر الدهر».

وقد أخبر أحد العرب المعاصرين وجهة نظره حول هذه الأحداث إلى القبطان «فيليب كولومب»، من البحرية الملكية، وهو لا زال قائداً على السفينة التابعة لقوات جلالة الملكة «درياد»:

«سعيد ... مهلاً، إنه رجل طيب. وكان «الثويني» أيضاً رجلاً طيباً. ماذا ألمَّ بـ«سالم» حتى يقتله؟ إن أراد ملك قتل ملك آخر، فلا بأس فليقتله. وإن أراد عربي قتل آخر، فلا بأس فليقتله. وإن أراد أخٌ قتل أخيه، فلا بأس فليقتله. أمّا أن يريد رجل قتل أبيه، فبئسه، وبئس «سالم» لما فعله». فألجمنا السكوت بعدما سمعنا هذه الفلسفة العربية على لسان دليلنا الذي يصحبنا في «بوشهر»، وظللنا نفكر في مغزى «بئس» جلالته[١].

وبعد هذه الأحداث بثلاثة وتسعين عاماً، وفي «بومباي» تنازل السلطان «تيمور» العجوز عن حكمه (وقد توفي عام ١٩٦٥)، وقد أخبرني قبل وفاته عن أحداث، يقول إنها قد أتت إليه من مصدر موثوق به منذ خمسين عاماً مضت، من «بدر بن سيف» الذي كان يبلغ حينئذٍ ثمانين عاماً، وكان قد ساعد «سالم» قاتل أبيه سراً:

«من بين أولئك الذين كانوا يحيطون بـ«سالم» كان هناك من يرغب في التخلص من «الثويني». وقد دسّ «سالم» السمّ لأبيه، فتساقط كامل شعره لكنه لم يمت. فقال الناس المحيطون بـ«سالم»: «إن لم تُعِد الكرة فتقتل أباك، وشينا بك عنده، وأخبرناه بأنك من وضع له السمّ، ثم نقوم عليك نقتلك. وبعد ذلك بعشرة أيام كان «سالم» قد أنهى مهمّته، وأطلق على والده «الثويني» النار (**الملحوظة و**).

---

(١) فيليب كولومب: «Slave Catching in the India Ocean» (التقاط العبيد في المحيط الهندي)، (لندن، ١٨٧٣)، ص ١٢٠.

وكشخصية تفتقر إلى الشجاعة وتخلو تماماً من الصفات الإيجابية لإثارة القبائل، فقد «سالم» الابن القاتل لأبيه شعبيته، وتشوّهت صورته بحلول عام ١٨٦٨، ونوعاً ما كان ذلك بسبب نقص حاد في الإيرادات، فقامت الإباضية من داخل البلاد (في ما عدا قبائل الغافري من جعلان) بالثورة عليه بقيادة «سعيد بن خلفان الخليلي»، وبتأييد ودعم من الشيخ الكبير «صالح بن علي الحارثي» من الشرقية، واختاروا بدلاً منه ابن عمه ذا الإرادة الحديدية «عزّان بن قيس» من «الرستاق»، والذي تزوّج من شقيقة «سالم». وعلى الرغم من أن «عزّان» كان بالرجل الذي يوصف بحماسه وحصافة عقله، وفي الوقت نفسه بالمقاتل، جاء على لسان المؤرخ العربي الإباضي الكفيف «السالمي» أن الاختيار لم يقع عليه لهذه الأسباب وحدها، ولكن لأنّه كان من بيت سلاطين، وكان يعتقد أنه من الشخصيات الصادقة الأمينة. وكان من نتائج هذا التغيير أن تمكّن شاه بلاد فارس من إنهاء عقد إيجار «عُمان» لبندر عباس ومقاطعاتها، والتي حكمتها «عُمان» منذ عام ١٧٩٤، وذلك لأن عقد الإيجار تضمّن شرطاً يسمح لهم بإلغاء العقد إن تمكن غازٍ من الاستيلاء على «مسقط».

وقد قام «عزّان» بالاستيلاء على «بركة»، واحتل «مسقط» بعد هجومين ناجحين، وقام بنهب ثروات القصر، وأعاد الإمامة، واغتصب العرش كحاكم لفترة قصيرة، وأجبر «سالم» الذي جمع حوله أكثر من خمسمئة رجل على الإبحار على متن سفينته «برنس أوف ويلز» إلى «بندر عباس» على شواطئ إيران، تاركاً خلفه سفينتين من سفن جده وجزءاً من إرثه النفيس الذي يقدّر بحوالى ٢٠٠٠٠٠ جنيه إسترليني. وتوفي «سالم» بمرض الجدري عام ١٨٧٤ في منفى حقير في «كراتشي».

ولدينا شاهد عيان آخر على تورّط «سالم» في قتل أبيه، ففي شهر إبريل عام ١٨٦٩، تشرّف القبطان «فيليب كولومب» بزيارة إلى سفينته التي

كانت ملك السلطان السابق «سالم»، بينما كانت سفينة جلالة الملكة «درياد» راسية على الشاطئ في «دبي».

«إن لم أكن أعلم أنه قد قتل أباه، فإن ملامح وجهه تجعلني أميل إلى تصديق أنه قادر على ذلك. كانت ملامحه جميلة، إلّا أن وجهه لم يكن بالوجه الصريح والأمين، فلم تكن فيه بارقة شهامة. وقد كانت شفتاه الكبيرتان تملآن فمه، ويتلعثم في كلامه. وما كان له أبداً أن يقاتل وجهاً لوجه في قتال عادل في العراء، ولكن الرعب يسيطر على من يقف في طريقه أمام قوته وسلطته. وقد كان طويل القامة، حسن المنظر، بسيط الهندام لكنه حسن الثياب. وقد كانت مشيته تفتقر إلى الوقار، فقد كان يمشي بتؤدة».

ومن خلال «كولومب» أيضاً، لدينا صورة وصفية رائعة لخليفة «سالم». وقد وصل «كولومب» إلى «مسقط» في عصر «عزّان» المتقشّف زعيم «عُمان»، وقد لاحظ أنه:

عندما لم يكن في حالة الحرب، كان يصلّي ويدعو أو يشنّ حملة شرسة ضد الحرير والتبغ. ولكن كان الشيء الذي ينقص من أمن ملكه اعتراف الحكومة الهندية به، ولهذا السبب لم يتمكّن أبداً من اجتذاب موارد مالية لـ«زنجبار». واعترافه كان مكبوتاً في داخله، وبسبب تعصّبه الديني كان صعب المراس إلى أبعد الحدود، وقد كان أيضاً خطير الشأن، وفي مقدّمة عرب «عُمان». لقد كان «سالم» بالفعل رجل سياسة، إلّا أنه عمد إلى قتل أبيه[(١)].

ووصل «عزّان» إلى السلطة، إلّا أنه واجه صعوبة في تسديد ديون الدولة، فكان آخر من تولى الإمامة من حكام «ألبوسعيد» (وتجدر الإشارة هنا إلى أن سلطته لم تكن تمتدّ على كلّ قبائل «عُمان»)؛ حيث لم يكن ضمن كافة السلاطين الذين تتابعوا بعد ذلك من يفكّر في التنازل عن حكمه

(١) فيليب كولومب، المصدر السابق، ص ١٢٢، ١٦١.

لمنصبٍ، يُنتخب صاحبه بصورة مؤقتة دون حقّ في الخلافة، فاستقرّ المستقبل تماماً في أيدي القبائل. والموقف في «عُمان» يختلف تماماً عمّا هو موجود في «اليمن» وفي المملكة العربية السعودية، ففي «عُمان» ليس من السهل أن يصبح المرء وريثاً للملك، أو أن يكون الرئيس المنتخب بصورة سريعة. وذات يوم سألت السلطان السابق «تيمور»، هل تمنّى في يوم من الأيام أن يكون الإمام؟ فكانت إجابته مقتضبة، ولكنها أيضاً كانت حاسمة، حيث أجاب: «ولماذا أتمنّى؟».

ولشرح المرحلة التالية في الخلافة، لا بدّ لنا من العودة إلى مشهد اغتيال السلطان «الثويني». فبعد أيام من الدفن الزائف في «صحار»، فرّ السيّد «تركي»، شقيق الحاكم القاتل بمساعدة السّجان. ولو لم يكن تهديد بريطانيا بعدم الاعتراف به وشنّ حرب عليه، لتحيّن الفرصة لخلع السلطان الجديد «سالم»، إذ أنه استحوذ على «مطرح»، وأغار بعنف على أسوار «مسقط» التي تحطمت عليها طموحاته. وقد اعترفت الحكومة البريطانية في الهند بالسيد «سالم حاكماً على «عُمان» خليفةً لوالده، حسبما ذكر الراحل والبطل البريطاني «جي. بي. بادجر».

لم يأتِ القرار على هذه النتيجة حتى بعد التروّي الطويل، إذ أن السؤال لم يطرح بصورة طبيعية بأيّة حال من الأحوال. وتمسّكاً بمبادئنا الراسخة يمكننا أو يتعيّن علينا الاعتراف بأنه قاتل أبيه. وبعيداً عن حقيقة أن التهمة لم تثبت بصورة قانونية على «سالم»، وأنه كان مصرّاً على براءته والتنصّل من الجريمة، إلّا أنه يبدو أن الحكومة البريطانية قد اتخذت قرارها بضلوعه في الجريمة في مسألة ذات شأن داخلي خالص، وفي مسألة بعيدة كلّ البعد عن نطاق سلطتها. وإنه إذا كانت الدولة العُمانية لم تتردّد في الاعتراف به حاكماً عليها فبصفتنا دولة أجنبية لسنا مطالبين بأيّ قانون لتبرئته في هذا الشأن (**الملحوظة ز**).

وفي النهاية، تمّ التعهد بأن يتلقّى «تركي»، المحبوب شعبياً، راتباً سنويًّا من «سالم» يبلغ ٧٢٠٠ دولار، تُحسم من معونة «زنجبار»». ومع هذا الضمان تنازل «تركي» مؤقتاً عن مطالبه الإقليمية، وركب هو وابنه «فيصل» السفينة متّجهاً، عبر خليج «عُمان» إلى «جوادر»، حيث رحّب به شعبها. وقام بعزل إمامها المعيّن من قبل «عزّان» وحكم هو «جوادر» حتى عام ١٨٧١. وبعد أن أسرف في استغلال موارد «زنجبار» من الذهب التي منحها إياه السلطان «ماجد»، وساعده فيها بنو «بو علي» وبنو «بو حسن» (الأعداء الدمويون التقليديون) انهزم وقُتل أقرباؤه. وقد قاتل الإمام الديني المتعصب الإمام «عزّان» (استبدل الراية البيضاء الخاصة بطائفة «المطوّع» في هذا الوقت بالعلم الأحمر لعُمان) في معركة ليلية مفاجئة جرى خوضها في ضواحي «مطرح»، ثم استولى على عرش «عُمان». ومن الجدير بالذكر هنا أنه قد تلقّى بعض المساعدة من البريطانيين:

في الخليج كان المندوب السامي السير «لويس بيلي»، ولا يزال هو المؤيد المتحمّس لمزاعم «تركي». وقد وفّر الوكيل المحلي لـ«بيلي»، والمتواجد في «بوشهر»، وضمن إمكانياته الخاصة، لـ«تركي» التأييد الممكن واللازم. وعلاوة على ذلك، ومنذ اللحظة التي بدأ فيها «تركي» بشنّ غارات على «مسقط»، وبدا أن السلام البحري الذي فرضته بريطانيا قد توقف مؤقتاً، لم ترد أية تقارير من «بومباي» عن الأوضاع السياسية في «مسقط» إلى «كالكتا» حتى قيام الانقلاب. وفي المناسبة السابقة، عندما حاول «تركي» الاستيلاء على السلطة تدخلت الحكومة الهندية كمدافع عن معاهدة الصلح البحرية، وأوقفت عملياته[١].

ومن خلال العمل الجريء الذي قام به «تركي» - الابن الثالث

---

(١) «أر. جي. غايفين»: «بعثة السير بارتل فرير إلى زنجبار» «The Bartle Frere Mission to Zanzibar»، المجلة التاريخية، المجلد الخامس ١٩٥٢)، ص ١٣١.

لـ«سعيد المعظّم»- تمكّن من استعادة دفّة الخلافة الملكية من ابن «سالم» إلى ابنه «فيصل»، ومنه إلى ابنه «تيمور»، وأخيراً إلى الابن الحالي السلطان «سعيد». وقد ارتكب «سيف بن سليمان ألبوسعيد» الوالي السابق لمطرح مذابح دامية في هذا القتال، وكان يساعده «تركي»، الذي تولّى ابنه «بدر» في النهاية حكاية قصة اغتيال «الثويني» لـ«تيمور»، والذي أخبرني بدوره في ما بعد بكافة التفاصيل.

ولم يكن السلطان «تركي» بالمدبّر الحصيف لأحوال الدولة المالية. وقد كان غالباً يظهر بمظهر السلطان المطمئن والمتحرّر، ولكن على الرغم من ذلك، فقد أصدر أوامره في أحد الأيام بدفن أحد رجال قبيلة «بني بطّاش» حيًّا في «مسقط». وقد اشتعلت نوبة من الغضب والكراهية تجاهه في طائفة «المطوّع» المتعصّبة ذات الفكر الضيق، والتي اضطلع علماؤها ذوو العمائم البيضاء بتفسير القرآن، وحماية الأخلاق العُمانية، والدفاع عنها. وعلى الرغم من الثورات والمكائد والمؤامرات المستمرّة التي اتّسمت بها فترة حكم هذا الملك العظيم، إلّا أنه كسياسي واقعي لم يتردّد في أن يعد ويبشّر بإغلاق سوق الرقيق العام، وأن يحمي كلّ العبيد الذين نالوا حريتهم، ووافق على توقيع الاتفاقية الجديدة الشهيرة (التي تمّ توقيعها في ١٤ من أبريل عام ١٨٧٣)، والتي تمّ بعدها تحرير كافة الذين يعيشون تحت سيادته، وفي المناطق التابعة لسلطانه. ومن وجهة نظر «بريطانيا»، كانت المعاهدة مع السلطان بمثابة المفتاح لكلّ الترتيبات التالية. فبدون تلك الاتفاقية، لما وُجد ما يضمن انتهاء تجارة الرقيق بهذه الصورة السريعة.

**وقد كتب السير «بارتل فرير» في هذا السياق، فقال:**

«لم يمنعنا السيد «تركي»، ولم يمنع نفسه أيضاً من مواجهة الصعوبات، التي نشأت عن فرض هذه المعاهدة على كافة رعاياه،

ولكن مع العزيمة والإرادة القوية للحكومة فسوف يتمكّن هذا الأمير من تنفيذها على أرض الواقع، وإن كان يحدوني بعض الشك في ذلك»[١].

وقد خلف السلطان «تركي» في شجاعته تلك (يدفعه إلى ذلك ٦٠٠٠٠ دولار من السير «بارتل فرير») السلطان «برغش» من «زنجبار»، والذي وقّع بوساطة من الوكيل السياسي السير «جون كيرك» على اتفاقية مع بريطانيا العظمى، نصّت بداية من الخامس من يونيو عام ١٨٧٣ على:

«الامتناع التام عن تصدير العبيد من شواطئ «زنجبار» إلى وسط إفريقيا حتى لو كان ذلك بغرض نقلهم من أحد الأقاليم الخاضعة لسيطرة السلطان إلى إقليم آخر بهدف نقلهم إلى أقاليم أجنبية. وإن السلطان يَعِدُ بإغلاق كافة الأسواق العامة لبيع وشراء الرقيق الذين يتمّ استيرادهم إلى منطقة نفوذه»[٢].

وفي بداية المفاوضات اشتكى السلطان بشدّة إلى قنصل «بريطانيا العظمى» من تلك الغشاوة التي سيطرت على كلتي عينيه، حتى إنه كان ليفضّل التخلص منهما. فهم على حدّ تعبيره أناسٌ ذوو أفق وتفكير ضيّقين، وفي حاجة إلى عصور لتستبصر طريقها. وأثناء رحلته التالية إلى «إنجلترا» عام ١٨٧٥، وكضيف على جلالة الملكة «فيكتوريا» في «ويندسور»، علّق «برغش» -وهو أول حاكم من ذرية «ألبوسعيد» يزور أوروبا- قائلاً: «لماذا لم تضربيني على رأسي عندما رفضت أول مرّة أن أوقع الاتفاقية؟»[٣]. وقد قام السلطان

---

(١) «أر. كوبلاند»: «The Exploitation of East Africa» (استغلال شرق أفريقيا)، ١٨٥٦ - ١٨٩٠، ص ٢٠٤.

(٢) «جي. أي. ويليامسون»: «A short History of British Expansion» (تاريخ مختصر للتوسع البريطاني)، (لندن ١٩٥٣)، ص ٢٠٥. انظر أيضاً كتاب «روبرت نونيز لاين»: «An Apostle of Empire»، (لندن، ١٩٣٦)، ص ٤٥.

(٣) «أر. كوبلاند»: «The exploitation of East Africa»، (استغلال شرق أفريقيا)، ص =

«برغش» في أحد الأيام بسجن كبير الخدم عنده لمدّة ستة أشهر، لأنه قام بخصي اثنين من الخدم قاما باغتصاب ابنته. وعلى الرغم من الموافقة على أن العقوبة تتناسب مع الجريمة، إلّا أن هذا الأمر كان ملكاً للسلطان يصدر فيه حكمه وليس لكبير الخدم.

وكان «برغش» يتحلّى بروح الدعابة. فذات يوم لاحظ نسخة عربية من الكتاب المقدّس في القنصلية البريطانية، فقال: «كتاب كريم لكنه يُجيز العبودية». وقد رويت لي القصة بطريقة أخرى في «زنجبار»، فقيل لي إنه في أحد الأيام وجد السير «جون كيرك» «برغش» يقرأ كتاب «العهد الجديد» أثناء مهمة «فرير» التبشيرية، فسأل «كيرك» «برغش» عن رأيه في هذا الكتاب، فكانت إجابة «برغش»: «إنني لم أجد في صفحات هذا الكتاب ما يُشير إلى أن المسيح كان يُدين العبودية».

وفي ١٨ من أبريل عام ١٨٧٦، أصدر «برغش» بياناً يحظّر فيه تجارة الرقيق بالكامل في شرق إفريقيا[١]. وفي عيد «الكريسماس» (الميلاد) عام ١٨٧٧ سمعت الكنيسة المسيحية الكاتدرائية للمهام التبشيرية بالجامعة عن قصة معجزة «بيت لحم» التي نشرها الراهب «إدوارد ستريت» في سواحلي أمام حشد من المصلين يصل عددهم إلى مئتي مصلٍّ بجوار سوق العبيد القديم بـ «زنجبار». لقد ذهبت وولّت أسواق البؤس البشري، وما عادت هناك أجساد مهملة لرجال سود تحرّرت من عذاب أهل الأرض، وألقيت

---

= ١٨٨. و«Zanzibar in Contemporory Times»، (زنجبار في الأزمنة المعاصرة) ص ٩٢ ـ ٩٥؛ و«كريستوفر لويد»: «The Navy and the Slave Trade»، (لندن، ١٩٤٩)، ص ٢٦٩.

(١) لمعرفة النص الكامل، انظر: «British and Foreign State Papers»، العدد ٦٧ (١٨٧٥ ـ ١٨٧٦)، ص ٤٥٥ ـ ٤٥٦؛ والنصوص العربية محفوظة في المكتب الخارجي: F.O. 84/1453، ومرفقة مع خطاب «كيرك إلى ديربي»، ٢٨ إبريل، ١٨٧٦.

جثثهم على الشاطئ البرونزي، لتنتفخ أجسادهم وتتعفّن، إلى أن يغمرهم المدّ، ويُلقي بهم بين النفايات الأخرى(١).

لهذا يجب على التاريخ أن يُرجِع شرف إنهاء تجارة الرقيق العربية في شرق إفريقيا إلى ثلاثة رجال، كان لهم الفضل في ذلك، وهم «لفنغستون» و«كيرك» (الذي رافق «لفنغستون» في أولى رحلاته)، والثالث «برغش». ورغم موتهم، إلّا أن تجارة الرقيق لم تمت تماماً، فما زال الجرح الدموي ينضح بالدماء في العالم كأنه سنّة من سننه، على الرغم من أنه يحق لنا القول إن عصر العبودية قد انتهى.

وآخر مشهد دوّنه التاريخ لسفينة تحمل رقيقاً على متنها في مياه شرق إفريقيا كان عام ١٨٩٩. وبعدها بتسع سنوات عندما أصبحت «زنجبار» محميّة بريطانية تمّ حظر تجارة الرقيق، وقد تمّ إلغاؤها بصورة قانونية عام ١٩٠٧. ولم تُلغَ هذه التجارة في إقليم «تنجانيقا» إلا عام ١٩٢٢.

وإحدى الصعوبات التي حالت دون إنهاء تجارة الرقيق بصورة كاملة في «عُمان»، حتى بعد توقيع اتفاقية حظر تجارة الرقيق، هو الالتفاف على القوانين، ولجوء تجار الرقيق إلى رفع العلم الفرنسي على متن السفن التي تنقلهم في خليج «عُمان» و«إيران» (حيث امتدت طموحات فرنسا إلى «عُمان» الشرقية)، وتحصين تلك السفن من تفتيش الزوارق البريطانية وضبّاط سلطان «عُمان»، فأدّى ذلك إلى اتّساع رقعة مبادئ الثورة الفرنسية (الحرية، والمساواة، والإخاء) بوجهها القبيح بسبب سهي ملّاك سفن الرقيق وراءها. وفي جهود رامية لتقليل التأثير البريطاني في «عُمان»، قام قناصلة الجمهورية الثالثة في «مسقط» بمنح أوراق ومستندات سنوية للسفن الفرنسية تحمل عنوان الملاحة، وأعلام توضع على المراكب الشراعية العُمانية. وفي عام ١٨٩٦، قامت الزوارق البريطانية بأسر سفينتين تابعتين لـ «سور»، هما «سلامة»

---

(١) «إي. دي. مور»: «Ivory Scourge of Africa» (سوط أفريقيا العاجي)، ص ٢٤٧.

و«سعد»، كانتا ترفعان العلم الفرنسي، وهما تقومان بنقل عبيد. وفي عام ١٨٩٥، كان هناك ثمانية وثلاثون مركباً شراعيًّا «عُمانيًا يرفع العلم الفرنسي. كما قامت سلطات الاستعمار الفرنسية في «مدغشقر» و«جزر القمر» بإصدار أوراق وتصاريح فرنسية في بداية عام ١٨٦٠ إلى سفن عائدة لرعايا غير فرنسيين. وفي غضون عشر سنوات، كانت تقريباً كلّ السفن الفرنسية في جنوب «زنجبار» تحمل الأعلام ذات الألوان الثلاثة، الأحمر والأبيض والأزرق. وكتب «إتش. جيه. ويغهام[١]» «لم يذكر التاريخ أن سفينة مدفعية فرنسية عملت على تحرير أيّ عبد من العبيد»؛ فكان أقصى جهد يمكن للفرنسيين بذله هو إنزال أعلامهم عن السفن الشراعية «الدهَوْ» التي كانت تحمل رقيقاً[٢]، حتى لا تسوء سمعتها، وتستر عورتها. وزاد الطين بلة أن سقطت اتفاقية الحق المتبادل في تفتيش تجّار الرقيق المحتملين بين البريطانيين والولايات المتحدة في أواخر عام ١٨٦٢، على الرغم من أن دور البحرية الأميركية في مكافحة تجارة الرقيق كان هامشيًّا وغير مؤثر بدرجة كبيرة. وجاء ذلك في إعلان صارخ قامت به العاصمة واشنطن، فقالت: «إننا نحترم أعلامنا ونجنّبها حق التفتيش أيًّا من كان على متنها». وقد وقعت معاهدات تمنح حقاً محدوداً بتفتيش السفن في أعالي البحار بين «إسبانيا» و«البرتغال» عام ١٨١٧ (بشرط بألا يتمّ تفتيش السفن الإسبانية أو البرتغالية جنوب الإكوادور)، ووقعت عليها «هولندا» عام ١٨١٨، و«السويد» عام ١٨٢٤، و«فرنسا» عام ١٨٣١.

وفي الثاني من شهر نوفمبر عام ١٨١٨، قام «جون آدامز» وزير الخارجية بإرسال الخطاب التالي إلى الوزارة الأميركية في لندن:

---

(١) «إتش. جيه. ويغهام»: «The Persian Problem»، (المشكلة الفارسية)، (نيويورك، ١٩٠٣)، ص ٢١.

(٢) هوراس والر: «The Last Journals of David Livingstone»، المجلد الأول، (لندن، ١٨٧٤)، ص ٦.

«إن حق مكاتب السفن الأجنبية الحربية في الدخول إلى السفن الأميركية وتفتيشها في وقت السلم تحت أيّ ظرف سوف يلقى كره واشمئزاز الرأي العام في هذا البلد».

وقد دافع الرئيس «تايلور» عن تلك السياسة غير المرغوبة، في أول خطاب سنوي ألقاه أمام الكونغرس في ديسمبر عام ١٨٤١، بقوله: «إن المواطنين الأميركيين، الذين يزاولون تجارة شرعية في المياه الإفريقية، ويعلّقون أعلام بلادهم، غير مسؤولين عن الانتهاكات التي يقوم بها غيرهم، وقيامهم بأعمال غير شرعية تحت تلك الأعلام».

وفي ٢٩ من يوليو عام ١٨٤٤، رأى «جون آدامز» المشكلة من منظور مختلف، وكتب: «لقد لحق الخزي والعار باسم وشرف دولتي، عندما زعمت حكومتها كذباً وخداعاً أنها تتعاون مع «بريطانيا العظمى» للتخلص من أحد أشكال التجارة الفاسدة، وهي تجارة الرقيق».

وفي عام ١٨٦٢، تمّ أخيراً توقيع المعاهدة الأنغلو ـ أميركية الخاصة بإنشاء محاكم مختلطة على السواحل الأميركية والإفريقية، والإقرار بالحق المتبادل للتفتيش المحدود. فكان من أمر هذه الاتفاقية التي خرقت الغطاء البريطاني، ومنحت السفن التي ترفع الأعلام الأميركية حصانة ضد التفتيش، وكرّست مبدأ حرية الإبحار التواءً على الحق، أن أتاحت لكثير من تجار الرقيق في «نيويورك» و«بوسطن» إرسال شحناتهم من الفقراء البائسين، الذين لا حول لهم ولا قوة، بمجرّد رفع الأعلام، وهو ما ألحق الخزي والعار بالعلم الأميركي، بما يرتكب من جرائم صمتت الدولة عنها، وتمثّلت بإراقة الدماء الإفريقية لما يزيد على مئة ألف من الرقيق سنويًّا».

عندما رفضت الولايات المتحدة الأميركية السماح بتفتيش سفنها بواسطة السفن الحربية لأيّة قوة أجنبية، أتبع ذلك أن صار من غير الممكن تفتيش السفن إلا عن طريق الزوارق الأميركية، إن كانت ترفع

العلم الأميركي، ولا يمكن العثور على الرقيق إلا من خلال تفتيش متن السفينة. وفي الحقيقة، كان ذلك العمل يتفق ورغبات تجّار الرقيق في ظلّ القانون الأميركي. بعد ذلك، تمكّن تجّار الرقيق من الإبحار إلى «إفريقيا» تحت العلم الأميركي، الذي وفّر لهم حصانة من تفتيش البريطانيين ومصادراتهم[١].

وقد قيل إنه في أثناء الحرب الأهلية الأميركية، كانت السفن التابعة للشمال الأميركي تنقل العبيد والرقيق القادمين من «عُمان» وشرق إفريقيا إلى الولايات الكونفدرالية، وتهرّبهم عبر قوات الحصار التابعة للاتحاديين!

وفي عام ١٨٦٦، قام الكولونيل «ديسبرو» بعمل تقرير عن سعر بيع العبيد الجدد القادمين من شاطئ «عُمان»، وأن هذه الأسعار تتراوح ما بين عشرة إلى أربعة عشر دولاراً وما فوق ذلك. ويرتفع سعر الفتيات الصغيرات في السن عن ذلك الثمن بكثير. وقبل ذلك بأربع سنوات كان الكولونيل «بيل» قد كتب إلى حكومة «بومباي» يقول: «يتمّ بيع العبد بجنيه واحد فقط، في حين أن العشرة شلنات تشتري بها ثمانية عبيد في «مسقط»، ففكّر في هامش الربح». وفي عام ١٨٧١، قال الجنرال «ريغبي» إن العبد يُشترى بعشرين دولاراً في «زنجبار»، ويُباع في «مسقط» بسعر يتراوح ما بين ٦٠-١٠٠ دولار».

وفي شهر سبتمبر عام ١٨٧٢، كانت السفينة «فولتشر» التابعة للبحرية الملكية من السفن الشراعية الضخمة، تملأ بالعبيد في منطقة «رأس الحد»، [كان يبلغ عدد حمولتها تسعمئة عبد، أغلبهم من النساء والأطفال القادمين من شرق إفريقيا] فقد قام السلطان «تركي» بسجن السيّد وابنه على الفور، وتمّت مصادرة السفينة وتدميرها بعد ذلك.

---

(١) «دي. بي. مانيكس والسيد كاولي»: «Black Cargoes»، (الحمولات السوداء)، ص ٢٢٢.

**وقد تناولت جريدة «التايمز» الهندية هذا الأمر بالشكل التالي:**

«كان من المستحيل تقدير العدد الحقيقي للعبيد في هذا الوقت؛ لهذا تمّ حشدهم على ظهر المركب، وفي المخبأ السفلي للسفينة الشراعية، حتى إنهم كانوا يبدون وكأنهم خلية كبيرة من النّمل. وقد كانت تنبعث من المخبأ رائحة نتنة، حيث كان العبيد يغوصون لعدّة بوصات في أقذر أنواع المياه. وفي الأسفل كان هناك عدد من الأطفال والبائسين ممن أعياهم المرض والسلّ بأبشع صوره. فكانت هذه السفن تجسيداً لأقسى معاناة للإنسانية، فكانت مزدحمة بعدد هائل من العبيد تجعل البحارة أنفسهم لا يطيقون البقاء فيها».

وفي أواخر عام ١٨٧٤، قامت سفينة جلالة الملكة «دافن» بأسر سفينة «عُمانية» محمّلة بالعبيد، وكانت تبحر في شمال «زنجبار» متجهة إلى «مسقط». ومن العدد الأصلي للعبيد البالغ ثلاثمئة عبد لم يتبقَّ على قيد الحياة سوى خمسين عبداً غاية في الهزال.

وبعد عام ١٨٧٥، توتّرت العلاقة بين موظفي السلطان «تركي» في «جوادر» والقبيلة المسالمة «البلوش» التي كانت من أصحاب العبيد، ويعيشون في الدولة المفتوحة بالقرب من الحدود الإيرانية، على بعد ثمانين ميلاً من الشاطئ. ويرجع الخلاف إلى سياسة السلطان في تحرير كافة العبيد الذين لجأوا إلى «جوادر» (وفقاً لاتفاقية عام ١٨٧٣ التي وقع عليها السلطان)، فقام أفراد القبيلة بالانتقام، ومهاجمة القوافل، وقطع خطوط التلغراف مرتين، كما قاموا بأعمال سلب وخطف للرعايا البريطانيين الذين كانوا يعملون في مكتب التلغراف. وواصلت القبيلة اعتداءاتها حتى عام ١٨٨٥، عندما قامت الحكومة الهندية بإجراء محاكمتين لسماع دعوى القبيلة والمقيمين في «جوادر». وقد حكمت

هذه المحكمة لصالح المقيمين في «جوادر»، ولكن عندما عجزت القبيلة عن دفع ثمن الأضرار، التي تسبّبت بها، قامت الحكومة الهندية تساهلاً منها بدفع ٦٩٧٠ روبية، والتي قررها المطالبون من «جوادر» بشرط تعهد القبيلة بوقف اعتداءاتها في المستقبل.

ورغم أن السلطان كان ضعيفاً، إلّا أنه لم يكن سيّئاً. وقد امتدّ حكمه إلى معظم أراضي الدولة العُمانية، وعانى كثيراً من الأمراض مثل الشلل الجزئي وضعف عضلة القلب. وعلى الرغم من ذلك، فقد مات ميتة طبيعية عام ١٨٨٨ . وقد تولى الخلافة من بعده ابنه الثاني «فيصل»، البالغ من العمر أربعة وعشرين عاماً، والذي تعرقلت فترة حكمه بالكامل، وحرمت من رجال الدولة ذوي الخبرة المحنكة، والعقلية المتفتحة. وفي ذكرى وفاة والده، قال «فيصل»، وهو أكثر أبناء «تركي» عزيمة وتميّزاً: إن أحزانه كانت شديدة على وفاة والده، حتى إن مشاعره لم تسمح له بحضور مراسم الدفن. ولهذا عندما عاد شقيقه الأكبر «محمد»، الوالي السابق على «صحار»، والذي كان يفتقر إلى حسن المظهر وأدب السلوك وضعف القدرات- من مراسم الدفن، وجد أن باب القصر مغلق في وجهه، وأن شقيقه «فيصل» قد أعلن نفسه سلطاناً، بموافقة غالبية المشايخ الذين شهدوا فترة تدريبات «فيصل» الصغير كحاكم على «نزوى». واتّسم حكم «فيصل» باللامبالاة والثقة المفرطة بقوته وقدرته، فكان حكمه مزيجاً من الإهمال وفترات من الإنتاج، وزاد فيها نفوذ القوات الأجنبية، لكن مع احتكاك «عُمان» خلال حكمه بالعالم الحديث. يتّسم بالغطرسة ومفعماً بالشك رغم شجاعته التي كان يتميّز بها) غير مطمئن البال لهذا الاحتكاك، ويفكر دائماً ممّا قد يجلبه له في المستقبل. ولم يكن هذا السلطان من النوع الذي يخطط أو يدبّر، وغالباً ما كان يحاول معالجة المواقف الصعبة التي تواجهه مقتصراً على قدراته

المتواضعة، رافضاً الإنصات إلى نصح الناصحين، في وقتٍ استمرّ في المغالاة في تقدير مصادره المالية والعسكرية والدبلوماسية.

وذاعت قصة بأن السلطان «فيصل» لا يستضيف زواره إلا في الجانب المواجه لفناء القصر، حيث يحتفظ بالأسد حيوانه المدلل داخل قفص. وقيل أيضاً إن المساجين كانوا يُحبسون بالقرب من قفص الأسد، فكانوا يرون زملاءهم من المجرمين وهم يقدّمون طعاماً للأسد.

«[وفي عام ١٨٨٩]، كان المشهد الوحيد المتبقّي في «مسقط» مشهد الأسد الذي كان يوضع في غرفة محكمة الغلق بجوار أبواب القصر. وكان الطعام يمنع عن الأسد لبضعة أيام، ثم يربط بإحكام في منتصف غرفةٍ بسلسلةٍ قوية، يتمّ إرخاؤها شيئاً قليلاً لتمكّن الأسد فقط من محاولة نشب مخالبه في جسد الضحية المربوطة في جدار دون أن يصل إليها بالفعل. وبعد ساعة، كان يتمّ إرخاء الحيوان المفترس ليقترب بمخالبه وأسنانه من جسد الضحية الضعيفة التي لا تستطيع الفكاك؛ لأنها مربوطة بإحكام في الجدار، وما كان يمكنها الهرب قيد أنملة من المخالب. وقد قيل لنا إن القليل من المساجين قد ظلوا لمدة أربع وعشرين ساعة دون أن يُصيبهم الجنون»[١].

وقد كتب أيضاً اللورد «كرزون» عن قفص هذا الأسد، فقال: «كان يتمّ الاحتفاظ بأسدٍ كبيرٍ في قفصٍ، وفي أحد جوانبه كانت هناك سيدة ضعيفة مسجونة، يقال إنها ارتكبت جريمة قتل. فتساءلت عمّا إذا كان الأمر مجرد قفصين بجوار بعضهما ليدلّ ذلك على المصير المحتوم

(١) «إيما كوشران بوناجيدين»: «My Life in the Moslem East»، (حياتي في الشرق الإسلامي)، (إنديانا بولس، ١٩٣٢)، ص ٨٥.

الذي سيلاقيه المجرم. ولكنني اطمأننت حينما سمعت أن القتل ليس بالجرم الشنيع في «عُمان» ليستحق هذا العقاب الوحشي.

وغالباً ما كان يتمّ الاحتفاظ بالأسود عند الحكام الشرقيين كأحد الرموز الاجتماعية. وقد ترجع هذه العادة إلى ما كان عليه الحال في البلاط الإثيوبي[١]، حيث كان يتمّ الاحتفاظ فيه بأربعة أسود مربوطة بسلاسل قوية في القرن السادس عشر. وقد كان «أحمد بن إسماعيل السمندي» يحتفظ بأسود لديه، كما كان «سنان باشا» يحتفظ بأسد في قصره، وقد رآه الرحّالة الألماني «بيتر فان دين بروك» أثناء زيارته له.

وقد أخبرني السلطان «تيمور» -الذي لم يمانع ظاهريًّا في هدم الأسطورة المرعبة - أن أسد والده لم يلتهم أحداً من قبل قطّ. وفي النهاية مات الأسد ولم يتمّ استبداله بآخر بعد اقتراح تقدّم به البريطانيون.

وفي يونيو عام ١٨٨٩، قام «فهد» -الشقيق الأصغر للسلطان «فيصل»- الذي كان يمتلك عقلية لم تعرف أبداً الصواب بالانتحار، وهو يحاول الهرب من المشكلات، التي ثارت نتيجة زواجه من ابنة عمه السلطان «برغش» سلطان «زنجبار»، وذلك قبل عامين. وقبل ذلك بأشهر قلائل، كان «عبد الله بن صلاح» البالغ من العمر عشرين عاماً، وابن الشيخ العُماني الشهير والقوي الشيخ «صلاح بن علي» من عشيرة «قبيل»، يعدّ مؤامرة مع السلطان «حمد بن الثويني» ضد حاكم «عُمان». وقد قضى السلطان «حمد»، وهو الشقيق الأصغر للقاتل «سالم»، أيامه الأولى في «عُمان»، وكان طلب من قبل من البريطانيين أن يزيدوا من حصته بجملةٍ **يقول فيها**: «إن الجروح طغت على جسمه ولديهم همُ الشفاء».

---

(١) انظر «سي. إف. بيكنغهام» و«جي. إم. بي. هاتنغفورد» في: «The Prester John of the Indies»، المجلد الثاني، (جمعية هاكلويت، كامبريدج، ١٩٦١)، ص ٣٣٧.

وفي المرحلة التالية، كان سلطان «زنجبار» يحلم بإعادة توحيد إمبراطورية «عُمان» و«زنجبار»، فقام بإمداد «عبد الله» بالكثير من المال، علاوة على ثلاثة حقول، وثلاثمئة برميل من البارود. وفي العام التالي، أرسل إليه أن يعود إلى «عُمان» لخداع ومقاتلة السلطان «فيصل» بإيحاءات دينية، منحه إياها المؤرخ الإباضي الكفيف «السالمي». فانضم والد «عبد الله» إليه، فأتى من المناطق الداخلية بزعم تقديم تعازيه بانتحار شقيق السلطان. وكان السلطان «تيمور» حينئذ في السابعة من عمره، ومازال يتذكر جهد أبيه السلطان «فيصل» في إدخال السعادة على ضيوفه «بكرم الضيافة العربي»، فأهدى إلى «عبد الله» أربعمئة ريال (دولار ماريا تيريزا)، وكميّات لا آخر لها من التمر والقهوة والأرز والحلاوة التي تشتهر بها «مسقط». ولم يمضِ كثير من الوقت حتى جاءته أنباء تُفيد أن ما بين ستمئة إلى سبعمئة من رجال القبائل من أتباع «عبد الله» وأبيه، ينتشرون في «مسقط»، يشترون ما وسعهم من البنادق والبارود في السوق. ومع غروب الشمس، صدر تحذير للناس، ولكن كلّ ما فعله السلطان «فيصل» هو أن ضحك وهو يأبى أن يصدق أن ضيوف الأمس قد انتهكوا الشرف العربي بهذا الهجوم على شخصه، ثم سكن طوال الليل في قصره لا يحرسه سوى أربعة جنود فقط.

وفي منتصف ليل الثالث عشر من فبراير عام ١٨٥٩، قام خائن القصر «خميس بن هوازن الحناوي» بالدخول إلى المكان الذي توجد فيه كنوز السلطان، ودخل في حوار طويل مع الحارس، وعند عزمه على الرحيل، نجح الخائن المخادع في الاختباء بالداخل عند غلق الأبواب. وفي الوقت المحدّد مسبقاً، وفي مشهد حافل بالذكريات عن استراتيجية حرب «طروادة»، قام هذا المخادع بفتح الأبواب من الداخل بكلّ هدوء، ومن ثمّ السماح بدخول عدد ضخم من الشركاء. فصاح الحارس من أعلى «من أنت؟». وعندما حاول «عبد الله» زعيم المتمردين الدخول عبر الباب

أصيب إصابة شديدة في ذراعه بمنشار ألقي عليه وفي المشهد التالي اغتيل الحارس المخلص.

وقام الثوار بالتوجّه إلى المكان الذي يأوي إليه السلطان بهدف قتله وقاموا بالطرق على الباب. وسمعت السيدات من الداخل صوت «عبد الله» وهو يقول: «أنا «محمد بن تركي» شقيق السلطان»، فرفضت السيدات أن يفتحن له الباب، وجرين إلى السلطان، الذي كان بالفعل قد سمع الطلقة التي قتلت الحارس.

وقام «فيصل» بالتسلّق إلى سطح قصره ومعه زوجته «عليا» (جدة السلطان الحالي). وكانت هذه المرأة الشجاعة تقوم بتلقيم البنادق بالذخيرة، بينما كان زوجها يقوم بإطلاق النار على عدد من المتمرّدين؛ فقتل ثمانية وعشرين من الثوار البالغ عددهم من مئتين إلى ثلاثمئة ممن كانوا يهاجمون بالأسفل. وبالعودة بتفكيره إلى الوراء لمدة ثمانية وستين عاماً، استعاد السلطان مشهد والده وهو يقتل أحد المهاجمين القبليين الذي كان لتوّه قد رمى برمح من درجات القصر.

وفي الليل، أخذ السلطان «فيصل» زوجته وأختيه وابنه الصغير «تيمور» وخبّأهم في منزل قريبٍ يعود لرجل هندوسي. وفي تلك اللحظات العصيبة توجّهت الزوجة «عليا» إلى القنصلية البريطانية تطلب الغوث والنجدة، ولكنها لم تأتِ. وفي الصباح، وصل جنود السلطان لإحباط الهدف الذي خطط له «عبد الله» طويلاً، وتمكين «فيصل» وأسرته من الهرب إلى حصن «جلالي» المجاور، بينما توجّه شقيقه «محمد» إلى حصن «ميراني». وقامت المدفعية البريطانية بالتوجّه إلى مرفأ «مسقط» في الصباح، ولكن، ولدواعٍ دبلوماسية، اتخذت موقف الحياد، وتركت السلطان يقاتل بمفرده. وقد زاد هذا الموقف السيئ والمسيء في آنٍ واحد من غيظ «فيصل» وحنقه على الحكومة البريطانية للتخلي عنه في تلك المحنة، وعدم كونهم على الصورة التي كان يرسمها لهم في

واجبهم تجاهه، كما كان يعتقد. وبعد ذلك بسبعة وعشرين يوماً، قام «فيصل» وأخوه بإطلاق النار على قصرهما من مكمنهما بمدافع برتغالية قديمة ذات اثنتي عشرة قذيفة. وعلى الرغم من قدم هذه المدافع إلّا أنها أدّت واجبها على أكمل وجه، وما تزال آثار قذائف المدافع باقية حتى يومنا هذا في أرجاء القصر.

وأتى الجنود المخلصون للسلطان «فيصل» من كل حدب وصوب لمساعدته، وكان أحدهم هو الشيخ «عبد الله بن سالم» زعيم بني «بو علي» من «جعلان»، وقد تساءل: «أبقي لنا من شاطئ «مسقط» موطئ قدم؟» حيث كان يريد مكاناً صغيراً جداً لإنزال رجاله أسفل الجدران المقيتة لحصن «جلالي».

وقد أدركت قبيلة الشيخ «صلاح» من المناطق الداخلية أنهم يقاتلون بالفعل لصالح السلطان «حمد» من «زنجبار»، فعادوا إلى بيوتهم تاركين حوالي مئتين من القتلى في شوارع «مسقط». وما حدث بعد ذلك لا يمكن أن يحدث إلا في المنطقة العربية، حيث قام السلطان «فيصل» بإعطاء عدوه الشيخ «صلاح» ١٢٠٠٠ دولاراً مقابل أن يغادر المدينة. وعلى الرغم من ذلك، قام السلطان بفرض ضرائب باهظة (حوالى ٢٠٪ كضريبة تأديبية على كافة الصادرات) على جميع القبائل الداخلية، التي شاركت في هذا العصيان المسلح للتعويض عن الأضرار التي حدثت للرعايا الأجانب، وعندما تمّ التغلب على الثوار، بدون مساعدة البريطانيين، تحوّلت الإهانة إلى جرح، عندما تسلّم «فيصل» فاتورة تقدّر بحوالى ٧٧٨٩٥ دولاراً من العميل السياسي الكولونيل «هايز سادلر» عن الأضرار التي لحقت بالرعايا البريطانيين أثناء الهجوم. وقد ذكر الكولونيل ذات مرة: «لقد كان العربي مثله مثل غيره غير جدير بالثقة». وبعد ذلك بعدّة أسابيع توفي قائد الثوار الشاب «عبد الله» مريضاً، وسرعان ما لحقه والده «صلاح» إلى القبر، وكان يبلغ من العمر حينها واحداً وستين عاماً، وكان

قد مات متأثراً بجراح أصيب بها عند مشاركته لقبيلة «بني جابر»، إحدى القبائل التي ساعدت السلطان في وادي «سمائل».

ولخمس سنوات تقريباً، وأثناء حكم السلطان «فيصل»، عمل الجندي والموظف العام الإنجليزي، الذي يلقى احتراماً كبيراً السير «برسي كوكس» (الذي يعرف باسم «كوكوس» عند العرب من الجبال الكردية حتى سواحل المحيط الهندي) قنصلاً في «مسقط»، وقام بتكوين علاقات صداقة مع أفراد العائلة الملكية. وفي إحدى المرّات عام ١٩٠١، كان «برسي» يقوم برحلة إلى «عُمان» قرب مدينة «صور» الساحلية مع ابن السلطان «فيصل» الصغير «تيمور»، فوقعا في كمين، وأطلقت عليهما النيران - وهما يجريان فحصاً سريعاً لمستويات الفحم[١] - من قبل متمردين من قبيلة «المشارفة» المتمرّدة التي تسكن الجبال، والتي يقع مركزها في «رفصة». ولم يتعرّض السير «برسي» لإصابات، ولكن «تيمور» (الذي كان سيصبح حاكماً للدولة خلال اثنتي عشرة سنة) أصيب في وجنته. وبعد ثمانٍ وخمسين سنة، وهو يتذكر هذه الحادثة، علّق السلطان السابق «تيمور» عليها، قائلاً: «كان السير «برسي» معلمي، فأخذت العلم من عقله»، ثم أثنى كثيراً على شخصيته العظيمة في الشرق الأدنى الحديث.

وفي عام ١٩٠٢، ارتدت مدينة «صور» البحرية - وهي أول الموانئ على الشاطئ العُماني للسفن الشراعية القادمة من الهند - لباس الحداد في

---

(١) في عام ١٩٠١، لاحظ «أي. إل كرافت وأر. دي. أولدهام»، من لجنة المسح الجيولوجي التابعة للهند، وجود ترسّبات من الفحم العالي الدرجة، بسماكة أربعة أقدام ونصف القدم في جنوب «صور»، على مسافة حوالى ٣٠ ميلاً غرب وجنوب. غرب «رأس الحدّ». وفي عام ١٩٥٦، بدأت شركة «ماكاي وشنيلمان» البريطانية، وبعد استشارة الجيولوجيين الإقتصاديين ومهندسي التعدين، بالإعداد «لحملة استكشاف مكثفة» عن الفحم.

مشهد مليء بالنحيب والعويل، عندما وصلتهم أنباء بأن الزورق البرتغالي «سان رفايل» قد قام فجأة بأسر مئة وأربعين من تجّار العبيد من «سور»، عقب قيامهم بمهمة في «سماكو»، على الساحل الشرقي لقارة «إفريقيا» على بعد مئة ميل شمال «موزمبيق». وقد تمّ الاستيلاء على اثنتي عشرة سفينة على حين غرّة، من بينهم سفينتان تحملان المندوب الفرنسي، وتمّ إطلاق سراح سبعمئة وخمسة وعشرين عبداً كانوا على متنها. وقد مات ثلث العُمانيين المتهمين في السجن، وظلّ أربعة وخمسون من العبيد على قيد الحياة، وتمّت محاكمة المتهمين، وصدرت ضدهم أحكام بالأشغال الشاقة المؤبدة لمدة خمسة وعشرين عاماً في «أنغولا». وعلى الرغم من كل هذا، فإنّ سوق العبيد في «صور» - الذي يعدّ أحد أكبر أسواق العبيد في بحر العرب (يقع على بعد ٢٥٠٠ ميل، فتستغرق الرحلة من «زنجبار» إلى «صور» من ست عشرة إلى خمس وعشرين ليلة، وهي قبل أو بعد مرتفع الرياح الموسمية مباشرة) - ظلّ ينعم بفترة من الازدهار سادت فيها أسعار طبيعية للعبيد، وظلّ الطلب ثابتاً عند ما يزيد قليلاً عن ١٠٠٠ عبد في الموسم. وكان سعر الفتاة البالغة [كما رصده السير «بيرسي»] في العادة هو الأعلى، ويتراوح ما بين مئتين إلى ثلاثمئة دولار على حسب جمالهن وحسنهن[١].

وفي عام ١٩٠٣، قام اللورد «كرزون» بجولة رسمية في مياه «بحر العرب» و«الخليج العربي» لمدة ثلاثة أسابيع كنائب للملك على الهند. ووصل «مسقط» في زيارة رسمية على متن الباخرة الملكية الهندية «هاردينغ»، برفقة أسطول من البحرية الملكية الهندية في أكبر حشد من السفن الحربية، التي تنزل «بحر العرب» منذ زيارة «ألبو كيرك» عام

(١) «فيليب غريفر»: «The Life of Sir Percy Cox»، (حياة السير بيرسي كوكس)، (لندن، ١٩٤١)، ص ٧٠.

١٥١٥، وهو في طريقه إلى «هرمز». وفي ميناء «مسقط»، ترأس اللورد «كرزون» قصر الحاكم الهندي المهيب ذا الأضواء البرّاقة، وفيه قدّم للسّلطان «فيصل» الصليب الكبير الخاص بالإمبراطورية الهندية. وفي خطبته، وصف السلطان «ماري كرزون» باللؤلؤة. وعندما سمع «كرزون» أن السلطان «فيصل» يفكر جديًّا في قبول رشوة كبيرة من الروس، نظير إنشاء محطة روسية لاستخراج الفحم في «مسقط»، ردّ قائلاً بأنّ «الخليج العربي» هو أيضاً لؤلؤة، مع تأكيد واضح في صوته على لؤلؤة لن تفرّط فيها «بريطانيا» بأيّ ثمن كان. ولم يخطئ الوجهاء[1] العُمانيون فهم المعنى المقصود.

وبعيداً عن الشاطئ الجنوبي لعُمان، توجد جزيرة خالية من الزرع والكلأ تسمّى «مصيرة». هذه الجزيرة هي جزء من الأقاليم العُمانية، وهي منفصلة عن الجزء الرملي للقارة بمستنقع ومجرىً مائي معقّد، يصل اتساعه من عشرة إلى اثني عشر ميلاً، ويأخذ شكل مستطيل غير منتظم (**الملحوظة ز**)، وهو مسدود من الناحيتين بسلسلة منخفضة من التلال البركانية الجافة والمظلمة ذات جوانب وعرة. وهناك العديد من الأعمال النحاسية القديمة، وتفوح منها رائحة الأفران التي تعبّر عن عظمتها في الأزمنة السابقة، إلّا أنها فقدت في الوقت الحالي ألفي نوع من الأسماك والسلاحف الغريبة، وتجد فيها أيضاً منازل أهلها الكوخية. ودوَّن «ابن بطوطة» بعد زيارته إلى «مصيرة» ما يلي: «واصطادوا جملة من تلك الطيور فطبخوها دون ذكاة وأكلوها. وكان يجالسني تاجر من أهل جزيرة «مصيرة» ساكن بظفار اسمه «مسلم»، ورأيته يأكل معهم تلك الطيور، فأنكرت ذلك عليه».

(١) انظر «ليونارد موسلي»: «Curzon» (كرزون)، (لندن، ١٩٦٠)، ص ٨٣.

على الرغم، من أن تلك الجزيرة كانت مهجورة ومنعزلة، إلّا أنها لم تُحرم من نصيبها من العنف والعقاب. ففي عام ١٩٠٤، غرقت الباخرة «بارون إنفيردال» التي تبلغ حمولتها ٢١٤٠ طناً قبالة جزر «الحلانيات». وقد تمّت قيادة سبعة عشر ناجياً بريطانياً من أصل واحد وثلاثين كانوا على متن السفينة إلى جزيرة «مصيرة» خارج جنوب «عُمان»، وهناك تمّ ذبحهم بوحشية على يد رجل بالسكين والخنجر بسبب كونهم ملكاً لقبيلة «آل بو عيسى» وقبيلة «الجنّبة». وقد كانت «الجنّبة» سنّية المذهب، وتشكّل أكبر قبيلة تعمل في البحر في «عُمان». وبأقصى سرعة ممكنة وصل السلطان «فيصل» وابنه «تيمور» إلى «مصيرة»، وقاما بجمع واحد وثلاثين من المتّهمين. فقام واحد منهم بإلقاء نفسه من فوق سطح السفينة في طريق العودة إلى «مسقط». وبعد مرور فترة في حصن «جلالي» وجد أن تسعة عشر كانوا مذنبين، فتمّ وضعهم على السفينة للعودة إلى مسرح الأحداث الحقيقي لجرائمهم في الساحل الغربي للجزيرة، حيث تمّ قتلهم رمياً بالرصاص على وجه السرعة بأمر من «تيمور»، ودفنوا في مقبرة جماعية (دون أن يُصلّى عليهم). وعلى حد قول «تيمور»: «لقد بنيت جبلاً تذكاريًّا صغيراً من الصخور».

وقبل أن نأتي للكلام عن فترة الحرب الأهلية التي هدّدت «عُمان» في هذه الفترة، وكانت على وشك الاندلاع في صراع عنيف قبل انتهاء فترة الخلافة، لا بدّ أولاً من بعض التوضيحات عن طبيعة العلاقات العُمانية.

وكما رأينا، منذ منتصف القرن الثامن عشر، انتقلت السيادة إلى شخص واحد يتمثّل بالحاكم، والمعروف ممّا سبق أنه كان «السيّد» أو السلطان. ولم يكن أبداً منصب الإمام، لا في هذه الفترة ولا في الفترات التي سبقتها، بالمنصب الذي يدوم. وينبغي أن نوضح في ذلك السياق أنه لم يكن هناك على الإطلاق إلزام ديني بتعيين إمام. ويقول «سليل ابن

رازق»[1] إنه لو تمكّن الناس من تطبيق الشرع على أنفسهم بدون سلطة عليا لما كانت هناك حاجة لتعيين إمام، وما كانت هناك حاجة لهذا المنصب لا بالقانون ولا بالعقل ولا بالوحي. وبعد ذلك يتمّ انتخاب الإمام لتعديل النقائص الموجودة في الناس كما هو موجود في «الشرع». ولابدّ للرجل، الذي تمّ انتخابه، أن يكون بالغاً حرًّا لا يعاني من إعاقة في جسده. ويتمّ الانتهاء من عملية الانتخاب في اجتماع سرّي خطير الشأن، يضمّ زعماء الإباضية. ومن المفترض أن تكون عملية الاختيار بناءً على صفات معينة منها التقوى الشخصية والتواضع والمعرفة اللاهوتية. ولا يلزم فيها أن يكون من نسل النبي ﷺ كما هو الحال مع الزيديّين في «اليمن». ولا يسعنا أن نقف على أسلوب اختيار الإمام إلا من خلال الرجوع إلى حادثتين تاريخيتين: فيصف لنا «ابن بطوطة»[2] أحد الأئمة العُمانيين بأنه كان متواضعاً، وشخصاً بسيطاً يجلس أمام منزله لمقابلة من جاء لرؤيته إليه، فلا يقف على بابه حاجب أو وزير. وفي الغالب كان الأشخاص الذين يتمّ اختيارهم أئمة يقرّون بعجزهم عن مواجهة عيشة الفقر ونكران الذات التي يستلزمها ذلك المنصب.

**وعن الإمام «رشيد بن الوليد»، قال «سليل بن رازق»:**

«إمام ثابت على الاستقامة، لا يخاف لومة لائم، لا يملأ قلبه حب أو شغف لغاية يريدها لنفسه. قريب من رعاياه يحتمل شكواهم. عادل لا يميل عن الحق، لا فرق عنده بين الكبير والوضيع، والغني والفقير، والعظيم والحقير. ويستمع إلى نصح الناصحين»[3].

---

(١) «أئمة وسادات عُمان» «Imams and Seyyids of Oman»، ص ٣٨١.

(٢) ابن بطوطة: «Voyages» (رحلات)، منشورات «ديفريميري وسانغيتي»، المجلد الثاني، (باريس، ١٨٧٤)، ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩.

(٣) «أئمة وسادات عُمان» ـ «Imams and Seyyids of Oman»، ص ٣١ ـ ٣٢.

وثارت عداوات لا تحصى بسبب خلاف في الرأي يتعلق بشرعية الانتخابات. ويرجع ذلك ربما إلى وجود كثير من الإجراءات الإدارية أثناء الانتخابات. وفي عام ١٧٢٨، وصف لنا الشيخ «سرحان بن سعيد» إحدى تلك الانتخابات في كتابه «كشف الغمّة»، فقال:

«يجتمع أربعة من كبار الزعماء في دار أحد المرشحين، ويطلب منه الموافقة على شروط معيّنة تعرض عليه. وعند الموافقة يذهب الزعماء إلى الناس الذين يتجمّعون من كافة المناطق للمشاركة في المراسم، ويخبروهم نتيجة تشاورهم. ثم يقف رئيس المجلس، ويعلن بوقار أنه الإمام. وبعد أن يبايعه الناس يدخل على واجبات منصبه. وقد كان يضاف إلى جانب إدارة الأمور الدنيوية أن يؤمّ المسلمين في الصلاة».

وقد كان «انتخاب» الإمام من الأمور المهمّة لدى الإباضيين، ولكن على أرض الواقع، لم تكن تقوم على الاستفتاء العام، وإنما كانت تقتصر على فئة معيّنة هي التي تصوّت في عملية الانتخاب، تتمثّل في الزعماء الذين يلتقون في اجتماع سرّي، تحت رئاسة أحدهم، لمناقشة مزايا وسلبيات كلّ واحد من المرشحين. وكانت الانتخابات تجرى في العاصمة حتى عام ١٧٧٩. وكانت العاصمة تقع في عدد من البلدان الداخلية (بما في ذلك «نزوى» و«بهلة» و«الرستاق»). وقد كان أهل البلد يؤثّرون بصورة كبيرة على المجلس. وكانت هذه المناسبة تجتذب العديد من الناس من المناطق المجاورة إلى العاصمة، وكانوا ينتظرون بجوار حجرة الاجتماع لمعرفة نتيجة التشاور. وكان المنتخبون ينالون أولاً اعترافًا من الناخبين، وبعدها يقوم الرئيس بإعلان الإمام أمام الحشود المجتمعة. ثم يقوم الناس بإعلان الطاعة للإمام من خلال التهليل[1].

---

(١) يرتكز هذا الملخّص على كتاب «بي. بادجر» «حول لقب الإمام» في كتاب «أئمة وسادات عُمان»، الملحق (أ)، ص٣٨٢.

وفي الواقع، فقد كان أيّ منتخب، سواء كان بالوراثة أو من دونها (وفي الغالب يكون الزعيم رجل دين، ويتمّ انتخابه من الأسرة المشهورة بالورع والتقوى)، قائداً متديّناً أمام أيّ شخص مؤهّل، فكان يتقدّم المصلّين في الدولة الإسلامية ليكون هو الإمام (وكل مسجد له إمام[1]). ولكن من الملاحظ أن القبائل العُمانية لم تشِر مطلقاً إلى إمام «عُمان»، كما أن الإمام لم يُشِر إلى نفسه على مثل هذا النحو. لقد كان دائماً من يحتل هذا المنصب هو الإمام، ويسمّى إمام المسلمين، واللقب لا يقتصر على «عُمان»، لأن الأئمة العُمانيون كانوا يعتبرون أنفسهم أئمة العالم الإسلامي أجمع، وفي الظاهر كانت «عُمان» تتقيد بالشريعة الإسلامية، والاعتراف الإجباري من الدول المجاورة بالإسلام. ولم يسبق للإمام العُماني أن ملك قوة عسكرية كبيرة، وإنّما كان ذلك قاصراً على علماء التوحيد.

وعلى الرغم من أن الإمام يظلّ في منصبه -كما يفترض- طوال حياته، إلّا أن الواقع كان على خلاف ذلك، بل وفي بعض الحالات عندما كان المناصرون للإمام يتخلّون عنه كان يتمّ تنازله تلقائيًّا، كما أن الإمامة تسقط عن الإمام إذا ما أجمع الإباضيون على عدم الامتثال له بالطاعة، وذلك إذا ما انحرف عن الطريق المستقيم. وفي الوقت نفسه، لا يمكن للإمام الاستقالة من منصبه إن كان الناخبون يرون أنه مازال يصلح لها، إذ أنه يحمل على عاتقه مسؤولية مزدوجة؛ الأولى مسؤوليته أمام الله، والثانية مسؤوليته أمام الناس عامة.

وقد كانت أطول فترة زمنية سجّلها إمام في منصبه عام ١٨٧١ هي

---

(١) إن النبي محمد ﷺ لم يستخدم أبداً لقب «إمام»، وكذلك، لم يفعل خلفاؤه المباشرون (الخلفاء الأربعة الراشدون)، لكن في الممارسة الفعلية، كان يوجد أئمة ليقودوا الصلاة. . . لا سيما إذا تجاوز عدد المصلين، مجتمعين، الإثنين. .

إمامة السيد «عزّان بن قيس» إلى أن قتله السلطان «تركي». ولم يتم انتخاب من يخلفه حتى عام ١٩١٣، وذلك عندما قامت عدد من القبائل في المدن الداخلية بتكوين أحزاب منعزلة تضمّ المتعصّبين من الإباضيين، ثم ثاروا ضد السلطان «فيصل»، واختاروا «سالم بن راشد الخروصي» من «تنوف» كأول إمام في القرن العشرين(١)، وهو ابن شقيق المؤرخ الإباضي الكفيف «السلمي». واعتبر هؤلاء المتعصّبون الذين نجحوا في لمّ شمل الحناويين والغافريين لفترة قصيرة، أن تجارة الرقيق عامل أساسي في نظامهم الاجتماعي والاقتصادي. وقد كانوا يناهضون كلّ ما هو أجنبي، ويعارضون جميع المعاهدات التي أبرمت مع القوى النصرانية، وأيّة سيطرة على تجارة الأسلحة، بل إنهم أكدوا (ظاهريًّا على الأقل) على أن فرض الجمارك يخالف ما شرّعه النبي ﷺ، وهو ما يمثل أمراً مخالفاً للدين.

وقد كان أحد الأدوار المهمّة المنوطة بالإمام أن يقوم بها في هذا المجتمع هو دور السلطان، وذلك التزاماً بمكانته البحرية الاستراتيجية في جنوب شرق المنطقة العربية التي كانت -لفترة من الوقت- إحدى بؤر تجارة الأسلحة غير المشروعة القادمة من حرب أفغانستان عام ١٨٨٠، عندما قام الأوروبيون بتصنيع كميات كبيرة من الأسلحة الصغيرة حتى السوق الآسيوية في الغرب. وفي عام ١٨٩١، وصل إيراد الأسلحة التي كان يتمّ استيرادها من «مسقط» إلى ما يزيد عن ٤٠٠٠٠٠٠ روبية. وفي عام ١٨٩٧، كان هناك ما يزيد على ٣٠٠٠٠ ممن ينتهكون القانون، ويحملون الأسلحة، وكان يتمّ استيرادها بصورة خاصة من بريطانيا وفرنسا إلى «مسقط»، ممّا جعلها أكبر سوق للأسلحة في المنطقة. وعلى الرغم من ذلك، قام السلطان «فيصل» في العام ١٩١٠

---

(١) انظر «لورا ڤيتشيا فاغليري» «Laura Veccia Vaglieri» في كتابها «Annali dell' Istituto Universitario Orientale di» Napoli, nuova Serie III, (1949). P. 245.

(**الملحوظة ط**)، بحظر تصدير البنادق إلى «البحرين» و«الكويت». وبعد عامين، قام بإنشاء مستودع للأسلحة في «مسقط»، مع وضع قيود حكومية صارمة على عملية تصدير واستيراد الأسلحة. وقد وصلت إيرادات الأسلحة إلى حوالى ٤٠٠٠ دولار شهريًا إلى السلطان «فيصل». وقد قام مستودع الأسلحة هذا بوقف ما يزيد عن ٩٠٪ من عمليات التجارة بالسلاح السابقة، والتي تمّ إيقافها تماماً في شهر أكتوبر عام ١٩١٣ بإصدار عقوبة سجن تصل إلى خمس سنوات على تاجر السلاح المشهور «علي موسى خان».

وفي بداية عام ١٩١٣، ثار متمرّدون بقيادة الإمام «سالم بن راشد الخروصي»، فحققت تلك الثورة بعض النجاحات. وفي يونيو وأغسطس، سقطت مدن «نزوى» و«إزكي» و«سمائل»، وكانت الأخيرة بمثابة الطريق إلى ساحل «الباطنة». وفي سبتمبر، قام السلطان بمضاعفة المواقع العسكرية المتواجدة في «بيت الفلج» خارج «مطرح». وفي الشهر التالي، توفي السلطان «فيصل» جراء إصابته بمرض السرطان في الكبد، وقد ورثه ابنه الأكبر «تيمور» والد السلطان الحالي. وقد كان «تيمور» بجوار والده عندما وافته المنية. وقد عجز السلطان العجوز عن الكلام في أيامه الأخيرة. وعلى الرغم من ذلك، فقد تكرّر سؤاله لابنه «تيمور» -من خلال تحريك جفنيه فقط- حتى لا يتركه وحيداً. وعلى الرغم من أن «تيمور» لم يبعد عنه إلا لبضع ثوان، فقد وافت أباه المنية خلالها عندما ناداه شقيقه للعودة سريعاً إلى جوار أبيه. وبعد انتهاء فترة الحداد بعد ثلاثة أيام، تولى «تيمور» منصب السلطان، وقد قيل إنه اجتمع بأشقائه، وألقى عليهم سؤالاً: «إن كان في أنفسكم شيء منّي فقولوه الآن؟» فردّ عليه أخوه: «كلا ... فأنت السلطان .. وأنت ملكنا ... ونحن طوع أمرك».

** الملحوظة (أ) * * * * * * * * * * * *

يمكن العثور على وثيقة أكثر تفصيلاً عن إمبراطورية «سعيد» في كتاب «آر. كومار» «تقطع أوصال العلاقة السياسية بين كلّ من عُمان وبريطانيا في الخليج العربي» «The Dismemberment of Oman and British Policy Towards the Persian Gulf» الحضارة الإسلامية، العدد الأول، (يناير ١٩٦٢)، ص٨-١٩.

** الملحوظة (ب) * * * * * * * * * * * *

الثورة المسلحة القصيرة التي قام بها «برغش»، الذي شعر أنه مؤهل للقيام بانقلاب للاستيلاء على العرش الخالي لم تحقق شيئاً، على الرغم من الدعم الفرنسي القوي. وفي طريق عودته إلى «زنجبار» من آخر رحلة دموية من «مسقط» حدّد «برغش» وقت وصول السفينة «فيكتوريا» في جنح الظلام، ونجح في إخفاء حقيقة موت والده «سعيد» ورفع العلم الأحمر في محاولة يائسة للاستيلاء على الحصن قبل بزوغ الفجر وانتشار الخبر.

** الملحوظة (ج) * * * * * * * * * * * *

في ما يخص النّص الحقيقي لقسمة «كانينج»، «والإعلان الفرنسي البريطاني» المشترك، انظر «سي. يو. إيتكيسون»، وهي مجموعة من المعاهدات، الجزء ١١، ص٣٠٣-٣٠٥، و(بومباي ١٨٦١)، الصفحات أرقام ٥٨-٩٤، ١١٦، و«Lyne» (من البحرية الملكية) «زنجبار» في الوقت الحالي»، ص ٥٣-٥٦ و«بريطانيا ووثائق الدول الأجنبية (١٨٦٦)»، ص٧٨٥. وقد كانت العائدات السنوية لـ «زنجبار» تقدّر بحوالى ٢٠٦٠٠٠ كراون، والخاصّة بـ «مسقط» حوالى ١٢٩٥٠٠ كراون، حتى الهزيمة الأخيرة لمملكة «ألبوسعيد» في «زنجبار» (انظر

ملحق رقم خمسة: ثورة «زنجبار»)، يقوم الحاكم بدفع ٤٠٠٠٠ منها سنويًّا (تقدّر بحوالى ٧٠٠٠ جنيه إسترليني) إلى حاكم «عُمان»، ليس بصفتها جزية مستقلة، وإنما بصفتها نفقة رئيسة دائمة للتعويض من قبل «زنجبار»، كونها أغنى دولة، وللتسوية بين الوريثين. ويتمّ دفع هذه القيمة حاليًّا بواسطة الحكومة البريطانية.

** الملحوظة (د) * * * * * * * * * * * *

يرى «بي. جي. بادجر» الأمر بصورة مختلفة، فيقول: «إنني أعرف من خلال تجربة شخصية مماثلة مع المرحوم السيد «الثويني»، والسيد «ماجد» في «زنجبار»، والعديد من الأشقاء الآخرين والأقارب أنه ليس منهم من يدخّن أو يتناول القهوة» (حيث كانت القهوة تعتبر شراباً غير شرعي في التقاليد الإباضية) «تاريخ الأئمة وسادات «عُمان». الملحق (ب)، ص٣٩٧. وعلاوة على ذلك، فإنّ هذا الأمير الصغير الودود «ماجد»، الذي شفي مؤخراً من مرض الجدري المستوطن في إفريقيا، والذي أهلك معظم القاطنين للجزيرة في السنوات الأخيرة كان خجلاً من إظهار العلامة التي ظهرت على وجهه للعامة. «ريتشارد إف. برتون»، «زنجبار» «Zanzibar»، الجزء الأول، ص٣٧.

** الملحوظة (و) * * * * * * * * * * * *

في يناير عام ١٨٧٥، رسا الكولونيل «إس. بي. مايلز» من سفينة جلالة الملكة «رايفل»، وعلق قائلاً: «من بين الرجال التسعة الذين شاركوا في عملية قتل شيخ القبيلة عام ١٨٦٦، تمّ بالفعل قتل ستة منهم بصورة وحشية، وقد عاش الابن القاتل لأبيه عشر سنوات «دول وقبائل الخليج»، «State and Tribes of the Persian Gulf»، الجزء الثاني (لندن ١٩١٩)، ص٥٣٣.

** الملحوظة (ز) * * * * * * * * * * * *

أئمة وسادات «عُمان»: عندما قام «سالم» بقتل والده «الثويني» في «مسقط» عام ١٨٦٦، وترك «مطوع» بدون حكم في أيدي التجار الهنود (السير بارتل) استسلم «فيري» للحكومة العليا، ووافق على الاعتراف بقاتل أبيه. «بعثة بارتل فرير التبشيرية في «زنجبار»»، «The Bartte Frere Mission to Zanzibar» الصحيفة التاريخية، الجزء الخامس، العدد الثاني (١٩٦٢)، ص١٣٠.

** الملحوظة (ح) * * * * * * * * * * * *

«مصيرة» هي ثاني أكبر جزيرة في «بحر العرب»، والأولى هي «سقطرة»، حيث يبلغ متوسط اتساعها حوالى عشرين ميلاً وطولها ثمانية أميال. ولمزيد من المعلومات عن «مصيرة» يرجى العودة إلى «جيرالد دي جوري» (ملاحظة على جزيرة «مصيرة»)، الصحيفة الجغرافية، «The Geographical Journal»، الجزء ١٢٣ (١٩٥٧)، ص ص٤٩٩-٥٠٢

في عام ١٨٤٧، قام «إتش. جيه. كارتر» بإرسال صحيفة إلى قسم «بومباي» للمجتمع الملكي الآسيوي، وفيها صرّح بأنه يشعر بالرضا؛ لأن هناك كمية كبيرة من النحاس منتشرة في أحجار «مصيرة» «صحيفة بومباي للمجتمع الآسيوي» «The Journal of the Bombay Asiatic Society»، الجزء الثاني (١٨٤٨)، ص٤٠٠.

** الملحوظة (ط) * * * * * * * * * * * *

رأى السلطان الأخير والد «فيصل بن تركي» أنه في قمع تجارة الأسلحة بواسطة الحكومة البريطانية ميزة كبيرة لنفسه، حيث لن يتمكّن رعاياه المتمرّدون من تزويد أنفسهم بالأسلحة لاستخدامها ضده. «حرب

العرب: معلومات صادقة للمركز العام من «غرترود بيل»، رسائل تمّت إعادة طبعها من «النشرات العربية» «Arab Bulletin» السرية، (لندن ١٩٤٠)، ص٢١، (من النشرة العربية بتاريخ ٢٦ من أكتوبر ١٩١٦).

# * الفصل السابع *

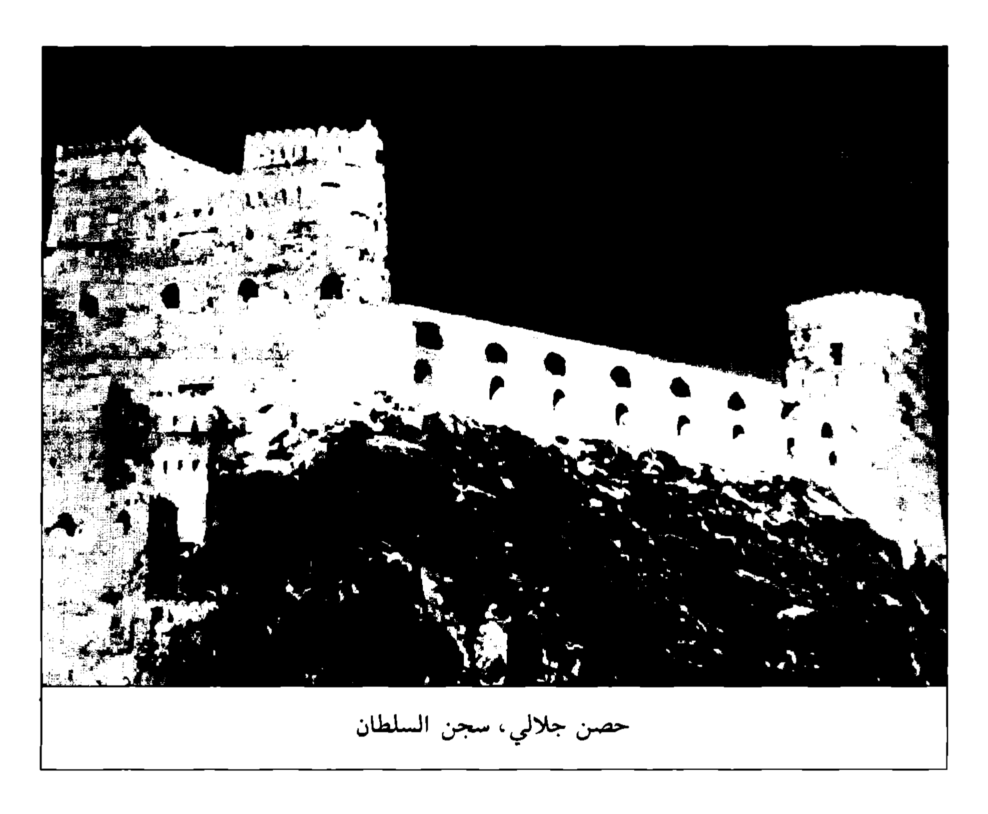
## زمن القلاقل ونزاع «البريمي»

نال السلطان «تيمور» عندما تولّى العرش دعم البريطانيين بعدما حمل على عاتقه إرث أزمة كبيرة لم تنتهِ في الماضي. فبعد موت السلطان «فيصل» بفترة قصيرة أرسل البريطانيون إلى «مطرح» نصف كتيبة من مشاة «الراجبوت» بأسلحة خفيفة، ثم أرسلوا بعد ذلك مئة رجل من كتيبة القبائل البدوية ذات الرقم مئة واثنين التابعة للملك «إدوارد» لمعاونتهم[١]. ولم يمضِ وقت طويل على ذلك حتى فتح السلطان باب المفاوضات مع صديقه القديم «عيسى بن صالح» عن طريق مكاتب شيخ «أبو ظبي». فزار «عيسى» «مسقط» في شهر ديسمبر عام ١٩١٣ لإجراء هذه المفاوضات. كان الشيخ «عيسى» هو سيد قبيلة «الحِرْث» التي تعيش في الشرقية، كما أنه كان أحد قادة المتمرّدين. ووصفه «غرترود بل[٢]» بأنه شخص صارم ذو شخصية قوية، مع أنه لا يرفض ما يعرض عليه من رشاوى، فهو الشخصية الرئيسة في هذا التحالف. وعلى الرغم من جهود السلطان، فإنّ هذه المحادثات لم تثمر عن اتفاقات دائمة أو جديرة بالذكر.

---

(١) تلقّت «مسقط» لاحقاً تعزيزات من نصف الكتيبة ١٢٦ من مشاة «بلوشستان»، وتمّ إرسال نصف الكتيبة الثاني إلى «عدن».

(٢) «الحرب العربية» . «The Arab War» (ص ٢١).



حصن جلالي، سجن السلطان

وفي شهر يناير عام ١٩١٥، تزعّم «سالم بن راشد» القوات القبلية الغافرية الموحّدة التابعة لـ«حِمْيَر بن ناصر» أكبر شيوخ قبيلة «بني ريام» التي تقطن الجبل الأخضر، إلى جانب فصائل من الأحزاب الحناوية التابعة للشيخ «عيسى». وخرجت هذه القوات من الشرقية باتجاه «مسقط» للهجوم عليها. وعلى الرغم من تحذير الشيخ «عيسى»، فإن هذه القوات قامت بمهاجمة «بيت الفلج» أثناء الليل من جانبين تحت ضوء القمر الشاحب. فمرّت مجموعة منهم بمجاز «مَرَخْ»، في حين تقدّم الباقون عبر قرية «روي» الصغيرة. ومازال السلطان الحالي، الذي كان يبلغ من العمر خمس سنوات حينها، يتذكّر عندما تسلّق سقف القصر مع أبيه للإنصات إلى دويّ المدافع البعيدة. وعندما أحسّ المتمرّدون بالخناق، شنّوا هجوماً مركزيًّا إلى الأمام بجنود يبلغ عددهم ثلاثة آلاف جندي

ضد سبعمئة شخص من القوات الهندية البريطانية المدرّبة تدريباً جيداً محصّنين للدفاع، فلم يتمكّن المتمرّدون من الوصول إلى الحصن، فكانت هذه الهزيمة الساحقة إيذاناً بأنّ هذه آخر محاولة تمرّد تهدف إلى القضاء على العاصمة[1]. وقد ذكر السلطان السابق «تيمور» لمؤلف الكتاب الذي بين يديك أنه شاهد مئة واثنتي عشرة جثة من المتمرّدين جمعوا معاً في المكان الذي دارت فيه المعركة.

وفي شهر فبراير، زارت السفينة الهندية الملكية «نورثبروك» «مسقط»، وكان على متنها اللورد «هادرينغ» لورد «بنشورت»[2]، وهو نائب الملكة على «الهند». وأوصى اللورد السلطان «تيمور» بأن يصل إلى تسوية مع الرعايا المتمرّدين. وكانت لهذه الزيارة أهمية دبلوماسية؛ لأنه خلال هذه الفترة كان للمندوبين الألمان -الذين ظهروا للمرّة الأولى في «الخليج العربي» عام ١٨٩٤ مع مقدم السفينة الحربية الألمانية «كرموران» إلى «مسقط»- نشاط مكثف في المناطق العُمانية التي تقع خلف الساحل. وتمّ تعزيز «مسقط» بنصف مشاة «بلوشستان». وكانت الحملات الإعلامية الألمانية ذات تأثير جيّد، حتى إنه في بعض الفترات صدّقت العديد من قبائل الداخل أن الألمان فازوا بالحرب العالمية الأولى، وأن القيصر المنتصر قد اعتنق الإسلام وصار اسمه «حاجي محمد غولم»، وأن الوقت قد صار ملائماً لإبحار السلطان في البحر.

ومع نهاية شهر يونيو عام ١٩١٥، شنّ «بنو بطّاش» - وهم قبيلة حناوية - هجوماً بخمسمئة رجل على حدائق النخيل في وادي «حتات»

(١) لمعرفة تفاصيل هذه العملية، انظر «جنود النبي» ـ «Soldiers of the Prophet» لمؤلفه الليوتنانت ـ كولونيل «سي. سي. أر. مورفي»، (لندن، ١٩٢١)، ص ١٣٤ ـ ١٣٦.

(٢) اللورد هاردنيغ: «My India Years» (سنواتي الهندية)، (لندن، ١٩٤٨)، ص ١١٤.



حصن ميراني

الذي يقع جنوب «مسقط»، ولكنهم انقلبوا مهزومين في غضون شهر على يد السلطان، واستسلموا في «دغمر» التي تقع على الساحل، ثم في قريتهم «حيل الغاف» في الداخل. فقام السلطان «تيمور» بعد ذلك بإنشاء بروج محصّنة في «دغمر» تشرف على الشاطئ، إلى جانب بروج أخرى في ضواحي «قريات»[١].

وشهدت السنوات التي امتدّت من عام ١٩١٦ حتى عام ١٩٢٠ المزيد من المفاوضات الفاشلة، ومحاولات التوسّط بين السلطان «تيمور» والمتمرّدين. ومع بداية عام ١٩٢٠، وقّع الإمام «سالم بن راشد» عقوبة على أحد أفراد قبيلة «الوهيبة» في «عُمان». ويرجع أصل قبيلة «آل وهيبة» إلى الحناويين، وهم يؤمنون بالمذهب الإباضي، ويسكنون في

(١) تم إقفال هذه الحصون من قبل السلطان الحالي لزوال الحاجة إلى وجودها.

منطقة الشرقية. وكان بإمكان هذه القبيلة عام ١٩٦٥ أن توفّر ما يقرب من ألف وخمسمئة جندي في ميدان القتال. وكانوا يتمتّعون بسمعة طيّبة؛ فكانوا يعدّون من أفضل القبائل الموجودة في «عُمان»، كما أن الجميع يكنّون لهم الاحترام، لما يتّسم به أهل القبيلة من شجاعة وصلاح[١]. وقد كتب «إس. بي. مايلز» يقول: «إن قبيلة آل وهيبة تربّي «أسرع نسل للجمال في العالم أجمع ... وهي قبيلة ذات طبيعة شرسة لا تهدأ، فما زالت غريزة[٢] البدو تجري في دمائهم». وفي وقت متأخر من إحدى الليالي، تسلّل الرجل الذي أنزل الإمام به العقوبة من بين الحراس ووصل إلى «سالم» الذي كان يغطّ في نومه، فأطلق عليه النار وأرداه قتيلاً، ثم هرب تحت جنح الظلام ممتطياً جَمَله. والمشكلة كانت هي أن الإمام الجديد، «محمد بن عبدالله الخليلي»، من قبيلة «بني رواحة»، والمنتخب أساساً بفضل جهود الشيخ «عيسى»، لم يكن أبداً صديقاً للسلطان «تيمور» الذي رفض الاعتراف بانتخابه، بحيث كان استخدامه لصلاحياته القضائية سبباً إضافياً للنزاع الأهلي. لكن، في وقت لاحق من ذلك العام، تسبّب فرض الضريبة التأديبية على صادرات الداخل، في حثّ القبائل الثائرة على محاولة التوصّل إلى إتفاقٍ مع السلطان، ما سمح للسير «أر. فادالا»، القنصل الفرنسي في «مسقط»، بأن يسجّل الملاحظة التالية: «عُمان اليوم هي هادئة، وبات بإمكان التجارة أن تحقّق التوسّع[٣]».

والهدف الرئيسي في هذه الفترة، وبالقدر الذي يتعلّق بالشيخ

---

(١) «جي. بي. بادجر»: «Imams and Seyyids of Oman»: (أئمة وسادات عُمان)، ص ١٢٣.

(٢) في «بلدان وقبائل الخليج الفارسي» . «Countries and Tribes of the Persian Gulf» المجلد الثاني، ص ٤٣٧.

(٣) «أر. فادالا»: «Muscate» (مسقط)، «L'Asie Française»، (آسيا الفرنسية)، ٢٣ (مايو ١٩٢٣)، ص ١٣٥،

«عيسى» وقبائل الداخل، كان يتعلق بكيفية التوصّل إلى تسوية عملية وفعّالة مع السلطان من دون السماح للإنجليز بالتدخّل بشؤونهم. وفي ٢٥ سبتمبر من عام ١٩٢٠م، (الموافق ١١ محرّم من عام ١٣٣٩هـ)، تمّ التوصّل إلى اتفاقية سلام، بوساطة من الحكومة البريطانية، ممثلة بالسيد (ولاحقاً السير) «رونالد وينغايت»، قنصلها في «مسقط»، جرى التوقيع عليها في «السيب»، وهي بلدة ساحلية تقع على مسافة ٢٥ ميلاً غربي «مسقط». وهذه التسوية التي نُصّت باللغة العربية وابتدأت تقليدياً بعبارة: «**بسم الله الرحمن الرحيم**»، كانت اتفاقية بين الحاكم، السلطان «تيمور» وعدد معيّن من قبائله المنشقّة ـ يرأسها عيسى بن صالح (ومعه حوالى ٣٠ من الشيوخ وأربعمئة رجل مسلّح) ـ وهو نوع مألوف في شبه الجزيرة العربية. ويمكن القول، في هذا السياق، إنه كانت توجد هناك تسويات مماثلة لهذه بين سلاطين تركيا ومجموعات من رعاياهم في الأجزاء النائية من الأراضي الخاضعة لسيطرتهم. وبموجب «اتفاقية السيب»، فإن قدراً معيّناً من السيادة الذاتية على الشؤون المحلية البحتة، قد مُنِح للقبائل المعنية؛ لكن هذه الاتفاقية لم تتضمن أيّ إبطال لسيادة السلطان (وفقاً للسيد «وينغايت»، و«لم تُذكر مسألة السيادة أبداً»)، على «عُمان» ككل، أو مسؤوليته عن شؤون البلاد الخارجية. وقد عفا السلطان عن القادة المتمرّدين برئاسة «عيسى بن صالح»؛ فالثائر السابق كان يطالب بخرق حقوق المعاهدة المعقودة بين السلطان والدول الأجنبية، وكذلك بسحب القرار المتعلق بإلغاء مستودع الأسلحة. وقد سمح ذلك للسلطان «تيمور»، بأن يقرّر ويوقّع، في العام التالي، انتسابه لـ «الميثاق الدولي لتجارة الأسلحة»[1]. إضافة إلى ذلك، تمّ الإتفاق على دفع ضريبة بمعدّل خمسة بالمئة على البضائع المصدّرة من الداخل، وذلك

(١) انظر «أيتكيسون»: «A Collection of treaties, Engagement and Sanads» (مجموعة معاهدات والتزامات وسندات)، المجلد ١١، ص ٣١٩.

لدى وصولها عند نقطة الجمارك على الساحل. وكانت إتفاقية «سيب» للسلام محصورة بين حكومة السلطان «تيمور» وثمانية عشر من الشيوخ المتمرّدين، ولم يُرَد منها أن تلزم خلفاء «تيمور» بالانصياع لبنودها. وبعد واحد وثلاثين سنةً من إبرام هذه المعاهدة، كان على الإمام «محمد» أن يُعيد تأكيد سيادة السلطان على «عُمان» ككلّ. لذلك، عندما قامت السعودية بغزو «البريمي»، كتب إلى السلطان الحالي يطلب منه أن يقود القبائل ضد «المعتدين».

**كانت قضية السيادة على «البريمي» ذات أهمية جليلة تدفعني إلى تناولها هنا بشيء من التفصيل.**

كانت «البريمي» عام ١٧٢٨ إحدى أجزاء «عُمان» -حسب ما ورد في كتابات الشيخ «سرحان بن سعيد» في كتاب «كشف الغمّة» - ثم جاء «سامح بن لويج بن غالب» إلى «عُمان»، واستقرّ في «توّام» (البريمي) وهي «الجَوّ» بجوار «الأزد». وتمثّل هذه أولى الهجرات التي قامت بها قبيلة «الأزد». وكان «سامح» هو الجيل الرابع عشر من «عدنان»، وينتمي إلى عائلة قريشية شهيرة. وتشير «الجَوْ» إلى مقاطعة كانت تحيط بالبريمي. وفي عام ٦٢٩ ميلادية، أرسل النبي «محمد» ﷺ خطاباً إلى رؤساء القبائل العُمانية يطالبهم بالخضوع له، وسلّم هذا الخطاب مندوبه «عمر بن العاص»، الذي مرّ على «توّام»، وهو في طريقه إلى الحاكم الفارسي في «الباطنة» والحكام من قبيلة «الأزد» في «نزوى».

وأثناء حكم الإمام «مهنّا بن جعفر» (عام ٨٤٠ ميلادية)، وقع تمرّد خطير من «بني جلندة»، حيث هاجموا «البريمي» واستولوا عليها، وقتلوا الحاكم «عبد الوهّاب» الذي عيّنه الإمام. فقام والي «صحار» «أبو مروان» باتخاذ إجراءات مضادة، كان منها قيام قوات الإمام، البالغ عددها اثني عشر ألف جندي بحرق خمسين إلى سبعين مبنى، وأبادوا رجال قبيلة

«جلندة» عن بكرة أبيهم، «فسيقت عائلاتهم في الصحراء حتى ماتوا جوعاً»؛ أما من تبقّى من قبيلة «جلندة» فقد اختفوا بين القبائل الأخرى.

وفي نهاية القرن التاسع، اختار الخليفة العباسي «المعتضد بالله» «البريمي» كقاعدة لجيشه الذي يقوده «محمد بن نور»، فكانت هي السبيل الذي مكّنه من اختراق قلب «عُمان». وفي عام ١٦٢٥، أصبحت الواحة تحت إدارة الوالي «أحمد بن خلف» كجزء من الأراضي الخاضعة للحاكم العُماني الإمام «ناصر بن مرشد». ومع بداية القرن التاسع عشر، كانت قبيلة «النعيم» وهي القبيلة الأكبر في «البريمي»، وكانت قد هاجرت من «اليمن» عبر الأطراف الجنوبية للربع الخالي، بالطريق نفسه الذي اتبعته جميع القبائل في هجرتها إلى «عُمان» من جنوب غرب الجزيرة العربية. وكان من المقدّر لهذه القبيلة أن تكون من أعظم المجتمعات العربية في «عُمان» ومنطقة الخليج العربي.

تمكّن الإمام «أحمد بن سعيد» مؤسّس سلالة «ألبوسعيد» الحاكمة من السيطرة على «البريمي» في منتصف القرن الثامن عشر. وعلى الرغم من ذلك، نجح عبدٌ نبهاني يسمّى «حارق» عام ١٨٠٠ -وهو قائد على قوة غازية تتألف من سبعمئة فارس نجدي- من محاصرة الواحة للمرة الأولى في التاريخ السعودي، وبنى فيها حصناً (مازالت أطلاله موجودة حتى يومنا هذا)، لتكون الواحة قاعدة للعمليات الوهابية الموجّهة ضد باقي أجزاء «عُمان»، والتي كانت في وقت من الأوقات أكثر المناطق رخاء في شبه الجزيرة العربية.

وبعد ثلاث سنوات من مواصلة الوهّابيين لغزواتهم العنيفة داخل «عُمان»، حشد السيّد «سلطان» جميع سادة القبائل للاجتماع بهم في «بركه». وبعد أن جلس الجميع على الأرض في الحجرة العلوية، تكلّم السيد «سلطان» بصوته الرخيم، قائلاً: «لقد كنت مثل يد بلا أصابع ... وصار حدّ السكين على صدوركم، وأنا أطلب منكم المشورة في هذا

الموقف». ومع نهاية خطاب «سلطان»، وقف ابن أخيه الوطني «سيف ابن علي بن محمد ألبوسعيد»، وردّ عليه بصوت مليء بالحماس، كأنه من سكان الصحراء: «إنه خيالك الذي يصوّر لك أنه لا يوجد في «عُمان» من لديه الشجاعة ليقاتل هؤلاء الأعداء من «نجد». بل على النقيض، إنّ «عُمان» بها أقوى الرجال، وأكثرهم عدداً وصموداً أمام القتال. إنّ الوهّابيين أو غيرهم لن يثبطوا همّتنا أو يضعفوا عزيمتنا، فإن لدينا قلوباً في صدورنا تنبض شجاعة وإقداماً، والسيوف نحملها على أكتافنا لنضرب بها أعناقهم. إن الدم هو «حنّة» الرجل والحرب مثلها مثل «المّن والسلوى»، فهي طعامنا. ولكن الكلمات تذهب هباءً إن لم تأتِ بأفعال؛ لذلك دعوا الوهّابيين وحلفاءهم كي يعدّوا العدّة فإنّ الهزيمة على أبوابهم». وتوقف الخطيب عند هذا القول، وقال سادة «ألبوسعيد» بعد أن استشاروا بعضهم البعض: «لقد أحسن «سيف» قولاً، وإنه ليسرّنا أن نحارب هؤلاء الطغاة المتغطرسين، وإنا نرى في كثرتهم قلّة، وفي شجاعتهم جبناً. إن الشجاع يأبى أن يكون هارباً رعديداً، والنبيل يأنف أن يعيش ذليلاً».

وعندما علم «حارق» باقتراب «سلطان» على رأس اثني عشر ألف مقاتل من «عُمان» هاجم معسكراً بالقرب من «صحار»، وأشعل النيران في خيامه، قبل أن يتقهقر إلى «البريمي»، ثم يعود إلى موطنه في «نجد». وخلال النصف الثاني من القرن، عانى شعب «عُمان» كثيراً من الغزوات العسكرية الوهّابية القاسية التي لا تَذَرُ وراءها زرعاً أو نسلاً إذ اعتبر أولئك المتعصّبون أن باقي العالم -في شفقة متغطرسة وهازئة- من الكفار البائسين، (الوهابيون) وهم على ذلك، ينتظرون بفارغ الصبر أن يأتي ذلك اليوم الذي يرسلون جميع الكفار فيه إلى الجحيم!

وفي عام ١٨١٩، وصل «بطّال المطيري» (شقيق «مطلق المطيري» الشخصية المشهورة إلى «البريمي» على رأس قوة كبيرة من الفرسان النجديين. ولكن لم يمضِ وقت طويل حتى طوّقتهم قوات السلطان

«سعيد المعظّم»، فلم يستسلموا له فقط وإنما خدموا مع غيرهم من العُمانيين في القتال. وفي عام ١٨٢١، حارب هؤلاء الرجال بشجاعة وإقدام إلى جانب السلطان «سعيد» في المعركة الكارثية التي دارت مع بني «بو علي» في «صور»، والتي هرب فيها عدد كبير من حلفاء السلطان من العرب رعباً، ودمّرت أيضاً فيها القطع البحرية البريطانية عن آخرها.

وفي عام ١٨٣٩ -وعام ١٨٥٠ أيضاً- طردت قبيلة «النعيم» -التي عانت كثيراً من الطغيان- القوات السعودية خارج الواحة. وفي الثامن عشر من شهر يونيو عام ١٨٦٩، وفي معركة دامت ثلاثة أو أربعة أيام، قامت هذه القبيلة، بدعم الإمام «عزّان بن قيس» حاكم «عُمان»، الذي ضم قواته المؤلفة من ألف وخمسمئة مقاتل إلى قوات «سعيد بن خليفة» شيخ «أبو ظبي»، لإخراج الوهابيين عدوهما المشترك من «البريمي» **(الملحوظة أ)**؛ فقام الإمام «عزّان» بوضع حامية من الجنود على الفور تحت قيادة أحد أقاربه، وكتب الخطاب التالي إلى الكولونيل «لويس بيلي»، النائب السياسي لجلالة ملكة إنجلترا.

**«بعد التحية ...**

لقد أراح الله عبيده من بطش الوهابيين، وأخرجهم «يجرّون أذيال الخيبة والذلّ». وقد وجدنا الناس يعيشون في ظروف هي الأسوأ لما كانوا يعانونه من طغيان وقسوة وحشية. وقد أعدنا إلى هؤلاء كلّ ما سلب منهم أو صودر من مواشٍ وممتلكات. وقد رأينا الحبور في عيونهم، بعد أن تخلّصوا ممّن كان السبب في تعاسة حظهم، وقد أثنوا على الله القدير الذي بيده كل شيء، واستقروا في أراضيهم بسلام.

كتبه في هذا اليوم: «عزّان بن قيس بن عزّان بن قيس» الإمام، الأول من جمادى عام ١٢٨٦» [الثامن من أغسطس عام ١٩٦٢].

واستولى الوهابيون على «البريمي» طوال الفترة التي امتدت من عام ١٨٠٠ إلى عام ١٩٥١ خمس مرات: من عام ١٨٠٠ إلى عام ١٨١٨، ومن عام ١٨٣٣ إلى عام ١٨٣٩، ومن عام ١٨٤٥ إلى عام ١٨٤٨، ومن عام ١٨٤٩ إلى عام ١٨٥٠، ومن عام ١٨٥٣ إلى عام ١٨٦٩. وكان إجمالي فترات الاحتلال الخمس عند جمع سنواتها هو خمسٌ وأربعون سنة.

وقد أدّت هذه الغزوات العدوانية القصيرة وما كان يميّزها من فرض للحصار واحتلال مؤقت للبريمي إلى الاستجابة للتعصّب الديني الذي برر ارتكاب تجاوزات عنيفة، ونشوء حقوق السيادة. فعلى سبيل المثال، نجح الوهابيون بين عامي ١٨٠٦ و١٨١٢ في غزو القرى القريبة من «دمشق»، وانتزعوا الزكاة من الناس في «حلب». فإذا كان المبدأ الذي اعتمد عليه السعوديون في ثبوت حق السيادة على «البريمي» مبدأً صحيحاً (وهو المبدأ القائم على الاعتداء إلى جانب الاحتلال المؤقت)، فإنّ من حق السعودية بالتالي أن تطالب بضمّ القرى القريبة من «حلب» و«دمشق» إليها. وعلى الرغم من ذلك، فإن جميع المزاعم المتعلقة بأسلافهم وربطها بالبريمي قد ضاعت مع طردهم آخر مرّةٍ منها عام ١٨٦٩ (**الملحوظة ب**)، وذلك لأن ما انتزع بالقوة يستردّ أيضاً بالقوة.

وبعد سنة من طرد السعوديين من «البريمي»، قام السلطان «تركي» بتجديد اتفاقه، وخصّص مبلغاً يقدّر بألفي دولار لشيخ «أبو ظبي» للدفاع عن حصونه في الواحة. وبحلول عام ١٨٩٠ - وعام ١٨٩٥ أيضاً- حصل السلطان «فيصل» على مساعدة من قبيلة «النعيم» في قمع المتمرّدين من القبائل. واستمرّ السلطان في تعيين ولاة «البريمي» من قبيلة «النعيم»، ورفع الضرائب على «صحار» لزيادة المخصّصات التي تدفع لحاكم «أبو ظبي» من أجل دفاعه المشترك عن «البريمي». ثم، إن حقوق حكام «ألبوسعيد»، في القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر

والقرن العشرين، هي في الحقيقة استمرار واستخلاف للحقوق المؤقتة والسيادة السابقة للأئمة السابقين، الذين حكموا لقرون عديدة قبل ظهور آل «سعود».

وباستثناء عدة زيارات قصيرة عرضية وغير شرعية لجامعي الضرائب السعوديين المرسلين من قبل «بن جلوي» -نائب الملك على الأحساء- لجمع الزكاة، فإنّ الوهّابيين لم يؤدّوا أيّ دور في تاريخ الواحة منذ عام ١٨٦٩ حتى عام ١٩٥٢. ومازالت ذكرى العنف الوهّابي وغارات الجمال شاخصة بقوة في شرق الجزيرة، لذلك نجد أن قسماً من «العوامر» و«آل بو شامس» يدفعون لهم زكاة محدودة، ولكن «الظواهر» لا يدفعون لهم شيئاً، ومثلهم قبائل «النعيم»، وقبائل «بني ياس» الساحلية. ولم تكن الزكاة تدفع لهم إلا كتأمين إيجابي آني، دون انتظار للفوائد التي تعود من دفعها لذلك الشخص بعينه، فهي حالات لا تعني اعترافاً تطوعيًّا أو دائماً بالسيادة أو السلطان من قبل الدافعين، ولكنها -في نظرهم- مجرد أن إرادة الله قد أذنت لحين دفع الزكاة لجامعها، سواء أكان هذا الفاعل يقوم بالجمع أم السلب.

وفي عام ١٩٤٨ تقريباً، صرّح الأمير السعودي «بن جلوي» «أنه على الرغم من أن المسؤولين سبق لهم أن جمعوا الضرائب رسميًّا من المناطق المجاورة للبريمي، فإنهم قد توقفوا عن ذلك». وجاء قبل ذلك في عام ١٩٣٢ على لسان «إتش. سانت جون فيلبي» أنه: «كانت بعثات جمع الضرائب هذه نادراً ما تغطّي نفقات وتجهيزات إرسالها، ولكنهم يميلون إلى التبشير بالإسلام الوهابي والوحدة العربية». وفي السنة التالية، ردّ عليه «برترام توماس» قائلاً: إن «الحقيقة أنه عندما نتحدّث عن بدو الصحراء، فإن مصطلح «الوحدة العربية» ليس أمراً واقعيًّا بالنسبة لهم، بل هو على الأحرى خرافة. فعندما تُدفع الجزية لحكومة القلّة الوهابية من شخص «عُماني مستقل ومن طائفة دينية مختلفة، فإنّما يدفعها خوفاً وليس

حباً في السلام؛ فالغالبية العظمى من قبائل «الظاهرة» - جامعو الضرائب المبشرون والقساة - يعتبرون ما يراه السيد «فيلبي» بالطريقة نفسها التي كان ينظر بها المستعمرون الأميركيون القدامى لوكلاء الشاي في بوسطن[1]».

وتعدّ واحة «البريمي» في وقتنا الحالي، كما كانت في السابق، نقطة محورية[2] في جنوب شرق الجزيرة العربية، كما أنها أكثر نقاط التوقّف أهمية لطرق القوافل المؤدّية إلى المدن الساحلية، مثل «أبو ظبي» و«دبي» و«الشارقة» و«صحار»، بالإضافة إلى مدن الداخل في الجنوب، مثل «عبري» و«نزوى». كذلك تعتبر «البريمي» وحدة اقتصادية مهمّة قائمة بذاتها، فتصدّر التمر والخضراوات والفاكهة إلى «أبو ظبي» وجميع أنحاء «عُمان» المتهادنة، وتستورد في المقابل السمك المجفّف والقهوة والأرز والسكر والقماش من «الساحل المتهادن».

عندما تزداد درجة حرارة الطقس بصورة لا تحتمل في الصيف، وتزداد ملوحة المياه، يهاجر ثلث السكان الساحليين على الأقلّ من مدينة «أبو ظبي» إلى واحة «البريمي». وعلى الرغم من كلّ ذلك، فإن «مذكرة حكومة المملكة العربية السعودية (١٩٥٥) تنصّ بجدّية تامّة على أن «منطقة البريمي ... هي منطقة جزر ليس لديها إلا عدد قليل من الصلات الجغرافية أو التاريخية بالساحل وسكّانه». وتجدر الإشارة هنا إلى أنه لا يوجد نشاط تجاري مشترك مع مقاطعة «الإحساء» في «المملكة العربية السعودية»، كما أنه في أثناء الحرب العالمية الثانية، كانت جميع

---

(١) «إتش سانت جون بي. فيلبي»: «The Empty Quarter» (الربع الخالي)، (نيويورك، ١٩٣٣)، ص ٢٨. «برترام توماس»، مراجعة لكتاب فيلبي «The Empty Quarter» في «Journal of the Royal Central Asian Society»، المجلد ٢٠، (١٩٣٣)، ص ٤٤١.

(٢) انظر «جي. بي. كيلي»: «The Buraimi Oil Dispute» (النزاع على نفط البريمي)، مجلة «الشؤون الدولية» «International Aairs»، العدد ٣٢، (١٩٥٦)، ص ٣١٩.

موارد «البريمي» تصل إليها من «عُمان» و«عُمان المتهادنة». ومن ثَمَّ، لا توجد سمة فعلية تعزل «البريمي» عن مدينة «أبو ظبي» أو المناطق العُمانية التي تقع إلى الجنوب. وفي الواقع، لا تبعد الواحة سوى خمسة وثمانين ميلاً فقط عن مدينة «أبو ظبي»، ولكنها تبعد أكثر من أربعمئة ميل عن أقرب المراكز السعودية في مقاطعة «الإحساء». فلا شكّ في أن واحة «البريمي» الاستراتيجية ليس لديها قاسم مشترك بينها وبين «المملكة العربية السعودية» على الإطلاق.

وفي يوم عيد الأضحى الموافق للعاشر من ذي الحجة عام ١٣٧١ (الأول من سبتمبر عام ١٩٥٢)، اندلعت مشكلة في الواحة عند وصول «تركي بن عبد الله بن عطيشان» -وهو مسؤول عربي سعودي، وصل إلى «الحمصة» برفقة أربعين من رجاله المدجّجين بالسلاح، والمزوّدين بالمال والطعام وتشكيلة متنوعة من الهدايا القادمة من «الإحساء» - وقد قاموا بارتكاب انتهاكات، في طريقهم، في إقليم «أبوظبي». و«ممّا لا شكّ فيه أنهم قد تحرّكوا بواسطة وسائل نقل «أرامكو[(١)]». وقد أرسل الملك «عبد العزيز» (ابن سعود) «تركي» ليخدم كأمير على «البريمي» تحت إمرة حاكم «الإحساء». وقد كان ذلك بمثابة أول محاولة لاحتلال السعودية للواحة منذ ثلاثة وثمانين عاماً. وفي الوقت الذي كانت فيه «عُمان» و«أبو ظبي» تتمتعان بسيادة طويلة ومستقرّة في «البريمي» كانت «المملكة العربية السعودية» تعمل على احتلال الواحة قسراً وبصورة مؤقتة، بعد فترة زادت على ثمانين عاماً، في محاولة الانتهاك والتعدّي على سيادة الدولتين. وهذا مثال على التوسّع الإقليمي من خلال «البريمي» في أواخر القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أثناء العدوان الوهّابي. وفي هذا السياق، كان الهدف يتمثّل في بسط ذراع السيادة السعودية والسيطرة على

(١) «جي. إي. كيرك»: «Contemporary Arab Politics» (السياسات العربية المعاصرة)، (نيويورك، ١٩٦١)، ص ٤٨ - ٥٠.

كافة مناطق «عُمان» من خلال الاستحواذ على المناطق المجاورة لها، والسيطرة على مناطق داخلية في سلطنة «عُمان».

وفي عام ١٨٦٠، قام «دبليو. جي. بلغراف» -الذي كان يزعم دراسته للإمبراطورية الوهّابية عن كثب- بذكر ملاحظته عن تلك الإمبراطورية، وقد ذكر «أن جوّها - عند الحديث بلغة الاستعارة- جوّ استبدادي أخلاقي وفكري وديني ومادي. وهذه الإمبراطورية قادرة على بسط نفوذها والتوسّع، وبالتالي فإنّها مصدر خطر على المناطق المجاورة لها، وهي تقوم الآن بالفعل بضمّ العديد من تلك المناطق، وستستمرّ في ابتلاع الباقي من تلك المناطق المجاورة ما لم يتمّ منعها وكبح جماحها بأيّة حال من الأحوال[١]».

في تلك المناسبة عام ١٩٥٢، قامت «المملكة العربية السعودية» - بدون أيّ حق قانوني- بمحاولة توسيع إقليمها من خلال التدمير العدواني على المناطق المجاورة لها، وقد حملها على ذلك طموح جامح باستمرار الفتوحات في محاولة طويلة من الأعمال البطولية الجديدة. وبالنسبة للبريمي فقد كانت دائماً الهدف الأول للغزاة القادمين من «عُمان» ومن الغرب، كما أن الاستيلاء عليها كان يوفّر قاعدة أمان للغزاة على المدن الساحلية والعُمانية في الجنوب.

وبعد مرور ثلاثة أسابيع على فشل عمليات التبادل التي كانت بين الحكومة البريطانية - التي كانت تعمل نيابةً عن السلطان وشيخ «أبو ظبي» - والحكومة السعودية، قام السلطان بحشد ٧٠٠٠ مقاتل من أفضل المقاتلين القبليين في «صحار». وقد كان «عظمته» يخطط لتقسيم قوته إلى قسمين، يقوم هو بنفسه بقيادة واحد منهما في أعلى «وادي القور»، ويرسل

---

(١) «وسط وشرق شبه الجزيرة العربية» «Central and Eastern Arabia»، المجلد الثاني، ص ٨٣.

القسم الآخر إلى «وادي الجِزِي». وسيأتي الهجوم الثالث من القبائل الداخلية عن طريق «عبري». ولكن، وقبل دخول تلك الترتيبات الرائعة حيّز التنفيذ، وصل إلى «صحار» المستشار البريطاني العام الرائد «إف. سي. إل. تشونسي[1]» من «مسقط» قادماً بسيارته. وقد كان الهدف من تلك الزيارة السريعة إرسال مطلب سريع بأن يقوم السلطان بتأجيل أيّ عمل عسكري إلى وقت معيّن، على وعد بأن تقوم القوات البريطانية بتقديم المساعدة في تسوية القضية على نحو سلمي. وقد قبل السلطان تلك النصيحة على مضض، ولكن ثبت في ما بعد عدم جدواها، وعدم وفاء القوات البريطانية بما وعدت به من قبل. وبناءً على ضمان كان قد حصل عليه مسبقاً قام السلطان بالعودة إلى «مسقط» بعد ذلك بثمانية أيام.

وقد قيل إن بعض الأميركيين قاموا ببذل الجهود في محاولة منهم لإقناع السلطات البريطانية بالتدخّل، واستخدام المساعي الحميدة من جهتهم، وأن يطلبوا من السلطان عدم الزحف إلى «البريمي». وبالنسبة لهيبة ونفوذ «ابن سعود»، فقد كانت عودة السلطان لاستعادة السلطة والقانون، من خلال الطرد الإجباري للسعوديين، فيما لو حصلت، ستكون بمثابة ضربة موفقة، بتكرار محاولة استعادة ملكيتهم السابقة بواسطة العُمانيين عام ١٨٦٩، ومن ثَمَّ يدين السعوديون بكثير من الديون للحكومة البريطانية لحمايتهم في تلك المناسبة من رجال القبائل التابعين للسلطان.

وقد وُصفت تلك الأحداث وتمّ تفسيرها في مذكّرة «حكومة المملكة

---

(١) وصل الرائد «إف. سي. إل. تشونسي»، إلى «مسقط» أولاً، عام ١٩٤٩، قنصل بريطاني، بعد قضاء سنوات عدة في الخدمة في الإدارة السياسية الهندية. وفي عام ١٩٥٨، تقاعد الرائد «تشونسي» من عمله كقنصل عام، لكن صداقته المتينة مع السلطان، دفعته إلى العودة بسرعة إلى «مسقط» للعمل كمستشار شخصي لدى جلالته.

العربية السعودية» على النحو التالي: «تمّ في ما بعد إحباط محاولة أخيرة من قبل السلطان لنشر قوة كبيرة من «صحار» في شهر أكتوبر - وفقاً للتقارير القادمة إلى حكومة المملكة العربية السعودية - وصفت بالموقف غير المتعاطف من قبل القبائل المسيطرة على طرق المرور عبر الجبال الواقعة بين «صحار» و«البريمي». وقد قام الكاتب باستكشاف المنطقة الواقعة بين «صحار» و«البريمي»، وتناول بالنقاش مع سكان تلك المناطق الأحداث التي جرت في تلك الأيام المضطربة، ولم يذكر لي رجال القبيلة وجود أيّ رفض أو معارضة لمرور السلطان أثناء تلك الأحداث أو أثناء أيّة أحداث أخرى. وقد كانت هناك قبيلة صغيرة هي قبيلة «الشوامس» - وهي بطن من بطون «آل بو شامس» التي تسكن منطقة «الحَمَسة» - بمناصرة السعوديين مع قبيلة «آل بو شامس» من أجل الحصول على المال السعودي عند وصول «ابن عطيشان» إلى «البريمي».

وفي العاشر من أكتوبر عام ١٩٥٢، وافقت الحكومة البريطانية على إبرام «اتفاقية تجميدية للوضع الراهن» نيابة عن السلطان. وقد تمّ التوقيع على تلك الاتفاقية التي صاغتها السفارة الأميركية في جدة في ٢٦ أكتوبر عام ١٩٥٢. ولكن - وكما تنبّأ السلطان- فقد كانت تلك الاتفاقية بمثابة الخطأ الأكبر، وبدلاً من الحدّ من التوترات ازداد الوضع سوءاً. وعلى العكس تماماً من روحية ونصّ هذه الاتفاقية تحرّكت قوة سعودية مسلّحة عبر إقليم «أبو ظبي» إلى «البريمي». وانتشرت الرشاوى وتهديدات الرصاص مع تدخّل السعوديين بسياسة الرشاوى المتعمّدة والمنتظمة والمستمرة على نطاق واسع لإفساد ولاء الناس وإخلاصهم للسلطان وحاكم «أبو ظبي»، ومساندة ادعاءات السلطان بسيادته على «البريمي».

كان هناك مثل عربي يقول في عملية السلام مع الجّار: (أمسك في إحدى يديك خبزاً واجعل في الأخرى سيفاً). في هذه المرحلة كانت الضيافة السعودية تنعم بالرخاء والكثير من الأطعمة المجّانية (كان يتمّ

تقديم الوجبات مرتين يوميًّا للفرد الواحد)، وكان يتمّ توزيع المال بوفرة، رغم أن الحوافز كانت لا تقوم على الصدقات الخيرية في أدنى حدودها. وبينما كانوا يتقاسمون هذا الرخاء كان يُطلب من كافة الحاضرين التوقيع على كتاب الزائر الذي كان يتمّ الاحتفاظ به في «حَمَسة» عند «تركي»، الذي كان يكافح بجدّ وكدّ لإقامة الدليل على السيادة السعودية، والتعبير عن الولاء والإخلاص، ولم يكن يُطلب من رجال القبائل البعيدة التوقيع على الكتاب. وقد تمّ توزيع العديد من الوثائق المؤثرة، ولكنها كانت زائفة مثل «عمل التراخيص للرعايا السعوديين». ولم يكن هناك أيّ اهتمام أو قلق تجاه عجز الغالبية عن القراءة أو الكتابة، وكانت تتمّ مكافأة عدد معين من الحاضرين بجولة مجّانية حول «الرياض».

كان «أحمد بن محمد بن سعيد السّلف» هو شيخ «حفيت» من قبيلة «الخواطر»، وهي إحدى البطون الفرعية لقبيلة «النعيم». وقد قام في أحد الأيام بفتح النار على مجموعة تعمل في التنقيب عن البترول، لأنها لم تكن تحمل خطاباً من السلطان بذلك. وعندما قام «صقر بن سلطان» الشيخ الكبير في قبيلة «النعيم» بالتوجّه إلى «السعودية»، ظلّ أفراد فرع «السلف» على ولائهم للسلطان. وقد كانت الدلائل القويّة لدى «السعودية» تتمثل في هؤلاء المشايخ، مثل الشيخ «صقر» الذي سمحت له السلطات البريطانية بمغادرة منطقة «البريمي» والتوجّه بعائلته إلى «الدمام» قبل وفاة الملك «عبد العزيز آل سعود» مباشرة. وقد كان هؤلاء المشايخ هم رعايا السلطان، ولا بدّ لهم أن يكونوا تحت طوعه وإمرته.

وقال الشيخ «شخبوط»، وهو في طريقه من بيروت إلى لندن في الأول من مايو عام ١٩٥٣: «نعلم أن الحق إلى جانبنا، لأننا حكمنا «أبو ظبي» والقسم الذي يخصّنا من «البريمي» لقرون طويلة، وهو أمرٌ الأطراف الأخرى المعنيّة على علم به». وزعم في وقت من الأوقات أن شقيق شيخ «أبو ظبي» الشيخ «زايد بن سلطان» عُرِض عليه ما يربو على ثلاثين مليون

جنيه استرليني من قبل الممثل السعودي «عبد الله القريشي»، إذا انضم إلى السعوديين في جهودهم الرامية إلى تدمير مكانة السلطان وأخيه[1] في الوقت نفسه. ولو حدث هذا العرض (يقول «فيلبي» إن هذا المبلغ سخيف للغاية)، فإنه لن يقبل على الإطلاق. وقد سخر أحد السعوديين من هذا الأمر قائلاً: «لقد كان بإمكاننا استخدام هذا المبلغ لرشوة البريطانيين بدلاً منه».

كتب عالم الطيور الإنجليزي الدكتور «دافيد هاريسون» مؤخّراً عن الاجتماع، الذي حضره في فندق «مايفاير»، وعقد في لندن مع الشيخ «زايد»، **فيروي عن ذلك قائلاً**: «فوصف هنا للرائد «ماكدونالد» ولي المحاولات الأخيرة التي قام بها السعوديون لتحريض العائلة السلطانية في «عُمان»، بما فيها رشوة قدرها ثلاثون مليون جنيه عرضت عليه[2]!».

لو قُدّر لمطالب السعوديين بضمّ «البريمي» أن تتحقّق في يوم من الأيام، لطالبوا معها بأربعة أخماس مشيخة «أبو ظبي»، وبنصف خطها الساحلي التاريخي، «الشواطئ والضفاف والجزر التي يلجأ إليها «بنو ياس» منذ طوال قرنين لصيد السمك فيها والبحث عن اللآلئ». ويعدّ طلب السعوديين الحصول على «البريمي» و«ليوا»، في الواقع طلباً

(١) راجع «جيمس موريس» «Sultan in Oman»، (سلطان في عُمان)، ص ١٢٢؛ وصحيفة «لندن تايمز»، ٥ أكتوبر، ١٩٥٥؛ وأيضاً «ريتشارد هيلتون»: «The thirteen Power: The Middle East and the World Situation» (القوة الثالثة عشرة: الشرق الأوسط والوضع الدولي)، (لندن، ١٩٥٨)، ص ١٨٠. في ٦ أغسطس من عام ١٩٦٦، تمّ عزل الشيخ «شخبوط» من الحكم على يد أحد أفراد العائلة، بسبب «عجزه الصريح عن الحكم بطريقة سليمة»، وفي الوقت نفسه، جرى تعيين الشيخ «زايد حاكماً على «أبو ظبي». اتخذ الشيخ «شخبوط» لنفسه منفى مؤقتاً في جزيرة «البحرين».

(٢) «دافيد هاريسون»: «FootSteps in the Sand»، (خطى أقدام في الرمل)، (لندن، ١٩٥٩)، ص ١٦٣ ـ ١٦٤.

للحصول على اثنين من أربع مناطق مستقرّة في «أبو ظبي». وكشفت الحكومة السعودية من تركيز جهودها على الجانب الدعائي للتوسّع نحو جنوب شرق الجزيرة العربية عن طموحها المفرط. وقد توقّفت توسّعاتهم، ومن غير المتوقع أن البريطانيين سيتخلّون عن صديقيهما المخلصين السلطان والشيخ. وفي الوقت الذي طلب منهم عام ١٩٥٢ التمسّك بعمل إجراء حاسم يهدف إلى التعامل بنجاح مع مشكلة «البريمي»، كان هناك التزام أخلاقي معيّن مضاف إلى العوامل الأخرى. وعلى الرغم من أن شيخ «أبو ظبي» كان شيخاً مستقلاً من الناحية الإسمية، فإنه كان يتمتع بعلاقات خاصة مع الحكومة البريطانية كللتها معاهدة أبرمت بينهما **(الملحوظة ج)**.

وحاصر السلطان وشيخ «أبو ظبي» منذ عام ١٩٥٣ حتى عام ١٩٥٤ السعوديين في قرية «حَمَسة» التي تقطنها قبيلة «آل بو شامس». وفي النهاية، وبعد فترة طويلة من المساومات الدبلوماسية، أحيل النزاع إلى محكمة تحكيم دولية عام ١٩٥٤. وقامت المملكة المتحدة باتخاذ إجراءات التحكيم نيابة عن السلطان، وبناءً على طلب خاص منه. وزعم ساعتها أن وزارة الخارجية «افتقدت طوال الوقت إرادة اتخاذ موقف» في هذا النزاع العربي[١]، وفي عام ١٩٥٤، «آتت ضغوط «أرامكو» ثمارها بأن دفعت وزارة الخارجية إلى اتخاذ موقف محايد مأمون بعد أن بدأت تحيد عنه».

وتألّفت المحكمة من خمسة أعضاء، هم: بلجيكا (الرئيس)، وكوبا، وباكستان، والمملكة العربية السعودية، وبريطانيا العظمى.

---

(١) «جي. إي. كيرك»: المرجع السابق ذكره، ص ٥٤؛ انظر أيضاً «بوشرود هاوارد جونيور»: «Buraini, A Study in Diplomacy by Default»، وهي مقالة نُشِرت في صحيفة «The Reporter»، بتاريخ ٢٣ يناير، ١٩٥٨، ص ١٣ و١٦.

وبعد مرور شهور على عملها، ورد في جريدة «التايمز»، في أعدادها السابع عشر والتاسع عشر والرابع والعشرين من شهر سبتمبر عام ١٩٥٥ أنه: «كشف أن العضو السعودي الشيخ «يوسف ياسين» حاول التأثير على الشهود، وعرض رشوة على المحكّمين المحايدين أثناء سير القضية». فإن صَدَقَ هذا التقرير، فإن هذا يعني انتهاك نظام التحكيم بأسره، وهو ما يمنح الحريّة التامّة لأيّ عضو في المحكمة لاتخاذ القرار الذي يراه، بما فيه قرار يضرّ بحكومته (ربما علينا أن نعدّل وجهة نظر المستكشف الهولندي «فان دير ميولن» عن الشيخ «يوسف»، حيث قال عنه: «إنه صخرة من الأخلاق في بحرٍ من الفساد»)[١].

ومن ثمَّ، فإذا صحّ هذا التقرير فإنّ «الشيخ يوسف» كان يحاول فعلاً أن يكون حكماً في قضية هو طرف فيها»، بل إن «سانت جون فيلبي» - المدافع الأكبر عن السعوديين- صرّح دون تردّد، قائلاً: «ومن الواضح أن الشهود الذين دعموا السعودية تلقوا قدراً كبيراً من الرشاوى». وقد استقال الرئيس البارز لهذه المحكمة الدكتور «تشارلز دي. فيشر» -وهو أحد القضاة السابقين في محكمة العدل الدولية- بعد أن تيقّن من أنها في موضع لا يخوّل لها الوصول إلى حكم قاطع، وسار على نهجه عضوا كوبا وبريطانيا العظمى. وفي شهر أكتوبر عام ١٩٥٥، بعد أن تعطّلت هذه المحكمة، تمكّن السلطان وشيخ «أبو ظبي» من إجلاء آخر سعودي من «البريمي» إلى جانب الجنود المرابطين في «عُمان» المتهادنة (الذين كان يطلق عليهم كشافة «عُمان» المتهادنة). وقد قال السلطان عن هذا: «أضحت الإدارة الآن في أيدي نائبي الذي سيعمل على استعادة السلام، وإحلال الأمن، وبناء حكومة منتظمة، وسوف يرجع إليّ في كلّ خطوة

---

(١) «فان دير ميولن»: «The Wells of Ibn Saud» (آبار إبن سعود)، (لندن، ١٩٥٧)، ص ١٨٦.

تفرض عليه أن يجلب التطور الاقتصادي على المنطقة، الذي توقف لسوء الحظ بسبب الغزو السعودي[1]».

وكان الاتحاد السوفياتي ينتهز دائماً مثل هذه الفرص، فعرض الرجال والمواد الخام على «المملكة العربية السعودية» حتى يساعدها على إخراج «الإمبرياليين الغربيين» على حدودها. وكان عرض الروس مثيراً للسخرية، حيث ظهر في أطلس العالم السوفياتي الذي نشر عام ١٩٥٤، والذي يعبّر عن الموقف الرسمي لحكومة «موسكو»، أن واحة «البريمي» تقع خارج «المملكة العربية السعودية».

واضطربت «روسيا» في حديثها عن الصراع البريطاني - الأميركي على البترول العربي. وعلى الرغم من أن الحملة الإعلامية السوفياتية على التلفزيون غطّت الصدام بين المصالح الأميركية والبريطانية على البترول في «البريمي»، فإنّ الشركات الأميركية كانت في الوقت نفسه تعمل بالتزامن في الأراضي التابعة للسلطان والشيخ وفي الأراضي السعودية، كما هو الحال في وقتنا الحالي. وقد بُثت النشرات الإذاعية من «القاهرة» إلى العواصم العربية، تشجب الاتجاهات الإمبريالية الاستعمارية في «البريمي» و«عُمان»، وذلك بحماسة كان وراءها الفقر الشديد في المعلومات. وقد أكدت إذاعة دمشق أن «عُمان» دولة حرّة مستقلة، وكان سلطان «عُمان» في الماضي خاضعاً للإمامة في «عُمان»، ولكنه تمرّد عليها والتزم جانب الإمبريالية البريطانية. فليس له الحق في «البريمي»! يا أيّها العرب مدّوا إلينا يد العون حتى نحمي استقلال إخواننا في «عُمان»[2]». وانتشرت الأخبار الإذاعية بصورة أكثر قوة من القاهرة، وكانت تبث في

---

(١) عن صحيفة «لندن تايمز»، ٢ نوفمبر، ١٩٥٥.

(٢) مقتطفات من كتاب «جيمس موريس» «Sultan in Oman»، (سلطان في عُمان)، ص ١٦٠.

العرب الرسالة العاطفية نفسها، فانتشرت صورة مشوّهة عن الوضع، فجاءت ردود أفعال الحكومات المعنيّة تجاه هذه الصورة بآثار غير بنّاءة على الإطلاق.

لم تخدع التصريحات السعودية التي تجنّبت ذكر أيّة إشارة إلى البترول سوى عدد قليل. فجاء احتلالهم العسكري للإحساء بتقارير مباشرة لأعمال الحفر هناك في أماكن تقع بالقرب من «عُمان المتهادنة». ويتبيّن لنا من حلم البترول الإضافي، الذي راود أفراد العائلة الملكية، مدى وعنف المزاعم السعودية التي كانت تبدو مزاعم غير واقعية ويصعب إدراك أسبابها، عندما يربط بينها وبين مجرّد حقوق الرّعي أو حتى السيطرة على الواحة.

وقد نشر «منتدى البترول» في شهر يناير عام ١٩٥٦ ما يأتي:

«تعلم حكومة المملكة العربية السعودية، بموجب هذه الوثيقة، أنها تعتبر واحة «البريمي» منطقة تابعة لأراضي المملكة العربية السعودية، وأنّها لن تعترف بأيّ امتياز لاستخراج البترول أو أيّ معدن أو أيّ امتياز ممنوح من قبل أيّة حكومة أو سلطة في المنطقة المعنيّة. وإذا أبرمت أيّة شركة أو مؤسسة أو شخصية اتفاقاً على هذه الشاكلة فإنها تتحمّل مخاطر ذلك، وسوف تعتبر الحكومة السعودية مثل هذا الاتفاق باطلاً وغير ذي قوّة شرعية ملزمة، ولن تكون ملزمة أو مسؤولة عن عواقب ذلك[١]».

يأتي هذا الإعلان الأحادي مخالفاً لكثير من الأدلة والبراهين، منها على سبيل المثال ما أورده الكولونيل «إس. بي. مايلز» - وهو أحد رواد المستكشفين، وكان دبلوماسيًّا ثقة، يُستشار في الشؤون العربية الجنوب

---

(١) ومع ذلك، ففي رسالة إلى صحيفة «الديلي تلغراف» الصادرة في لندن بتاريخ ٢٠ مايو ١٩٥٣، كتب السفير السعودي في لندن، قائلاً بوضوح إنه لا مصلحة لشركة «أرامكو» في منطقة «البريمي»، «لأنه لديهم منطقة واسعة بما فيه الكفاية، ينشغلون فيها كلياً».

شرقية- في الرصد المحايد التالي، الذي صدر منه قبل أن يشعر العالم بتأثير وتداخل التحالفات البترولية، فقال عام ١٨٧٥: «وفقاً للشهادات المتطابقة لجميع الشيوخ والأشخاص الذين هم على اطلاع، والذين تحدّثت إليهم، فإنّ «سبخة مطي» هي الحدود الجغرافية بين «الإحساء» و«عُمان»، وقد كانت كذلك منذ قديم الأزل». ويمرّ الطريق الرئيس الذي يربط بين «المملكة العربية السعودية» و«البريمي» على منطقة «سبخة مطي» (وهو سهل مِلحي يتميّز بأرضه الصلبة)؛ والطرف الغربي من «أبو ظبي» يقع في غرب «سبخة مطي» التي تقع في جنوب «خور العديد» و«أبو ظبي».

وكانت الشركة العربية الأميركية للبترول (أرامكو)، من منطلق أنها صاحبة الامتياز الأكبر في «المملكة العربية السعودية»، تميل بشكل كبير إلى مساندة ودعم جهود الملك «سعود» في توسعة مملكته؛ إلّا أنه عام ١٩٤٧، قامت شركة «أرامكو» برسم الحدود بين «المملكة العربية السعودية» و«الإمارات» وسلطنة «عُمان»، بصورة لا تختلف كثيراً عن «خطّ الرياض» الذي وضع عام ١٩٣٥. ووضعت خريطة «أرامكو» لـ «الامتيازات البترولية في الشرق الأوسط» الحدود السعودية على مسافة بعيدة من واحة «البريمي». وقام منشور آخر لأرامكو عام ١٩٤٨ بوضع الحدود الغربية لسلطنة «عُمان» بطول «خط الرياض»، بحيث تقع «البريمي» بين «عُمان» والساحل المتهادن[(١)].

ومع أوائل عام ١٩٤٩، أصدرت «المملكة العربية السعودية» إعلاناً يحدّد مياهها الإقليمية، مؤكدة على مزاعمها الخاصّة بحقوق التعدين في المناطق المجاورة للبحار و«الخليج العربي». واعترضت حكومة «الولايات

---

(١) الشركة العربية الأميركية للبترول: «Summary of Middle East Oil Development» (ملخص عن تطورات نفط الشرق الأوسط)، (نيويورك، ١٩٤٧)، ص ٨؛ ولذلك «Arabian Oil and World need» (النفط العربي واحتياجات العالم)، (نيويورك، ١٩٤٨)، ص ٦ ـ ٧.

المتحدة» على هذا الإعلان لأنه كان مجحفاً بنظرها. واعتقد البريطانيون أن هذا الإعلان جاء تحت رعاية من شركة «أرامكو»، سعياً منها إلى توسعة منطقة امتيازها. وسواء أكان هذا الأمر صحيحاً أم لا، فإن شركة «أرامكو» تولّت إعداد الأدلة والبراهين القانونية التي تدعم مزاعم السعودية، ولم تقتصر شركة «أرامكو» على ذلك، إذ وفّرت أيضاً للحكومة السعودية خدمات قسم الأبحاث الخاص بها.

وكان قسم الأبحاث هذا مسؤولاً عام ١٩٥٢ عن منشورين مهمّين بدرجة كبيرة. ففي الصفحة الخامسة والسبعين من المجلد المنشور في «نيويورك» تحت عنوان «شبه جزيرة ابن سعود العربية» «The Arabia of Ibn Saud»، في ظلّ نقاش دار بين «الدول المجاورة»، نجد ما يأتي: «المنطقة التي تقع في أقصى الشرق، التي يطلق عليها غالباً بصورة مغلوطة اسم «عُمان»، تتألف من سلطنة «مسقط» التي تقع في شريط ساحلي طويل وضيّق، و«عُمان» الجبلية الفعلية (مستقلة)، ومنطقة قبليّة تقع حول «البريمي» ...». وممّا يسرّنا أن ندرك من ذلك أن شركة «أرامكو» كررت أكثر من مرة وضع «البريمي» في موقعها الصحيح في الدولة المجاورة للمملكة العربية السعودية. وكانت هذه المنطقة التي تقع «في أقصى الشرق» -والتي تقول عنها «أرامكو» أنه «يطلق عليها غالباً بصورة مغلوطة اسم «عُمان» لأكثر من ألف سنة، قبل أن تظهر المملكة العربية السعودية إلى الوجود؛ كما أن «سلطنة «مسقط» التي تقع في شريط ساحلي طويل وضيّق»، لا وجود لها على أرض الواقع.

وورد أيضاً، في نهاية الصفحة نفسها، أن «عدن إحدى المستعمرات الملكية البريطانية، وأن حضرموت تقع ضمن ما يسمّى «حكومة وصاية عدن». وتقع كلّ من «الكويت» و«البحرين» و«قطر» و«الإمارات» و«مسقط» تحت الانتداب البريطاني» إلى آخره. ونشأ نظام الانتداب (**الملحوظة د**) أوّل مرّة في المعاهدات التي أبرمت مع نهاية الحرب

العالمية الأولى، وكانت إحدى المعالم المبتكرة في الفكر السياسي. وهي في الأصل جاءت كمبادرة من اللواء «جان كريستيان سماتس» رئيس جنوب إفريقيا والرئيس «وودرو ويسلون». وصارت أية منطقة في الكرة الأرضية، إمّا تحت الانتداب البريطاني أو ليست تحت الانتداب البريطاني؛ ولم تكن المناطق الخمس التي سبق ذكرها تحت الانتداب البريطاني، على الإطلاق.

وتمثّل الإسهام الثاني لشركة «أرامكو» في تلك الفترة في المنشور عُمان والساحل الجنوبي للخليج العربي» «Oman and the Southern Shore of the Persian Gulf»، الذي نشر لصالح حكومة المملكة العربية السعودية في القاهرة. ويفترض هذا المنشور وجود مؤسسة إمامة منفصلة ومستقلّة ومحدّدة المعالم في «عُمان» و«الشارقة» و«الجبل الأخضر» والمنحدرات الغربية وجبال الحجر التي تقع داخل الدولة. وادعى المنشور أن هذه الدولة المزعومة دولة إباضية منفصلة كلياً عن حكم السلطان، وهو أمر لم تقبل به الجامعة العربية في «القاهرة» بعد. وفصل الخطاب، إنّ هذا المنشور لا يصنّف من الأعمال المفيدة التي تتمتّع بالنزاهة العلمية، على الرغم من تأكيده، في الصفحة التاسعة من المقدّمة، على أن «المعلومات المتضمّنة ستكون ذات قيمة لمن كان منخرطاً في جهد يهدف إلى تسوية المشكلات القائمة في وقتنا الحالي والمتعلّقة بالحدود، كما أنها ستخدم بصورة أكبر المهتمّين بالشؤون العربية، وتوفّر لهم فرصة أن يكونوا على دراية بجانب من الجوانب المجهولة في شبه الجزيرة العربية». ومُنع هذا العمل من التداول بعد ذلك، ولا يتوفّر إلا لحكومة «المملكة العربية السعودية» والإدارات المعنية في شركة «أرامكو» التي تمكّنت من الاحتفاظ بنسخ لديها.

وتنمّ كلتا المحاولتين بلا شك عن حجم النفقات المالية الهائلة لمالكي الشركة الأميركيين. ويتساءل الشخص منّا عن أهداف هذه الشركة الأميركية من تلفيق معلوماتٍ منحازةٍ، تقوم على التحامل أو

التحيّز أو الحقائق المنتقاة أو أنصاف الحقائق التي يمكن إساءة استخدامها إعلاميًّا ضدّ أمّة ذات سلطة لا تتمتّع بعلاقات مع «الولايات المتحدة» فقط، وإنّما عبّرت في أكثر من مناسبة عن صداقتها لها، وذلك بالرغم من أنها تمتلك من الوسائل والسبل ما يمكنها من إجراء بحث كامل توظّف فيه الطاقم المناسب للقيام بهذه المهمّة.

كان عنوان التقرير الرسمي الذي أصدره الوفد الدائم للمملكة العربية السعودية لدى «الأمم المتحدة» هو «نزاع البريمي». واحتوى هذا التقرير على تأكيد بأن «هذه المنطقة الصحراوية الكبيرة [مقاطعة البريمي] بواحاتها وآبارها البترولية القليلة، هي موطن الكثير من القبائل التي توضح السجلات أنهم يدينون بالولاء لملك السعودية، ويدفعون له الضرائب لأكثر من مئة سنة». ويقول هذا التقرير في موضع آخر: «لا يمكن للملك أن يسمح بسيطرة واستيلاء سلطة أجنبية على أراضي سادة يدينون له بالولاء، أو إجبارهم على طاعة حكام أشبه بالدمى»[١]. ويعدّ هذا التقرير أمراً مثيراً للاهتمام، خاصّة عندما نتذكّر أن المملكة العربية السعودية لم تكن مملكة إلا قبل خمسة وثلاثين عاماً (منذ عام ١٩٣٢)، ويقصد بحكام الدمى هؤلاء الذين ضمّوا «البريمي» إلى ملكهم منذ أكثر من ألف ومئة عام (منذ عام ٨٤٠)، وذلك طوال المئة سنة الأخيرة، دون حدوث انقطاع (منذ عام ١٨٦٩).

وصوّر نزاع «البريمي» على أنّه صراع بين القومية العربية الممثلة بالمملكة العربية السعودية و«النظام الإقطاعي الفاسد» المتمثّل بسلطان «عُمان» وشيخ «أبو ظبي» المتحالفين مع الإمبريالية البريطانية. وكان

---

(١) انظر: «British Imperialism in Southern Arabia»، (الإمبريالية البريطانية في جنوب شبه الجزيرة العربية)، نشره قسم الأبحاث في «مركز الإعلام العربي»، نيويورك، نوفمبر ١٩٥٨، ص ٢٩ ـ ٧٠.

الإشكال الواضح في هذا الزعم أنه لا توجد دولة إقطاعية في عالم اليوم أكثر من «المملكة العربية السعودية»؛ وكما جاء على لسان «فيلبي» نفسه أنّه لم يفُقها فساداً[1] سوى عدد قليل، وذلك قبل أن تبدأ الإصلاحات التي قام بها جلالة الملك «فيصل» بإعطاء ثمارها.

من المؤكّد أن سياسة «المملكة العربية السعودية» السابقة تجاه «البريمي» لم يكن مبعثها القومية العربية، حيث إن ما كان يحرّك سياستها الخارجية، في جميع الجوانب الأخرى، هو المبدأ الذي تسترشد به الحكومة السعودية، والمتمثل في المصلحة الخاصة للعائلة الملكية. ولم يكن لجوء «المملكة العربية السعودية» إلى نعرة القومية العربية إلا بهدف تغطية هدفها الحقيقي بشيء أكثر مثالية، أو عندما يخدمها ذلك كأداة تسهم في كسب تأييد الدول العربية الأخرى، ولكنها لا تستخدم هذه النعرة إذا ما تضاربت مع أهدافها الضيّقة. وليس من الضروري أن نذكّر أن حكّام المملكة لم يكن بنيتهم على الإطلاق أن يتنازلوا عن مملكتهم لحكومة عربية مركزية، ولم يكونوا عاقدي العزم على حماية سلطتهم الكاملة من أن تنضوي نتيجة للتعاون العربي.

ومن الجدير بالذكر، أن الملك «عبد العزيز بن سعود» نفسه لم يطالب على الإطلاق «بالبريمي»، ولم يأتِ ذلك عند أيّ من كاتبي سيرته الذاتية العديدين قبل عام ١٩٤٩ (**الملحوظة هـ**)؛ وقد كان في ذلك الوقت قد غلبه تقدّم العمر وعزل عن السيطرة على شؤون الدولة، بصورة مباشرة من قبل مستشارين ضعيفي الخبرة، فلم نجد أن الواحة قد ضمّت إلى

---

(١) «إتش. سانت جون. بي. فيلبي»: «The New Reign in Saudi Arabia» (الحكم الجديد في المملكة العربية السعودية)، مجلة «الشؤون الدولية» ـ «International Aairs»، العدد ٣٢، (١٩٥٤)، ص ٤٥١ ـ ٤٥٣.

المملكة ولو في حدود خيالية، أو حتى أيّ من الخرائط السعودية التي وضعت قبل ذلك العام. وفي الواقع نجد أن «البريمي» تقع في «الخريطة السياسية الطبيعية لشبه الجزيرة العربية» التي وضعها «محمد عبد المنعم»، والتي صُرح باستخدامها رسميًّا في المدارس السعودية من قبل مدير التعليم العام السعودي خارج حدود المملكة العربية السعودية. وتمّ منع هذه الخريطة من التداول عام ١٩٤٩، حيث عقدت المملكة العربية السعودية بعد انقطاع دام لمئة عام تقريباً العزم على إحياء نواياها الخاصة بعُمان، في وثيقة سلّمت في الرابع عشر من أكتوبر إلى الحكومة البريطانية(١). وكانت هذه المحاولة الجديدة لتوسيع أراضي «المملكة العربية السعودية» هي السبب وراء تردّي الوضع الراهن في المنطقة ونشوء النزاعات وانتشار الرعب فيها.

**ويمكننا الآن العودة إلى السلطان «تيمور» والصعوبات الأخرى التي واجهها أثناء حكمه.**

لم يكن مفهومنا الغربي، المتمثّل في أنه: «لا ضرائب دون أن تمثّل معروفاً»، في «عُمان» أو العالم الإسلامي بوجه عام، حيث كان الحاكم يمارس حقه في تحصيل «الزكاة»، وهي نسبة من الزيادة، وفقاً لأوامر الشريعة الإسلامية (حيث نجد في السُنّة النبوية الشريفة أن الزكاة ضريبة دينية فرضت على المسلمين في السنة الثانية من الهجرة). ويسير النظام الخاص بالزكاة في «عُمان» بالصورة التالية: كان يخرج عن جميع المنتجات الزراعية ذات الرّي الكامل ٥٪، وكانت تدفع على الذهب والفضة والحبوب والجمال والبقر والماعز، وإن كانت لا تدفع على جوز الهند (وهي ثمار لم تكن توجد في الجزيرة العربية عند ظهور

---

(١) «جي. بي. كيلي»: «Eastern Arabian Frontiers» (الحدود الشرقية لشبه الجزيرة العربية)، (لندن، ١٩٦٤)، ص. ١٤٤.



السلطان «سعيد بن تيمور» مع المؤلف

الإسلام)[1] أو البخور الذي كانت تفرض عليه رسوم جمارك في «ظفار». ولم تكن «الزكاة» تدفع عن الأشياء القابلة للتلف مثل البطاطس والخضروات الأخرى.

---

(١) يرى البرفسور «أر. بي. سرجنت»، أنه من الأصحّ القول بأن «نبات جوز الهند لم يكن يُزرع في الحجاز، ولعلّ الجغرافيّين العرب رأوه في حضرموت، في تاريخ قديم ـ لكن لا دليل على أن جوز الهند كان معروفاً في شبه الجزيرة العربية» (من مصادر خاصّة بالمؤلف).

وعلى الرغم من ورود هذه الضرائب الثابتة إلى خزائن الدولة، فلم تتمّ الاستفادة منها منذ الأيام الأولى لعُمان بوضعها في إطار نظام ميزانية كفوء، فنجد أن كثيراً من الديون التي تحمّلها السلطان «تيمور» ورثها عن فترة حكم السلطان «فيصل». وقد أقرضت حكومة «الهند» السلطنة قرضاً عام ١٩٢٠ حتى تتمكّن من تصفية ديون الدولة وتنظيم ضرائب «مسقط».

وقام السلطان «تيمور» في ذلك الوقت -والذي كان يريد زيارة «الهند» لأسباب طبّية والزواج من فتاة تركية، سبق أن دفع لها مهراً يبلغ ستة آلاف دولار- بتعيين صديق أيرلندي له، يتحدّث العربية، هو القبطان الماسوني «دونالد ماك كولوم» بتأييد من القسم السياسي الهندي، وزيراً للشهور الخمسة التالية، بالإضافة إلى ثلاثة مصريين انضمّوا للسيطرة على إدارة نظام الجمارك في «مسقط». ومنذ عام ١٩٢٠، تمكّنت الدولة من وضع ميزانية مالية مناسبة (حتى اختفى العجز منذ العام ١٩٣٣). لذلك صارت «عُمان» -وبعد أربعين سنة- إحدى الدول القلائل غير المَدِينة في العالم. ويتمتّع السلطان الحالي بموارد خاصّة به ذات سقف محدّد تصرف في نفقاته الخاصة، ويتلقى باقي أفراد العائلة الملكية مخصّصات متواضعة وفقاً لمقام كلّ منهم. وعلى الرغم من ذلك، فأثناء حياة أبيه، لم يكن الأبناء يتلقون أية مخصّصات حكومية. وتقوم هذه القائمة المدنية على ما يسمح به دخل الدولة. فإذا وظّف أحد أفراد العائلة الملكية لخدمة بلده، فإنه يتلقى راتباً مضموناً إلى جانب هذه المخصّصات.

وبالمقارنة، نجد أن وضع الميزانية في «عُمان»، كما سبق أن وصفناه، يتناقض تماماً مع نظيره في «المملكة العربية السعودية»، حيث ورد على لسان «فيلبي» عام ١٩٥٧:

«تعدّ العائلة الملكية نفسها حملاً ثقيلاً على موارد الدولة، فهناك ما يربو على ألف أمير وأميرة من إجمالي عدد السكان، الذي لا يتجاوز ستة ملايين شخص. وتبلغ مخصّصات الدولة للفرد الواحد في السنة عشرين



مدخل حصن «حزم»

ألف جنيه إسترليني، وهو ما يمكن أن يبتلع خمس إجمالي دخل الدولة...[1]».

وقد لعب إنجليزٌ موهوبون دورين فريدين في التاريخ العربي

(١) «إتش. سانت جون. بي. فيلبي»: «Forty Years in the Wilderness»، (٤٠ عاماً في البرية)، (لندن، ١٩٥٧)، ص ٣٨ ـ ٣٩.

المعاصر. استحوذ «لورانس» -الذي يتميّز بإفراطه في الرومانسية- على جانب ملحمي في الحركة العربية، وصار أحد صنّاع الملوك. وكان «فيلبي» -الذي يتمتّع بعقلية أدبية، ويحظى بشهرة فاقت شهرة «لورانس» نفسه لدى العرب- مناصراً لـ«ابن سعود»، وكان بمثابة بطل عنده، وذلك من خلال مقعده الاستشاري غير الرسمي، الذي كان يدعم تأسيس «المملكة العربية السعودية» الجديدة. وقد يبدو لنا من الظاهر أن «لورانس» افتقر إلى «أركان الحكمة السبع»، وناصر الفريق الخاسر في المعركة (الشريف «حسين الهاشمي» شريف مكة والأسرة المالكة في العراق) (**الملحوظة و**)، في حين أن «فيلبي» -وذلك على النقيض من بريطانيا العظمى التي تتحسّس طريقها في المنطقة- قد أيّد الفريق المنتصر، وهو «عبد العزيز ابن سعود» الذي كان مازال في ريعان شبابه (وكان يعرف في الغرب باسم «ابن سعود»)؛ وعلى الرغم من ذلك، فإنّ القارئ سيتعجّب من هذا الأمر عند قراءة الفصل الأخير من الكتاب. ونجد، من جانب آخر، أن «لورانس» ربما تمكّن من مناصرة شخصية، تمكّنت من إحراز النصر بصورة جزئية، وهو الشاب الدمث الخلق الملك «حسين» عاهل الأردن، في حين أن «فيلبي» أصرّ على اختيار فريق خاسر، وهو ما مثّلناه في السابق بالملك «سعود» عاهل «المملكة العربية السعودية». ومع الوصول المبشّر للملك «فيصل» إلى العرش في شهر أكتوبر عام ١٩٦٤، هبّت نسمة من الهواء العليل على شبه الجزيرة العربية، وهو ما يجعلنا نقول إن كلاً من «لورانس» و«فيلبي» قد ساند فريقاً انتصر في النهاية.

وسوف يعقد المؤلف، من حين لآخر، خلال هذا الرصد التاريخي، مقارنات بين سلطنة «عُمان» «والمملكة العربية السعودية». لم تكن هناك أية ذريعة تقتضي منه أن يكوّن سلطة في الأراضي السعودية، إلّا أنه لم يقدّم أيّ اعتذار عن الوقوف على كتفي «المملكة العربية السعودية»، إنه العالم الكلاسيكي والباحث اللغوي والدبلوماسي، وأول وأفضل باحث على

الإطلاق، إنه «إتش. سانت جون بي. (الحاج عبد الله) فيلبي»، وهو أحد أعظم الإنجليز في عصره، بل إن العرب يرون أنه أعظم الإنجليز قاطبة في جميع الأزمان. وإن كان هناك من يستحق أن يلصق باسمه لفظة العرب لكان هو «فيلبي» ولسمّي «فيلبي العرب» **(الملحوظة ز)**.

شكّل السلطان «تيمور» عام ١٩٢١ مجلس وزراء يتألف من أربعة رجال، فعيّن أخاه السيد «نادر بن فيصل» رئيساً للوزراء، و«محمد ابن أحمد» وزيراً للمالية، و«زبير بن علي» وزيراً للعدل، و«راشد بن عزيز» وزيراً لقانون «الشريعة». وفي عام ١٩٢٥، صار «محمد بن أحمد» - الوالي السابق لمطرح - نائب رئيس مجلس الوزراء، وحلّ محلّه في وزارة المالية المستكشف «برترام توماس». وفي عام ١٩٢٨، كان «سعيد» ابن السلطان الصغير يحضر جميع اجتماعات المجلس؛ وعندما توفي الرئيس في شهر أغسطس عام ١٩٢٩ عيّن «سعيد» -وهو في التاسعة عشرة من عمره- رئيساً بدلاً منه. ومن الواضح أن هذا الأمر يقصد من ورائه تهيئة «سعيد» ليحلّ محلّ أبيه، وهو أمر أخبر به «تيمور» عام ١٩١٩ «رونالد وينغيت[١]» مراراً، بأنه أراد أن يتخلّى عن العرش، وأن يكون هناك ما يضمن له أن يحصل على معاش تقاعدي صغير يؤمّن له العيش الآمن خارج «مسقط»، بل وخارج الجزيرة العربية بأسرها. وفي عام ١٩٣١، وعندما بلغ «سعيد» الواحدة والعشرين من عمره، وبعد أن مرّت على رئاسته لمجلس الوزراء ثلاث سنوات، أعرب السلطان «تيمور» عن رغبته مجدداً في أن يتخلّى عن العرش. وخدم السلطان «تيمور» بلده سبعة وعشرين عاماً منذ أن كان في السادسة عشرة من عمره، وكان أبوه هو أول من اعترف به، وألقيت عليه تحيّة عسكرية بِدويّ ثلاثة عشر مدفعاً. لقد خدم وطنه بما يكفي. وذهب «سعيد» إلى كراتشي ليثني أباه عن عزمه، ولكن بلا فائدة هذه المرّة، فقال له السلطان: «لقد عقدت العزم على ذلك، فانتهى الأمر».

---

(١) السير رونالد وينغيت «Not in the Limelight»، (لندن، ١٩٥٩)، ص ٨١.

وبعد ذلك بفترة قصيرة، كتب شيخ القبيلة الذي تمرّد في الماضي وهو الشيخ «عيسى بن صالح» لـ«تيمور» في الهند: «لقد ابتعدت كثيراً عن «عُمان»، فمن تركت لنا؟»، فردّ عليه «تيمور»: «نعم لقد غادرت «عُمان»، ولكن تركت فيها «سعيد» يرعى جميع شؤونها». وعاد «سعيد» إلى «مسقط» في الحادي عشر من فبراير عام ١٩٣٢، وخاطب جمعاً كبيراً، وسلّم إعلان السلطان «تيمور» تخلّيه عن العرش لسكرتير أبيه «أحمد شبيلي». وقرئت رغبات السلطان بصوت عالٍ على عائلته وأشراف «عُمان» الحاضرين. وعيّنت هذه الوثيقة ابنه «سعيد» خليفة له، وطلبت من جميع أفراد الأسرة الملكية وسادة الشعب أن يدينوا له بالولاء والطاعة. فقام «نادر» عمّ «سعيد» و«حمد» مع آخرين من أفراد العائلة بالوقوف، وأخذوا بيد «سعيد»، ونصّبوه في موضع عرش أبيه.

في الوقت الذي كان الجميع يعبّرون فيه عن تهنئتهم، دوّى صوت المدافع تحية للسلطان الجديد، احتفالاً بهذا السلطان الذي لم يتعدَّ الواحدة والعشرين من عمره، ويحمل اسم جدّه الشهير الذي حكم السلطنة منذ قرن مضى. وفي السنة نفسها حصل «سعيد» على اعتراف به كملك على «عُمان» من حكومتي «الولايات المتحدة» و«بريطانيا». وقد كتب أحد المؤرخين العرب القدماء: «**إن مصير الأمراء في يد الله، فهو من يعطي الملك لمن يشاء**». وفي وقت لاحق، ردّ «تيمور» على سؤال جاءه، وهو في «الهند» والابتسامة تعلو وجهه عند تجميع الموادّ الخاصّة بهذا التاريخ: «لقد صار «سعيد» الآن في السجن، وأصبحت أنا حراً». ونجد من هنا أن آخر حاكمين لعُمان حصلا على عرشهما لبكورتهما من أبيهما، وهو مبدأ لم يسبق أن طبّق من قبل.

أنشئت قوات مشاة «مسقط» عام ١٩١٤ تحت قيادة ضابط عراقي،

وسلّحت بالبنادق الآلية. وعام ١٩٢٢، تمّ الاعتراف بالقوات العُمانية وهي تحت قيادة نقيب إنجليزي، وبعض الضباط الذين تمّ إحضارهم من «الهند». ومنذ عام ١٩٣٣ حتى عام ١٩٣٦، لم يعيّن السلطان أيّ ضابط بريطاني، ولكنه قام عام ١٩٣٦ بتعيين ضابط متقاعد بعقد لمدة سنتين.

وبدا أن هناك سوء تفاهم كبير -متعمّد وغير متعمّد- بين الضباط الأوروبيين الذي قادوا وحدات رئيسة من قوات السلطان المسلحة. ولا تعدّ هذه الصراعات إحدى المحاولات الأوروبية الاستعمارية كما كان عليه الحال في القرن التاسع عشر، وكما يحلو لبعض الانتهازيين أن يقنعونا به، بل إنّهم لم يحتلّوا هذه المواقع إلا عن رغبة من السلطان نفسه، كما كان المدير العام المصري لإدارة الجمارك والموظف المالي الباكستاني. وجاء على لسان السلطان نفسه: «إذا لم أحقّق الاكتفاء الذاتي في بضاعتي ولم أحظَ بأحدث الأساليب، فإنني سوف أذهب إلى الخارج للحصول عليها، وهي الحال نفسها عند اختيار رجالي، فأنا أذهب إلى المصدر الأصلي. وبغضّ النظر عن مدى حكمة هذه السياسة، فإن النتائج التي أثمرت عنها أكبر ممّا كانت لو لم يستعن بهذه الخبرات الخارجية. فعلى سبيل المثال كتب «فيلبي» عام ١٩٥٤ عن «المملكة العربية السعودية» (**الملحوظة ح**) قائلاً:

«لقد كان التدرّج الهرمي للمسؤولين على درجة كبيرة من عدم تحمّل المسؤولية والانتهازية [يقصد سلوكيات المسؤولين أنفسهم]، والذين تمّ تعيينهم دون نظامٍ من التافهين والمتسلّقين من النخبة التي وفّرها العالم العربي للمملكةٍ العربية السعودية في وقت اشتدت فيه حاجتها. ومن الأهمية بمكان في هذا السياق أن نجد الدولتين العربيتين اللتين أمدتا الإدارة السعودية بهؤلاء الرجال، كانتا تسعيان في السنوات الأخيرة عن طريق الثورة -التي كانت لحسن الحظ سلمية بلا دماء في كلا المثالين-

إلى اقتلاع جذور الفساد، والخداع، وعدم الكفاءة، وهي أمور ألحقت بهم الخزي في عيون العالم»[(١)].

يبلغ متوسط عمر الضبّاط الأوروبيين التابعين للسلطان في وقتنا الحالي ثمانية وثلاثين عاماً. وبإمكان هؤلاء الضباط الاستفادة من خبرة القوات المسلحة البريطانية التي دامت لأكثر من قرنين من الزمان. وسوف نسهب في ذكر ثلاثة أشخاص اختارهم السلطان في وقتنا الحالي حتى نكشف الحكمة من وراء هذا الإجراء. أكثرهم أهمّية هو العميد «بات واترفيلد»؛ وهو «السكرتير العسكري»، وكان في السابق رئيس أركان القوات المسلحة في «مسقط»، وقد استقال من فوج المدفعية الملكي عام ١٩٤٩ بعد اثنين وعشرين عاماً من الخدمة في «الصحراء الغربية» وشمال إفريقيا و«بورما». وقد بثّت إذاعة «القاهرة» مرتين خبر «مقتل» العميد «واترفيلد»، وأوردت في المرة الثانية أنه دفن في «البحرين» ومعه جميع النياشين العسكرية الخاصة به. وبعد يوم من «جنازته» تلك، تناول هو وزوجته الساحرة «مادلين» ومؤلف الكتاب الذي بين يديك الغداء معاً في معسكر «بيت الفلج» الرئيس خارج «مطرح». وقد روى العميد «واترفيلد» كيف أخبره السلطان في حادثة سابقة أن ضابطاً غادر «عُمان» بعد أن عجز عن تحمّل الوحدة في مهمّة كان يؤدّيها في «البريمي»، وهو ما أدّى إلى إصابته بالهلوسة بدرجة جعلته يعتقد أن منزله مسكون بالأشباح، فعلّق السلطان الذي كان يتميّز بجدّيته دائماً على هذه الحادثة قائلاً: «آمل أن قد يكون اصطحب أشباحه معه».

وكان الرجل الإنجليزي الثاني في المرتبة هو الكولونيل «هوج آر. دي. أولدمان»، قائد القوات المسلحة التابعة للسلطان، والذي كان يعمل

---

(١) «إتش سانت جون. بي. فيلبي» «The New Reign in Saudi Arabi»، (الحكم الجديد في العربية السعودية)، مجلة الشؤون الدولية» «International Affairs»، العدد ٣٢ (١٩٥٤)، ص ٤٤٩.

نائباً لقائد قوات حكومة الوصاية في «عدن»، وحارب في السابق في معركة «دانكيرك» في شمال إفريقيا وفي غزو «صقلية» و«النورماندي». وكان نائب الكولونيل «أولدمان» هو المقدّم «كولين ماكسويل»، وكان أحد الشخصيات التي أمضت فترة طويلة في خدمة السلطان. وقد وصل عام ١٩٥٢، وهي السنة نفسها التي قام فيها الرائد «سانت جون أرميتاج» (الذي نقل بعد ذلك إلى «ظفار») بإنشاء قوة «الباطنة» العسكرية. ومنذ ذلك الحين، صار الكولونيل «ماكسويل» منخرطاً بصورة مستمرّة في العمليات العسكرية والمدنية في «البريمي» وساحل «الباطنة» و«الجبل الأخضر». وقد خدم في فلسطين في ما قبل الحرب، وشهد الخدمات العسكرية في أوروبا أثناء الحرب العالمية الثانية.

وفي عام ١٩٥٨، ورد أن «طالب بن علي»، وهو أحد القادة المتمرّدين- قرّر أن يتخلص من الكولونيل «ماكسويل» إلى الأبد؛ وكان «ماكسويل» في ذلك الوقت قائداً للعمليات المحلية التي تتمّ في «نزوى» وحولها، وفي منطقة الجبل الأخضر؛ وكان من المزمع أن يتمّ هذا الاغتيال -كما أشيع في ذلك الحين- على يد رجل يرتدي زيّ النساء. وكانت الظهيرة شديدة الحرارة، وهو الوقت الذي لن تحتاج العمليات العسكرية فيه إلى انتباهه التام، وبالتالي فإنه سيغتسل في مياه وادي «نزوى». وفي يوم من الأيام، وبينما كان في الماء يغتسل، رأى امرأة ترتدي السواد وتقترب منه ببطء. وكان أول ما فكّر فيه هو أن يبقى في المياه، لأنه كان عاري الجسد، ولكنه تذكّر فجأة تهديد «طالب». وعلى الرغم من أنه كان أعزل، إلّا أنه وقف بشجاعة مخاطراً بحياته، ومشى بسرعة إلى الضفّة، ووقف عليها كما ولدته أمه، وهو يتمنّى بداخله أن تكون بالفعل امرأة وأنها ستفرّ عندما تراه على هذه الحال. ولكنّ المرأة واصلت اقترابها ومرّت من أمامه بعدّة أقدام، لقد كانت امرأة فعلاً ـ ولكنّها كانت كفيفة.

يدرك السلطان أنه لا أحد من شعبه لديه الخبرة الضرورية التي تتيح له التعامل مع الأساليب العسكرية الحديثة. لذلك فإنه يوظّف أفضل الرجال المتاحين كضبّاط في قواته. ولم يكن لدى هؤلاء الضباط أيّ منصب آخر في أي جيش سوى الجيش العُماني، ولا يتلقون أيّ راتب من حكومة سوى حكومة «عُمان». وكانت تتم جميع ترقيات هؤلاء الضباط عن طريق جلالته شخصيًّا. وقد وافقت الحكومة البريطانية مؤخّراً -بطلب من السلطان- على أن ترسل له عدداً من ضباط الجيش للانخراط في قواته العسكرية لفترة تتراوح بين ثمانية عشر شهراً وثلاث سنوات، وذلك لرغبة السلطان في توسيع وتحديث جيشه. وتمّ في الوقت نفسه بذل جهود حثيثة لتدريب وتعيين المزيد من العُمانيين كضبّاط في الجيش.

وعندما قبل السلطان في قرار حكيم أن يحصل على معونة عسكرية من بريطانيا، فإنّ بقية العالم العربي عملت من خلال إعلامها المباشر والإذاعة على أن تضلل الرأي العام بتفسير خاطئ للموقف حتى تجعله يعتقد أن السلطان ليس سوى دمية في يد البريطانيين، وأن جيشه ليس سوى أداة بريطانية تستخدم في تحقيق المصالح البريطانية. فإذا كان استخدام مستشارين ومدربين عسكريين أجانب أمراً يعني التبعية والخنوع التامّين، فإنّ المعيار نفسه يجب أن يطبّق على «المملكة السعودية» وأن تسمّى دمية بريطانيا وأميركا، لأنها كانت تعتمد اعتماداً تاماً على هاتين الدولتين في الحصول على الأسلحة الحديثة وتدريب جيشها، وذلك في أغلب الأحيان على نفقة دافع الضرائب الأميركي، في حين أن «عُمان» لم تتلقَّ أيّة معونة عسكرية من «أميركا» على الإطلاق.

* * الملحوظة (أ) * * * * * * * * * * * *

من بين الأسلحة الحربية التي استخدمها الإمام «عزّان» مدفع بدرجة أربعة وعشرين مصنوع من النحاس، فكان إحدى القطع التي تستخدم في المعارك وعليه نقش بالعربية يقول: «سعيد بن سلطان عام ١٢٥٨ للهجرة» والتاريخ الإنجليزي ١٨٤٢. وكان هذا المدفع واحداً من دفعة تتألف من عشرين مدفعاً طلبها السلطان «سعيد» من «الولايات المتحدة» لتسليح سفينته الحربية القديمة «سلطانة».

* * الملحوظة (ب) * * * * * * * * * * * *

اعترفت الشركة العربية الأميركية للبترول بتوريث العرش في منشورها «عُمان» والساحل الجنوبي للخليج العربي» (القاهرة، ١٩٥٢)، وفيه تقول: «كان «عبد العزيز» مدركاً تمام الإدراك الموقع الذي استحوذ عليه سلفه من قبل، وبدأت أفكاره منذ ذلك الحين التفكير في «البريمي»، وهي النقطة الحدودية التي تقع في الشرق، وتخلّى عنها الموحدون [الوهّابيون] لأكثر من ثلاثين سنة». وفي مقدّمة هذا المنشور، نجد ما يأتي في الصفحة العاشرة: «لم يسقط شيء دوليًّا، وذلك لإمكانية ضمّها إلى المفاوضات الخاصّة بالحدود، وقد تمّ التزام الحذر دائماً حتى لا يتمّ ليّ الحقائق أو تشويهها».

* * الملحوظة (ج) * * * * * * * * * * * *

وجد هذا التصريح في الصفحتين ١٣٩ و١٤٠ من كتاب «ملفات مجال العلاقات الإنسانية»، والقول إن كّلاً «من «أبو ظبي» وسلطنة «مسقط» و«عُمان» من حكومات الوصاية التابعة لبريطانيا» إنّما هو من أنصاف الحقائق، فعُمان لم تكن أبداً وليست إحدى حكومات الوصاية البريطانية.

* * الملحوظة (د) * * * * * * * * * * * *

مصطلح «الانتداب» هو مصطلح اشتقّ في الأصل من القانون الروماني، فالمقابل الإنجليزي لكلمة «الانتداب» هو «Mandate» ويعني وثيقة لوكالة يقوم بها شخص يسمّى منتدبَ نورمان بنتويتش «Mandates of the Near on Middle East».

* * الملحوظة (هـ) * * * * * * * * * * * *

«قام وفد بحثي، تابع لجيش الولايات المتحدة، يعمل باتصال مع مقرّات الجيش البريطاني في «القاهرة»، بوضع خريطة للمنطقة التي تقع بين «قطر» و«الشارقة» عام ١٩٤٥. وكان يصاحبهم في هذه المهمّة أربعة مرشدين أتى بهم حاكم «أبو ظبي». وعلى الرغم من أنه بعد أربع سنوات فقط من ذلك طالب ذلك الوفد السلطات السعودية بجزء كبير من هذه المنطقة التي رسمها، إلّا أننا لم نجد أيّ اعتراض من جانبهم أو تعليق على هذه النشاطات».

* * الملحوظة (و) * * * * * * * * * * * *

ولدت جمهورية «العراق» التي أنشئت حديثاً على أنقاض سلالة حاكمة استمرّت في الحكم قبل ذلك لسبعة وثلاثين عاماً، وأنشئت على يد كلّ من «غرترود بل» و«برسي كوكس» و«وينستون تشرشل»، وأتى ذلك نتيجة للجهود التي بذلها «لورانس». «لقد كان صانعاً للملوك ... مثل الملك «فيصل» في «العراق» و«عبد الله» في الأردن»، جاء ذلك على لسان «رونالد ستورز» في كتابه «المشارق».

وكان من المبادئ الأساسية التي كان يؤكد عليها الملك «فيصل» الأول أنه كان عربيًّا في المقام الأول، ومسلماً في المقام الثاني، فكان يقول «نحن عرب قبل أن نكون مسلمين، وكان «محمد» عربيًّا قبل أن

يكون نبيًّا». وجاء ذلك في كتاب «فيصل بن الحسين في أقواله وخطبه» (بغداد، ١٩٤٥)، ص ١٧٥.

** الملحوظة (ز) * * * * * * * * * * * *

في ظهر أحد أيام لندن الممطرة، في شهر يوليو عام ١٩٦٠، نجح الكاتب في تنظيم وحضور اجتماع تاريخي بين السلطان و«فيلبي». وكانت تجربة مثيرة أن تحضر هاتين الشخصيتين المدهشتين في العالم العربي في جناح السلطان في فندق «دورشستر». وعمّ المكان روح العرب بحسن ضيافتهم وودّهم. وبعد ثلاثة أشهر من هذا اللقاء، أدمى قلبه أن علم من «ويلفرد تسيغر» بوفاة «فيلبي» المفاجئة بعد إصابته بأزمة قلبية في بيروت في الثالث من أكتوبر عام ١٩٦٠. وستظلّ ذكراه مصدر إلهام للكاتب كأعظم مستكشف للجزيرة العربية.

** الملحوظة (ح) * * * * * * * * * * * *

«وقعت الحكومة السعودية في موقف صعب، وذلك لأنّها في الوقت الذي تحتاج فيه إلى المهارات التي توفّرها الأمم الأجنبية، فإن هناك بعض المخاطر التي تكتنف الاستفادة من خدماتهم. واعتمدت المملكة العربية السعودية بشكل كبير على الدول العربية الأخرى في الحصول على عاملين في وزارة الشؤون الخارجية لديها وإدارتها الخارجية.

ف«جمال الحسيني» الذي عمل مستشاراً للملك للشؤون الخارجية لفترة طويلة فلسطيني ... و«يوسف ياسين» الذي عمل نائباً لوزير الشؤون الخارجية لفترة طويلة سوري ... كما أن «أسد الفقيه» الذي عمل سفيراً للمملكة لدى الولايات المتحدة من أصل يرجع إلى دروز لبنان». جاء هذا على لسان «جورج. إيه. ليبسكي» في كتابه «المملكة العربية السعودية في ملفات مجال العلاقات الإنسانية». «Saudi Arabia, in Human Relations Area Files», N°4 (New Haven, 1959) PP. 104, 148.

«وبدون المصريين والفلسطينيين، ما كانت هناك خدمات مدنية أو مدارس [في المملكة العربية السعودية]. لم يولد بعدُ الجيل السعودي الذي يستطيع أن يدير شؤون دولته وحده». جاء ذلك على لسان «بيتر بارتنر» في كتابه «الدليل السياسي الصغير للعالم العربي». «A Short Political Guide to the Arab World» (London, 1960), p. 94 - 95.

## * الفصل الثامن *

# ثورة على «الجبل الأخضر»

كان موت «بابا» يتمتّع بالقوة، وباحترام الشعب في العصور الوسطى تتبعه فترة من القلاقل والعصيان، مثله في ذلك مثل موت أيّ ملك علماني من العُمانيين. ولا يختلف الأمر بالنسبة لموت الإمام في «عُمان»، فقد كان يؤذّن بانتشار قلاقل من النوع الذي يعقب موت سلطان ما، كما سبق أن رأينا.

منذ بداية حكم السلطان «سعيد»، كانت سمعة الإمام «محمد ابن عبد الله» المنتشرة في جميع أنحاء البلاد تنطق بالمصداقية والتقوى، فكان لها تأثير عظيم على استقرار الدولة وأمنها. وأعتقد أنه من حسن الحظ أننا كنا شهود عيان على تاريخ هذا القائد الروحي البارز، فقد كان على معرفة وثيقة بالدكتور «ويلز تومس» أحد أفراد البعثة التبشيرية[1] الأميركية في «مسقط»، والذي التقى الإمام أول مرة عام ١٩٤١. كان الدكتور «تومس» قد استدعي على وجه السرعة للحضور إلى «منح» -وهي إحدى قرى الداخل- من قبل الشيخ «سليمان بن حِمْيَر»، وذلك لمعالجة أحد أصدقاء هذا الشيخ الذي تعرّض لإصابة شديدة بقرن ثور. وكانت أقصى

(١) ثمة وصف للمسيحية وللبعثات التبشيرية المسيحية إلى «عُمان»، وإلى شبه الجزيرة العربية بشكل عام، في الملحق الثالث من هذا الكتاب صفحة ٣٦٩.

مسافة يمكن للدكتور «تومس» وصديقه رجل الدين «ديرك ديكسترا» الوصول إليها بالسيارة تنتهي عند «الرستاق». فأكملا رحلتهما من هناك على الحمير حتى وصلا إلى قرية تسمى «بلد سَيْتْ» تابعة للعبريين»، ثم سارا في ممرّ متعرج صعوداً حتى وصلا إلى «الجبل الأخضر». وصار صعودهما لما يقرب من ثمانية آلاف قدم فوق سطح البحر صعوداً رأسيًّا في هذا الممرّ لعدّة أميال، وهما يجتازان سهل هذه السلسة العظيمة من الجبال. ووصلا إلى «تنوف»، ولكن أزعجهما أن تركهما الدليل هناك عندما علم أن الشيخ لم يكن في قلعته المنيفة، وإنّما ذهب إلى محل إقامته في الصيف عند «بركة الموز». وكانت مدينة «نزوى» الشهيرة تقع أمامهم مباشرة. وألمح الصبيان الذين يقودون حمار الدكتور «تومس» بعد أن بدأت لهجتهم تزداد حدّة إلى أن الإمام لن يسمح بوجودهما على أرضه، وهو إمّا سيُلقي بهما في السجن أو ينفيهما بعيداً. وعلى الرغم من ذلك، فقد استمرّا في توجيه الحمير حتى وصل الجميع إلى أجمل واحات «عُمان» وأكبرها، حيث استقبلهم رسل الإمام بالتحيّة والترحاب. ثم استقبلوا بعد ذلك أمام عدد غفير في البرج الدائري الكبير الذي كان يمثّل قلعة الإمام ومحلّ إقامته في الوقت نفسه.

«مررنا بين حشود من الناس تقف خارج الحصن، حتى وصلنا إلى بوابة خارجية كبيرة وبوابة أخرى صغيرة بداخله، ثم صعدنا درجين حتى وصلنا إلى المجلس أو الحجرة التي يجتمع فيها مريدو الإمام. وبعدما تكيّفت عيوننا مع الإضاءة المعتمة في الداخل، رأينا كهلاً رفيع البنيان يرتدي عمامة بيضاء كبيرة على رأسه، ويجلس على بساط في نهاية الحجرة الطويلة، وكان على يمينه اثنان من كبار السّن يرتديان مثله، وكان يجلس إلى جانبيه حراسه من الرجال الذين يحملون أسلحتهم. وعندما دخلنا قام ليصافحنا فظهر ضعفه بصورة أكبر، حيث كان يبدو لنا أنه يميل قليلاً عندما يقف منتصباً، كما أن مصافحته نمت عن ضعف بنيانه.

أشار بيده إليّ يريد أن يجلسني إلى جواره، ولكنّي اعترضت على ذلك، وقلت إن السيد «ديكسترا» أكبر منّي سناً، وهو مرشدي الروحي، فطلب من السيد «ديكسترا» أن يجلس إلى يمينه، وأن أجلس أنا إلى يساره. وقدّمت إلينا القهوة والحلاوة بعد ذلك، ثم رشّ علينا ماء الورد. وبينما الأمر كذلك، وجّه إلينا كثيراً من الأسئلة عن السبب وراء تركنا لبلادنا والعيش والعمل في «مسقط». وعندما أجبته أن «عيسى المسيح» الذي كنّا من أتباعه أمر حوارييه أن يذهبوا إلى جميع الأمم ليعلّموا البشر عقيدته ويعالجوا المرضى ويبشروا «بني آدم» بما جاء به الإنجيل، قال: «أتؤمنون بأن الله واحد أحد؟». وعندما قلنا «نعم»، قال: «فإنكم لستم من المشركين أو الكفار وإنّما من «أهل الكتاب». ونحن نعتقد أنكم أخطأتم بعض الشيء في عقيدتكم ولكننا نقدّر فيكم خشيتكم من الله سبحانه وتعالى، لذلك أعطيتكم الأمان أن تفعلوا ما شئتم في بلادنا، فلعلّ الله ينعم عليكم بالحكمة والحنكة لشفاء المرضى، وسوف أرسل معكم دليلاً ليصحبكم إلى مريضكم ...» وكان هذا اللقاء هو أول احتكاك بهذا الحاكم المسلم الفريد. كان في بساطة من العيش، إذ كان هو وامرأته وابنته يعيشون في حجرتين أو ثلاث حجرات من هذا الحصن الكبير في «نزوى». ولم يكن يمتلك من حطام الدنيا -كما تراءى لنا- سوى القليل من الأبسطة البالية، وعشرين كتاباً، وبعض الفرش والوسادات والبطاطين، وبندقية وخنجر والقليل من الملابس. وكان يعرف بين قومه بعدله وانضباطه التام. وكان يأمر بملاحقة القتلة واللصوص لمعاقبتهم. أما القتلة فكانوا يسلّمون إلى أقارب المغدور به للقصاص منهم، حيث الجزاء يأتي بالصورة التي قتل بها الشخص، وأمّا السرقة فكانت يُعاقب عليها عادة بالحبس. وقد رأيت سجناء في أكثر من مناسبة، وكانوا يحملون الأصفاد حول كاحل كل منهم، وهي متصلة بسلاسل يبلغ طولها ثلاثة أقدام مربوطة إلى كرة ثقيلة من الحديد، وكانوا يجلسون مع الجنود عند مدخل الحصن يشربون القهوة ويتحدّثون إلى بعضهم البعض بمرحٍ

وحبورٍ. كان هذا الإمام يتّسم بعطفه وشفقته على الفقراء واليتامى والأرامل. وكان معظم الدخل الذي يجيء من بيع البلح القادم من حدائق النخيل المملوكة للأوقاف يُعطى للفقراء والمحتاجين طوال حياته. وكان هو نفسه مستقيم الخلق، وعاش فقيراً إلى أن مات».

قابل الدكتور «تومس» الإمام أكثر من مرّة. وفي إحدى المناسبات طلب السماح بالتقاط صورة لهذا الرجل العجوز، فرفض ذلك، مستشهداً بآياتٍ من القرآن الكريم وعندما أشار الدكتور «تومس» إلى أن كثيراً من الحكومات العربية تلزم رعاياها بالتقاط صور من أجل جوازات السفر الخاصة بهم، ردّ عليه قائلاً: «أنا لا أعتبر من يقوم بمثل ذلك من المسلمين، بل إني أرى أنّهم من الكفار». اعترف الإمام أنه لم يرَ نفسه في المرآة سوى مرّة واحدة، وكان يحقّر الرجال والنساء التافهين الذين اعتادوا التفرّس في ملامحهم في المرآة. وقال الدكتور «تومس» في النهاية: «إذا التقطت صورة لك فإنّ اللوم سيقع عليّ». فرد عليه الإمام قائلاً: «ما أُعاونك بشرّ». وكان آخر لقاء للدكتور «تومس» يحمل الصبغة المهنية، حيث أرسل الشيخ «محمد» إليه ليعالج إعتاماً في عينه اليمنى، وكتب في الوقت نفسه يطلب من السلطان أن يكتب إلى الدكتور «تومس» يخبره أن صديقه القديم الشيخ «محمد» في حاجة ماسّة إلى إجراء عملية جراحية؛ ونظراً إلى ذيوع صيته في جميع أنحاء «عُمان»، فيسعده أن يتحمّل الطبيب هذه الرحلة إليه ليُجري له العملية. فكتب الدكتور «تومس» إلى الإمام ليرتّب معه الرحلة، وذهب حسب الموعد إلى «نزوى» وهو يرتدي ملابس العرب ويراقب سلوكياتهم كما طلب منه الإمام. وتكللت الجراحة بالنجاح، إلّا أن الإمام لم يعش فترة طويلة ليستمتع بعودة بصره إلى عينه اليمنى، ومات عام ١٩٥٤.

ومع موت الإمام «محمد»، زعم «غالب بن علي» من «بني حنا» البالغ من العمر خمسة وثلاثين عاماً أنه خليفة الإمام، على الرغم من أن

السلطان لم يسمع به من قبل، ولم يتم انتخابه وفقاً للتقاليد القديمة الإباضية التي تتبع في انتخاب الإمام. وفي الواقع، لم يكن «غالب» هو المرشّح الأول على الإطلاق، وإنّما «عبد الله بن سالم الخروصي»، وهو ابن الإمام السابق «سالم بن راشد» (الذي تولى الإمامة من عام ١٩١٣ إلى عام ١٩٢٠). وجاء عبد الله كمرشح عندما قدّمه «سليمان بن حِمْيَر» -وهو أحد كبار ممثلي الحزب الغافري - ثم انتخب «عبد الله» إماماً باعتباره تحت سيطرة «سليمان»، وأصبح غالب الذي كان يعمل قاضياً على «الرستاق» في ذلك الوقت هو المنافس الوحيد على الإمامة (و«عبد الله» الآن أحد الرعايا الذين يدينون بالولاء للسلطان، وهو يعمل حاليًّا قاضياً على «سويق»).

وعلى الرغم من أن هذا الإمام الجديد لم يمارس طوال حياته مهام الإمامة إلا أنّه كان لديه أخ يبلغ من العمر أربعة وثلاثين عاماً يتمتع بطموح نهم، واسمه «طالب». ويحتّم علينا المقام هنا أن نأتي عليه بالذكر لأنه كان هو الأداة المحرّكة والعبقرية الداهية وراء التمرّد على السلطان، وكان هو المدبّر لكثير من حركات العصيان.

إن كلمات التقييم التالية، الموجّهة إلى «طالب»، جاءت على لسان السيد «طارق»، وهو شقيق السلطان وخصم «طالب» في القتال الذي دار بعد حدوث التمرّد: «كان طالب من النوع الذي يضرب من بعيد، فكان يجهّز عملياته العسكرية من مؤخرة جيشه، فلا يتقدّم إلى الأمام قطّ. ولم تكن الشجاعة من سماته عند احتدام القتال. يشبه البدو في نحافة أجسادهم ولكنه تكتيكي داهية، ولديه حاسّة تمييز في المعارك، ولديه القدرة على التكيّف مع المواقف الجديدة في سرعة كبيرة، فيصحّح أخطاءه سريعاً». فكان شخصاً عنيفاً وانتهازيًّا، يدين بالولاء لأخيه الإمام، ولكنه كان يهيمن عليه، فقد كان قائداً للقوات المسلحة التابعة له. ولو لم يكن لأخيه

«غالب» ذلك الموقف المشبوه من الإمامة، لكان «طالب» مجرد شيخ من الشيوخ لا أكثر. فماضيه لم يكن ينبئ عن مستقبل جندي مغوار أو قائد سياسي محنّك، فقد كان محاسب الإمام الكهل «محمد ابن عبد الله» أو على الأحرى كان يتظاهر بذلك، ثم صار بعد ذلك والياً على «الرستاق»، وكان في الوقت نفسه يدير مشروعاً للنقل بالشاحنات. وبعد احتلال الجنود السعوديين للبريمي عام ١٩٥٢، ذهب «طالب» إلى «مسقط» ليستشير السلطان نيابة عن الإمام «محمد». ولكنه بدلاً من العودة إلى بلده ليطلع الإمام على ما وقف عليه من السلطان، فإنه ذهب إلى «المملكة العربية السعودية»، فأتى بهذه الخيانة خدمة لطموحاته الشخصية. فاستشاط الإمام غضباً وأرسل خطاباً ينقل الشعور نفسه إلى السلطان حتى يقوم بترتيبات سريعة لإعادة «طالب». ولكن عندما ظهر «طالب» مرّة أخرى في «عُمان»، كان ذلك للتحريض على التمرّد وقيادته.

وفي شهر أكتوبر عام ١٩٥٤، احتلّ فصيل من قوات السلطان معسكراً في «عبري» جنوب «البريمي»، وهو السبيل الرئيس للوصول إلى «نزوى». وقد كانْ هذا المعسكر تحت سيطرة الإمام، ويتيح له الوصول إلى العالم الخارجي، ويتيح للعالم الخارجي الوصول إليه، فقد كانت «البريمي» هي البوابة التي تقود إلى «عُمان»، و«عبري» هي الباب الداخلي. وقام «غالب» بالسيطرة على «بهلة»، ورفع رايته عليها عازماً على طرد قوات السلطان من «عبري». ومع أنه كان يتوقّع دعماً من «سليمان بن حِمْيَر»، إلّا أن هذا الدعم لم يكن في متناوله، فتراجع «غالب» حتى وصل إلى «نزوى» دون أن يقوم بأيّ إجراء عدواني. لم يتوقف كل من «غالب» و«طالب» طوال السنة التالية عن العمل في «نزوى» التي اتخذوها مقرًّا رئيساً لهما على إجراء اتصالاتهما مع الحكومات الأجنبية التي قد توفّر الدعم لهما، فقاما بتهريب السلاح وأصدرا حملات إعلامية، وصارا كالشوكة في الحلق.

كانت القوة التي يستخدمها «طالب» في تهريب السلاح تتألف من سبعة رجال مقيمين في قرية «خُضن»، التي تقع على بعد أميال قليلة من «سيب»، إلى جانب أكثر من ستين رجلاً من قبيلة «السيابيين» مقيمين في قرية مجاورة. ولم يتبيّن حتى ذلك الحين ما إذا كان «سليمان بن حِمْيَر» - الذي كان يتلقّى نصيباً من الأسلحة المهرّبة من «طالب»- مسانداً لهذا التمرّد أم لا (وكما سبق أن رأينا، فقد تخلّى عن الإمام في «عبري»). وذات مرة وصلت بنادق بصورة غير شرعية إلى «طالب»، فقام بتوزيعها على رجاله في «خُضن»، إلّا أن «سليمان» لم ينل النصيب الذي كان يأمله، فحدث نزاع بينهما. وكان هذا الاختلاف الثانوي في الواقع هو ما جعل «سليمان» يوازن موقفه فلا يميل إلى جانب على حساب آخر. وبعد أن واجه «سليمان» تحدّياً من «طارق» شقيق السلطان، وذلك في ما يتعلق بطبيعة العمل الذي يديره في «خُضن» - وهو عمل يعتقد أن الشيخ المحلي «مبارك بن عمير» كان متورطاً فيه - ادّعى أنه سوف يستعيد الأسلحة غير الشرعية، ثم قدّم اعتذاره لأنه لم يتمكّن من استعادة البضاعة بأكملها؛ ولكنه نجح هو وضباطه - الإخوة الخليلي- «هلال» و«عبد الله» و«سعود» في الدفاع عن الشيخ «مبارك» حتى يعفى من دوره في التجارة التي كانت تدار في «خُضن». وقد كان «مبارك» في الواقع أحد الرعايا الموالين للسلطان، ومازال على ذلك حتى يومنا هذا.

وهناك حقيقة يجدر ذكرها في هذا السياق، وهي أن قبيلة «بني حِنَا» هي نفسها التي كانت توفّر الإمدادات والمؤن للخائن الرئيس في التمرّد الفاشل الذي وقع قبل ذلك بستين عاماً، وكانت هناك عداوة قديمة بين هذه القبيلة وقبيلة «ألبوسعيد» (قبيلة السلطان) امتدّت لسنوات طويلة. وأثناء حياة الإمام الكبير «محمد بن عبد الله»، كان حريصاً هو والسلطان على الحفاظ على هذا الوضع الذي دام منذ اتفاقية «سيب» التي أبرمت عام

١٩٢٠، وكان التخلي المتعمد عن هذه الاتفاقية من قبل الإمام الجديد هو الدافع وراء ما اتخذه السلطان من إجراء. وكتب الرعايا المخلصون من داخل هذا الإقليم للسلطان يطلبون منه العون، فوصل السلطان إلى مرحلة لم يعد معها بإمكانه إبداء روح التسامح في ظلّ هذا التآمر الذي يهدد ملكه، وذلك مع نهاية عام ١٩٥٥، حين قامت القوات المسلحة التابعة للسلطان بإعادة احتلال «نزوى»[١] في شهر ديسمبر بدعم من رجال القبائل المحليين. وتمكن بعض هذه القوات من استعادة بعض السيطرة الإدارية على واحة «البريمي»، حيث تبيّن أن هناك مراسلات كشفت عن أن «غالب أمر بطبع عشرة آلاف جواز سفر باقتراح من السعوديين».

ويصف الكولونيل «كولين ماكسويل» هذا الإجراء الذي تمّ في «نزوى» بالشكل التالي:

«شنّت قوات السلطان المرابطة في «الباطنة» هجوماً مع ضوء الفجر من «حزم» واحتلت «القرن» - وهو تلّ صِغير- مقترباً من كلا جانبي ساحل «الرستاق». وكان «طالب بن علي» يعدّ العدة، هو وعساكره، لمهاجمة مواقعنا التي تسيطر على «القرن». وتمكّنت شاحنة «طالب» التي تبلغ حمولتها ثلاثة أطنان من رصد جنود الاحتياط الذين يتمّ نقلهم عبر البحر مع أسلحة صغيرة بالقرب من مواقعنا. واقتربت الشاحنة للمرة الثالثة في ظهيرة ذلك اليوم، فأمرت الجنود بفتح النيران عليها برشاشات «بْرِنّ». فعلقت العربة في خط النيران، وشلّت حركتها، وأجبرت على التوقّف حتى يقفز ركابها من عليها، وسقط جميعهم أرضاً.

---

(١) ذكر أحد العسكريين بين الجنود غير النظاميين الكبار لدى «طالب»، كان قد أُسر في «نزوى» في ١٥ ديسمبر، ١٩٥٥ بأن شحنة مؤلفة من ألفي بندقية و٦٠ ألف صندوق ذخيرة قد أرسلت إلى المملكة العربية السعودية في شهر سبتمبر.

لم يسبق لنا أن رأينا «طالب»، إلّا أن أحد عساكره الذين كانوا في الشاحنة أخبرنا بعد ذلك أنه كان بداخلها، وتمكّنت رصاصاتنا من اختراق هيكل السيارة الضعيف، وجرحت أربعة من عساكر «طالب» وأخطأته بعدة بوصات. فقفز من الشاحنة، واختبأ في بئر معطّلة، وظلّ فيها عدّة ساعات حتى حلّ الليل، فاتخذه ستاراً حتى عودته إلى «الرستاق».

بينما كنا نضيّق الخناق على «طالب» ورجاله بالقرب من مواقعنا، كانت قوة عسكرية من قبيلة «بني غافر[1]» تحت إمرة شيخهم «محمد ابن ناصر الغافري» (وهو ميت الآن) تتجمّع في مدينة «الرستاق»، وتتحرّك بصمت تحت ستار الليل في الجناح الأيمن من جيشي. وتمكّنوا من الاقتراب منّا عبر سيرهم في ثنايا سفوح وتلال «الجبل الأخضر».

وعندما علمت بدخولهم إلى ضواحينا، قدت جنود السلطان في هجوم خاطف على مركز المدينة. فكان النصر حليفنا، ورفعنا راية السلطان على الحصن. وأنا لن أنسى مطلقاً مشهد ابتهاج وفرح مَنْ كانوا في المدينة، حيث توجّه آلاف الناس طواعية إلى الحصن الذي شيّده الشيخ «محمد بن ناصر» في المكان المخصّص للوالي، وهو المكان الذي جلس فيه «طالب بن علي» قبل ذلك بعدّة ساعات. كما أنني لن أنسى مطلقاً تلك المرأة العجوز التي كانت تقف خارج دارها وأنا أمرّ عليها بالسيارة، وكانت تلوّح بذراعيها في الهواء، وهي ترى وجهي وذراعي الضاربين إلى اللون الأحمر مثل لون راية السلطان، فصاحت فيّ «كرّم الله الرجل الأحمر».

وفي التاسع من جمادى الأولى عام ١٣٥٧ للهجرة (الموافق للرابع

(١) إنها قبيلة والي «ظفار»، التي دعمت، وفي كل الأوقات والمناسبات، عائلة السيّد أحمد بن إبراهيم، وزير الداخلية.

والعشرين من ديسمبر عام ١٩٥٥)، وصل السلطان منتصراً إلى «نزوى» ليتلقّى بيعة رعاياه المخلصين، وخضوع الذين تآمروا ضده. وكان قد وصل إليها بالسيارة عبر «صلالة» في ساحل «ظفار»، وصولاً إلى «مسقط» عبر «فهود» و«أدم» و«فرق» و«نزوى» و«عبري» و«البريمي». وانضمّ هناك إلى الشيخ «أحمد بن محمد الحارثي» الذي سبق له أن سارع إلى دعم السلطان، بأن ساق جنوده طوال الطريق من «الشرقية» مع ثلاثمئة من المقاتلين من عدد من قبائل مختلطة من «آل وهيبة» وقبيلته الخاصة «الحِرث». ومرّ السلطان عبر الحشود المرحّبة به يملؤه الحبور في سلسلة من الشاحنات المغبّرة التي أنهكها السفر.

لقد قام برحلة غير مسبوقة، فعَبَرَ المرتفعات من «صلالة» المطلة على المحيط الهندي، ثم مرّ على الطريق السريع الوعر. وكانت رايته الحمراء ترفرف على السيارات، وعبيده السود يجلسون في مؤخرة الشاحنات متشبثين بها، وكان جنوده يتشرفون بمرافقته، وكان المنظر العام يوحي بروح المغامرة والفخامة الملكية في آن واحد. ودوّت أصوات الانفجارات من شرفة الحصن، فملأت السماء الزرقاء بسحب من الدخان الذي لم يلبث أن انقشع. وكان إلى جانب قذائف المدفعية المرحّبة خطّ طويل من العرب يصطفون حول الطريق، فكنّا نسمع إلى جانب أصوات دوّي المدافع صوت طلقات البنادق وصيحات البهجة التي تصدرها النساء، وهدير محرّكات الشاحنات، وغمغمات المتفرّجين؛ لقد كان المشهد أقرب إلى الصخب والهرج في «نزوى» في ذلك الصباح.

وبرز السلطان من الشاحنة بجلالٍ، تعلو رأسه عمامة ملونة كاملة الهندام، ورداؤه مغطى باللون الذهبي. وكان مقبض سيفه من الذهب،

وعلى الرغم من التجهّم الشديد الذي علا وجهه، فإنه لم يرتجف مطلقاً عندما دوّى صوت المدافع[1].

وحاول راديو القاهرة أن يشكّل رأياً عامًّا -بدلاً من تسجيل رأي عام قائم بالفعل- فوجّه رسالة مثيرة بثت عبر الصحارى الشاسعة والأراضي القاحلة:

«لقد هاجمكم العدو بقواته المسلحة، ودباباته، وعرباته المدرعة، وطائراته، ضارباً عرض الحائط بجميع التعهّدات والالتزامات، مستخفاً بشريعة الله وقوانين الإنسان. إن الإمبرياليين يحاولون شلّ الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة العربية بعد أن تعرّضوا للهزيمة في الجبهة الشرقية والغربية. إنهم يحاولون تكرار قصة الاستعمار البرتغالي الذي تحطمت محاولاته أمام القوات العُمانية. يا أبطال «عُمان»، انتبهوا إلى السياسات المزدوجة التي تتبناها الإمبريالية. لقد أعلنت أبواقها أنهم لن يمسّوا استقلالكم، ولكننا نجدهم قد أحاطوكم بالحديد والنار، وشنّوا عليكم هجوماً بجنودهم الغفيرة»[2].

وفي ما يخصّ الإشارة لكلمة «الاستقلال»، فلا بدّ أن المذيع قد نسي أن يذكر أنه خلال العقد الماضي قام السلطان بإصدار عدد كبير من جوازات السفر لرعاياه الداخليين في «عُمان» الذي يرغبون في السفر إلى «زنجبار» وغيرها. وقبول جوازات سفر السلطان التي تصف حاملها بأنه أحد رعاياه يعني بكلّ وضوح القبول بسلطة السلطان. وفي عام ١٩٥٣، قام «صالح بن عيسى الحارثي» -الذي قضى معظم عمره في القاهرة- بملء

---

(١) «جي. موريس»: «Islam Inflamed» (لهيب الإسلام)، (نيويورك، ١٩٥٧)، ص ٢١١ - ٢١٢.

(٢) «جي. موريسي»: «Sultan in Oman»، (سلطان في عُمان)، (لندن، ١٩٥٧)، ص ١٦٠.

وتوقيع طلب الحصول على جواز سفر السلطان، كما فعل أبوه «عيسى ابن صالح» عندما سافر إلى البحرين عام ١٩٣٩. وفي عام ١٩٥٥، وقبل أن تقوم قوات السلطان باحتلال «نزوى»، تعهّد «صالح بن عيسى» شخصيًّا بدعمه للسلطان. ولا يمكننا إغفال أهمّية مثل هذا التعهّد، حيث إن الشيخ «صالح» الذي يجيء على رأس قبيلة «الحِرْثْ»، كان أحد المشاركين في انتخاب «غالب» لمنصب الإمامة المشكوك فيها (إلى جانب «سليمان بن حِمْيَر»). وعلاوة على ذلك، فإنّ هذا التعهّد يأتي على لسان شخص يعتبر من الناحية النظرية «تميمة»(١) جميع القبائل الحناوية، فيؤدي غيابه إلى انقسام هذه القبائل. وهناك ثلاثة على الأقلّ يتنافسون على قيادة هذه القبائل، وهم «أولاد ضاهر» والإخوة «الخليلي» (هلال، عبد الله وسعود بن علي، وجميعهم من أمهّات مختلفات)، والشيخ «أحمد بن محمد الحارثي»، وربّما أيضاً «أولاد هلال» وشيوخ «آل سعد» أيضاً. بل إن «طالب» نفسه عندما رغب في السفر إلى الخارج في مناسبتين مختلفتين، قام بالتوقيع على طلب للحصول على جواز سفر، وكان آخر مرّة صدّق فيها السلطان على هذا الجواز عام ١٩٥٤:

**أنا الموقع أدناه وصفتي:**

**«طالب بن علي بن هلال الحناوي»**

المقيم في «الرستاق»، وأحد رعايا حكومة سلطان «مسقط وعُمان»، والمولود في «سَيْتْ» عام ١٣٣٧ [للهجرة]

أسلم طلبي الحصول على جواز سفر لرحلة إلى:

---

(١) كان يوجد فقط ثلاثة «شيوخ كبار يُعتبرون تميمة» في «عُمان»:
(أ) عائلة «الحمودة» من «بني بو علي» من «جعلان».
(ب) الشيخ «سعيد بن عامر» من «بني علي» من «يعْقِل».
(ج) عائلة «النباهنة» من «بني ريام» في «الجبل الأخضر».

الهند، وباكستان، والعراق، والكويت، والبحرين، وشرق إفريقيا، والمملكة العربية السعودية لتغيير المناخ. [ويعقب ذلك وصف لطالب الجواز وصورته].

في عام ١٩٥٧، سافر «سلطان بن سليمان بن حِمْيَر» إلى الهند عن طريق جواز سفر أصدره جلالته. وبالإضافة إلى ذلك، فإنّ رعايا السلطان في وسط «عُمان» كان يذهبون إلى محكمة الاستئناف في «مسقط» ويقبلون بأحكامها، كما أن جميع المراسلات التي تتمّ مع الإدارات الأجنبية، في ما يخصّ حالة الأفراد المقيمين داخل البلاد وأوضاعهم القانونية كانت تخرج من حكومة السلطان.

على الرغم من ذلك، فإن كلّا من الشيخ «إبراهيم عطيفيش» -وهو إباضي من غير العُمانيين- و«محمد بن حامد الحارثي» (الذي سافر بجواز سفر أصدره السلطان) تجرّأوا على تعيين أنفسهم سفراء رسميين للإمام في القاهرة (**الملحوظة أ**). كان «محمد» بحاجة إلى وظيفة على أية حال، حيث إنه حرم من ميراث أبيه الثري - وهو أحد الشيوخ البارزين العُمانيين، وكان يقطن في الشرقية- وذلك لعدم ولائه للسلطان. وعلى الرغم من أن الاثنين يزعُمان في وقتنا الحالي أنهما يمثلان ثلاثة ملايين من الرعايا[١] - وهو رقم يبلغ ستة أضعاف إجمالي عدد سكان السلطنة بأسرها - إلّا أنهم قد فشلوا في الحصول على اعتراف بدولة «عُمان» المستقلة التي زعموها في الجامعة العربية، وهو ما كان سيمثّل لهم مجاملة كبيرة من أعضاء الجامعة المميّزين، الذين قيل عنهم - في اجتماع سابق - إنهم أرجأوا الأمر للذهاب إلى المكتبة في محاولات لا طائل منها لتحديد موقع

---

(١) انظر «راي آلان»: «Between the Saudis and the Sharks»، (بين السعوديين وأسماك القرش)، مجلة: «The Reporter»، العدد ٣، (سبتمبر، ١٩٥٧)، ص ٢٤.

الدولة المهيأة على الخريطة. فوجدوها دولة بلا حكومة أو حدود أو اعتراف من أية دولة أخرى. «إن الشرط الأول في الدولة هو وجود حكومة فعلية فيها، مستقلة عن أية دولة أخرى بما فيها الدولة الأم» **(الملحوظة ب)**.

بعد أن رسّخ السلطان سلطته في «نزوى»، قام شيوخ الداخل - حيث كان يحاول كل من «غالب» و«طالب» بلا جدوى إنشاء دولة مستقلة مع «سليمان بن حِمْيَر» على رأسهم- بالاعتراف رسميًّا بسيادة السلطان. وعلى الرغم من أن «طالب» هرب من «عُمان» متوجّهاً إلى «المملكة العربية السعودية»، فقد كان مباشراً لدرجة أنه هو الوحيد الذي لم يخضع للسلطان، ولكنه أعلن بكل وضوح أنه قد يحاربه. وتخلى «غالب» الذي فقد أعوانه عن المطالبة بالإمامة في «نزوى» في السادس عشر من ديسمبر عام ١٩٥٥، وظلّ يعيش في «عُمان» بموافقة السلطان، أقام في قريته «بلد صَيْت»، وذلك بضمان من شيخ «ظفار» الذي ينتمي إلى قبيلته، حتى يستقيم أمره. ثم فإن دعاويه السابقة ومطالبته بالإمامة -حتى وإن صحت، على الرغم من أن سادة القبائل الكبرى لم تتمّ استشارتهم في الأمر- لم يعد لها اعتبار، ويتحتّم أن يتم انتخابه مرّة أخرى -بالطريقة المثلى- حتى يستحقّ هذا اللقب. وصار جميع القضاة الذين وقعوا على انتخاب «غالب» من القضاة المخلصين الذين يعملون في خدمة السلطان. ولم يكن أغلب الناس داخل «عُمان» على علم بـ«غالب» إلا من خلال التمرّد الذي قام به، ولكنهم مازالوا يجلّون ذكرى الإمام الراحل «محمد».

ونجد في هذه الدراما العُمانية الظاهرة للعيان واحداً من أكثر الشخصيات ديناميكية هو شقيق السلطان السيد «طارق». ولد طارق سنة ١٩٢١ في «بومباي»، وأخذته أمّه التركية إلى «اسطنبول»، ولم يكن عمره يتعدّى السنة الواحدة. وعندما بلغ الثالثة عشر من عمره ذهب إلى «فرانكفورت»، حيث كان خاله التركي يمارس مهنة الطب. وبعد ذلك

بخمس سنوات، كتب إليه السلطان يطلب منه العودة مع «طارق» إلى «عُمان»، حيث كان يتحدّث الإنجليزية والألمانية والتركية، إلّا أنه كان يجهل العربية، فلم يكن يستطيع أن يتحدّثها أو أن يتعلّم عادات شعبه. وبعد عشرين عاماً، كانت العربية مازالت ثقيلة على لسانه إلى حدّ ما نتيجة تعليمه الأجنبي.

أبحر «طارق» في رحلة عودته إلى «مسقط» عام ١٩٣٧، وكان السلطان حينئذٍ في زيارة للهند. وعند عودة السلطان أرسل إلى أخيه ليُقيم معه لثمانية أشهر في «صور»، حيث كانت هي المكان الذي يمكنه فيه تعلّم العربية. وأعقب هذا فترات تعلّم خلالها عمل الشرطة في مدراس التدريب العسكري مع مليشيا «زوب» في «بلوشستان»، بالإضافة إلى اكتسابه خبرة إضافية عن مشاة «مسقط». وتزوّج «طارق» مرتين، وكان لديه خمسة أطفال من كلّ زوجة، عاش منهم ستة أبناء وابنتان.

ومع بداية عام ١٩٥٧، تشاجر «إبراهيم بن عيسى» شقيق «صالح ابن عيسى» مع ابن أخيه «أحمد» (وكان لهذا الشجار تاريخ قديم دام فترة طويلة)، وذلك تحت ذريعة ملفّقة. فطلب الشيخ «أحمد» المساعدة من السلطان، فأرسل إلى أخيه «طارق» ليجد أن «إبراهيم» وعددا ممن حوله قد أحسنوا التصرّف. رفض «إبراهيم» في البداية أمر السلطان بالمجيء إلى «مسقط»، وبعد تداول وتشاور طويلين، أدرك أن موقفه صعب، ويتعذر عليه الدفاع عنه، فأذعن «إبراهيم» للسلطان وسجن. ولم تمضِ فترة طويلة حتى بدأ تمرّد عام ١٩٥٧. ولم يكن هناك شك في أن ذريعة «إبراهيم» هي المرحلة الأولية من هذا التمرّد، وأن الهدف منها هو تهيئة الأرض لعودة كلّ من «طالب» و«غالب».

وعندما اندلعت الإضطرابات للمرّة الثانية، ترك السيد «طارق» موقعه كمدير لبلدية «مسقط» - وطُرح مؤقتاً ليعمل كضابط اتصال مسؤول عن إعمال القانون وفرض النظام بين جيش السلطان والإدارة المدنية. في البداية انتهك «طالب» «اتفاقية سيب» لعام ١٩٢٠، عندما

أنزل بنادق وذخيرة في «سيب». وكان منبع هذه الأسلحة هو ميناء «الدمام» (في المملكة العربية السعودية)، وتمّ تهريبها ليلاً عبر البحر. فكانت أول مهمة للسيد «طارق» هي أن يقوم بتجميع ربع هذه الأسلحة، وأن يستعيد الذخيرة التي تمّ دفنها في الرمال. وكما سبق أن أوضحت آنفاً، فإن «مبارك ابن عمير» شيخ قبيلة «خُص» قد تعاون مع «طالب» في هذه العملية غير الشرعية. وقد فسّر هذا الأمر، في ما بعد عندما ركع أمام وزير داخلية السلطان يطلب منه العفو، فقال إنه لم يكن بإمكانه رفض ما يطلبه «طالب»، مثله في ذلك مثل «بني حِنَا»، وأن «طالب» لم يلقِ بالاً لقضية رفعتها قبيلته ضده حتى لا يحدث أيّة قلاقل في البلاد.

وفي منتصف عام ١٩٥٧، علم السلطان لأول مرة بعودة «طالب» سرًّا في الرابع من يونيو (حيث رسا هو ورجاله في أعداد قليلة من حوالى مئة رجل تقريباً تحت قيادة «طالب» نفسه في «سويق»، ومئة آخرين شمالاً في صحار) عبر ساحل «الباطنة» إلى موطنه في جبل «القور» (على بعد خمسين ميلاً شمال «نزوى»). وكان يصاحبه ما يقرب من مئتي رجل أو يزيد من قبائل مختلفة، وإن كان أغلبهم من «بني حنا»، الذين تلقوا تدريبات عسكرية نظامية خارج «عُمان» في «الإحساء»، وهو إقليم تابع للمملكة العربية السعودية. فوفّرت السعودية لـ«طالب» هناك أغلب احتياجاته من المال والسلاح والذخيرة، والمداهنة. كان رجال «طالب» مدجّجين بأسلحة آلية وألغام أرضية. وكان قد عهد لـ«محمد بن خلفان» الراحل بإحضار المال من الدمّام إلى «طالب»، إلّا أنّه بعد ذلك بفترة طويلة فقد «محمد» حياته في الحملة أثناء هجوم ما، وذلك عندما شعر بالاختناق من التراب والغبار المنتشر داخل كهف لجأ إليه اتقاء لهيب المعركة، فهرول إلى الخارج -حمقاً منه- فأصيب بشظية قنبلة. وعندما علم «غالب» بعودة أخيه، هرب من قريته «بلد صيت»، وانضم إليه في جبل «القور»، وهو ما خرق الضمان الذي أعطاه الشيخ «زهار» للسلطان.

وأرسل السلطان من فوره رسولاً إلى أحد أبناء «ظفار» يستدعي كلاً من «غالب» و«طالب» للمجيء إلى «مسقط»، محذراً إياهما في حالة رفضهما الانصياع للأمر بأنه سوف يتخذ إجراءً ضدهما. وعندما لم يلقَ استدعاءه سوى التجاهل، أرسل السلطان رجاله من قوة ميدانية تتمركز في فرق - بمصاحبة «طارق»- إلى «الحمرة» بهدف واحد هو الهجوم على «بلد صيت»، وإجبار «غالب» و«طالب» على الخروج من جبل «القور» للقتال.

لم تكن لدى المتمرّدين في بداية المعركة سوى البنادق الآلية الخفيفة، بالإضافة إلى قنابل يدوية وألغام أميركية الصنع في جعبتهم (لم تدخل مدافع الهاون والدبابات الثقيلة المضادة للألغام في الصورة إلا في شهر يونيو عام ١٩٥٨). وانفجرت أول سيّارة مدنية في شهر يوليو عام ١٩٥٧ بالقرب من «بهلة»، عندما خطت على أحد الألغام الأرضية التي وضعتها قوات «طالب». وبعد أسبوع تقريباً، أمر السلطان بعودة القوة الميدانية، و«طارق» إلى «نزوى» في ظلّ عدم تحقيق نتائج إيجابية حتى ذلك الحين.

كان «سليمان بن حِمْيَر» من الرجال الذين يتميّزون باليقظة الشديدة، وكان ضيفاً على السلطان في «مسقط» بعد بيعته إياه، ولكنه انسل سرًّا فجأة، وعاد إلى موطنه في «تنوف»، ثم انضم من هناك إلى متمرّدي «طالب»، وأثار قبيلته «بني ريام» على السلطان. وعلى الرغم من أن كثيراً من الشيوخ أسدوا إليه النصح بأن يبقى موالياً للسلطان، فإنه صدّق الشائعة التي نشرتها إذاعة «القاهرة» بأن الجامعة العربية تسانده، وأن البريطانيين فقدوا ثقتهم في السلطان، وأنهم لن يهبّوا إلى نجدته إذا ما طرأ طارئ، وأن زيارة وفد من الشركة العراقية للبترول للجبل الأخضر عام ١٩٥٧، توحي بأن المنطقة تحتوي على البترول، وأن الشركة ترغب في التنقيب والحفر هناك.

فما كان من «سليمان» بمزاجه المتقلّب وسذاجة فكره، بالرغم من عمره الذي بلغ الخمسين عاماً -وقد كان عليل الجسد بلحية رمادية شديدة

الطول وعينين كبيرتين- إلّا أن اتخذ قراراً كارثيًّا، حيث كانت جميع افتراضاته غير صحيحة جملة. فمن الناحية الأساسية انضمّت قبيلته جميعها (كانت تعجز عن مساعدة نفسها) إلى جانب جزء من قبيلة «بني جِنَا» إلى المتمرّدين، ولكن ظلّت القبائل العُمانية الأخرى البالغ عددها مئتي أو أكثر على ولائها للسلطان. وممّا تجدر الإشارة إليه هنا أنه لم ينضمّ أحد ممّن وقّع على معاهدة «سيب»، التي أبرمت عام ١٩٢٠، أو أحد من نسلهم إلى التمرّد إلا شخص واحد فقط، فجميع من تبقّى على قيد الحياة ممّن وقّع على المعاهدة أو أبنائهم أو أحفادهم دعموا قوات السلطان.

كان «سليمان» يضع نفسه سيّداً على القبائل الغافرية في «عُمان»، على الرغم من أنه لم يلقَ قبول جميع القبائل الغافرية. وعلى الرغم من أنه كان شيخ قبيلة «بني ريام»، إلّا أنه لم يكن من أبناء القبيلة، بل هو من قبيلة «بني نبهان» الذين اغتصبوا سلطته. كانت سلطة «سليمان» الاستبدادية أقرب في التشبيه إلى السلطة المطلقة على هذه القبيلة، التي قال عنها «ولستيد»: «أهملوا صلواتهم وأفطروا في رمضان، وانغمسوا صراحة في شرب المسكرات المحرمة. كانت نساؤهم تسير بلا حجاب ولا يُبدي الرجل منهم أية غيرة عليهن[١]».

كان «سليمان» يوصف بالشخص الدنيء الجشع، فمنع المياه عن المزارعين بالقرب من محل إقامته في الصيف في «سيق» حتى تتشبع حدائقه الواسعة ريًّا. وتقع «سيق» - زارها مؤلف الكتاب الذي بين يديك عام ١٩٦١- جنوب «الجبل الأخضر»، أسفل منحدر ضخم يبلغ ارتفاعه ٤٠٠ قدم، إلّا أن طول مسقطها الرأسي يبلغ ٦٥٠٠ قدم. وتعدّ

---

(١) «جي. أر. ولستد»: «Travels in Arabia»، (رحلات في شبه الجزيرة العربية)، المجلد الأول، (لندن، ١٨٣٨)، ص ١٤٥ ـ ١٤٦.

هذه القرية ثانية أو ثالثة أكبر القرى التي تقع على منحدرات الجبل. وتُبنى بيوتها من الحجارة مع الجصّ الذي يفرط في استخدامه. ومازال هناك مسجد قديم يقف شاهداً على أربعمئة سنة من عمره، حيث يرجع تاريخه إلى اليعاربة. ويعيش ما يقرب من مئتين وخمسين من «بني ريام» داخل «سيق» وحولها.

ويصف السيد «طارق» «سليمان» من الناحية الشخصية بأنه شخص منغمس في ملذاته، ومن الناحية السياسية بالطاغية. وكان سلوكه كحاكم يذكّرنا بأحد اللوردات الإقطاعيين في العصور الوسطى، بل قيل إنه يمارس حقه. وعلى الرغم من ذلك، ونظراً إلى أنه كان يرغب في تقديم البيعة للسلطان، صدّق السلطان على أنه سيّد «بني ريام»، ولكنه كان بغيضاً لديهم بدرجة دفعت كبار فصائل «بني ريام»، أثناء غيابه عام ١٩٥٩، إلى أن يطلبوا من السلطان في «الجبل الأخضر» أن يضمن لهم عدم عودته مرّة أخرى إلى الجبل.

لم يكن «سليمان» محبوباً في الماضي أيضاً، فقد أصدر الإمام «محمد بن عبد الله» أثناء حياته أمرين بقتل «سليمان». وكان ممثل الإمام عند الأمر الأول هو ابن أخيه «عبد الله بن علي»، وفي الأمر الثاني كان مستشاره العسكري الشيخ «سيف بن أحمد» التابع لقبيلة «الرشيدي»، إلّا أن يقظة «سليمان» وحرصه أنقذا حياته. فقد كان على دراية تامّة بنوايا الإمام. وإذا حدث أن جاءت مناسبة تفرض الاجتماع بين الرجلين، كان «سليمان» يُصرّ على أن يتم ذلك خارج حصن «نزوى»، حيث كان بإمكانه الاحتفاظ بعدّة مئات من «بني ريام» لحماية حياته.

وكان «سليمان» يطمح أن يكون حاكماً، وأن يحوز على لقب السلطان والإمام وحده، ولكن شرط أن يأتي ذلك على شاكلة شيخ «البحرين» -فيكون تحت حماية قوة كبرى- فوضع «دستوراً» لدولته الخيالية أعدّه محام أميركي في الكويت، ثم حاول أن يحقّق حلمه

بالاقتراب من «بريطانيا»، ثم من «الولايات المتحدة الأميركية»، ولكنه فشل في كلتا الحالتين. إلّا أن طموحات «سليمان» لم تكن تتناسب بالطبع مع الخطط التي وضعها كلّ من «طالب» و«غالب»، والتي تختلف اختلافاً تاماً عنها؛ حيث كان «طالب» على دراية بهدف «سليمان»، فكان يشعر بحقد شديد لا حدّ له تجاه هذا الهدف والرجل نفسه، في الوقت الذي كان يرغب باستغلال الرجل، واضعاً في اعتباره أن بإمكانه التخلّص منه في ما بعد، وذلك بعد أن يستعيد أخوه الإمامة.

أثمرت عودة «طالب» إلى «عُمان» عن قوة دافعة، أدّت إلى تحرّك روح التمرّد والعصيان. وكانت قوّات السلطان في ذلك الوقت منخرطة في عمليات تأمين لمنطقة «القرية» التي كان يعيش فيها مدّعي الإمامة. وكان السيد «طارق» يحرس خلال هذه العملية خطوط الاتصال. وبينما كان «طارق» خارجاً من «الحمرة» بالقرب من «بلد صَيْت» في طريقه إلى «نزوى» العليا بسيارته «اللاند روفر»، وقع في كمين نصبه له مئتا رجل من «بني ريام» التابعين لـ«سليمان بن حِمْيَر» عند «تنوف». ووسط هذا الاضطراب والإثارة، لم تثبت حركة «طارق» بالسيارة، على الرغم من تركيز إطلاق النار عليه، من مسافة لم تبعد أكثر من خمس إلى ست ياردات، فتمكّن من الهرب، تاركاً وراءه ثلاثة فقط من القتلى وخمسة من المصابين. وفي الوقت نفسه، بوغتت قوات الأمن بالألغام الأرضية، وهي في طريق العودة إلى «نزوى» بعد نهاية عملياتها؛ وعندما وصلوا إلى «إزكي» أطلق رجال «سليمان» النار على عدد من سيارات السلطان التي تحمل الرجال المصابين إلى «مسقط» لتوفير العناية الطبية لهم. وكان من أنشط المقاتلين لصالح السلطان الرائد «توني هارت»، الذي فقد وعيه لفقدان المياه، وقتل عدد من أصحابه من العطش أثناء القتال. ووصلت قوات الأمن و«طارق» إلى «فرق» جنوب «نزوى»، بعد أن خسروا العديد من الرجال والمركبات. وفي ذلك الوقت، طلب قائد القوات الميدانية من

السلطان السماح له بالتحرّك إلى «فهود» لإعادة التنظيم وانتظار التعزيزات القادمة من «صحار»، والتي كانت في طريقها إليهم في ذلك الوقت، فسمح لهم السلطان بذلك وغادر «طارق» معهم.

وعلى الفور، وبعد وقوع قوات الأمن والسيد «طارق» في الكمين، وقع أمر من الأمور العجيبة التي تحدث في الحروب، وهو سقوط «نزوى» في أيدي المتمرّدين. وكانت هذه المدينة ذات أهمية كبيرة، وعلى جري المثل العُماني أنّ «من امتلك نزوى امتلك «عُمان»»، وذلك مهما كان عدد المدن والقرى التي استولي عليها، فإذا لم يتم الاستيلاء على «نزوى» (هي أكبر المدن داخل «عُمان»، ويبلغ عدد سكانها ثمانية آلاف نسمة)، فإن «عُمان» لم تقع تحت السيطرة.

تقع مدينة «نزوى» عند نقطة اتصال أربعة جداول تجري عند سفح «الجبل الأخضر»، على ارتفاع يبلغ ألفاً وسبعمئة قدم. ولا يحيط بنزوى سور من الخارج، وإن كانت تحتوي على العديد من المقرّات المحاطة بأسوار ومنفصلة عن بعضها، ولكلّ منها أبراج المراقبة الخاصة بها، فذلك منها كان بمثابة حصن منيع بحد ذاته، تخالطه أشجار النخيل وبساتين الفاكهة والحدائق.

والجزء العلوي من المدينة الذي يسمّى «نزوى علاية» (أي العليا) هو حصن «بني ريام»، أما الجزء الرئيس فهو «نزوى سفالة» [أي السفلى] التي تقع بها السوق والمسجد الجامع (أكبر المساجد في «عُمان»)، والحصن الدائري، ويسكنه خليط من القبائل، وإن كان أكثرهم من «بني حِنَا» أو حلفائهم، إلى جانب مجموعات من «كنود» و«ألبوسعيد» و«العبريين». ويتمتع كلٌّ من «بني ريام» و«بني حِنَا» - هم في الواقع قبيلتان تجمعهما مشاعر الغيرة وافتقاد الثقة - بمزايا جغرافية لكلٍّ منهما، فبنو ريام في منطقة علاية (أي العليا)، يحتلّون موقعاً يمكّنهم من قطع موارد المياه عن سفالة (أي السفلى)، في حين أن «بني حِنَا» يحتلّون أقوى ربع في

«نزوى». وعلى يسار الطريق، وبين هذين الجزءين من المدينة، نجد سهلاً أجرد، فيه بعض المساجد الصغيرة المتفرّقة، ويشرف عليه برج يعلو قمّة صخرية يعرف ببرج القرن. وكان هذا السهل، منذ قديم الأزل، هو المكان الذي تتجمّع فيه الجيوش، وتستقرّ فيه معسكرات الغازين. وإذا ما رجعنا إلى المثل المشهور، الذي يقول: إن من يملك «نزوى» يملك «عُمان»، نجد أنه يعني حقاً أن من يملك «برج القرن» فإنه يملك «نزوى»، وذلك بالرغم من الحصن الهائل الذي يقع في «نزوى السفلى»، حيث إن هذا البرج يسيطر على جميع الطرق الشمالية والغربية التي تخرج من «نزوى السفلى»، بالإضافة إلى الطريق الذي يربط بين القطاعين، كما أن الموارد المائية للمدينة الجنوبية تنبع في معظمها من الأعلى.

وإلى جانب اشتغال أهل «نزوى» بالزراعة (هناك محطة تجارب زراعية حكومية في «نزوى») التي تثمر عدداً كبيراً من المحاصيل والغلال، إضافة بالطبع إلى التمر، فإنهم يعملون أيضاً على استخلاص «النيلة» من النباتات التي تحتوي على مادة «النيلين» من أجل استعمالها في الصباغة؛ فالإزار العُماني -وهو رداء شبيه بالسارنج يُلبس عادة في هذه المنطقة كثوب تحتي- يصبغ باللون الأزرق بواسطة «النيلة». وهناك أيضاً الإسكافيين والعاملين في الخزف والنحّاسين إلى جانب صائغي فضّة بدائيين. وتتسم منتجات هؤلاء الحرفيين ببدائيتها، وهو ما يضفي عليها مسحة من الجمال. وفي «نزوى» أيضاً موطن لآخر صنّاع قدور القهوة المحلّيين الباقين. ومن محاصيلها قصب السكر الذي يصنع منه السكر البنّي، الذي مازالت تتمّ معالجته محليًّا. كما أن أجود أنواع الحلاوة - نوع من الحلوى التركية تمثل لهم طعاماً قوميًّا هناك- تأتي من «نزوى». وتصنع هذه الحلوى من مركب جلاتيني يتألف من الدقيق والسكر والجيه (زبدة مصفّاة) وماء الورد والهال والسفرنين - وهي في قوامها (نكهتها) تشبه القرص الصمغي، وهي تحلّى باللوز، ويستغرق طهيها أربع ساعات تقريباً (**الملحوظة ج**).

يطلّ على «نزوى» حصنها المهيب، وهو حصن فريد في بنائه لا يوجد مثله في جميع أنحاء «عُمان» وجنوب شبه الجزيرة العربية أيضاً. وتجد داخل هذا البناء إلى جانب ما تحتويه الحصون عادة مجموعة من الإسطبلات، وحجرات التخزين، ومأوى الجنود، والسجون، وحجرات[1] الاستشارة الخاصة بالوالي. كذلك تجد برجاً دائريًّا هائلاً يقرب من حجم باقي الحصن، ويشرف بالكامل على «نزوى السفلى» والمناطق الريفية التي تقع في الجنوب. ويبلغ ارتفاع هذا البرج الضخم (بُني على قاعدة صلبة، ولكن من الغريب أنها ليست على مكان عالٍ) ثمانين قدماً تقريباً، ويبلغ قطره مئة وخمسين قدماً. والستين قدماً السفلى مصمتة تماماً، فهي غير قابلة للتدمير (فالقذائف المضادة للدبابات التي أطلقت عليه عام ١٩٥٧ ارتدت عنه بكلّ ما للكلمة من معنى). أما العشرون قدماً الأخرى فهي مثل صحن الفنجان مفتوحة على السماء، ولها أرضية دائرية، محاطة بسور، يبلغ ارتفاعه عشرين قدماً. وهناك مجموعة متواصلة من درجات السلم الخطرة، داخل هذا السور، تقود إلى موضع إطلاق النار على مسافة مناسبة من المتراس الذي يحتوي على شرفات مفرجة. وتحتوي أسوار هذا الصحن على العديد من الفتحات والكوات التي مازالت تخرج منها فوهات المدافع العتيقة.

مررت أنا و«بيل تري» في إبريل عام ١٩٦١ على بوابات الحصن الضخمة، وعبرنا الساحة، ودخلنا من بوابة المبنى الداخلي. وبعد تجاوز العديد من المنعطفات تحت بصر حرّاس السلطان الذين لم يرفعوا أعينهم عنّا، وصلنا إلى البرج الضخم نفسه. كان باب البرج (وهو المدخل الوحيد) يقع على ارتفاع أربعة أقدام من المستوى الذي كنا نقف

(١) إن الوالي في «نزوى»، والمعيّن من قبل السلطان، كان لبضع سنوات، «هلال ابن حَمَد السمّار ألبوسعيدي».

عليه، وكان يفصله عنا خندق عميق؛ فتغلّبنا على هذه العقبة في النهاية بأن وضعنا جسراً من جذع نخلة مائل (والذي يسحب إلى الداخل عند غلق الباب)، وأصبحنا بعد ذلك عند باب البرج.

يتألف الطريق إلى أعلى البرج من نفق لولبي بدرج، والذي كان ملتوياً إلى أعلى، خلال الجزء السفلي المصمت من البرج. وكانت إضاءة المكان ضعيفة، حيث استخدمت فيه قطع من الخشب المشتعل ومشعل يدوي. وخرجنا بعد ذلك إلى أرض الصحن، الذي يقع على ارتفاع ستين قدماً. وكان الصحن يحتوي على حجرات تخزين، تقع على جوانب السور المحيط بها، والذي يبلغ سمكه ستة أقدام. وكان هناك مهوى لبئر يخترق البرج حتى مستوى تحت الأرض، وكانت هناك حفرة خاصة لقضاء حاجة الحامية، إلى جانب حفرتين إضافيتين في أرض الصحن بحجرات صغيرة محكمة الإغلاق بشبكات من الحديد الثقيل، فكانت في واقع الأمر زنزانات خاصة بالمساجين. وكان السجين البائس يوضع داخل إحدى هذه الحجرات بواسطة حبل يُربط به، ثم يسحب الحبل إلى أعلى ويغلق عليه الباب، ويمكث في مكانه (كان مدى انتشار استخدام هذه الزنزانات وطول فترة إقامة السجين فيها تعتمد على مدى قسوة النظام الذي يحكم نزوى). ورويت قصة عن «طالب» عندما حكم المكان لفترة قصيرة في حصن «نزوى» عام ١٩٧٥ ، فكان يحبس بعضاً من جنود السلطان داخل الحصن، وتمكّن أحدهم من فك وثاقه ليأخذ شربة ماء، فقتله أحد جنود «طالب» من ظهره، فأمر طالب على الفور بإسقاط هذا الجندي الخسيس داخل إحدى الزنزانات، ثم نسي أمره تماماً.

ويحتوي هذا الحصن ببرجه الهائل على قاعدة من البناء الصلب، وموارد مياه خاصة به (وفقاً لما قاله السلطان، فإن مستوى المياه داخل البرج الدائري أعلى من مستوى المياه في المنطقة المحيطة)، وهو ما يمكن اعتباره مكاناً حصيناً منيعاً؛ فيمكن لشخص واحد في الأعلى أن

يسيطر على الوضع بمنع أيّ شخص من الصعود على السلالم. وعلى الرغم من أن أهل المكان يقولون إن من بناه هم الجنّ، فإنّ الحصن شيّد في الواقع قبل اثنتي عشرة سنة من فترة حكم الإمام «سلطان بن سيف الأول» (حكم من عام ١٦٤٠/ ١٦٤١ حتى عام ١٦٧٩/ ١٦٨٠ وفقاً للتقسيم الزمني الذي اتبعه مؤلف الكتاب الذي بين يديك)، وبلغت تكلفة بنائه «لكّات من الذهب والفضة».

ويمكننا بعد ذلك أن ندرك أن سقوط حصن «نزوى» المنيف، وما يتألف منه من مبانٍ صغيرة، بالإضافة إلى برجه الضخم، أمر يحتمل أهمية لا مثيل لها. وفي الواقع لم يسقط الحصن أو المدينة على الإطلاق بقوة السلاح، وإنّما كان يتمّ تسليمها للعدو كهدية كما فعل الشيخ «حمد ابن سعود» الذي كان والياً في ذلك الوقت. وكان البرج نفسه مجهّزاً بجنود من «مسقط» وقوة «عُمان» الميدانية، تحت قيادة عريف، بأوامر يوردها للوالي. وكان إلى جانبهم أربعون رجلاً من قبيلة «عبري» في خدمة الوالي. وعندما توقع الوالي أن يقع تحت الحصار قام بالهرب، في حين ظلّ العريف وكتيبة من القوة الميدانية في الحصن، وأسروا في المعركة. ويلفت فعله هذا النظر إلى غرابته، فقد كان لديه تاريخ من الأعمال البطولية في الماضي، ولكن قيل إن شيئاً أدخل الرعب في قلبه في رسالة الوداع التي بعثها إليه أبوه، والتي من دواعي السخرية أنها كانت تحتوي على تعليمات من السلطان بالصمود والحفاظ على الحصن؛ لو ثبت الوالي أمام الهجوم، لحارب رجاله وتمكّنوا من الحفاظ على الحصن، فقد كانت لديهم كميّات غير محدودة من الماء والطعام وعدد كبير من الأسلحة والذخيرة داخله، وقد تمكّن هذا الحصن ذات مرة في الماضي من الصمود لخمس سنوات متواصلة.

وتكمن هنا البداية التي أدّت إلى هروب الوالي (**الملحوظة د**). وكان السلطان قد أبرق إلى «طارق» يخبره أن على الوالي البقاء في الحصن،

فسلّم «طارق» رسالة السلطان مكتوبة إلى الوالي، مذيّلاً إيّاها بخبر يطلعه فيه أنه سوف يعود خلال أسبوعين لنجدته، وأن يكون الحصن على اتصال يومي به عن طريق البرق. وقد تسمح هذه الفترة للقوات النظامية بإعادة تنظيم نفسها بعد الخسائر التي منيت بها جرّاء الألغام الأرضية. وفي ذلك الوقت كان صرّاف الرواتب الذي يعمل لدى «طارق» هو «سعود ابن حارب» والد الوالي، وقد كتب رسالة وداع تقطع نياط القلوب إلى ابنه مع الخطاب الذي بعثه «طارق» معه. ولم يكن «طارق» قد رأى محتويات هذا الخطاب الذي احتوى على ما أدخل الرعب في قلب ابنه. وتلقى الوالي «حمد بن سعود» البالغ من العمر أربعة وثلاثين عاماً كلتا الرسالتين. وبعد ساعتين عندما حلّ الظلام، وبينما كان المتمرّدون معسكرين في «نزوى العليا» على بعد ميلين من الحصن، جمع زوجته وأطفاله وماله وهرب إلى «فهُود» ثم إلى «عبري». وكان «طارق» يرى أنه لو كان لدى الوالي مستشارون جيّدون لكانت لديه فرص جيدة للحفاظ على الحصن.

وفي صباح اليوم التالي لهروب الوالي، اقتربت قوات «غالب» تحت قيادة الملازم «زكري بن ظاهر» بمجموعة من النساء في المقدّمة لحماية رجاله البالغ عددهم ثلاثين رجلاً أو يزيد (وهم الذين تلقوا تدريباتهم في الدمام) وبعض رجال من عدّة قبائل مختلفة. وقد استخدم النساء، وهو إجراء كان يعادل في «عُمان» التلويح بالراية البيضاء؛ لأنه لم يكن ليصدّق أن الحصن قد هجر، ولم تكن هذه هي المرّة الأولى التي تستخدم فيها النساء لهذا الغرض. ففي إحدى المرات، عسكر مئتا جندي من القوات الميدانية العُمانية التابعة للسلطان في «الحمرة»، حيث احتشدت قبيلة «عبري» الملكية لقتال المتمرّدين من «بني حِنَا». وكانت هناك قريتان مواجهتان لبعضهما البعض في «الحمرة»، واحدة تنتمي إلى «عبري» والأخرى إلى «بني حِنَا». وكانت المنطقة التي تفصل بين القريتين تحتوي

على عدد كبير من الأبراج المنيعة. وكان أحد هذه الأبراج يبلغ ارتفاعه أربعين قدماً، وكانت أسواره ذات سمك يزيد عن ثمانية أقدام، وكانت تحت يده حامية من المتمرّدين. وعلى الرغم من أن هذا البرج بإمكانه الصمود أمام مئة ضربة، فإنه بعد أن تلقى الضربة الأولى، انتشرت سحب من الغبار، فظنّ المتمرّدون أن البرج على وشك الانهيار، فظهرت النساء من جانب «بني حِنَا» فجأة، فظنّ «طارق» وهو ينظر إليهن بنظارته الميدانية، أنهن يأتين بالماء والطعام لرجالهن. ففي «عُمان» كان من الواجب على النساء وحق عليهن أن يأتين بالماء والطعام إلى رجالهن في الحروب الطويلة. ولم يكن لأحد أن يطلق النار عليهن أو يؤذيهن وهنّ في طريقهنّ، وعلى الرغم من أنهن قد يمنعن في ظرف من الظروف من المرور على خطوط القتال، إلّا أنه لا توجد أيّة قيود أخرى عليهن في تحرّكاتهن. وكان الأمر الثاني، الذي علمه «طارق»، أن أربعة رجال هربوا من البرج، تاركين عدداً من الرجال وراءهم، وكان هؤلاء يهرولون مسرعين فراراً بحياتهم و«كأنهم قطيع من الجمال تطاردها الأسود»، وكان في صحبتهم النساء. فكان هذا الأمر أكثر ممّا يتحمل رجال قبيلة «عبري» الذين أطلقوا النيران بلا طائل على مسافة ألف ياردة. وعلى الرغم من فرار هؤلاء الرجال، فإنّ من تبقى من الحامية ظلّ في البرج، ولم يتم أسرهم أثناء القتال على الإطلاق. ثم لجأ «طارق» بعد ذلك إلى استخدام عدّة أرطال من متفجّرات «تي. إن. تي.» لإسقاط هذا البرج.

وعلى الرغم من ذلك، إلّا أن استخدام «زكري بن ظاهر» للنساء في هذه الحادثة لم يكن بالأمر الضروري، على الرغم من أنه لم تكن هناك وسيلة ليعلم ذلك. فسار ببساطة داخل القلعة بعد أن دخلت النساء ونادى على «غالب» الذي كان في مكان قريب من «بهلة» حتى يشاهد بنفسه ذلك التطوّر المذهل.

وبمجرد أن احتلّ المتمرّدون «نزوى»، استسلمت كلّ من «بهلة»

و«إزكي» على الفور. وكان «سلطان» أكبر أبناء السلطان في «بهلة» في ذلك الوقت، وكان يعمل والياً عليها. وكان قد ترك هذا الموقع لمندوبي السلطان قبل أن يصل إليه المتمرّدون، وأخذ إلى «مسقط»، حيث ظلّ سجيناً في حصن «جلالي» مع أربعين غيره من الأشخاص الذين لا يمكن الاعتماد عليهم.

ويقع الحصن القديم في «بهلة» في موقع يطلّ على حافّة المدينة. فصار «طالب» في ذلك الوقت يعمل في منطقة نفوذه، حيث كان نصف سكّان «بهلة» من «بني ريام»، والنصف الآخر من «بني حِنَا» أو قبائل أخرى تنتسب إليها مثل قبيلة «بني شكيل»، فلم تمثل له السيطرة على مدينة «بهلة» أية صعوبة تقريباً. وفي ردّ على الأمر الأول بالاستسلام، ردّ والي «بهلة» الشيخ «سعيد بن حامد» بكلمة إلى «طالب» يخبره فيه أنه بحاجة إلى ثمانٍ وأربعين ساعة للتفكير في الردّ. وكان الشيخ «سعيد» ينتظر العون من قوات السلطان، ولكن لم يكن أيّ منها قادماً إليه في الوقت المناسب، فسلّم حصنه قبل أن يفرّ والي «نزوى» من موقعه مباشرة. ويتبيّن لنا هنا أن أيًّا من المدن التي أسرها المتمرّدون -وهي «نزوى» و«بهلة» و«إزكي»- لم تسقط في أيديهم بالقتال أو بالقوة.

وفي ما بعد، وعندما تمكّنت قوات السلطان من إعادة احتلال منطقة «بهلة»، قام الوالي - بطلب من السيد «طارق»- بتقديم أكبر شيخين من «بني شكيل». وفي ردّهما على أسئلة «طارق»، قالا إنهما رفضا القتال، لأنّ السلطان لم يأمر بحشد عام لباقي قبائل «عُمان». وفي الواقع قبل هذان الشيخان الحصول على أكثر من عشرة آلاف روبية من «طالب» كرشوة ليظلّا محايدين، ولا ينضمّان إلى قوات السلطان.

وعند هذه المرحلة في السادس عشر من شهر يونيو عام ١٩٥٧، كتب السلطان إلى المستشار العام التابع لجلالتها في «مسقط» يسرد تفاصيل الموقف وتطوّراته مطالباً بمساعدة البريطانيين:

«أنتم الآن على اطلاع تامّ بالموقف المتطوّر في «نزوى» في الوقت الحالي، وأنا أشعر بأنّ الوقت قد حان لأن أطلب منكم أقصى دعم عسكري وجوّي. يمكن لحكومة جلالة الملكة توفيرها لي في تلك الظروف، وذلك وفاءً بما جمعنا من مناسبات في الماضي، وتوثيق روابط صداقتنا التي مازلت أكنّ لها جُلَّ امتناني. وسوف أحمل لكم عميق الشكر إن كان بإمكانكم توفير هذه المساعدة مرّة أخرى لاستعادة وضعنا والحيلولة دون خسارة المزيد من الأرض والثقة.

إن الأحداث تتوالى بسرعة حثيثة، ممّا يدفعني إلى أن أذكر لكم أن توفير الدعم بأقصى سرعة سيكون له عظيم الأثر عليّ، وسوف أكون ممتناً لو أطلعتم الأمر على حكومة جلالة الملكة»[1].

وعلى النقيض من الإذاعات في جميع أنحاء العالم (منها إذاعة صوت أميركا) والتقارير الإخبارية، لم يكن السلطان أحد حلفاء بريطانيا. فالاتفاقية الوحيدة المبرمة بينهما مجرد اتفاقية صداقة وتجارة وملاحة، ولا توجد هناك أية شروط خاصة بالمساعدات العسكرية أو الاقتصادية. وكانت هذه المعاهدة مطابقة تماماً لتلك التي كانت بين السلطان و«الولايات المتحدة الأميركية»، وكان بإمكان السلطان أن يطلب من الولايات المتحدة المساعدة التي طلبها من بريطانيا؛ ولكنه لو كان فعل ذلك لقامت «المملكة العربية السعودية» بفرض ضغوط على شركة «أرامكو»، والتي كانت بدورها ستفرض ضغوطها على وزارة الخارجية، وهو ما سيأتي بنتيجة غير مثمرة للسلطان كما هي العادة.

---

(١) صدرت الرسالة بتاريخ ١٦ يوليو من عام ١٩٥٧، من سلطان «عُمان» إلى القنصل العام البريطاني في «مسقط»، وهي محفوظة في سجلات مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، المحضر الشفهي للاجتماع رقم ٧٨٣ ـ «S/PV-783»، (٢٠ أغسطس، ١٩٥٧)، ص ٢٠.

وصل الدعم الجوي والبري البريطاني سريعاً، وهو ما مكّن السلطان من إرسال قوّتين، واحدة من «عبري» تحت قيادة العميد «جايمس روبرتسون»، وتتألف من صفّ صغير من القوات البريطانية العسكرية وقوة الجبهة الشمالية التابعة للسلطان وعناصر من «عُمان المتهادنة»، أما الثانية فخرجت من «مسقط» تحت قيادة السيد «أحمد بن إبراهيم» وزير الشؤون الخارجية. والتقت دورياتٌ من كلتا القوّتين في النهاية وانضمتا إلى بعضهما في «بركة الموز»، وهي القرية التي كان يُسيطر عليها «سليمان ابن حِمْيَر» في السابق. وبعد هجوم أوّلي بالصواريخ وقذائف المدفعية ويوم ونصف من القتال في درجة حرارة بلغت مئة وثلاثين درجة (فهرنهايت)، تمكّنت قوّات العميد «روبرتسون» المختلطة من الاستيلاء على «نزوى»، فاحتلّها لواء الجبهة الشمالية تحت قيادة الكولونيل «ماكسويل». وكانت الخسائر خفيفة مع قتل شخص وإصابة ثلاثة بجروح من الرجال التابعين للسلطان، وعدّة حالات من الإنهاك الشديد الناجم عن ارتفاع درجة الحرارة بين البريطانيين. وفي شمال «نزوى»، ترك المتمرّدون وراءهم خمسة وستين لغماً مضاداً للدبابات أميركية الصنع. ويقدّر السلطان بأنّ خمسة عشر شخصاً قتلوا من العدو وأصيب سبعة عشر.

لم تقع سوى معركة ضارية واحدة في هذا التمرّد، وذلك عندما أعادت القوات التي تحمل راية السلطان احتلال «نزوى». كان الموقف بهذه الصورة: «كان الطريق الذي يتجه إلى المدينة يشرف عليه تل يسمّى «الحورة» يقع على بعد ميلين من «فرق». وتمكّن «طالب» هنا مع ثلاثمئة من المتمرّدين من دحر قوات السلطان التي كانت تتألّف من مئتي جندي بالبنادق، ومجموعتين من قوات «عُمان المتهادنة» وثمانين من العُمانيين. ومع احتدام المعركة وقف أحد المتمرّدين وأطلق النار من بندقيته القديمة من نوع «مارتيني ـ هنري»، فيما كانت طلقات الرشاشات الآلية تحيط به من كلّ جانب. ودفعت هذه الحادثة السيد «طارق» إلى أن يُشير

إلى أن «هؤلاء المتمرّدين «عُمانيون، فعندما يبدون شجاعتهم فإنّنا نشعر بالفخر بهم»، وهو ما يستدعي أحد الأقوال المفضّلة للشاعر «أبي الطيب» «يا إلهي! لقد أزالت نار القتال جميع الأقنعة فلم تترك إلا الرجال والشجعان». وبعد هجوم شنّه السلطان بالليل تمكّنوا من كسر مقاومة المتمرّدين في «فرق»، وكان من الممكن أن تنتهي قصة «طالب» و«غالب» و«سليمان» عند هذا الحدّ، إذا ما سمح للسيّارات المدرّعة بملاحقتهم، ولكنّها ظلّت في مكانها. ولم يعرف مطلقاً السبب في ذلك. بالتأكيد إن السبب كان هو الأمل في انتهاء المتمرّدين وهروبهم خارج البلاد، كما كان من الصعب التخيّل بأن هذه الحملة سوف تجرّ معها سنتين إضافيتين من القتال. وربما أيضاً كانت هناك خشية من انخراط البريطانيين بصورة أكبر، ممّا يضع القوات البريطانية في موقف صعب في المداولات التي تجري في الأمم المتحدة. فلو بذل ضابط برتبة رائد في الجيش جهداً في هذا الصدد، لكان انتهى الأمر في ذلك الحين، فاستغلّ أعداء بريطانيا والسلطان هذا الوضع على مدار سنتين تاليتين؛ لأنّ الأمور لم تنته عندما سنحت الفرصة بذلك.

تبيّن للإمام المزعوم «غالب» ثمار جهود السيد «طارق» البارزة ضد المتمرّدين، فعرض أربعين ألف ريال لمن يأتي برأسه. وكان هذا العرض بمثابة اعتراف بالدور القيادي الذي أدّاه أصغر إخوة السلطان في الدفاع عن سلامة بلاده. وفي إحدى المرّات، وصلته رسالة من «بهلة» تخبره أن «طالب» ومتمرّديه قد انتشروا على طريقٍ، في مكان بالقرب من «تنوف» عاصمة «سليمان»، وذلك عند سفح أحد الجبال حيث تقدم «طارق» عبر «بهلة» وطريق «تنوف» مع أربع سيّارات مدرّعة وعشرين جنديًّا، وبعض من رجال القبائل. وكان طالب قد أعدّ كميناً لهم على الطريق منتظراً إياهم، ولكن سبق له أن أخبر رجاله أن جميع العربات المدرّعة جاءت من السعودية (وهو ما كان يعني أنها جاءت من الولايات المتحدة

الأميركية)، وهي تستخدم لصالح التمرّد، لذلك لم يقع «طارق» في هذا الشرك على الإطلاق، وأجبر «طالب» على الانسحاب السريع إلى الجبل. وبعد ذلك بفترة قصيرة، ذهب «طالب» إلى منزل مجاور للمنزل الذي يعيش فيه «طارق» في «نزوى». فقال لصاحب المنزل إنه يريد أن يفجّر المنزل فيقتل «طارق»، ويدمّر منزله في الوقت نفسه. وعلى الرغم من أن مالك المنزل كان أحد الموقّعين على انتخاب «غالب» كإمام، إلّا أنه رفض تماماً أن يكون طرفاً في خطة الموت التي وضعها «طالب».

ووضع لأبرز المؤيّدين للسلطان ثمناً لمن يأتي برؤوسهم، وكان من بينهم الشيخ «أحمد بن محمد الحارثي»، وهو ابن شقيق أحد كبار المتمرّدين، والذي وضع «غالب» عشرين ألف ريال ثمناً لقتله، أما الإخوان الخليلي «هلال» و«عبد الله» و«سعود» وأبناء «علي» وأبناء شقيق الإمام السابق (الذي احتشدت قبيلته لدعم السلطان)، فقد وضع قادة التمرّد ثمناً لرؤوسهم خمسة عشر ألف روبية.

لا يجانبنا الصواب إن أكّدنا أن هذا التمرّد كان مقصوراً على مساحة صغيرة جداً من الناحية الجغرافية، وأن الغالبية العظمى من قبائل «عُمان» امتنعت عن دعم هذا الإمام السابق. ولو كان الأمر غير ذلك، لكان من المستحيل على السلطان (سواء بدعم من البريطانيين أم من غير دعمهم) أن يصدّ المتمرّدين في منطقة «الجبل الأخضر». أمّا من جانبهم، فإنّهم ما كانوا ليظلّوا في ملجئهم طالما كان بإمكانهم قيادة الدعم القبلي في «عُمان».

وكشف الاستقبال الحافل الذي تلقّاه ممثلو قوات السلطان في جميع الأراضي الداخلية عن افتقاد «غالب» و«طالب» لدعم الشعب. وكان بإمكان ابن عم السلطان السيد «أحمد بن إبراهيم» البالغ من العمر ثمانية وخمسين عاماً، وكان يحتلّ منصب ناظر (وزير) الشؤون الداخلية، مدعوماً من قبل السيد «طارق»، أن يستعيد إدارة الحكومة على الفور ودون صعوبة في «نزوى».

والسيد «أحمد» شخصية نابضة بالحياة، وهو أحد أفراد عائلة السلطان، حيث إن عمّته هي أمّ جدّة السلطان. وعلى الرغم من ذلك، نجد أن السلطان «فيصل» -وهو جدّ السلطان الحالي- قد اتخذ إجراءً ضدّ والد السيد «أحمد» (إبراهيم بن قيس) في العاصمة العُمانية القديمة «الرستاق». ومن الجدير بالذكر هنا أنّ المدفعين اللذين استخدمهما السلطان «فيصل» في قصف «الرستاق» قد حصل عليهما السلطان «الثويني» من البريطانيين.

لم يكن تجاوز الأزمة أمراً جديداً على حياة السيد «أحمد» في حياته الحافلة، والذي ينحدر أصل عائلته من «الرستاق». وفي عام ١٩١٠، عندما عرض أخوه «سعيد» في بهجة ابنه الوليد «فيصل» على ابن عمه، أطلق الرجلان النار على أبيه من فورهم، فانسلّ الرضيع من بين يدي أبيه على الأرض لينجو بحياته (وحياة الكثيرين في وقتنا الحاضر في «مسقط»)، فهرب السيد «أحمد» الذي كان يبلغ من العمر أربع عشرة سنة يومها على صهوة جواد هرباً من أقاربه القتلة إلى «حزم».

وعاد السيد «أحمد» في ما بعد إلى «الرستاق»، حيث تنكّر في عام ١٩١٥ في هيئة بلوشي، وذهب إلى «نزوى» على ظهر حمار، عازماً على قتل الإمام الجديد «سالم بن راشد». وتمثّلت خطته - التي فشلت في ما بعد- في المكوث داخل بيت، والانتظار على الطريق الذي يسلكه الإمام كل يوم، وهو في طريقه إلى المسجد، إلّا أن السرّ لم يلبث طويلاً حتى ذاع، فتمكّن السيد «أحمد» من الفرار في الوقت المناسب. وفي السنة التالية، قام السلطان «تيمور» بحشد ثلاثة آلاف من رجال قبيلته، وأخذ بندقيته في يده حتى ينقذ السيد «أحمد» الذي حوصر في حصن «الرستاق» على يد المتمرّدين الذين بدأوا بحفر نفق يمرّ تحت سور الحصن من الخارج، فأمر السيد «أحمد» رجاله بمضاهاة خطة

المتمرّدين، وحفر نفق موازٍ؛ وعندما التقى الجمعان، فوجئ المتمرّدون بأنّهم فقدوا جميع ما لديهم من بارود، والذي استخدم فوراً في ضربهم.

وكان السيد «أحمد» على متن الباخرة الهندية البريطانية «دواركا» المتوجّهة من «مسقط» إلى «بومباي»، في الساعة التاسعة مساء العاشر من شهر ديسمبر عام ١٩٥٨، فقام بلا داعٍ بتغيير مكان مبيته لتضرب الباخرة فجأة قنبلة في المكان الذي كان يرقد فيه منذ دقائق قليلة، فدمّرت ثلاث قمرات واحترقت تماماً، فيما احترقت قدما السيد «أحمد» وذراعاه وأنفه. ولم يعرف الطرف أو الأطراف المتورّطة في هذا العمل حتى الآن، فعادت الباخرة إلى «الخليج العربي»، وحاول الكثيرون الصعود على متنها ليتمنّوا للسيد «أحمد» رحلة موفّقة، فتمكّن السيد «أحمد» بفعله ذلك من أن يجعله «وداعاً جميلاً».

وتأتي مدينة «الرستاق» في المرتبة الثانية من حيث الأهمية بعد «نزوى»، وقد كانت في السابق حصناً يعرُبيًّا وعاصمة لعُمان حتى الجيل الثالث من حكم «ألبوسعيد»، حين انتقلت العاصمة إلى «مسقط» عام ١٧٨٤. ويطوّق مدينة «الرستاق» (التي ترتفع عن مستوى البحر بثمانمئة قدم) ببساتين مليئة بأشجار الفاكهة والمانغو والنخيل. وتقع المدينة على منعطف يمين وادي «فَرَع». وبعد أن تبرز المدينة من أعماق الجبل الأخضر، يمتد الوادي بمحاذاة المنحدرات الشمالية للجبال لمسافة، ثم ينعطف في زاوية حادة شمالاً حتى يصل إلى البحر. وتستقرّ المدينة عند هذا المنعطف، ويقع قسمها الرئيس «العلاية» أو «الرستاق العليا» بين هذا المنعطف والجبال، ويشرف عليها جبل عظيم الحجم وعر، في حين أن الضواحي المنتشرة فيها، والتي تعرف بالسفالة أو «الرستاق السفلى» تمتدّ على جانبي الوادي بعد انعطافها باتجاه الساحل. وتتسم هذه المدينة بارتفاع حرارة فصل الربيع فيها. ويتألف معظم سكانها (المقدّر عددهم بخمسة آلاف نسمة) من بني «غافر» و«بني حِنَا» وبعض القبائل المتداخلة. ومن القبائل

البارزة الأخرى التي تقطن في المدينة كقبيلة «المناضرة» و«المشاكسة» و«المبايحة» و«الرماح» و«بني شكيل» و«العبريين» و«ألبوسعيد». وواليها هو «سلطان بن حامد السمّار «ألبوسعيد»، وهو الأخ الأصغر لوالي «نزوى». لا يوجد في «الرستاق» عدد كبير من الصناعات، لكنه إلى جانب النشاطات الزراعية الطبيعية، ومن سماتها المميّزة نجد تجارة «الشملة» التي تباع في السوق الذي يقع أسفل أسوار الحصن. و«الشملة» -هي من خصائص التاريخ العُماني التي صمدت أمام الدهر- عبارة عن دثار يصنع من وبر الماعز الذي يصبغ باللون الأحمر، وتعلّق به شرائط سوداء. ويتولى صناعتها رعاة الغنم الذين يعيشون في قرى التلّ المحيطة بالسوق. ويجلب السمك إلى المدينة كلّ يوم من الساحل الذي يبعد عنها ثلاثين ميلاً.

وقلعة أو حصن مدينة «الرستاق» عبارة عن بناء مهيب مهدّم يقع على بروز صخري في الجانب العلوي من المدينة، ويشرف على المنطقة المحيطة بها بالكامل. وهو من حيث الشكل قرية محاطة بسور من جانبه الأيمن، وفيه عدد كبير من المنازل ومساكن جنود الحامية عند السور الخارجي. أما الجزء الرئيس في هذه القلعة أو الحصن فهو ساحته الهائلة التي ترتفع عن الأرض ثمانية أقدام تقريباً، وكانت في الماضي أعلى من ذلك، ولكنها صارت في حالة يرثى لها. وهناك أربعة أبراج قوّيت أسوارها بمناطق محصّنة على الزوايا. وتحتوي ساحة الحصن على مساكن الحامية المقيمة بالداخل، وحجرات التخزين، بالإضافة إلى مسكن الوالي، وحجرات مجلسه التي تقع في الأعلى، فيما يقع سجن الحصن في الأسفل. ويحتوي السجن على أداة تسمّى القنطرة (وتعرف لديهم باسم جدلحة صلالة)، وتوجد في الزنزانة الداخلية؛ وهي عبارة عن جذوع خشبية هائلة ملحق بها فتحتان، توضع بهما قدما السجين المتمرّد لتصفد من الداخل، ثم يجلس هناك يعاني من العذاب إلى أن يكفّ عن تمرّده، فلا يجد مكاناً يقضي فيه حاجته سوى القشّ الذي يجلس عليه. وقضى

رجل اتهم بجريمة قتل في هذه الأداة ستة أشهر متواصلة، ثم عُفي عنه بدافع الرحمة؛ وعلى الرغم من أنه صار كسيحاً فإنه يعترف بجرمه.

يعدّ حصن «الحزم» - في نظر مؤلف الكتاب الذي بين يديك - أروع وأعظم مبنى رآه في «عُمان» قاطبة، وهو موطن السيد «أحمد». وتمّ بناؤه بحيث يكون مكاناً لنيل الراحة والاستجمام أثناء إمامة اليعربيّين، وذلك عندما كانت «الرستاق» عاصمة «عُمان» القديمة تبعد عنه ستة أميال إلى الشرق. وعند دخولها، يمرّ الشخص على بابين هائلين شديدي الثقل مزيّنين بزخارف بديعة نحتتها أيدٍ عربية. ويفضي هذان البابان إلى حجرات كبيرة وأربع ممرّات صخرية وعرة وشديدة الانحدار. وكما جاء على لسان السلطان، كانت الجياد قديماً تمرّ عبر هذه الدهاليز الطويلة للوصول إلى السقف، حيث كان بإمكانها التمركز فيها. وهناك أيضاً سلالم سرّية داخل أحد الأسوار الستة الضخمة تمّ بناؤها من حجارة قام بنحتها أهل المدينة. وغطّيت الغرف التي تقع أسفل أعلى سقف في الحصن بتصميمات زهرية؛ وقد أوضح السيد «أحمد» أن هنوداً قاموا بعملها تمّ جلبهم من «سورات». وتمكّنت من رؤية عدد من المدافع النحاسية البرتغالية ذات الزخارف الجميلة، والتي يرجع تاريخها إلى القرن السادس عشر من هذه الحجرات العلوية، وذلك عام ١٩٦١، وهي مازالت تستقرّ على حامل خشبي متهالك، وعجلات استخدمت في جلبها من الساحل. وعلى الرغم من ذلك، فلم ينته البناء في هذا الحصن على الإطلاق. ولا توجد حوله أية أسوار، كما أن المياه تجلب له من قنوات جوفية في وادي «فَرَع». ويوجد في الحصن أيضاً مخزون من المياه فوق البوابة الرئيسة لإطفاء النيران إذا ما تعرّض الحصن لحصار.

بعدما دخل السيد «أحمد» و«طارق» على رأس ألف رجل من سبعة قبائل مدينة «نزوى» في شهر أغسطس عام ١٩٥٧، شاع بين الناس أن قادة التمرّد فرّوا من «عُمان». ولم يكتشف مكانهم إلا عندما دُعي سادة قرى

«الجبل الأخضر» العلوي إلى «نزوى» ليقدّموا عهود الطاعة والولاء للسلطان. فعلم السلطان من رسائلهم المبهمة التي يردّون بها عليه أن قادة التمرّد الثلاثة قد استولوا على «الجبل الأخضر» العلوي والممرّات التي تفضي إلى قمته. وكانت القوات البريطانية في ذلك الوقت قد انسحبت مصطحبة معها معدّاتها، باستثناء خمس عربات استكشاف مدرعة. ولم تكن قوات السلطان مدرّبة بالشكل الكافي على حروب الجبال، فكان من المستحيل عليه ملاحقة العدو في قمة الجبل. ويغطّي «الجبل الأخضر» الشاهق الارتفاع ثلاثمئة وثمانين ميلاً مربّعاً تقريباً، ولا يؤدي إلى منحدراته سوى ما يقرب من أربعين ممرّاً ضيّقاً وعراً. ويستغرق الأمر ثماني ساعات تقريباً من التسلّق الشاق للجبل حتى يصل الشخص إلى مناطقه العليا. وقد استدعي رجال القبائل المخلصين لمدّ يد العون في حصار غطّى اثني عشر ممراً رئيساً يؤدي إلى المناطق العليا، ومن هنا بدأ حصار «الجبل الأخضر». كانت الصواريخ تطلق عند أدنى حركة في ممرّات الجبل فقط. لذلك، لجأ السلطان إلى اتخاذ إجراءات دفاعية، وركّز على استقرار الأمن في المناطق التي تقع تحت سيطرته، وهو ما أتاح له احتواء المتمرّدين وحصرهم في المناطق الجبلية، وحصارهم للحيلولة دون وصول أية موارد إليهم.

وعلى مدار سائر عام ١٩٥٧ وحتى شهر يونيو عام ١٩٥٨، كانت العمليات العسكرية تتألف من مجموعات صغيرة من المحاربين الذي ينتقلون من ممرّ إلى آخر، ثم العودة إلى القاعدة بعد فترة تتراوح بين أربع وعشرين وثمان وأربعين ساعة. ولم يتعرّض السلطان لخسائر في الأرواح، باستثناء أربعة رجال تعرّضوا لإصابات. وأثناء تلك الفترة، لعبت قوات السيد «طارق» -التي شكّلت من أجل نصب الكمائن الليلية- دوراً رئيساً، فقد كان لدى «طارق» ثلاثة قواد يتّسمون بصرامتهم وجسارتهم، وكانت لديهم خبرة ماضية في العمليات العسكرية الجبلية.

وترك لهؤلاء القادة حرية اختيار الرجال لكلّ مهمّة بعينها. وكانت مجموعات القتال الليلية صغيرة، تتألف عادة من خمسة إلى عشرة رجال مسلحين ببنادق حديثة، وهي السلاح الوحيد الذي كانوا بحاجة إليه في مثل هذه المهام. وكان بعضهم يقوم بدوره ببراعة لاثنتين وسبعين ساعة متواصلة لا يسدّ رمقه سوى ملء كفّه من التمر وشربة ماء. وكان هؤلاء يغنمون في طريق عودتهم، إمّا بنادق المتمرّدين أو الرمّان الذي لم يكن يزرع إلا على المنحدرات العالية في الجبل، في دلالة على إتمام مهمتهم، بل إن عشرة من جنود «طارق» تمكّنوا من المكوث وراء خطوطه لأسبوع كامل في عمليّتين. وذات مرة وقع ثلاثة من كبار هؤلاء الجنود في كمين نصبه لهم سبعة عشر رجلاً من المتمرّدين، ولكنّهم تمكّنوا بطريقة ما من التخلص منهم بمساعدة بعض أفراد قبيلة «بني ريام» الموالية للسلطان.

يبلغ عدد أفراد قبيلة «بني ريام» إجمالاً ستة آلاف شخص، يعيش منهم سبعة أفرع على الأقلّ في الجبل العلوي في أربع قرى. وعلى الرغم من أنّ «بني ريام» على المذهب الإباضي، فإنّهم كانوا تقليدياً على اتصال بقبيلة «مَهْرا» منذ زمن بعيد. وقيل إن كلتا القبيلتين هاجرتا معاً قديماً من اليمن. وقد قال عالم الجغرافيا العربي «الحمداني» إنه توجد على قمّة جبل «عطوة» أطلال معبد نار يمني يرجع إلى زمن ما قبل الإسلام، وكان هذا المعبد يخصّ قبيلة «ريام»، وبه من التماثيل ما يمثل آلهة الشمس والقمر، وظلّت هذه التماثيل باقية حتى عام ٩٥٠ ميلادية. وكان هذا المكان يتسم بقدسية شديدة، فكان مقصداً للحجاج. واستقرّت قبيلة «المَهَرا» في ما بعد تاركة قبيلة «بني ريام» تكمل رحلتها وحدها إلى أقصى جزء من «عُمان» يصعب الوصول إليه.

وكانت قوات التمرّد الفعلية تتألّف من نواة تحتوي على مئة وأربعين جنديًّا، بالإضافة إلى ثلاثمئة رجل كانوا يتنقلون بين القرى المحلية، التي أجبرها «سليمان» أكثر من مرّة بتهديد السلاح على القتال إلى جانب

«طالب». ولم يكن حكم «سليمان» المميت يؤتي الثمار التي يريدها إلا عندما تكون في يده سلطة حقيقية. وقد دخل سادة عدد من فروع قبيلة «بني ريام» الذين يعيشون في الجزء السفلي من الجبل، مع السلطان منذ عام ١٩٥٧. ولذلك، عندما حاول «سليمان» اللجوء إلى الجبل لم ينضمّ إليه أحد من هذه القبائل، على الرغم من أوامره الملحّة المحمّلة بالتهديد باستخدام العنف، وكان الموت مصير أيّ شخص يحاول الهروب إلى أسفل الجبال. ونجح البعض ممّن كانوا لا يساندون هذه الحرب قلباً وقالباً في بلوغ خطوط السلطان بسلام. كان أهل «عُمان» هؤلاء يريدون السلام والعدل مع الشرف، فكان في ذهنهم أن العُمانيين لعُمان من قبائل وشيوخ؛ وكان لا يعنيهم ما إذا كانت «عُمان» تحت إمرة السلطان أو الإمام فكلاهما سواء. ولم يروا من «الإمام» «غالب» من شيء حتى هذه اللحظة سوى الموت والخراب، في حين أن السلطان كان يعرض عليهم سلامة حياتهم وعيشاً كريماً وأن يعمّ السلام .(**الملحوظة د**)

وفي شهر يناير عام ١٩٥٨، وصلت أوّل شحنة كبرى من الأسلحة للمتمرّدين قادمة من «المملكة العربية السعودية»، فتمّت تعبئة شاحنة تبلغ حمولتها ثلاثة أطنان بعشر مدافع هاون، وأربعة مدافع مضادة للطائرات، ومئة بندقية صغيرة، إلى جانب اثنين وخمسين جنديًّا عُمانيًّا مدرّبين، من «بني ريام» و«بني حِنّا». وكان من بينهم عدد قليل من بني «بو حسن». وكان أكثر هؤلاء الجنود قد ذهبوا إلى «المملكة العربية السعودية» كعمّال وسجّلوا لديهم كأشخاص عُمانيين، فتمّ تجنيدهم قسراً على الرغم من اعتراضاتهم، وأمروا بالحضور للتدريب تحت إمرة «طالب» في «الدّمام». ووصلت الذخيرة إلى المتمردين على ظهور الجمال من «الشارقة» و«دبي» و«رأس الخيمة»، والتي وصلت عبر الزوارق البخارية من «الدمام».

لم تكن هناك سوى خسائر بشرية قليلة، لأنه كان من الصعب رؤية المتمرّدين إلا عندما يفرّون من أمامهم. وكان من المستحيل رؤية القنّاصين

الذين يكمنون في الجبل. وكانت معظم البنادق تطلق نيرانها على أهداف تبعد من خمسمئة إلى ستمئة ياردة، ولم تكن تصيب الأهداف الفارّة على الإطلاق. وقبل غروب الشمس كانت مدافع الهاون الخاصة بالمتمرّدين بدقة الذخيرة الفرنسية والبريطانية والأميركية المعيبة. وعلى أية حال، لم تكن فترات إطلاق النيران تزيد عن عشر مرات في اليوم الواحد. ولكن مع أسلحتهم الجديدة التي ضمّت سيّارات مدرّعة أميركية الصنع، صار المتمرّدون أكثر قوة من قوات السلطان، والتي لم تزد بالتجنيد الإلزامي، باستثناء الجنود المتطوّعين. وأعلنت «بريطانيا» في النهاية أنها أدركت تماماً أن السلام مع المتمردين أمر غير ممكن بأيّ ثمن، فقامت بقصف مناطق الرّي والمحاصيل الخاصّة بالمتمرّدين بأمر خاص من السلطان حتى يدفعهم ذلك للاستسلام، ولكن منيت هذه العملية بالفشل، فأمر سكان القرى باللجوء إلى الكهوف الحجرية التي يكثر وجودها في المنطقة. ولم يترك المتمرّدون طوال هذا الوقت فرصة لاستخدام التهديدات والرشاوى، فوصلت إليهم الموارد عن طريق المسارات الجبلية التي تركت دون حراسة. ولم يؤتِ الحصار الاقتصادي الذي فرضه السلطان ثماره.

وطوال عام ١٩٥٨، صارت قوات السلطان المسلّحة أكثر قوة وأفضل تدريباً، وبدأت المعدات ووسائل النقل التي كانت بأمسّ الحاجة إليها بالوصول. وفي شهر سبتمبر قال البريطانيون إن الجوّ كان شديد الحرارة عليهم فلا يستطيعون التحرّك، وكانوا على حق تماماً، ولكنّ الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لرجال السلطان، إلّا أن هناك ما جعل السلطان يعتقد أن رجاله ليسوا على مستوى هذه المهمّة. ومنذ هذه اللحظة، صارت الساحة تعدّ لهجوم شامل على الجبل العلوي من خلال القوات الأرضية (**الملحوظة هـ**). وكان عدد المتمرّدين -على الرغم من تخلّي عدد كبير عنهم - ما يربو على مئة وثمانين مقاتلاً

مدرّباً (منهم الاثنان والخمسون جنديًّا الذين وصلوا مؤخّراً)، إلى جانب القرى المجاورة المتآمرة. بدأ الهجوم مع ضوء فجر السادس والعشرين من شهر يناير عام ١٩٥٩، بمئتين من الجنود البريطانيين، يضمّون السرية الأولى والثانية من فوج خدمة سلاح الطيران الخاصة، والذي وصل حديثاً قادماً من «ملايا»، إلى جانب القوات المسلّحة العُمانية التابعة للسلطان التي تدعم قوات المقدّمة. وعندما وصلت القوات إلى قمّة أو سهل الجبل، -وهي أرض مترامية الأطراف - ودون طلقة واحدة استسلم كثير من المتمرّدين، في حين هرب الباقون إلى الجانب السفلي من الجبل الذي ترك دون حراسة والسبب في ذلك، كما قيل، إنّه لم توجد سوى قوات غير مناسبة لمهمّة الحراسة. وبعد عشرة أيام، وصلت قوات مناسبة لتطويق الجبل. وفي الواقع، لقد تمّت هذه العملية بصورة تفتقد إلى الإتقان التّام.

لم يقتل سوى شخصين فقط من المتمرّدين، لم يكونا على دراية وقتها بأنّ القمّة، التي كانا يظنّان أنه لا يمكن مهاجمتها قد سقطت بيدي السلطان، ففرّا إلى كهف يقع أسفل منحدر، وهما يجهّزان بندقيّتيهما الآليتين. ومن الأسلحة التي استولت عليها قوات السلطان اثنا عشر رشاش «برن» وثمانية مدافع هاون وستة مدافع ثقيلة وبنادق وقنابل يدوية وألغام خفيفة وأخرى ثقيلة. وصودرت الأسلحة التي سلّمت لسكّان القرى، وتمّ نزع سلاح الناس، ثمّ استجوبوا عن نشاطاتهم طوال السنة ونصف السنة الماضية ثم تركوا، فلم يُعاقب أيّ منهم.

وبعد انتهاء الهجوم بفترة قصيرة في أوائل عام ١٩٥٩، استعادت الإدارة المدنية التابعة للسلطان منطقة «الجبل الأخضر» بأسرها. وتمّ تعيين والٍ وقاضٍ عليها، وأنشئت نقطة حراسة تابعة للجيش للحفاظ على الأمن. وأعيد بناء جميع مساجد القرى الأربع البالغ عددها اثنين وعشرين مسجداً مرّة أخرى، وأصلحت جميع قنوات المياه. واستلم

الناس في هذه القرى بذوراً مجّانية لزراعتها، وصار الجميع يشعر بالسعادة والحبور، وذلك كما شاهده مؤلف الكتاب الذي بين يديك بنفسه في هذه المنطقة.

كان الهدف البريطاني الرئيس من هذه الحملة هو الاستيلاء على الجبل، في حين أنه كان ينبغي عليهم أن يضعوا نصب أعينهم أسر قادة هذا التمرّد حتى تنتهي القضية قضاءً مبرماً. وأصدر «طارق» الذي كان يرغب في اتخاذ إجراء حاسم أوامره إلى قواته الخمسة عشرة، الذين لم يسمح لهم بقيادة مقدّمة جيش الهجوم وإنّما دعمه فقط، بقتل قادة التمرّد بمجرد التعرّف عليهم. وبعد صدور هذه الأوامر، تمكّن كلّ من «غالب» و«طالب» و«سليمان» من تجنّب الوقوع في الأسر، واختفوا في منطقة الجبل لعدّة أيام بعد الاستيلاء على القمّة. ثم هربوا في إحدى الليالي مع خمسة من أتباعهم إلى معسكر تخييم البدو[1]، وحصلوا على جِمالٍ للذهاب في رحلة طويلة للخروج من «عُمان»، حتى وصلوا إلى نقطة بالقرب من «أبو ظبي»، وحصلوا منها على زورق بخاري اتّجه بهم إلى الدمّام، حيث عاشوا حياة المنفى في «المملكة العربية السعودية».

وبمرور الأيام صارت قوات السلطان أفضل من الناحية الإدارية والتنظيمية، وصارت أكثر تدريباً، وأفضل تجهيزاً بالمعدّات. وبدأت هذه القوات في الحفاظ على السلام داخل «عُمان»، والحيلولة دون حدوث أيّ انتهاك لحدود السلطة من الخارج، وحملت جميع الإدارات العامة اسم السلطان. ومن ثمّ، فإنّ الطبعة الرسمية الجديدة (١٩٦٠) من الموسوعة الإسلامية (**الملحوظة و**) لم تلتزم الدقّة في ما طرحته عن الحكم السياسي في «عُمان» حيث ورد فيها:

---

(١) إن كلمة «البدو» هي الإسم العربي المصطلح عليه للدلالة على «بدو الصحراء الرحل»؛ ومفردها «بدوي».

«يرى الحاكم الذي نصّب نفسه سلطاناً على «مسقط» و«عُمان»، أنّ من الأراضي الخاضعة لسلطانه جميع القطاعات التي تقع شرق الجانب الشرقي من الربع الخالي، وهي مساحة تبلغ ١٢٠٠ كيلومتر طولاً و٥٠٠ كيلومتر عرضاً تقريباً. وعلى الرغم من ذلك، نجد أن السلطان لا يُدير من هذه المساحة الشاسعة سوى ثلاثة مناطق صغيرة نسبيًّا، أما باقي المناطق فتقع تحت سيطرة إمام «عُمان» أو أيّ من أسياد القبائل المستقلّين. . .

وهناك حاكم إباضي آخر - هو إمام «عُمان»- تستند سلطته بصورة أكبر إلى المؤسسة الدينية بخلاف السلطان، فيقوم بتحديد مصير المنطقة الداخلية التي يحتلها المجتمع الإباضي. . . »

وعلى الرغم من أن هذا التصريح أعرب عن الادعاءات التي نادى بها المتمرّدون، فإنه لم يعكس حقائق الموقف. وكنا نتوقع أن يلجأ كاتب مثل هذا العمل البحثي إلى منهج نقدي في سرده للحقائق من حيث المصادر التي اعتمد عليها، أو كان عليه على الأقلّ أن يُشير إلى عدد كبير من الشكوك الموجّهة إلى مزاعم قادة التمرّد، الذين كانوا يعملون باسم الإمام (أي إمام). وطالما أن العمل لا يتوقّف في تجميع هذا العمل المرجعي القيّم، ونظراً إلى وجود باب خاص بعُمان»، فإننا نأمل أن يكون أكثر دقة في تناوله لهذا الموضوع بعد ذلك.

## الملاحظات

*** * الملحوظة (أ) * * * * * * * * * * * ***

أورد «جوي ألكس موريس» الابن، من القاهرة، في السابع من يناير عام ١٩٦١، في جريدة «نيويورك هيرالد تريبيون»، ما يلي: «تبيّن لنا هذا الأسبوع أن الإمام «غالب» طرد الحارثيين في شهر نوفمبر، فاتهموه بدورهم بأنّه قد باع نفسه للبريطانيين. أما ما سكتت عنه الألسنة بهذا

الصدد -على الأقلّ علانية - فهو أن الإخوة الحارثيين كانوا يقطنون في منفاهم المريح. وقامت «**الجمهورية العربية المتحدة**» بتمويل مكاتبهم وأماكن إقامتهم، بالإضافة إلى توفير سيارات وسائقين لهم، وذلك تحت اسم القومية العربية. وأيًّا كانت الأسباب [في حين أن السلطان يشعر أن الأمر كلّه يتعلّق بالمال، ويشمل هذا كلاً من «محمد» وابن عمه الشيخ «صالح» ضد «غالب»]، فقد ورد تقرير بأنّ شقيق «محمد» ذهب إلى الصين الشيوعية ليحصل على دعم منها في كفاحه التحريري، ويفترض أن يكون هذا ضد كلّ من الإمام والسلطان، وبالطبع ضد البريطانيين».

*** * الملحوظة (ب) * * * * * * * * * * * ***

«ففي أحد معاني هذا الأمر، نجد أن إنشاء دولة زائفة داخل دولة عربية، هي تاريخيًّا وجغرافيًّا وحدة واحدة قوميًّا وسياسيًّا، هو أمر يتناقض مع فكرة القومية العربية». جاء هذا على لسان «ريتشارد ماثيسون بريس»، في العلاقات الأنجلو ـ «عُمانية «Anglo - Omani Relation, 1913 - 1957» .
انظر أيضاً «إتش لوترباكت»: «Recognition in International law» : (كامبريدج، ١٩٤٧)، ص ٢٦ .

*** * الملحوظة (ج) * * * * * * * * * * * ***

«كانوا يصنعون الحلاوة في مكان واحد [مطرح] في قدور نحاسية كبيرة، وتحرّك فيها المواد بعصيان وهي تغلي، ويقلّبها عرب لا يرتدون كثيراً من الملابس، ويسيل العرق غزيراً على ملابسهم الخفيفة. وتعدّ الحلاوة من الحلوى المفضّلة بدرجة كبيرة هنا، ومكوّناتها هي السكر، واللوز، والزبدة، أو الجية، وتمزج هذه المواد بشكل جيّد، ولكننا لم نستطع أن نتقبّل طعمها» «A Voyage Round World Including an Embassy to Muscat and Siam in 1835, 1836, and 1837» - (Philadelphia, 1836), p. 75 - 76 .

* * الملحوظة (د) * * * * * * * * * * * * *

كانت هذه صرخة شجاعة، صدر مثلها في بداية هذا القرن على لسان «سيف بن أحمد ألبوسعيد» في ظروف مماثلة. والقصّة أنّ جدّ «طالب»، الذي يسمّى «هلال بن ظاهر»، قُتل على يد «سيف»، قبل فترة قصيرة من تعيين «سيف» والياً على «نزوى» من قبل السلطان «فيصل». وأثناء تمرّد عام ١٩١٣، فصل الوالي «سيف» عن قوات السلطان، وأوقع به في أحد المساجد على يد «بني حِنا». وبدلاً من الاستسلام إلى الأعداء، قتل نفسه بدافع الشرف والعزة. وكان الوالي الحالي الذي هرب من أمام «طالب» هو ابن أخي هذا البطل العُماني العظيم؛ وكانت هذه العلاقة هي أحد الأسباب التي جعلته يتلقى هذا التعيين في تلك الفترة الحرجة.

* * الملحوظة (هـ) * * * * * * * * * * * * *

كان الهجوم الذي شنّ على الجبل تحت قيادة الرائد «توني دين دراموند»، الذي أجبر خلال الحرب العالمية الثانية على الاختباء داخل دولاب في حجرة فيها ألمان في «هولندا» خلال عملية «آرنهم». وكان مختبئاً معه لتجنّب الأسر في البيت نفسه الرائد «جون كلارك» (الذي يقود في الوقت الحالي مركز تدريب المجنّدين في «غلّة» بالقرب من «مسقط»). والتقى هذان الجنديان مرّةً أخرى في الجبل خلال الهجوم الأخير.

ويمكنك الحصول على تسجيل لهذه الأحداث كتبه «أنطوني شيبرد» في كتابه «مغامرة عربية Arabien Adventure».

* * الملحوظة (و) * * * * * * * * * * * * *

من الصعب تفسير هذه المعلومات الخاطئة التي احتواها هذا المقال الذي تناول شبه الجزيرة العربية، والذي كتب قبل إنهاء التمرّد. وكما سبق أن أوضحنا، لم تحظَ أيّة دولة مستقلة أو إمامة داخل «عُمان» باعتراف

دولي في العصور الحديثة، بل إن هذه الفكرة لم تطرح من قبل التمرّد الذي قام به «غالب بن علي». وعلاوة على ذلك، لم تتمكّن هذه المجموعة المتمرّدة من السيطرة على أكثر من جزء من الأراضي التي طالب بها. لذلك، فإنّ الموقف الذي قامت «الموسوعة الإسلامية» بوصفه لم يوجد في أيّ عصر من العصور. ويقع المقال نفسه في خطأ فادح آخر عندما قال إن الحكومة البريطانية تسيطر على العلاقات الأجنبية الخاصة بالسلطنة وفقاً لمعاهدة تمّت بين الطرفين.

# * الفصل التاسع *

## تداعيات وإعادة تقييم

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾

**القرآن الكريم**
**(سورة الروم الآية: ٤١)**

* * *

عند تلخيص الدوافع التي كانت وراء التمرّد على حكومة السلطان، ينبغي أن نوضح أن كلاً من «غالب» و«طالب» و«سليمان»، لم يكونوا من التيار الرئيس للحركة القومية العربية، فلم ينادوا بالقومية العربية على الإطلاق، ولم يلقوا بالاً للأهداف الرئيسة للجامعة العربية. كان الطموح الشخصي، والسعي إلى السلطة يشكّلان الحافزين الدافعين لهم. لم يكن «غالب» سوى دمية استغلها ثلاثة شيوخ، هم «طالب» و«سليمان» و«صالح ابن عيسى». وعلاوة على هذا، لم يكن للجانب الديني دور في قضية التمرّد الذي نفّذ باسم «غالب». ومن الجدير بالذكر هنا أن المسلمين الإباضيين الذين طالب «غالب» بأن يكون إماماً عليهم، كانوا يعتبرون أن المذهب الوهّابي منافٍ لحقيقة الإسلام عندهم. وعلى أساس هذا الحكم، فإن الإمام السابق «محمد بن عبد الله» رفض جميع المساعدات المالية التي

عرضت عليه من وزارة الخزانة السعودية. ولكن «غالب» و«طالب» و«سليمان» تودّدوا للحكّام الوهّابيين ولم يألوا جهداً في ذلك. وعندما دخل كلّ من «غالب» و«طالب» في علاقات مع السعودية، كانا لا يدعوان نفسيهما من الإباضيين، بل يقولان إنهما من «الوسط»، أي لا ينتميان إلى طائفة معيّنة، ولكنّهما يتّبعان تعاليم الإسلام ومبادئه. وفي سبيل الحصول على المال والسلاح، كانا لا يألوان جهداً من أجل إخفاء قرنين من الكره الإباضي تجاه الوهّابيين. وفي السادس من شهر ديسمبر عام١٩٦١، أشار مقال في مجلة «آخر ساعة» التي تصدر في «القاهرة»، كتبه «رجا مكاوي» إلى «طالب»، بأنه «الأمير طالب بن علي». وكان هذا الصعود السريع لشخص يعمل في تجارة النقل بعربتي نقل متهالكتين إلى مرتبة الأمراء في ست سنوات، ينبغي أن يصنف «طالب» «رجل العام» في «عُمان». وبالفعل، فمن السهل إضفاء الصبغة الملكية على أيّ شخص بواسطة كاتب أخبار مفرط الحماس.

وفي إحدى المناسبات -وذلك في الوقت الذي كان المتمرّدون فيه لا زالوا مسيطرين على قمّة الجبل الأخضر- ذهب وفد سلام متطوّع من «نزوى» إلى الجبل بإذن من السلطان أثناء الهدنة المؤقتة، وقابلوا «طالب» و«سليمان» وراء خطوطهما. وعند عودة الوفد، أورد أحد أفراده وهو الشيخ «إبراهيم بن سعيد العبري» - يعمل قاضياً في محكمة الشريعة بمسقط - أن طالب قال: «لم أكن لأتخلّص من هؤلاء العُمانيين من أجل جميع المصريين في العالم أجمع». ولم يكن لِيُسَرَّ المصريون الذين يتمتّعون بعقلية ثورية، والذين يعتقدون أن هذا التمرّد يهدف إلى الإصلاح الاجتماعي وحرية العُمانيين، إذا سمعوا بقول «طالب» هذا. وكان على «طالب» أن يخفي مشاعره الحقيقية حتى ينال دعم العالم العربي، فكان يؤكد دائماً على أنه يقاتل البريطانيين. ولم يلجأ طالب على الإطلاق إلى

الإشارة إلى أنه كان يقاتل الغالبية العظمى من إخوانه العُمانيين، ولولا مشاعر البغض الممتدّة في جميع أنحاء العالم العربي تجاه البريطانيين، لما تلقّى «غالب» ذلك التأييد الخارجي لاستقلال إمامته. بالطبع لم يكن هناك المزيد من الدعم الذي يمكن للقوميين التقدّميين في مصر توفيره لهذه القضية، خاصة أن فهمهم للشؤون العربية كان يتّسم بالضعف، وهو ما برهن عليه تورّطهم العسكري الكارثي في «اليمن».

نشرت جريدة «نيويورك تايمز»، في الثالث من أغسطس عام ١٩٥٩، حواراً أجري مع «غالب» في «القاهرة»، جاء على لسانه فيه أن: «القوات البريطانية والقوات الجوية الملكية قتلت خمسة وعشرين ألفاً من العُمانيين، ودمّرت اثنتين وثلاثين قرية. وتمكّن المتمردون بدورهم من قتل عشرين ألفاً من القوات البريطانية حتى عام ١٩٥٥، إلى جانب إسقاط ثلاثين طائرة تابعة للقوات الجويّة الملكية، ودمّروا ستمئة عربة مدرّعة».

وما فشل «غالب» في إدراكه -لسذاجته البالغة- هو أن أسلوب «الكذبة الكبيرة» لا يستخدم بنجاح إلا بين الحكومات الواحدة ضد الأخرى، ومن قبل الزوج ضد زوجته. ولكن إذا فشل عشرون ألف جندي بريطاني في العودة إلى عشرين ألف والدة محبّة وحنونة، بعد انتهاء أية حملة في «شبه الجزيرة العربية» لما كنّا احتجنا إلى «غالب» حتى يعلن الأمر على الملأ ويعلم به العالم. وفي الواقع، كان هناك ستة قتلى من الجنود البريطانيين في حملات «عُمان» هذه (**الملحوظة أ**). وبعيداً عن الخسائر البريطانية في الأرواح، نجد أن السلطان فقد ثمانية قتلى، كما أنه قدّر أن خسائر «طالب» بلغت أربعين قتيلاً. ولم تسقط أيٌ من الطائرات البريطانية خلال هذه الحملات، وإن أجبرت طائرة من نوع «بيمبروك» على الهبوط بعد أن سقط محرّكها لإصابته بنيران المتمرّدين، وهي تحلّق فوق

الجبل، فيما سقطت طائرة أخرى نفاثة من النوع «فينوم»، لتوقف محرّكها عن العمل. وتمكّن «طالب» من الاستحواذ على جثة الطيار، والتي فشل في استخدامها للمساومة عليها مع البريطانيين، حتى في سعيه إلى نيل اعترافهم بإمامة «غالب». ولم يلقَ هذا الفعل المزدري للموتى الذي أتى به «طالب» قبولاً بين أتباع أخيه «غالب» الدينيين.

فهذه النشاطات المتمرّدة -التي كانت قاصرة على إحدى المناطق الصغيرة في «عُمان» - فسّرت خطأً بعدّة صور، فمنهم من رأى أنها حرب بين القومية العربية (**الملحوظة ب**) وبين الإمبريالية البريطانية، ومنهم من قال إنها ثورة من شعب «عُمان» تحت قيادة القائد الديني ضد السلطان الجائر. ولم يكن أيٌّ من هذه التفسيرات قريباً من الحقيقة في شيء، سواء إجمالاً أو تفصيلاً. كان الصوت الزاعق لقطاع مفرط الحماس من حركة القومية العربية قد وصل إلى حمى ملتهبة في شجبها لأيّ شيء وكل شيء يحمل الصبغة البريطانية في الشرق العربي في عصرنا الحالي. وصار النداء «الجزيرة العربية للعرب» هو صرخة الحماس العربية في أيامنا هذه. وكما يؤمن مؤلّف الكتاب الذي بين يديك بمقولة «جان دارك» وندائها «فرنسا للفرنسيين»، فإنّهم أيضاً يؤمنون بأنّ الجزيرة العربية للعرب. فالمؤلف في الواقع ليس بالبريطاني، وهو بالتأكيد ليس إمبريالياً، كما أنه مرّ بعقبات مخيّبة لآماله على يد السياسة البريطانية في مناطق بعينها من العالم العربي، إلّا أنّ النشاطات البريطانية في هذا الشأن لا يمكن اعتبارها نشاطات «إمبريالية»، وذلك لحقيقة أنّ السلطات لم تقم بعمل إلا بإذن من السلطان، وبطلب صريح منه، وهو ما يستدعي هنا مقولة «تشرشل»، التي قال فيها إنه على استعداد للتعامل مع الشيطان، إذا توقّفت مصالح بلاده على هذا. لم يكن البريطانيون يسعون إلى الاستحواذ على شيء لأنفسهم، لأنهم لا يمتلكون شبراً واحداً من سلطنة

«عُمان»، سواء في وقتنا الحالي أو في الماضي. وعلى الرغم من القاعدة العامة التي وضعها اللورد «بالمرستون» عن العلاقات الدولية، وأنّ «بريطانيا لا تحظى بأصدقاء أو أعداء دائمين، ولكن ليس لديها إلا مصالح دائمة»، ففي هذا السياق، لم يتحرّك البريطانيون بمبادرة من عند أنفسهم، أو تحرّكوا بموجب معاهدة كانت مع السلطان تلزمهم بذلك، بل قاموا بذلك في استجابة لطلب من السلطان، لمساعدته في إخضاع التمرّد في دولته، والذي جاء بتحريض ودعم من الخارج. وحتى يُعيد التوازن لهذا التدخّل الخارجي، وكما جاء على لسان نائب المارشال الجوي «إم. إل. هيث»:

«لم يكن لهذا المناخ السلمي السائد الذي أعقب عقد «اتفاقية السيب» أن ينتهي، أو للقلاقل الأخيرة أن تطول لو لم تعمل قوى خارجية -خاصة المملكة العربية السعودية - على إذكاء لهيب الحرب، حيث كان الإمام يتلقى دعماً ماليًّا وعسكريًّا مباشراً من «المملكة العربية السعودية»، التي قامت بتجنيد الجنود، وتدريبهم، وإمدادهم، ودفع الرواتب لهم حتى يتألف «جيش تحرير العُمانيين الأحرار[(١)]».

وتبيّن بعد ذلك أن الحفاظ على سلطة مركزية وموحّدة في «عُمان» يصبّ في صالح جميع الدول التي تحدّ «الخليج العربي»، بقدر ما تسعى هذه الدول إلى إحلال الاستقرار. وسبق لعُمان في إحدى المناسبات أن ساعدت الإنجليز بقدر وسعها عندما احتاجوا إليها، ويصحّ ذلك بوجه خاص على مسألة تجارة العبيد. وكما جاء على لسان السير «روبرت هاي»، المندوب السامي السابق في الخليج العربي: «ساعدت «عُمان» البريطانيين في حروبهم ضد القراصنة، كما أنهم تعاونوا طويلاً في كثير

---

(١) نائب المارشال الجوي «إم. إل. هيث»: «Arabian Extremities» «Royal Central Asian Journal»، العدد ٤٧، (١٩٦٠)، ص ٢٦٣.

من المناسبات، ولكنها مارست علاقتها الخارجية التي ترغب فيها -وإن كان هذا لا يمنع أن عملت كثيراً بنصائح الحكومة البريطانية- إلّا أنها لم تكن خاضعة لها بأيّ شكل من الأشكال[1]!»، فيما كانت تجمع الجانبين علاقات صداقة قديمة بين السلطان والمناطق الخاضعة للسلطة البريطانية، وربطت بينهما مصالح مشتركة ترجع إلى عام ١٧٩٨؛ وقد استعادت هذه العلاقات رونقها في عصرنا الحالي، فهما أمّتان مستقلّتان تشرف كلّ منهما بعلاقة الصداقة مع الأخرى في أوقات الأزمات.

ولم تكن الأحداث التي تجري في «عُمان» لتمهّد لحدوث ثورة من شعب «عُمان» ضد السلطان. وذات مرّة، ثارت مجموعة صغيرة لا راية لها تحت تأثير دولة مجاورة، حيث كانت هذه الدّولة تأمل، من خلال الرشاوى والدعاية الكاذبة وتوريد الأسلحة الحديثة لهذه المجموعة الصغيرة، أن تحظى بدائرة نفوذ في «عُمان»، أو حتى بقطاع صغير من أراضيها، وضعت عليه آمالاً كثيرة لأن يكون أحد الموارد الإضافية لذلك الذهب الأسود [البترول].

وسؤال هنا يطرح نفسه: ماذا كان حجم الفصيل المتمرّد؟ فبخلاف قبائل «عُمان» التي يبلغ عددها مئتي قبيلة تقريباً، لم تشترك سوى قبيلة واحدة ونصف قبيلة أخرى، بالإضافة إلى عناصر قليلة من قبيلة ثالثة وقبيلة رابعة في هذا التمرّد ضد سيادة السلطان. فتسبّبت قبيلة «بني ريام» التي بلغ قوام قوتها ألف بندقية تقريباً، في القلاقل التي عانت منها القبائل الموالية للسلطان، ولكنها تراجعت عمّا كانت تقترفه خوفاً من «سليمان بن حِمْيَر» (فنجد أنهم في عام ١٩٦٠، طلبوا من السلطان ألا

---

(١) السير «روبرت هاي»: «The Persian Gulf State» (دول الخليج الفارسي)، (واشنطن، ١٩٥٩)، ص ١٣ - ١٤.

يسمح بعودة «سليمان» إلى «عُمان»). وظلّ أكثر من نصف قبيلة «بني حِنَا» الصغيرة - بلغ عددهم ثلاثمئة جندي تقريباً- موالية للسلطان، وتبعهم في ذلك باقي أفراد القبيلة بقوتهم البالغة ثمانين إلى مئة جندي، ولكن في «الجبل الأخضر» وليس في منطقتهم «بهلة». أما باقي القبائل العربية - باستثناء عناصر قليلة من قبيلة «الحِرْث» وبني «بو حسن»- فظلّت على ولائها للسلطان؛ وهي قبائل مثل «آل وهيبة» من «الشرقية» برجالها المسلّحين بالبنادق، البالغ عددهم ألفاً وخمسمئة رجل، وقبيلة «الدروع» من «عبري» بجنودها الألف، وقبيلة «العبريين» من «الحمرة»[1] بجنودها الألف وخمسمئة. ولم يتألف هذا التمرّد إلا من عدد محدود من الأفراد، بهدف قلقلة سيادة السلطان، (**الملحوظة ج**). وفي إحدى المرّات -في أثناء التمرّد- كتب جلالته إلى مؤلّف الكتاب الذي بين يديك يقول: «النقد يجعل الرجل أكثر حكمة».

ولا يمكننا أن نفترض للحظة أن للرياض أو للقاهرة مصلحة في التمرّد الذي قام به كلّ من «غالب» و«طالب» بهذه الصورة. ولكن يمكننا أن نفترض أن «اليمن» قد انضمّت إلى «الإمارات العربية المتحدة» التي تعاني الآن -وبشكل مختلف تماماً عن الصورة في «اليمن» - حبًّا في المصريين، وانطبع هذا الحبّ على المؤلف في مأرب عام ١٩٥١، وذلك عندما كان أفراد بعثته يتعرّضون للعنف الجسدي، من قبل رجال قبيلة «عبيدي» اليمنية.

والإجابة غاية في البساطة: كان الهدف الحقيقي هو التخلّص التّام

---

(١) لمعرفة معلومات قبلية لما قبل قرن مضى، انظر: «Memarandum on The Tribal Divisions of the Principality of Oman» (مذكرة حول التقسيمات القبلية في إمارة عُمان)، «تبادلات جمعية بومباي الجغرافية»، العدد ١٩، (١٨٦٨ ـ ١٨٧٣).

من أيّة مناطق نفوذ بريطاني[1] - بغضّ النظر عن عواقب ذلك- في جنوب غرب وجنوب شرق «شبه الجزيرة العربية». وكان كتاب السيناريوهات في «القاهرة» يُعملون عقليتهم الخيالية الملبدة بالأحلام ليطلعونا على الآلاف من الجنود البريطانيين قد قتلوا، وأن العشرات من الطائرات التابعة لقوات الطيران الملكية تُدمّر كلّ أسبوع في موجز الأخبار، وذلك خلال فترة التمرّد القصيرة في «عُمان». ربما كان دافع المصريين وراء ذلك يتخذ صبغة عاطفية، على الرغم من أن هناك دلائل مؤكّدة ربطت بين هذه الجهود وبين هدف صعب المنال يلبس رداء الشرعية، وهو طرد بريطانيا من منطقة «الخليج العربي». ولكن على أيّة حال، لم تكن «مصر» في نزاع حقيقي مع سلطان «عُمان» (بل إن معظم المصريين يجدون صعوبة في تحديد موقع «عُمان»)، فلا يعارضونه إلّا إذا تراءى لهم أنّ في هذا لطمة للإمبريالية. وفي الواقع، لم يكن هناك من يؤمن بالقومية العربية مثل السلطان نفسه، والذي يوازي فخره بأصله العربي فخر المصريين بالمشاركة والقيادة العربية، وفخرهم بتراثهم الفرعوني[2] من عقد مضى. وأثناء حكم «يحيى بن أحمد»، استنجدت «اليمن» بمصر لإخراج البريطانيين من «عدن» (وبالتالي زيادة الأراضي اليمنية وثرواتها)، فقامت «مصر» و«المملكة العربية السعودية» بدعم المتمرّدين في «عُمان»، في محاولة منهما لإسقاط السلطان، الذي سمي بالسلطان الخانع الخائن الموالي للبريطانيين (وفي الواقع كان في المقام الأول والأخير شخصاً موالياً للعُمانيين، وجد في تحالفه مع الغرب أكثر فائدة على الأمد

---

(١) انظر «جي. بي. كيلي»: «The British Position in the Persian Gulf» «العالم اليوم» «The World today»، يونيو ١٩٦٤، ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨.

(٢) كانت مصر، مع بعض الاستثناءات، خاضعة للهيمنة الأجنبية بشكل أو بآخر، وذلك منذ عام ٥٢٥ قبل الميلاد، وحتى عقد «المعاهدة الإنجليزية ـ المصرية» لعام ١٩٥٤.

الطويل من بدائله). ولكن بريطانيا في كلتا الحالتين كانت رادعاً عن التوسّع غير المبرّر.

حافظت «عُمان» على وحدتها واستقلالها السياسيين، على الرغم من أنها ليست دولة عصرية في ظلّ سلالتها الرسمية الحاكمة. وتقع الدولة - أثناء طبع هذا الكتاب- على عتبة عصر جديد من التحالفات الاقتصادية، نتيجة لإنتاجها الهائل من البترول، ما سوف يوفّر التحسّن الهائل، والمتوقع في الصورة الاقتصادية، الوسائل المطلوبة لقيام مجتمع عصري ودولة حديثة في سلطنة قديمة الطراز. ويُتوقع أن تكون هذه الفترة الانتقالية مليئة بالعواصف، حيث ستدخل عوامل جديدة في المشهد.

وتتمثل المشكلات التي تواجه الدولة في:

(١) الحفاظ على الأمن إلى أن يعمَّ الاستقرار البلاد بعد أن يأتي التطوّر الاقتصادي بثماره.

(٢) تدبير الحصول على موظّفين حكوميّين يلقون الرضى، خاصة المدرّسين المؤهّلين من خارج البلاد.

(٣) تنمية هيكل إداري كفوء ليلائم التوسّع الكبير في النشاطات التجارية الحكومية.

(٤) تطبيع العلاقات الدولية، خاصّة مع الدول العربية.

(٥) تطوير الصناعة والموارد الطبيعية الأخرى غير البترول.

(٦) تنظيم الخدمات العامة مثل المرافق الطبية.

# الملاحظات

* * الملحوظة (أ) * * * * * * * * * * * *

في الثلاثين من شهر مارس عام ١٩٥٨، قتل الكابتن «بيتر تشامبرز» (من ضرهام) قبطان السفينة الملكية «هامبشاير» - والذي كان قد أُرسل إلى «كشافة «عُمان المتهادنة» - على يد رجال القبائل المتمرّدة، وهو في دورية بالقرب من «إزكي». وفي السادس عشر من إبريل عام ١٩٥٨، قتل العريف «إيه. إف. هدجيز» (من برايتري)، من البحرية الملكية عندما سقط رشاش «بْرِن» ملقّم بالرصاص على الأرض، وبدأ بإطلاق النيران بصورة عشوائية. وفي السابع عشر من شهر يونيو عام ١٩٥٨، قتل الرقيب العسكري «جاك. إل. هالفولد» (من نورث تشبستو)، من البحرية الملكية عندما أصيب بجرح مميت أثناء صدام ما، وبقي معه خمسة من الجنود العُمانيين حتى مات. وفي السادس والعشرين من نوفمبر عام ١٩٥٨، قتل العريف «دوغلاس سويندلز» (من كونغليتون، تشيشاير) من فوج «ميدلسكس»، جرّاء جروح أصيب بها من قاذفة «هاون». وقد بث إذاعة «القاهرة» عند موت العريف خبر مقتل ضابط برتبة عالية؛ لأنه أثناء مراسم دفنه في «مسقط»، قام رفاقه بتنكيس علم الفوج إلى نصف السارية. وفي السابع والعشرين من شهر يناير عام ١٩٥٩، قتل الجندي «ألكسندر بمبريدج» (من ديل)، والجندي «والتر كارتر» (من بروويك أون تويد) -وكلاهما من القوات الجويّة الخاصة الثانية والعشرين - بالقنبلة اليدوية نفسها، التي انفجرت في محتويات حقيبة أحدهما وهم يصعدون الجبل في صف واحد.

* * الملحوظة (ب) * * * * * * * * * * * *

في خطاب أرسله «إتش. كارامي» إلى مجلة «الإكونوميست» في

السابع عشر من شهر أغسطس عام ١٩٥٧، في الصفحة ٥٣٥، قرأنا ما يأتي: «كان بإمكان بريطانيا أن تخدم مصالح الشعب البريطاني والإنسانية، إن استخدمت قوتها في دعم ثورة الشعب القومية في «عُمان». وأغفل السيد «كارامي» في هذه النقطة المحور الأساسي للوضع، حيث دعمت الغالبية العظمى من الشعب العُماني حكومة السلطان الوطنية في «عُمان».

*** * الملحوظة (ج) * * * * * * * * * * * ***

«لا يمكن أن تنشأ سيادة دولة عبر اعتراف الدول الأخرى، فأحد أهمّ المتطلبات التي وضعها القانون الدولي هو استقلالية هذه الدولة. فمهما بلغ عدد اعترافات الدول، فلا يمكنها أن تفي بمتطلّبات القانون الدولي، فالاعتراف في مثل هذه الحالة أمر غير مجدٍ في نظر القانون». جاء هذا على لسان «جيه. كونز» في «الدورية الأميركية للقانون الدولي» «American Journal of Ineternational Law»، العدد ٤٤، (١٩٥٠)، ص ٧١٨.

* * * * * * *

# الملاحق

* * * * * * *

# * الملحق الأول *

## سلالة اليعاربة الحاكمة

اعتمدنا في هذا السرد التاريخي على كِتاب «كشف الغمّة»، وقارنت ما ورد فيه مع ما جاء في كتاب «السالمي» و«لوريمير»، مع تعديلات بسيطة قام بها الكاتب. وتمّ تحويل التواريخ الإسلامية حسب التقويم الميلادي عن طريق السير «دبليو هيغ»، في كتابه «جداول مقارنة للتواريخ الإسلامية والمسيحية». انظر أيضاً المراجعة التي قام بها «إتش. دبليو. هازارد» في «دورية الجمعية الشرقية الأميركية» «Journal of the American Oriental Society»، إبريل-يونيو عام ١٩٤٧، ص١٣٨-١٣٩، فهذه المراجعة تساهم بتصحيح العديد من الأخطاء في الجداول.

### التواريخ توضح فترة الحكم

- **(الإمام) ناصر بن مرشد** ← من ١٦١٥/١٦١٦ إلى ١٦٤٠/١٦٤١ أسس السلالة الحاكمة.

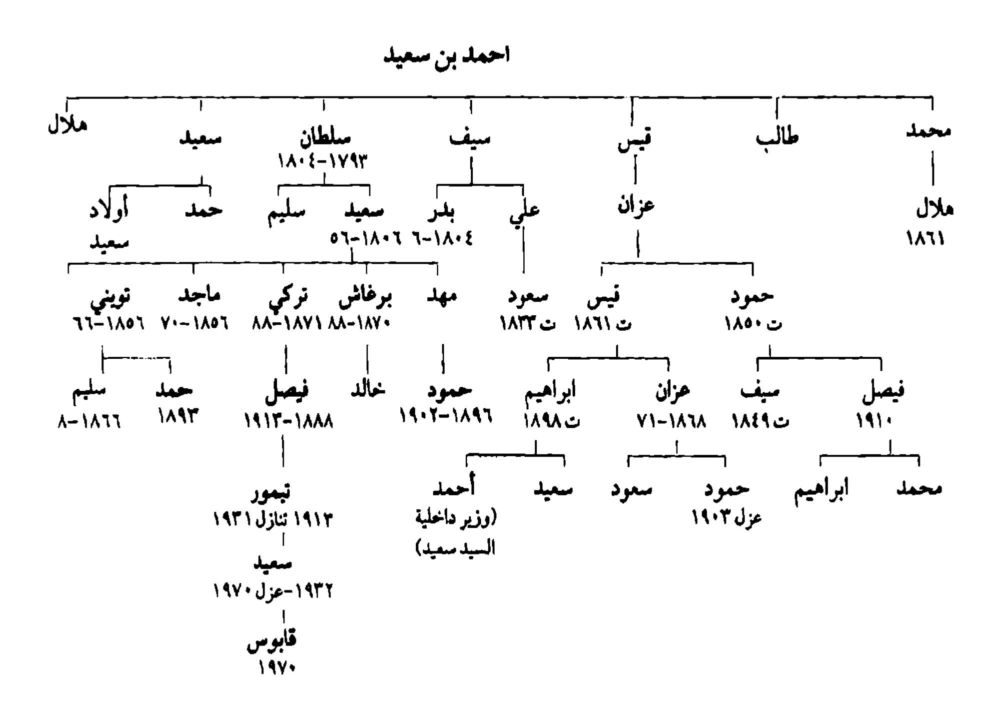
- **(الإمام) سلطان بن سيف الأول** ← من ١٦٤٠/ ١٦٤١ إلى ١٦٧٩/ ١٦٨٠ استولى على «مسقط» من البرتغاليين عام ١٦٤٩.

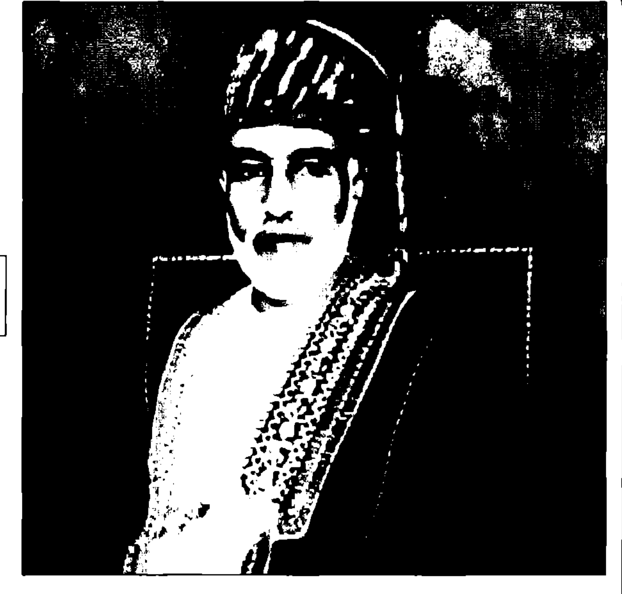
- **(الإمام) بلعرب بن سلطان** ← من ١٦٧٩/ ١٦٨٠ إلى ١٦٩٢/ ١٦٩٣.

- (الإمام) **سيف بن سلطان الأول** ← من ١٦٩٢/ ١٦٩٣ إلى ١٧١١/ ١٧١٢
قام بحصار مومباسا من ١٣ مارس ١٦٩٦ إلى ١٣ ديسمبر ١٦٩٨.
الشقاق - الحناوي. الغافري عام ١٧٠٨.
- (الإمام) **سلطان بن سيف الثاني** ← من ١٧١١/ ١٧١٢ إلى ١٧١٨/ ١٧١٩
استولى على البحرين عام ١٧١٧.
- (الإمام) **سيف بن سلطان الثاني** الإمامة الأولى ← من ١٧٢٠/ ١٧٢١ إلى ١٧٢٢.
- (الإمام) **مهنا بن سلطان** ← كان حكمه أقل من سنة
- (الإمام) **يعرُب بن بلعرب** ← من ١٧٢١/ ١٧٢٣.
- (الإمام) **سيف بن سلطان الثاني** الإمامة الثانية ← من ١٧٢٣ إلى ١٧٢٥.
- (الإمام) **محمد بن ناصر** ← من ١٧٢٥ إلى ١٧٢٧.
- (الإمام) **سيف بن سلطان الثاني** ← الإمامة الثالثة وغزو «نادر شاه» لعُمان عام ١٧٣٧ من ١٧٢٧/ ١٧٢٨ إلى ١٧٤٤.

# * الملحق الثاني *

## سلالة ألبوسعيد الحاكمة





السلطان قابوس بن سعيد

ولد السلطان «قابوس بن سعيد» في ١٨ نوفمبر ١٩٤٠م في مدينة «صلالة» بمحافظة «ظفار»، حيث تلقّى تعليمه في اللغة العربية والمبادىء الدينية على أيدي أساتذة متخصّصين اختارهم والده. كما درس المرحلة الابتدائية في المدرسة «السعيدية» بصلالة. ويعتبر السلطان «قابوس» السلطان الثامن من سلالة الإمام «أحمد بن سعيد»، المؤسّس الأول لأسرة« آل بو سعيد» سنة ١٧٤٤م، والذي مازالت ذكراه موضع احترام وإجلال في «عُمان» كمحارب شجاع وإداري محنّك، استطاع أن يوحد «عُمان» بعد سنوات من الحرب الأهلية.

وفي سبتمبر ١٩٥٨م، أرسله والده إلى «إنجلترا»، حيث واصل تعليمه في إحدى المدارس الخاصة «سافوك». وفي عام ١٩٦٠م التحق بالأكاديمية العسكرية الملكية في «سانت هيرست»، حيث أمضى فيها عامين، وهي المدة المقررة للتدريب، درس خلالها العلوم العسكرية وتخرّج برتبة «ملازم ثانٍ». إنضمّ إلى إحدى الكتائب العاملة في «ألمانيا الاتحادية» آنذاك لمدة ستة أشهر، مارس خلالها العمل العسكري. بعدها عاد إلى «بريطانيا» حيث تلقى تدريباً في أسلوب الإدارة في الحكومة المحلية هناك، ثم قام بجولة استطلاعية في عدد من الدول استغرقت ثلاثة أشهر، عاد بعدها إلى البلاد عام ١٩٦٤م.

تولّى السلطان «قابوس بن سعيد آل بو سعيدي» الحكم في سلطنة «عمان» عام ١٩٧٠ خلفاً لوالده «سعيد بن تيمور آل سعيد». واستطاعت سلطنة «عُمان»، منذ ذلك التاريخ، العمل على جعل

الوضع المعيشي والاجتماعي للمواطن العُماني يتغيّر بصورة كاملة باتجاه الأفضل، وتمكنت من توفير جميع الاحتياجات الخدمية للمواطن، من صحة وتعليم ورعاية اجتماعية. وأوجدت قيادة السلطان مناخاً جديداً، جعلت الإنسان العُماني يخطو خطوات حثيثة في سلم الحضارة والرقي، حيث بدأ المسيرة المباركة بالتحديث والتغيير الشامل الذي شمل كافة الجوانب والميادين. ومن أقوال السلطان «قابوس» في مجال النهضة الداخلية: «إن خطتنا في الداخل أن نبني بلدنا ونوفّر لجميع أهله الحياة المرفهة والعيش الكريم، وهذه غاية لا يمكن تحقيقها إلا عن طريق مشاركة أبناء الشعب في تحمل المسؤولية ومهمة البناء، ولقد فتحنا أبوابنا لمواطنينا في سبيل الوصول إلى هذه الغاية».

وعلى الصعيد الخارجي، تمكّن السلطان «قابوس بن سعيد» أن يوجد صورة ومكانة تليق وتتجاوب مع الموروث التاريخي للسلطنة.. وارتقى بموقعها على الساحة الدولية تدريجياً.. حتى صارت السلطنة مرجعاً بدعوات لها لتحقيق السلام والتعايش في العالم، وصار السلطان «قابوس ابن سعيد» واحداً من أكبر رموز الدعوة والعمل لأجل تحقيق السلام في العالم. واستحق فيها جلالة السلطان «قابوس»، وبكل جدارة تكريم المجتمع الدولي بـ«جائزة السلام الدولية»، التي سلّمها إيّاه الرئيس الأميركي الأسبق «جيمي كارتر»، في حفل مهيب في واشنطن، بتاريخ ١٦ أكتوبر ١٩٩٨م.

وقد كانت سلطنة «عُمان» تعتمد على الفلاحة والصيد والرعي إلى أن ظهر النفط والغاز الطبيعي فسخّرته الحكومة العُمانية في خدمة البناء، والذي يتمثل في بناء الوطن وبناء الإنسان العُماني. ولقد استطاعت سلطنة «عمان» عبر مسيرة البناء والتنمية والتعمير، التي قادها جلالة السلطان «قابوس بن سعيد» من تحقيق أكبر الإنجازات الاقتصادية والاجتماعية والصحية والتعليمية والأمنية والدفاعية و... بل وفي كل مجالات الإنتاج والخدمات. كما استطاعت السلطنة تحقيق نهج سياسي واضح المعالم والتوجّهات على صعيد السياسة الداخلية والتفاعل مع مجريات ما يحدث على الساحة الخارجية، وكذلك التأثر والتأثير في كل ما يهمّ الأمة العربية والإسلامية. ويعتبر «السلطان قابوس بن سعيد آل بو سعيدي» في سلطنة «عمان» وبحق هو راعي النهضة الشاملة للدولة العُمانية الحديثة.

وقد أدرك السلطان «قابوس» بفكره أنه لا بدّ من المحافظة على التراث العُماني الأصيل وحمايته من الاندثار، فأشار إلى ضرورة المحافظة على فنون «عُمان» التقليدية (الشعبية) وإعادة ترميم قلاعها وحصونها وإعادة بناء وتنظيم الأفلاج القديمة، بالإضافة إلى إعطاء المباني والمساكن الشعبية في «عُمان» الشكل التقليدي العماني، على اعتبار أنها سجلّ حيّ لتاريخ أبناء «عُمان» يصل الماضي بالحاضر، ويكون ركيزةً لشروق شمس جديدة لمستقبل الأجيال الحاضرة والقادمة؛ وفي المحافظة على التراث يقول السلطان «قابوس»: «إن حماية التراث المصنوع والطبيعة الموهوبة واجب وطني على كل فرد منّا تحمّل المسؤوليّة نحوهما».

## * الملحق الثالث *

# المسيحية في شبه الجزيرة العربية

كانت الكنائس الشرقية (باستثناء كنيسة إثيوبيا) إحدى الحقائق الراسخة لدى العالم؛ ففي العام ٥٠ ميلادية تقريباً، قام رجل الدين المسيحي «توماس ديديموس» بمهمّات تبشيرية في جنوب «شبه الجزيرة العربية» وإثيوبيا وجزيرة سومطرة، بشعبها الغريب وآلهتها الأغرب، وهو في طريقه إلى «ميلابور» (حاليًّا إحدى ضواحي مدراس) في جنوب الهند. وعانى «ديديموس هناك العذاب الشديد حتى قُتل على يد الهندوس عام ٧٢ تقريباً، حيث رجُم وطعن برمح على أعلى تلّ ما زال يسمّى «جبل القديس توماس» حتى يومنا هذا. (وتزعم الكنيسة في «مالابار» أن أصولها ترجع إلى توماس). وجاء بعض اليهود والعرب من «الجزيرة العربية» إلى «القدس» في عيد الحصاد اليهودي، فسمعوا من رجال الدين المسيحيين، وهم ينشرون دينهم، فاعتنقوا المسيحية. ويُروى أيضاً أن الأسقف «بارثولوميو» ذهب للتبشير بالمسيحية جنوب «شبه الجزيرة العربية» وهو في طريقه إلى إثيوبيا، وترك هناك إنجيل متّى مكتوباً بالعبرية.

ورُوي أيضاً أن ستة من الأساقفة العرب (من إجمالي عددهم البالغ ثلاثمئة وثمانية عشر أسقفاً) حضروا مجلس «نيسيا» العالمي (في بيثينا بالقرب من البحر الأسود)، الذي أقيمت فيه احتفالات فخمة أعدّت

تحت ضيافة الإمبراطور قسطنطين المعظّم (وهو وثني ولد في نايسس) عام ٣٢٥ ميلادية، وكان من بينهم الأسقف «بوسطرا» من سوريا، حيث كانت المسيحية تحرز تقدّماً كبيراً في انتشارها.

وفي عام ٣٣٠ تقريباً، رُسِّم «فرومنتيوس» -وهو شخص مسيحي من «تايرا»، وقد استعبد في إحدى فترات حياته- أسقفاً على يد «أثانسيوس» الكبير بطريرك الإسكندرية، ليكون بذلك أول أسقف لحِمْيَر (اليمن). وبنى هناك كنائس هائلة، وكان لورعه وتقواه تأثير عظيم على جميع أنحاء جنوب الجزيرة العربية تقريباً. وفي عام ٣٤٥، وجدت إرسالية مسيحية آرية كنيسة في ميناء «عدنة»، التي تسمّى في عصرنا الحالي «عدن»، وكانت في ذلك الوقت سوقاً يرتاده التجار اليونانيون والرومان. ونجد في تاريخ «نسطوريوس» أن أساقفتهم كانوا يقيمون في «البصرة» و«قطر» و«الإحساء». وفي عام ٣٥٦، في عهد الإمبراطور البيزنطي الوحشي والبائس والمرتاب «قسطنطين الثاني» (وهو الابن الثاني لقسطنطين الأكبر الذي أمر بالقضاء على القرابين الوثنية في إيطاليا)، أرسلت بعثة مسيحية إلى جنوب الجزيرة العربية بقيادة الشماس الفصيح الزاهد «ثيفيلوس إندوس»، وقد كان من أهل «السند» في السابق، ويتمتع بقدرات رفيعة، وكان قد أخذ ذات مرة إلى روما كرهينة، وفوض في ذلك الوقت ببناء كنيسة في «صنعاء» وأخرى في «عدن» وثالثة في «عُمان»، يعتقد أنها في صحار (والتي زارها «ثيفيلوس» في رحلاته كما يروى). وفي عام ٣٧٢، اعتنقت الملكة «مافيا» الذائعة الصيت المسيحية (والتي كانت سلاحاً مسلطاً على الحدود السورية، وظلّ نصرها على الجيوش الرومية يتردّد في الأغاني الشعبية العربية حتى القرن الخامس)، وقبلت من هنا الدخول في تحالف مع روما، وقام كبير أساقفة الإسكندرية في الوقت نفسه بترسيم أسقف يدعى «موسى» لديها، ممّا أنهى في ذلك الوقت حرب العرب ضد الرومان.

وفي عام ٣٨٠، قام «نعُمان أبو قاموس» -وهو من أوائل العرب

الذين اعتنقوا المسيحية بإذابة تمثال مصمت من الذهب يرمز لإلهة عند القبائل العربية هي «فينوس»، ثم وزّع ريعه على الفقراء. وكان يردّد قوله: «أية قيمة لتلك الممتلكات الزائلة! فهي اليوم لي، وغداً لغيري!». وكان «نُعمان» هذا، وهو لازال على وثنيته، قد قتل اثنين من أقرب أصدقائه في نوبة من نوبات السُكر، فأحس بالندم الشديد فبنى لهما قبرين رائعين، ونذر لهما أن يخضّب ضريحيهما بدم مسيحي، مرّة كل سنة. وكان من أول ضحاياه مسيحي سوري عاهده على العودة إليه لقتله إذا ما تركه يزور بيته أولاً. فجاءت عودته في موعدها لتنقذ حياته وتنال إعجاب «نُعمان»، فاعتنق دين المسيح.

وعلى الرغم من أن «شبه الجزيرة العربية» صارت ملجأ للفارين المضطهدين من جميع الطوائف والبلاد، إلّا أنه في عام ٤٧٧، استشهد المبشّر «بثيون»، وكان يدعو إلى المسيحية في منطقة «شبه الجزيرة العربية» المطلّة على «الخليج العربي». ويُقال إن الكنيسة المسيحية اليعقوبية في «نجران» تأسست على يد سوري تقي يسمّى «فيميون»، والذي وقع أولاً في أسر بعض العرب الوثنيين عند تخوم العراق، وبيع كعبد في نجران. وكان الناس فيها يحتفلون لأيّام بعيدٍ عندهم، فزيّنت نخلة طويلة بالأقمشة الملونة وحلي النساء، وعبدت هذه النخلة كإله ما أُنزل به من سلطان، حتى اجتثت من جذورها وطرحت أرضاً بريح عاتية بعد دعوات مخلصة ردّدها «فيميون» التقي. فكان «فيميون» يقول «سوف أدعو الله أن يجتثّ هذه الشجرة التي جعلتموها إلهاً من عند أنفسكم». وأدّت هذه المعجزة القاطعة إلى جانب عدد آخر من العجائب الإلهية إلى اهتداء السكّان المحليين، الذين تخلّصوا على الفور من أصنامهم، واعتنقوا بحماس دين «فيميون» (دين المسيحية).

وطوال الألفية الأولى بعد ظهور الإسلام، لم يتردّد اسم المسيح في العالم العربي إلا نادراً، وإن شهد القرن الثاني عشر وجود سبعة وأربعين أسقفاً في شمال إفريقيا. وتوفي «جون» أسقف دمشق (يوحنّا الدمشقي) عام

٧٤٩، و«بيتر» المبجّل مات عام ١١٥٧، و«فرانسيس الأسيزي» مات عام ١٢٢٦، كما توفي «رايموند لال الكاتالاني» المشهور عام ١٣١٦. وكان «لال» من أعظم المبشّرين بالمسيحية بين مسلمي العصور الوسطى، وكان أول شهيد للتبشير، بعد تخلى عن حياة المتع الحسّية في بلاط الأسباني «جيمس الثاني» ملك «أراغون»، ليصبح وحيداً لا حول له ولا طول. وهو الشخص الوحيد الذي نجح في إقناع عدد كبير من المسلمين يعيشون في بلد مسلم وتحت حاكم مسلم باعتناق المسيحية. فكان يؤمن بالحب ويبشّر بالحب ويعيش على الحب، وكان مبدؤه في الحياة هو «إن من لا يحبّ لا يعيش، ومن كان يعيش بالحياة لا يمكنه الموت» و«إن شرع المسيحيين لأمر مقدس وحقيقة قاطعة». وقال ذات مرة، وقد امتلكت عليه مشاعره نفسه، «إني لأشعر بالأسف والأسى للّعنات التي تصيب أولئك الناس الأبرياء».

وكان «لال» شاعراً وفيلسوفاً وكتب مئات الكتب، وكان تديّنه الشديد ينبع من إيمان شخصي عميق. وقد دافع عنه أحد فقهاء المسلمين -وإن كان هذا بلا جدوى- وكان دفاعه هذا نموذجاً مثيراً للإعجاب للتسامح الديني، فقد قال هذا الفقيه: «طالما أن عليهم الثناء على المسلم الذي يعيش بين النصارى ليهديهم إلى دين الحق، فإن عليهم أيضاً أن يثنوا على النصراني الذي يتمتّع بالحماس نفسه لنشر الدين الذي يرى أنه هو الدين الحق». فواجه الكهل الذي نال منه الزمن عصابة غاضبة من الناس يريدون قتله. وبعد مقتله الذي جاء تحت تحريض، وهو في عمر الثانية والثمانين تحت وابل من الصخور في ميدان عام في ميناء «بجّاية» البحري الجزائري، الذي يبعد ثلاثمئة ميل عن تونس، استمرّ صوت المسيحية لخمسمئة سنة تالية حتى نزل «هنري مارتين» البالغ من العمر ثلاثين عاماً في «مسقط» في العشرين من شهر إبريل عام ١٨١١، فنزل بجسده الهزيل المنهك من على سفينة البحرية الهندية القديمة «بناريس»، وكتب إلى «ليديا غرينفيل» يقول: «أنا الآن في جنة الجزيرة

العربية، وإن حكمت عليها كدولة، فليس فيها من هذا الاسم شيئاً، إلّا إذا كانت صخورها القاحلة الحارقة توحي لي بالسعادة. ولكن طالما أن هناك أمل محفوظ في أهلها، فقد ينعم الله على هذا البلد».

ووجد ذلك العالم والمبشّر الرقيق، الذي كان يتخذ من القول «دعني أحترق من أجل الله!» شعاراً له، أن جزيرة العرب محصّنة وراء عقيدة الإسلام البسيطة والصلبة في الوقت نفسه، وكانت جغرافيًّا محاطة بأقسى البيئات، ولها تاريخ طويل من العناد والتعصّب والعداء. وكان هذا الشاب الرقيق ذو الجسد الهزيل يملؤه الحماس للعمل على هداية «أهل الشرق الجهلاء»، فكان أول مبشّر حديث يذهب إلى بلاد الإسلام لدى أهل «شبه الجزيرة العربية»، وتمكّن من ترجمة «العهد الجديد» إلى العربية والهندية والفارسية.

**وكان من أقواله:**

**وإني لمبشّر بديني، وإن كان عليَّ ألا أفعل**

**إني لمبشّر بديني حتى لو أدركني الموت**

وكتب السير «جيمس ستيفن» في منتصف القرن التاسع عشر أن اسم «هنري مارتين» كان «في الواقع اسم بطل يضيء تاريخها [يقصد كنيسة إنجلترا] بداية من عصر إليزابيث وحتى يومنا هذا». وكتب «جورج سميث» في ما بعد (عام ١٨٩٢) «احترقت روحه المتوهّجة، واشتعلت عندما مضت أول اثنتا عشرة سنة من القرن التاسع عشر؛ احترقت وهي تمرّ عبر «البرازيل» و«جنوب إفريقيا»، و«كالكوتا» و«سرامبور»، و«باتنة» و«كاونبور» و«بومباي» و«مسقط» و«بوشهر» و«شيراز» و«تبريز»، وصولاً حتى وحشة المرتفعات الأرمينية. وقبره في المنفى في مدينة «توكات» التركية».

وانتشرت أفكار «مارتين» التبشيرية بصورة كبيرة في «شبه الجزيرة العربية» على يد «سبت» «ابنه الساذج وليد الصحراء» وأحد كبار المترجمين للّغة العربية. وعرف عن «سبت» لحين أنه كان مسلماً في السابق، وتحوّله إلى المسيحية في شوارع «بخارى» في «أفغانستان». وكان قد سلّم صديقه «عبد الله» إلى الملك «مراد شاه»، فعرض على «عبد الله» في حضرة الملك أن يبقي على حياته إن سبّ المسيح، فرفض. فقطعت إحدى يديه، وسئل مرّة أخرى أن يسبّ المسيح، فلم يرد «عبد الله» ونظر بثبات إلى السماء، وعيناه تسيلان بالدموع، ويده الأخرى تقطع. ثم أحنى رأسه يصلي، فقطعت رأسه، بعدما عُفِي عن «سبت»، الذي قال في ما بعد، وهو يتذكر الحادثة، «كلّ بخارى قالت: أيّ أمر جديد هذا الذي نراه؟».

إلّا أن «سبت» الذي قال بعد ذلك: «لم أشعر بأيّ ندم حينها»، شعر بندم شديد لم يعالجه السفر حتى عُمِّد في «مدراس»، وهو في السابعة والعشرين من عمره، وغيّر اسمه إلى «ناثائيل». ولكنه ارتدّ بعد ذلك عن المسيحية، وشنّ عليها حينها هجوماً عنيفاً، إلّا أنه قتل وهو يعود للإيمان بالمسيح، (فربط في جوال، وألقي في البحر)، في شمال «سومطرة» وهو في خدمة السلطان الهارب «آخين».

بدأت الترجمة العربية الأولى للإنجيل عام ١٨٤٩ على يد «إيلي سميث» (١٨٠٣-١٨٥٧)، وانتهت عام ١٨٦٤ (بتعاون من علماء دين لبنانيين) على يد «كورنيليوس. في. إيه. فان ديك» (١٨١٨-١٨٩٥). ومازالت هذه الترجمة شاهدة على عمل الروّاد، ونبراساً لمعرفتهم الواسعة. وأصاب «جورج أنطونيوس» الذي أرّخ للصحوة العربية، عندما نسب النهضة العربية الحديثة بصورة أكبر إلى تأثير التعليم الأميركي، بغضّ النّظر عن أيّة عوامل أخرى. ولم ينجح معلم أجنبي المولد مثل نجاح الكاهن «كورنيليوس. في. إيه. فان ديك»، الذي نسب هويته إلى

الشرق العربي، فاعتبره العرب أحد أبرز شخصيّاتهم لورعه النابع من دينه المسيحي، ومناصرته لقضيتهم المشتركة. وفي عام ١٨٨٦، سافر اللواء «إف. تي. هيغ» -من الجيش البريطاني- إلى جميع سواحل «شبه الجزيرة العربية»، ومناطق «اليمن» الداخلية، فكتب في معرض حديثه عن جنوب شرق الجزيرة العربية قائلاً: «تنفصل «عُمان» عن باقي الجزيرة العربية بصحراء رملية. فلم يكن لها اتصال بالعالم الخارجي إلا بجزيرة من جانب، والصحراء على الجانب الآخر». وكان ما حقّقه اللواء «هيغ» لبعثات التبشير العربية عن طريق تقاريره التحريرية التي تتناول المتطلبات، والفرص التي تتمتع بها شبه الجزيرة، والتي طالما أهملت، يعادل ما أنجزه ضبّاط البحرية الهندية البريطانية في القرن التاسع عشر، بدءاً من «مورسبي» و«هاينز» و«إيلون» و«ساوندرز» و«كارلس» و«ولستيد» وحتى «كروتندون». وقد نشر ملخص مكثّف لدراساته الأولى في دورية «ذا كريستيان» في شهر فبراير عام ١٨٨٥، وهي تؤيّد بقوة نشر العقيدة الإنجيلية في «شبه الجزيرة العربية». وقد وصل هذا الملخّص إلى يد «إيان كيث-فاكونر» -وكان في ذلك الوقت طالباً لامعاً في جامعة كامبريدج- فاسترشد بهذا الملخص عند تأسيس أول مهمّة تبشيرية قام بها على نفقته الخاصة في «الشيخ عثمان» بالقرب من «عدن». وعندما بلغ الثلاثين من عمره عام ١٨٨٧، (وهو في عمر «هنري مارتين» نفسه)، وبعد مضي عشرة أشهر من مكوثه في الجزيرة العربية، استسلم بهدوء إلى مرض الملاريا: «فأتى أجله ودخل في ثباته الدائم»، ودفن في بقعة منعزلة في تجويف بين الصخور خارج مدينة «كراتر». وكان صوت الأمواج التي تضرب شاطئ البحر تمنح الأمل بجزائه الحسن، «فساعة من الحياة مليئة بالأحداث العظام لأفضل من عمر مضى بلا اسم يتردّد بعده». وتحقق هدفه - وهو لفت الانتباه إلى «شبه الجزيرة العربية» - كما رغب وأكثر. ومازالت رفاته تسكن إلى جوار العرب، والذي عمل جاهداً لهم، وضحّى

بحياته من أجلهم. وظلّ اسمه حيًّا يتردّد على الألسنة، فسمّيت بعثته التبشيرية باسمه إحياءً لذكراه، كما أن الكنيسة الحرّة المتحدة التي تقع في «عدن» سمّيت «كنيسة «كيث-فاكونر» التذكارية».

وفي عام ١٨٨٨، وبعد سنتين من وفاته، كتب المبشّر الإنجيلي «ألكسندر ماكاي» الأوغندي (الذي صرّح ذات حين أن «العمل بلا صلاة هباء، ولكن الصلاة بلا عمل كسل») وثيقة تبشيرية عظيمة، أطلقت رياح المسيحية لتهبّ على «مسقط»، ولتكون علاجاً فعّالاً لتجارة الرقيق فيها. فكان يناشد الجزيرة العربية أن تكون سنداً لإفريقيا، ويُطالب بأن تتوجّه إرسالية تبشيرية مسيحية أكثر قوة إلى «مسقط»، التي تعدّ في أكثر من وجه باباً إلى وسط إفريقيا». و«ليس هناك داع للقول بأنّ الوضع في إفريقيا سيكون أكثر سطوعاً إذا ما تأسّست إرسالية تبشيرية للعرب في «مسقط». فالعرب ساعدونا في كثير من الأحيان، وأعاقونا في مثلها. لذلك، نحن ندين لهم بدَينين، وأنا لا أرى شيئاً يمكنه أن يقضي عنّا هذين الديْنين سوى تأسيس إرسالية دينية قوية في مقارّهم الرئيسة، بل وفي «مسقط» نفسها».

كان الأسقف المبجّل «توماس فالبي فرنش» أسقف «لاهور»، معروفاً في جميع أنحاء الهند بـ«الرجل ذي السبعة ألسنة»؛ لأنه كان يستطيع التبشير بسبع لغات، منها اللغة العربية. ووصفه «إيوجين ستوك» بأنّه «الأكثر تميّزاً في جميع إرساليات جمعية التبشير الكنسية». وبعد وفاة «إيان كيث-فاكونر»، بدأ عامه السادس والستين بإلهام من حياة «هنري مارتين» ومؤلفاته -مسلّحاً بالجهد والعمل المتواصل. ورغم معاناته من المرض والإنهاك بعد كثير من الأسفار والدراسات التي دامت لأربعين سنة في بعثاته التبشيرية في الهند، بدأ باستكشاف الساحل الشرقي للجزيرة العربية، نجح الأسقف «ماكاي» الأوغندي في لفت انتباهه إلى «مسقط». وفي الرابع عشر من شهر مايو عام ١٨٩١، وبعد فترة راحة استغرقت خمسة وتسعين يوماً، وقع الأسقف «فرنش» ذلك المحارب والبطل

المخضرم ضحية لمناخ مهلك، ومات بضربة شمس أصيب بها على ظهر قارب لا سقف له، وهو مبحر عليه على طول الساحل بين «مسقط» و«مطرح»، ودفن في الشيخ «جبر»؛ وهو خليج صغير بالقرب من «سيداب»، على يد بحارة يعملون على متن السفينة الملكية «سفنكس».
ولم يذهب موته هباءً، فقبل وفاته بشهور قليلة، كان قد قابل «صامويل إم. زفمر» و«جيمس كانتين»، أثناء رحلة كان يقوم بها إلى جنوب «البحر الأحمر»، وعهد بمهمّة نشر المسيحية في الجزيرة العربية إلى زميليه الشابين. وعمد الدكتور «زفمر» والدكتور «كانتين»، عام ١٨٩٣ في «مسقط» و«مطرح»، بتأسيس ما أصبح بعد ذلك «دار الإرسالية التبشيرية العربية» التابعة للكنيسة البروتستانتية في أميركا. وكلّف هذا العمل الذي يتّسم بالإيثار النابع من إيمانهم الصادق بالمسيحية حياة «بيتر» البالغ من العمر ثلاثين عاماً، وهو شقيق «صامويل زفمر»، فكان أول شهيد أميركي لدار الإرسالية الوليدة، فمات عام ١٨٩٨. وكان «بيتر» قبل موته بعام قد استكشف منطقة «الجبل الأخضر» الوعرة داخل «عُمان». وكان «ليفنغستون» الخالد الذكر هو من ربط بين التجارة والمسيحية كأداة لتمدين إفريقيا، وقد قال «إن الأميركيين يقومون بمهمّات تبشيرية لا تدانيها أيّة مهمّات تبشيرية أخرى»، وإن «نهاية الاكتشافات الجغرافية تؤذن ببداية المهمّات التبشيرية»، على الرغم من أنه في كثير من الحالات قلبت الإرساليات التبشيرية إلى الجزيرة العربية الترتيب الطبيعي الذي يبدأ من الاستكشاف، ثم المهمّات التبشيرية، لينتهي عند الجنود والتجار.

وخلال السنوات القليلة التالية، فقدت دار الإرسالية أكثر من عزيز لديها. وفي ذلك الحين، قال المستكشف التبشيري الرائد العظيم «صامويل زفمر» -الذي سمّاه العرب «ضيف الله»- «إن الموت يا إخواني ينطق بلسانه». وفي قول آخر، ورد على لسان أحد أعظم المستكشفين التبشيريين وهو «جيه. إل. كرابف»، قاله وهو يدفن زوجته وطفله الرضيع

في شرق إفريقيا: «إن الكنيسة معتادة دائماً أن تسير على قبور أعضائها».
ومن ثمّ، تعدّ كنيسة المسيح في الجزيرة العربية كنيسة للشهداء.

وفي عام ١٩٠٩، بدأ الدكتور «شارون تومس» والد الدكتور «ويلز تومس» عمله التبشيري في «عُمان»، ولمزيد من التفاصيل عن هذا، انظر كتاب المؤلف «عُمان» التي لا يعرفها أحد» «Unknown Oman» (London, Green & Co.. London, 1966) P 27 - 29.

## * الملحق الرابع *

# كشف الماضي

حتى نحظى بصورة أكثر دقة عن «عُمان» في عصورها القديمة في إطارها المناسب، فالأولى أن نصل إلى فهم لتسلسل التاريخ في جميع أنحاء جنوب الجزيرة العربية (الذي يشمل اليمن، واتحاد جنوب الجزيرة العربية، وحكومة وصاية جنوب الجزيرة العربية)[1].

---

(١) في الحادي عشر من فبراير عام ١٩٥٩، تمّ التوقيع على «معاهدة صداقة ووصاية» بين مملكة بريطانيا العظمى المتحدة وإيرلندا الشمالية واتحاد الإمارات العربية الجنوبية. والأعضاء المؤسسون كانوا حكام إمارة «بيهان»، وسلطنة «أوضالي»، وسلطنة «فَضْلي»، وإمارة «ضالا»، ومشيخة «عولقي» العليا، وسلطنة «يافَع» السفلى. ومنذ ذلك الحين، انضمت إلى الإتحاد دولٌ أخرى، بما فيها «عدن»، وبالتالي تمّ اختصار الإسم إلى «إتحاد جنوب شبه الجزيرة العربية».

ويغطّي «اتحاد جنوب شبه الجزيرة العربية» مساحة تبلغ حوالى ٢٢ ألف ميل مربّع. وتتألف حدوده الجنوبية من امتداد خط ساحلي، يمتد لحوالى ٤٠٠ ميل من «البحر الأحمر» وحتى «خليج عدن». وفي الغرب والشمال، تقع اليمن، وتتقاطع حدودها المشتركة مع سلطنتي «حوشبي» و«عولقي العليا» و«يافع» العليا، التي تشكل الآن الأجزاء الرئيسية من محمية عدن الغربية الممتدة خارج حدود «الإتحاد». وفي الشرق، فإن «الإتحاد» يجاور ولايتي «قايتي» و«كثيري» من محمية جنوب شبه الجزيرة العربية (محميّة عدن الشرقية سابقاً).

أهل «سبأ» هم أكثر الشعوب العربية شهرة في عصور ما قبل الإسلام، كما أن تاريخهم هو أكثر تاريخ تمكّنا من الوقوف عليه، إلّا أن مدى معرفتنا بهم لا يُقارن معرفتنا بالشعوب المعاصرة لهم في الشمال وهم المصريون، والآشوريون، والبابليون، واليهود. فحتى ثلاثين عاماً مضت، كانت مصادر معلوماتنا لا تشمل سوى أوصاف وضعها مؤلفون قدماء من أمثل «ثيوفراستوس» و«أرتميدوروس-ديودوروس سيكولوس» و«بليني» الأكبر و«سترابو» والمؤلف المجهول لكتاب «دليل البحر الإريتري» و«كلاوديوس بطليموس»، إلى جانب آلاف النقوش في جنوب الجزيرة العربية. كما أنه كانت هناك إشارات نادرة وغامضة نسبيًّا لهم في «الإنجيل» ونصوص «الآشوريين» وأعمال علماء الجغرافيا العرب.

وظلّ الأمر كذلك حتى عام ١٩٢٨، عندما أجري أول تنقيب عن الآثار في «اليمن» في المنطقة التي كانت تعرف في يوم من الأيام بمملكة «سبأ». وتكفّل عالمان ألمانيان هما «كارل راثينز» و«هرمان فون فيسمان» بالكشف عن معبد صغير يرجع إلى عصور ما قبل الإسلام في قرية «حجة». ولم تجر أعمال تنقيب أخرى حتى عام ١٩٥١-١٩٥٢، وذلك عندما قامت رحلة الاستكشاف العربية الثالثة، الخاصة بالتنقيب عن معبد القمر ذي الشكل البيضاوي المشهور، وهو محرم بلقيس ملكة سبأ -وذلك حسب الروايات العربية - بالقرب من مأرب. وعلى الرغم من حقيقة أننا لم نكن قادرين على العمل إلّا لأشهر قليلة، ولم يكن بإمكاننا العمل بجميع طاقتنا البشرية، فقد أنجزنا تقدّماً هائلاً باستعادة تاريخ وثقافة أهل «سبأ».

وعلى مرّ التاريخ في عصور ما قبل الإسلام، سكن أهل «سبأ» الجانب الذي يقع في جنوب غرب الجزيرة العربية. ويتألف هذا الإقليم من أكثر المناطق خصوبة وإنتاجاً في شبه الجزيرة العربية. وتمكّن أهل «سبأ» من تطوير واستغلال إمكانات أرضهم الزراعية، وهو ما تبيّن لنا من

نُظم ريّهم المتطورة. وكان البحر الأحمر مفتوحاً عليهم من الغرب، أمّا الجنوب فكان لا يتيح لهم الوصول إلا إلى جانب صغير من خليج «عدن». وكان الشمال والشرق يضمّان طرق تجارتهم الرئيسة، والتي كانوا ينقلون من خلالها نوعين من البضائع يمثلان أكثر البضائع مبيعاً منذ قديم الأزل، وهما «التوابل» و«المر»، وذلك لدول «الهلال الخصيب» و«البحر المتوسط». وأتاح لهم هذا الموقع الاستراتيجي تأدية دور قيادي في تشكيل التاريخ في جنوب «شبه الجزيرة العربية».

كان أول ظهور لأهل «سبأ» في التاريخ في القرن العاشر قبل الميلاد، عندما قامت ملكتهم -التي لا يُعرف اسمها - برحلة - كما ورد في «الإنجيل» - إلى القدس لزيارة «سليمان»، يدفعها إلى ذلك ما سمعت به من عظمة بلاطه. وأكثر ما يميّز هذه الرحلة، والذي يعمّق فهمنا لتاريخ أهل «سبأ»، هو أنه يبرهن على أن «سبأ» كانت دولة قوية ومنظمة في ذلك العهد، وإلا لما كانت عرفت في ذلك المكان البعيد في «فلسطين»، أو لما اجتازت الملكة ثلاثة آلاف ميل من تلك التضاريس الوعرة. وربما كانت زيارتها إلى «سليمان» تمثّل مرحلة لما يبدو لنا أنه توسّع تجاري لمملكة «سبأ» يتجاوز انتشاره الذي غطّى أكثر من جنوب الجزيرة العربية والمناطق المجاورة في إفريقيا - خاصة إثيوبيا وربما الصومال - في تلك الفترة. ولكن ممّا يُؤسف له أننا لسنا نعلم أيّ شيء آخر عن هذه الملكة وشعبها. فإذا قمنا بالمزيد من أعمال التنقيب في «مأرب»، فإننا سنكون بلا شك قادرين على أن نقتفي أثر تاريخ «سبأ» حتى زمنها، وربما إلى أقدم من ذلك. وقد ظهرت هذه المنطقة التي سكنها الناس في هذا التاريخ القديم عن طريق أعمال التنقيب التي قمنا بها في «وادي بيحن»، وهو على بعد خمسة وأربعين ميلاً جنوب شرق «مأرب»، فكشفنا الغطاء عن بقايا مدينة ترجع إلى عهد ملكة «سبأ»، كما كشفنا أن شعباً حضريًّا أقام فيها يعود تاريخه إلى عدّة قرون قبلها.

نعلم من خلال نقوش جنوب الجزيرة العربية أنه بعد قرن أو أكثر، خضع أهل «سبأ» إلى حكّام أطلقوا على أنفسهم «المقرّبين». وقد ذكر اثنان من المقرّبين هما «يثيعمرا» و«كربيل» عند الملك الآشوري العظيم «سرجون الثاني» و«سنحاريب»، أنه في خلال هذه الفترة، كان أهل «سبأ» على اتصال بأمم الشمال العظيمة مثل «آشور» و«بابل» و«فارس» و«مصر»، وذلك عن طريق تجارتهم في البخوّر والبضائع القادمة من «الشرق الأقصى»، التي جاءت إلى موانئ جنوب الجزيرة العربية لنقل البضائع من سفينة إلى أخرى. ونتيجة لهذه الاتصالات، دخلت الأعمال الفنية إلى جانب تصميمات وأساليب حرفيي الشمال إلى «سبأ»، ومارست تأثيراً قويًّا على الفنّانين والحرفيين المحليين.

وتنتمي أقدم المباني التي شيّدها أهل «سبأ» إلى ذلك العصر. وفي مكان غير بعيد عن معبد «عوام» (الذي يسمى محرم بلقيس) في «مأرب»، كشفت بعثتنا عن العديد من المقابر. وقد علمنا من خلال النقوش المحفورة على الحوائط بأحرف قديمة خاصة بتلك الفترة، أن هذه المقابر تعود إلى القرن الثامن قبل الميلاد. وتنتمي أيضاً إلى فترة «المقرّبين» أقدم أجزاء معروفة من معبد «عوام». ويتألف هذا المعبد من حائط بيضاوي يحيط بمنطقة يبلغ طولها، الذي يمتدّ من الشرق إلى الغرب ٣٠٠ قدم، وعرضها الذي يمتدّ من الشمال إلى الجنوب ٢٢٥ قدماً، ويوجد مدخله في الشمال عن طريق بهو كبير فيه أعمدة. ولم يعرف حتى الآن ما المدفون تحت الرمال الموجودة داخل الحائط الدائري، وما زلنا بانتظار التنقيب عنه. ويحتوي البهو على ساحة معبّدة ومحاطة بأعمدة، ويقع مدخلها من الشمال عبر ساحة تقع في الخارج، تحتوي على حجرات في جميع الجوانب باستثناء الجنوب. ويوجد وراء الساحة الخارجية صفّ من الأعمدة المتناسقة. وقد اكتشفنا العديد من مراحل البناء في هذا المعبد، وهو ما يبرهن على أنه قد دخلت عليه العديد من التعديلات والترميمات خلال ألف سنة أو طوال

الفترة التي شغل فيها بالناس. وفي منتصف القرن السابع عشر قبل الميلاد تقريباً، بنيت المسارات السفلية للحائط البيضاوي من أحجار الكلس المربّعة والمنحوتة بعناية في عهد المقرّب «ياديبل ضيريه». وتمّ تعيين أوّل عمليات بناء في السدّ الكبير على بعد ثلاثة أميال جنوب غرب «مأرب»، وهو ينتمي إلى ذلك العصر أيضاً. وخلال هذا العصر، قام مقرّبان هما «سوموهالاي ينف» و«يثيعمرا بايين» بحفر مجارٍ مائية عميقة داخل الصخور الصلبة في الطرف الجنوبي للسدّ.

وفي عام ٤٥٠ تقريباً قبل الميلاد، اتخذ «المقرّب «كريبعيل وتَرَ» لقب «ملك سبأ» لنفسه، معلناً بذلك دخول عصر جديد، استخدم حكام «سبأ» خلاله اللقب «ملك» بدلاً من «مقرّب». وعلمنا من خلال نقوش طويلة كثيراً عن نشاطات «كريبعيل وَتَر»، أنه قام بتوسعة أراضي «سبأ» بصورة كبيرة بغزو مدن «نجران» في الشمال، ومملكة «هوازن» في الجنوب الشرقي، وذلك بمساعدة مملكتي «قطبان» و«حضرموت». وقام هذا الملك، ومن خلفه من الملوك في نهاية القرن الخامس وبداية القرن الرابع قبل الميلاد، بتشييد كثير من المباني العظيمة. فنجد في معبد «عوام»، أن المسارات الثلاثة عشر أو الأربعة عشر العليا في الحائط البيضاوي ومساحة البهو ذي الأعمدة بأكمله، الذي يوصل إلى داخل الساحة البيضاوية كلها، أدخلت على المعبد في تلك الفترة. كما أنهم بنوا أيضاً ضريحاً صغيراً رائع البناء مجاوراً للحائط البيضاوي من ناحية الشرق. كما وجدت حجرتان تحت الأرض أسفل أرضية هذا الضريح، فيما وجدت أيضاً ثلاثة حوائط لتلك البنية الفوقية. وقد اصطفت هذه الحوائط بالداخل بطبقات من محاريب الدفن، التي لا بد أنها قد دخلت إلى هذا المكان عبر الأرضية إلى السقف. وينتمي إلى هذه الفترة أيضاً سدّ «مأرب» الذي مازال في حالة رائعة حتى يومنا هذا. ولا نعرف سوى القليل عن «سبأ» خلال القرنين التاليين أو ما إلى ذلك، ويفترض أن السبب في

ذلك هو أن حالة الدولة أصبحت ضعيفة، وبرزت «قطبان» مكانها التي استمتعت بعصرها الذهبي بعد ذلك. ومع نهاية القرن الأول قبل الميلاد، بدأت «سبأ» تزداد قوة. وكان يُعرف عن «سبأ» أن لديها القدرة على إثارة خيال الكتاب الكلاسيكيين، ممّا دفع «أغسطس» إلى إرسال «إيليوس جالوس» في حملته الفاشلة لغزو المنطقة عام ٢٤ قبل الميلاد.

وفي منتصف القرن الأول الميلادي تقريباً، قام ملوك «سبأ» بتغيير لقبهم ليكون «ملك سبأ وذو الردن»، وبدأوا مجدداً بتأدية دور مهم في شؤون جنوب الجزيرة العربية. وقد اكتشفنا في معبد «عوام» أن الساحة والحجرات التي تلامس الحائط الشمالي الخارجي لبهو الأعمدة قد أضيفت إلى المعبد في ذلك الوقت.

ومنذ عام ٣٢٥ ميلادية تقريباً، وحتى الفتح الإسلامي عام ٦٢٨، كانت «سبأ» إما غازية أو تابعة لغيرها. وبعد عهد الحاكم النشط «شمر يوحاريش» -الذي لقب نفسه بـ«ملك سبأ وذو ردن وحضرموت واليمن» بعد انتصارات عسكرية نجح في تحقيقها- تعرّضت «سبأ» لغزو الحبشة (٣٣٥-٣٧٠ ميلادية). ودام احتلال الحبشة لمملكة «سبأ» جيلاً أو أكثر، اهتدى حاكم «سبأ» خلالها إلى المسيحية. وتمكّنت «سبأ» من الاستقلال على يد «ملك قارب يوحامن». وتبنّى خليفته «أبقريب أسعد» برنامجاً للتوسّع، فانعكس نجاحه على اللقب الذي أطلقه على نفسه «ملك سبأ وذو ردن وحضرموت واليمن وعرب المرتفعات والسهل الساحلي».
وهناك أسطورة تقول إن «أبقريب أسعد» اعتنق اليهودية. وفي أوائل القرن السادس الميلادي، اضطهد الملك اليهودي «يوسف أسعر» (ذو نواس) المسيحيين في «نجران». وقامت الحبشة بغزو «سبأ» مرة أخرى (عام ٥٢٥ ميلادية)، واستمرّ احتلالهم حتى الغزو الفارسي عام ٥٧٥ ميلادية. واحتفظ الفرس بجنوب الجزيرة العربية حتى مقدم الإسلام. وأكثر المباني التي شيّدت في تلك الفترة شهرة هو بناء البوّابة الشمالية لسدّ «مأرب»، والتي

بناها «شمر يوحاريش» في القرن الرابع الميلادي. وفي منتصف القرن الخامس الميلادي، قام «شرحبيل يعفور» بترميم السدّ الذي تعرّض لضرر كبير نتيجة للفيضانات. وفي منتصف القرن السادس الميلادي، قام «أبرهة» نائب ملك الحبشة بإدخال تصليحات مكثّفة على السدّ. ونحن ندين بمعرفتنا بهذا العمل إلى عدد من النقوش الموجودة على السد، والتي جاء أول نسخ لها في القرن التاسع عشر.

كان هذا مروراً سريعاً على تاريخ «سبأ»، الذي تكشف لنا المزيد من جوانبه بالاكتشافات التي توصّلت إليها بعثتنا. ويمكن للشخص أن يتساءل ما الذي كنا علمناه لو تمكّنا من مواصلة التنقيب في معبد «عوام»، والحفر في منطقة «مأرب»، ومواقع أخرى مجاورة لها.

بدأت الاستكشافات الحديثة لحكومة وصاية «عدن» السابقة مصاحبة لرحلات «جيه. آر. ولستيد» الذي اكتشف موقع «قانا» في «حصن الغراب» بالقرب من «بير علي» عام ١٨٣٤-١٨٣٥. وجاء من بعده «إيه. فون. فريدي» عام ١٨٤٣، والذي قام برحلة خاض فيها صحراء «حضرموت». وقد شهدت حكومات الوصاية نوبة من الاستكشافات في العقد الأخير من القرن التاسع عشر بالرحلات التي قام بها «إي. غلاسر» الذي قام بنسخ النقوش الموجودة في «وادي بيحن» (١٨٩٠-١٨٩٤)، والزوجان «بنت» (١٨٩٣ - ١٨٩٤)، في «حضرموت» إلى جانب كلّ من «جي. دبليو. بري» (١٨٩٨-١٨٩٩) الذي قام بنسخ النصوص الموجودة في «حجر كهلان» في «وادي بيحن». وبعد فترة توقف امتدّت لأربعين سنة، استؤنفت أعمال الاستكشاف بشكل مكثّف على يد عدد من المسؤولين السياسيين والمستكشفين. وكان من بين المجموعة السابقة «دورين» و«هارولد إنجرامز» -الذي سافر إلى أماكن كثيرة في الشرق بين عامي ١٩٣٤ و١٩٣٩، و«ستيوارت بيرون» الذي وصف مواقع بين «عدن» و«وادي بيحن» عام ١٩٣٧-١٩٣٨، و«آر. إيه.

بي. هاملتون» (لورد بلهافن)، الذي استكشف مواقع في دلتا «وادي تيبان»، وقام بالتنقيب عن الآثار في «شبوة». كما أجريت عمليات استكشاف فردية على يد «فريا ستارك» بين «المكلّا ووادي «حضرموت» عامي ١٩٣٥ و١٩٣٧، و«إتش. سانت جون بي. فيلبي» في منطقة «شبوة» عام ١٩٣٦، و«دي. فان دير مولن» و«إتش. فون فيسمان» في المحميّة الشرقية عام ١٩٣١ و١٩٣٩. وقد مهّد هؤلاء المستكشفون الأوائل الطريق أمام علماء الآثار ليلقوا الضوء على عدد من النقوش واكتشاف العديد من المواقع.

كانت أولى عمليات التنقيب الأثرية التي تمّ التخطيط لها في مناطق الوصاية في «حريضة» في «وادي عَمْد»، وقد أعدّها كلّ من «غرترود كاتون تومسون» و«إلينور غاردنر» و«فريا ستارك» خلال شتاء عام ١٩٣٧-١٩٣٨. فقاموا هناك بالتنقيب في معبد صغير، وكشفوا الستار عن مقابر مجوّفة، كما قاموا بدراسة بقايا نظام ريّ قديم؛ وجميع هذه الاكتشافات تنتمي إلى القرن الخامس أو الثالث أو الثاني قبل الميلاد. ولم يتم إجراء المزيد من أعمال التنقيب حتى عام ١٩٥٠-١٩٥١، عندما أمضت البعثة الاستكشافية العربية الأولى فصلين من فصول السنة في «وادي بيحن». وتمّ التنقيب في منطقتين كبيرتين في «حجر كهلان»، وهو موقع «تمناء» عاصمة «قطبان». تقع الأولى في الطرف الجنوبي من الهضبة، وتشمل بوابة المدينة والعديد من البيوت والشوارع خاصة بالاحتلال الأخير للموقع (الذي انتهى عام ١٥ ميلادية). وقد اكتشفنا في هذه المنطقة «أسود تمناء» البرونزية الشهيرة. أما في المنطقة الثانية التي تقع غرب الجزء المركزي من الهضبة، فقد اكتشفنا معبداً كبيراً (يعتقد أنه خاص بفينوس)، والذي مرّ بعدّة مراحل من إعادة البناء والترميم، بين القرن الثامن قبل الميلاد وبداية القرن الأول الميلادي. وتمّ أيضاً الكشف عن مقبرة «تمناء» الضخمة، وهي تقع على التل شمال الهضبة، وكذلك عن ثلاثة معابد لدفن الموتى، وعدد من الأضرحة،

وعدد كبير من الأشياء الخاصّة بالدفن، بما فيها العقد الذهبي الجميل «حجرلث»، ورأس الأنثى المرمري المعروف باسم «مريم». وقد تمّت عمليات تنقيب كبرى أيضاً في «حجر بن حميد»، وهو هضبة صغيرة تقع على بعد تسعة أميال جنوب «حجر كهلان». وهناك منطقة صغيرة خضعت للتنقيب، تمّ فيها الكشف عن أكثر من خمسين قدماً من الحطام والأطلال، إلى جانب تراكمات من الطمي المجدب، التي قامت عليها أقدم مستعمرة في هذا المكان، وذلك بغرض تأسيس تقسيم زمني لصناعة الفخار في جنوب الجزيرة العربية في عصر قبل عصر الإسلام. ويقع شرقي هذه الهضبة جزء من نظام ريّ قديم، تمّ الكشف عنه. وقد تمّت دراسة بقايا نظم ريّ الوادي بصورة مكثفة، وتعرّفنا من ذلك أن نظام الريّ القطباني هو أفضل نظم الريّ القديمة في الشرق الأدنى. وقد حلّت عمليات التنقيب هذه كثيراً من المشكلات التي تتعلق بتاريخ جنوب الجزيرة العربية، وقد ساهمت بشكل كبير في تعرّفنا على أصول ثقافة جنوب الجزيرة العربية.

وقد مكّنتنا المواد التي تمّ اكتشافها خلال عمليات الاستكشاف والتنقيب هذه إلى جانب الإشارات التي وردت عن جنوب الجزيرة العربية في «الإنجيل» والنصوص الآشورية والأدب اليوناني الروماني، من وضع مخطط بتاريخ حكومات وصاية «عدن» قبل الإسلام. ومن بين الدول الخمس الرئيسة التي وجدت قبل ظهور الإسلام، وهي «سبأ»، و«معين»، و«قطبان»، وهوازن، و«حضرموت»، كانت الثلاثة الأخيرة تكوّن بشكل أساسي ما هو في الوقت الحالي حكومات الوصاية. فتحتل «قطبان» الجانب الأعظم من حكومة وصاية «عدن» الغربية، وكان يضاف إليها في وقت من الأوقات جنوب «اليمن»، ويشمل ذلك ميناء «أوسيليس» القديم المجاور لباب المندب. ويبدو لنا أن «هوازن» تركّزت بشكل أساسي في المنطقة التي تقع شمال «عدن»، ويُقال إنها ضمّت مدينة «عدن» نفسها. وكانت «حضرموت» تقع في أقصى الشرق، فتحتلّ معظم ما يمثّل حكومة وصاية «عدن» الشرقية في وقتنا الحالي.

ويرجع أول من سكن هذه الأودية التي تقع شمال مستجمع الأمطار إلى أواخر الألفية الثانية قبل الميلاد. وترجّح دلائل علماء الآثار وفقهاء اللغة إلى أن المستوطنين هاجروا من الشمال -وربما من شمال وشمال - غرب منتصف الجزيرة العربية- حيث كانوا على اتصال بحضارات الشرق القديم. ومع حلول القرن العاشر قبل الميلاد تقريباً، تمّ احتلال «حجر بن حميد» في «وادي بيحن»، وتمّ التثبّت من هذا التاريخ عن طريق دراسات مقارنة خاصة بصناعة الفخار، وعن طريق اختبارات الكربون المشعّ على قطع من الخشب المفحّم، والتي وجدت على مسافة تبعد أكثر من ثلاثة أمتار فوق مكان الإقامة. وأعطى الاختبار أن قطعة الخشب تعود إلى التاريخ ٨٥٢ قبل الميلاد، زائداً أو ناقصاً ١٦٠ عاماً. وينتمي أيضاً أحد أقدم النقوش في جنوب الجزيرة العربية -والذي اكتشف في «وادي بيحن» - إلى هذه الفترة. ويبدو لنا أنه طوال هذه الفترة القديمة، لم تحتل «قطبان» مكاناً على الساحة لقوّة جارتها الغربية «سبأ». وقد أوضحت المصادر القديمة والاكتشافات الأثرية أن «قطبان» كانت هي الدولة المسيطرة في جنوب الجزيرة العربية، من القرن الثالث إلى القرن الأول قبل الميلاد، وقد وصلت إلى ذروة قوتها في عهد الملك «شحر يجيل يحرجب»، في الربع الثاني من القرن الأول قبل الميلاد. وبدأت «قطبان» تزداد ضعفاً بعد هذه الفترة من الحكم، بحيث انتقل مركز القوة إلى «سبأ» و«حضرموت». وفي عام ١٥ ميلادية تقريباً، دمّرت قوات «حضرموت» «تمناء»، وانتهت مملكة «قطبان» بذلك.

لا نعرف كثيراً عن الفترات الأولى لمملكتي «هوازن» و«حضرموت». وبحلول القرن الخامس قبل الميلاد، كانت «هوازن» ذات أهمية كبيرة، وكانت تتمتّع بقوة أثارت طموحات آخر «مقرب» وأول ملك لسبأ «كربيل واتر»، والذي هزم «هوازن» وقسّم أراضيها بمساعدة «قطبان» و«حضرموت». وقبل هذا الحادث، كان من الظاهر أن «هوازن» كانت

تملك مستعمرات تجارية مستقرّة على طول الساحل الإفريقي الشرقي، حيث إن اسم «الساحل الهوازني» ذكر مراراً في الإشارة إلى هذه المنطقة عند مؤلف كتاب «دليل البحر الاريتري»، في منتصف القرن الأول الميلادي تقريباً.

وقد كشف عمل البعثة الاستكشافية إلى «حضرموت» - ١٩٦١-١٩٦٢- تحت قيادة الدكتور «جوس. دبليو. فان بيك» أن الاستيطان في هذه المنطقة يرجع إلى نهاية العصر الحجري. ومع بداية الألفية الأولى قبل الميلاد تقريباً، ظهر عدد من المدن الكبيرة اعتمدت بشكل كبير على الزراعة ذات الريّ المكثّف والتجارة النشطة. ويبدو أن «حضرموت» وعاصمتها «شبوة» ومييناءها الرئيس «قانا»، قد نالت قوة كبيرة في نهاية العصور الهلينية والرومانية، فتمكّنت من السيطرة على منطقة ضمّت «ظفار» في الشرق، وجانباً كبيراً من «قطبان» في الغرب، وذلك وفقاً لنقوش اكتشفت في أعمال التنقيب التي قمنا بها في «بيحن» و«ظفار».

كانت دول جنوب الجزيرة العربية ذات شهرة برخائها وثرواتها كما ذكر الكتبة التوراتيون والكلاسيكيون. وإذا ما أخذنا في الاعتبار الدراسات التي تناولت قيمة المنتجات الشرقية، التي قام بها كل من «بليني» الأكبر، وقوائم الواردات والصادرات المفصّلة، التي جاءت في كتاب الدليل «Periplus»، فإنّ هذا الصيت له ما يبرّره. ويبدو أن جنوب - غرب الجزيرة العربية كان مكتفياً ذاتيًّا بإنتاجه من السلع الزراعية الأساسية مثل الحبوب والعنب، وذلك حسب ما ورد في كتاب «الدليل». ولا شك أن هذا الإنجاز جاء نتيجة للتطوّر في نظم الريّ الدقيقة، والتي وجدت في كلّ الأودية التي تقع شمال مستجمع الأمطار، مثل «سد مأرب» وتجهيزات «بيحن» و«عمد» و«دُعَان»، هذا بالإضافة إلى نظم تخزين المياه مثل الخزانات بالقرب من «عدن»، وفي «حصن الغراب». ولكن أكثر منتجات جنوب الجزيرة العربية شهرة هما البخّور والمرّ، وكانا يزرعان بشكل أساسي في «ظفار»، وفي

الجبال التي تقع شمال «عدن»، والأودية التي تقع شمال شرقها. فكان جنوب شبه الجزيرة العربية والصومال - التي يعتقد أن دول جنوب الجزيرة العربية قد سيطرت عليهما معظم الألفية الأولى قبل الميلاد - المصدر الذي يحصل منه العالم على هذه الراتنجات اللدنة التي كان يتلهّف عليها، فصارت المنطقة بذلك منخرطة حتماً في النشاطات التجارية؛ فتمّ إنشاء الموانئ والطرق للتعامل مع الشحنات التي تأتي عن طريق البحر، وكذلك إنشاء نقاط تحصيل ضرائب وأماكن استراحة في طرق القوافل الكبرى لحركة الشحن البرّي. وعلاوة على ذلك، ففي النصف الثاني من الألفية الأولى قبل الميلاد، وربّما في وقت يسبق ذلك، عملت موانئ جنوب الجزيرة العربية كمحطّات نقل، حيث كانت حمولات البضائع التي تأتي من الغرب تستبدل بأخرى تأتي من «الهند» والشرق الأقصى. ولا شك في أن السفن العربية قد ساهمت في هذه التجارة، فتردّدت على موانئ سواحل «شبه الجزيرة العربية» وأفريقيا و«الخليج العربي» و«الهند».

وعبر هذه النشاطات التجارية، صار جنوب الجزيرة العربية على صلة بشعوب بلاد أخرى، حصل منها على منتجات حرفييهم الأجانب. وبالإضافة إلى استيراد بضائع أجنبية، استعار جنوب «شبه الجزيرة العربية» أساليب وعادات الفنّ الأجنبي ومعماره، ثم قام بتطويعه ليتناسب مع احتياجاته وأغراضه. ومازالت دراسة هذه التأثيرات على فنّ جنوب الجزيرة العربية في مراحلها الأولى، ولكن حدث تقدّم كبير بالفعل في عزلها وتحديد أصلها. فحتى يومنا هذا، اكتشفنا أعمالاً لحرفيين من جنوب الجزيرة العربية تتّسم بالأفكار الرئيسة، وأساليب عدد من الدول، منها «فلسطين» و«فينيقيا» و«آشور» و«بابل» و«فارس» و«اليونان» و«روما». وكان مصدر التأثير في كلّ حالة من هذه الحالات لا تخطئه العين، على الرغم من أنّ تكيّفها مع الطابع المحلي كان واضحاً.

وعلى الرغم من أننا قد بدأنا فقط في هذه الأبحاث الأثرية لتلك

المنطقة المهمّة من العالم القديم، فقد خطونا خطوات واسعة، حيث بدأ جنوب «شبه الجزيرة العربية» يحتلّ مكاناً ضمن الحضارات المهمّة في الشرق الأدنى القديم، إلى جانب إسهاماته الفريدة في فهمنا للتاريخ والثقافة البشرية.

# * الملحق الخامس

## ثورة زنجبار(١)

استعادت «زنجبار» في العاشر من ديسمبر عام ١٩٦٣ استقلالها الرسمي، بعد ثلاثة وسبعين عاماً من الوصاية البريطانية. وقد صدر العديد من الإصلاحات الدستورية خلال هذه الفترة بموجب معاهدة ١٨٩٠، حيث قبل السلطان السيد «علي بن سعيد ألبوسعيد»، بالأصالة عن نفسه، وبالنيابة عن رعاياه والأراضي الخاضعة له، «حكومة وصاية بريطانيا العظمى»، وأعلن أن هذه الاتفاقية ملزمة له ولورثته ولخلفائه إلى الأبد. ثمّ وقّعت «زنجبار» ضمن تعريف «دولة عربية تحت الحماية». وأعلنت استقلالها في شهر ديسمبر عام ١٩٦٣ كمملكة دستورية. وبعد خمسة أسابيع فقط، خلعت الحكومة، التي قادت «زنجبار» إلى الاستقلال، عن الحكم في ثورة مسلّحة، وتمّ نفي السلطان الحاكم السيد «جمشيد بن عبد الله ألبوسعيد».

وطوال العقد الماضي، لم تكن محادثات وتهديدات العنف بالأمر الجديد في تلك الجزر المسالمة -ظاهريًّا- التي تؤلّف دولة «زنجبار». وقد اتخذت هذه المحادثات صبغة عنصرية. وفي عام ١٩٦١، اندلعت أحداث

(١) يرغب المؤلف في الإعراب عن تقديره حيال السيد «ريكس إم. بريس»، أحد شهود العيان على هذه الأحداث، والذي بفضله حصل على هذا السرد حول ثورة «زنجبار».

شغب دموية أثناء انتخابات شهر يونيو العامة، وقتل ثمانية وستون شخصاً، كان أربعة وستون منهم من العرب. وأخضع وصول القوات البريطانية، وإعادة تنظيم قوات الشرطة مثيري العنف خلال السنتين التاليتين. ولكن مع اقتراب الاستقلال، غادرت القوات، واستبدلت الحكومة الضباط البريطانيين في الشرطة بآخرين محليين. وقد سرت شائعات بأنّ المصريين سوف يحصلون على مواقع قيادية في قوات الشرطة، في وقت شكّل الأفارقة نسبة كبيرة من تلك القوات، فيما انتشر الفساد بينهم، وصاروا ساخطين على إجراءات الحكومة. وخلال شهر ديسمبر عام ١٩٦٣، لاحت إشارات بثورة وشيكة، حيث كانت المؤامرات تحاك على يد قائدين متطرّفين لخلع الحكومة المعروفة. وعلى الرغم من التحذيرات المتكرّرة، لم تبالِ قيادات الحكومة بها، واعتبرتها مجرّد شائعات. واتخذت إجراءات بحرمان الحزب ذي التوجّه الشيوعي من حماية القانون، والاستيلاء على منشآته في بداية شهر يناير عام ١٩٦٤. وتمّ التفكير في القبض على قيادات بعينها في الحزب المعارض. وكانت الأسلحة تصل إلى «زنجبار» طوال ذلك الوقت، إلّا أنّه لم تظهر أية خطة مضادة من جانب الحكومة لمواجهة مثل هذه الثورة المسلحة.

وفي الساعة الثالثة صباحاً تقريباً، من يوم الثاني عشر من شهر يناير عام ١٩٦٤، هاجم المتمرّدون المسلّحون في آن واحد مدرّعتين تابعتين للشرطة بالقرب من مدينة «زنجبار». وخلال وقت قصير، عمّت الفوضى قوات الشرطة، ولم يتبقَّ سوى القليل الذي تماسك أمام التمرّد، على الرغم من النقص الحاد في الذخيرة، وذلك في أحد أقسام الشرطة في المدينة، وآخر في الجانب الشمالي من الجزيرة. وانضمّت إلى المتمرّدين جماعات من الأفارقة المسلّحين بالعصي والمناجل والسهام والرماح وأسلحة حصلوا عليها من مدرّعتي الشرطة اللتين تمّ الاستيلاء عليهما، وقاموا بالقضاء على أية مقاومة منظمة لهذه الثورة. وبدأ كثير

منهم - الذين كان دافعهم السلب والنهب أكثر منه أيديولوجياً ثورياً، وكان كثير منهم تحت سيطرة قادة التمرّد - في نهب المتاجر والمنازل وذبح العرب.

وأطلع السلطان السيد «جمشيد» على الموقف، وطلب منه ركوب إحدى البواخر التابعة للحكومة الراسية في المرفأ، وهو كاره لذلك. واطلع وزراء الحكومة أيضاً على الموقف ورفضوا الرحيل، وحاولوا في الساعة التاسعة صباحاً التفاوض مع المتمرّدين للاستسلام. وعلى الرغم من ذلك، لم تتمّ هذه المفاوضات حتى عرف من هم في جانب المعارضة. ولم يقطع المتمرّدون الاتصالات الهاتفية، لكن بدا أن استخدام الهاتف أدى إلى زيادة الإلتباس بدلاً من إجلائه. وبعد استيلاء قائد التمرّد الذي لقب نفسه بـ «الفيلد مارشال» (المارشال أو المشير)، «جون أوكيلو» على محطة الإذاعة دعا قيادات المعارضة إلى تكوين حكومة ثورية. ولم تستسلم الحكومة حتى يوم الاثنين الواقع في الثالث عشر من شهر يناير عام ١٩٦٤.

وأنهى رحيل السلطان فترة حكم «ألبوسعيد» في «زنجبار»، والذي امتدت جذوره العميقة في «زنجبار» عندما شيّد السلطان «سعيد بن سلطان» بلاط حكمه في مدينة «زنجبار» عام ١٨٤٠. ويعيش السيد «جمشيد» حاليًّا في «ساوثسي» في إنجلترا.

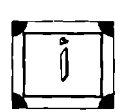
* * * * * * *

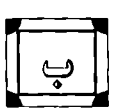
# الفهارس العامة

* * * * * * *

# الفهارس العامة

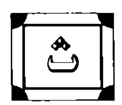
# فهرس الأعلام



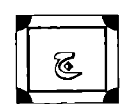

ب

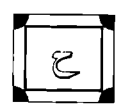

ت

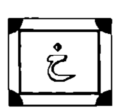



ث

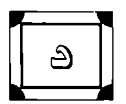



ج

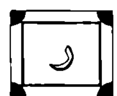

ح

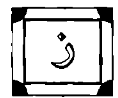

خ




د




ر

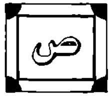








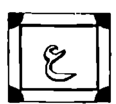


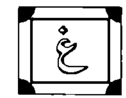












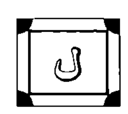






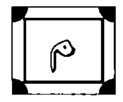




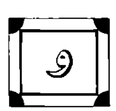


ل



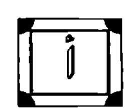



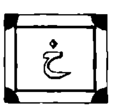
م

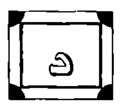


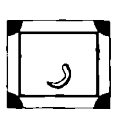
و

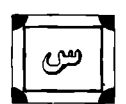
# فهرس المواقع

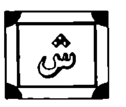




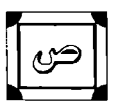




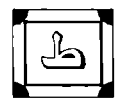








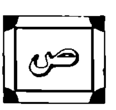




# فهرس الأقوام والقبائل


ش

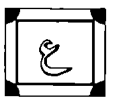



ص

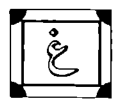



ظ

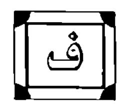



ع




غ




ف




ق

* * * * * * *

# جدول الصور والتعليقات

* * * * * * *

# جدول الصور والتعليقات

← **السلطان «سعيد بن سلطان»**؛ حكم سعيد بن سلطان» «عُمان» من عام ١٨٠٤ وحتى عام ١٨٥٦؛ وكان واحداً من أعظم الشخصيات وأقواها وأكثرها مهابة واحتراماً منذ النبي محمد ﷺ، والأمير الأكثر ليبرالية وتنوّراً الذي انتجته شبه الجزيرة العربية، ولعلّ الفنان المسؤول عن إنتاج هذه الصورة «البورتريه» هو الليوتنانت «هنري. ب. لينش»، الذي رسمها في فترة ما تقع بين منتصف عام ١٨٣٠ ومطلع عام ١٨٣٢. والذين عاصروا السلطان «سعيد»، يصفون لون بشرته، على غرار معظم العرب الآخرين، بالأبيض المائل إلى اللون الأصفر الخفيف؛ واللون الداكن الظاهر في الصورة يُعزى بالتأكيد إلى قِدَم عمر هذا الرسم ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ٩٣، ١٣٩

← **السيدة «سالمة»**، ابنة «سعيد بن سلطان»، في حوالى عام ١٨٦٠. وقد هربت «بيبي» إلى «زنجبار» في عهد السلطان «ماجد»، وتزوّجت من موظف ألماني كان يعمل في شركة «وليام أوزوولد وشركاه»، وأصبحت تُعرف باسم السيدة «إميلي رويتي». في عام ١٨٨٦، ألفت كتاباً باللغة الألمانية، تُرجم لاحقاً إلى الإنجليزية تحت عنوان «Memoirs of an Arabian Princess» (مذكّرات أميرة عربية) تسرد فيه قصة حياتها ومذكرات والدها الشهير ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ٩٣

← **السلطان «برغش»، حاكم «زنجبار»**. في ١٨ إبريل من عام ١٨٧٦، أصدر السلطان «برغش» مرسوماً يقضي بحظر وتحريم كلّ تجارة العبيد في شرق افريقيا. وفي العام السابق، كان أول حاكم من سلالة «ألبوسعيد»، يزور «أوروبا» ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ٩٣

- «**السلطان «حمد بن محمد بن جمعه»**، الذي يعرفه العالم باسم «تيپو تيپ» (صاحب العينين الطارفتين)، كان صديقاً وشريكاً تجارياً لستانلي. بحلول عام ١٨٨٧، أصبح «تيپو تيپ» «ملكاً» غير متوّج على المنطقة الواقعة بين شلالات «ستانلي» وبحيرة تنجانيقا ٩٣

- «**الرحلة الدامية الطويلة إلى الساحل**»، وهي كليشيه خشبية مأخوذة من «هوراس وولد» في كتابه «الكتابات الأخيرة لديفيد ليفينغستون» «The Last Journal of David Livingston» (لندن، ١٨٧٤). ويظهر فيها مئات العبيد، المقيّدين بوحشية ببعضهم البعض، وقد وضع في أعناقهم نير ثقيل من الخشب، مثبت بواسطة مسامير من الحديد، وكان يتم جلدهم ونهرهم وسوقهم بسرعة على طول الطريق، ومن يتخلّف منهم، يُترك جثة هامدة ١٦٠

- كليشيه خشبية مأخوذة عن الموقّر «جي. إي. تشامبلس» من كتابه «حياة وأعمال ديفيد ليفنغستون» «The Life and Labours of David Livingstone» فيلادلفيا، ١٨٧٥، تظهر أعداداً لا تحصى من العبيد المتروكين، وهم أضعف من أن يتابعوا السير عبر شرق أفريقيا إلى «زنجبار»، وقد تُركوا وهم لا يزالون مقيّدين بـ «الجوريّ» (نير العبيد)، وجميعهم لاقوا حتفهم بلا استثناء ١٦٠

- إحدى أشنع وأوحش الطرق لقتل العبيد. الصورة مأخوذة عن الكابتن «جي. جي. ستيدمان»، من كتابه «قصة حملة إلى سوريـنـام» «Narrative of an Expedition to Surinam». (لندن، ١٧٩٦) ١٦١

☚ **مجموعة من عبيد «زنجبار»** الناجون من على متن زورق عربي من نوع «دْهَوْ»، بواسطة السفينة الملكية «لندن» في عام ١٨٨٤. تعود الصورة لسوزان أر. واتسون ❖❖❖❖ ١٦٢

☚ **السلطان «فيصل بن تركي»** يحمل حفيده، السلطان المستقبلي «سعيد». وقوفاً، يظهر والد الطفل، السلطان المستقبلي «تيمور». أُخذت الصورة في «مسقط» عام ١٩١٢ ❖❖❖ ١٨٧

☚ الصورة تُظهر بعض الوجهاء العُمانيين في «بركه» عام ١٩١٤، وهم من الشمال إلى اليمين: (١) **«سيف بن بدر ألبوسعيد»**، الذي كان جده أول رجل يُقتل وهو يتسلق سور مطرح عندما قام تركي بالهجوم على «عزّان». أصبح سيف والياً على «جوادر» وكذلك على سور (٢) **سيّد «حمود بن عزّان ابن قيس»**، من أسرة سيّد **«أحمد بن إبراهيم»** (٣) **الشيخ «راشد بن عزيز»**، رئيس القضاة ووزير العدل في عهد السلطان «تيمور» (٤) **سيّد «ضياء ابن فهد»**، ابن عم السلطان «تيمور»؛ قتل والده نفسه بسبب زواج تعيس. (٥) **سيّد «محمد بن حمد»**، والي «صحار». (٦) **سيّد «نادر بن فيصل»**، الشقيق الثاني للسلطان «تيمور»، حوصر عام ١٩١٣ في «سمائل» من قبل «سالم بن راشد» (٧) **الشيخ «عبدالله بن سعيد الخليلي»**، والد الإمام «محمد ابن عبدالله»، والذي ترك المتمردين عام ١٩١٤، وانضم إلى السلطان «تيمور» مع إبنه الثاني «علي بن عبدالله» (٨) **«محمد فؤاد»**، وهو عربي عراقي، كان موظفاً برتبة قائد عسكري لدى السلطان تيمور. (٩) **السلطان «تيمور»**. (١٠) سيّد **«حمود بن فيصل»**، أحد إخوة السلطان «تيمور». (١١) **سيّد «محمّد بن أحمد الغشم ألبوسعيد»**، والي «صُحار» و«سور» في عهد السلطان «فيصل». وقد

رافق الشاب تيمور إلى الهند في عام ١٩٠٣، وخدم والياً على «مطرح»، في عهد السلطان «تيمور». (الرئيس التالي كان الشاب «سعيد»، السلطان الحالي). وكان «محمد بن أحمد» هو من وقّع على «إتفاقية السيب» نيابة عن السلطان **«تيمور»** ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

١٨٨

**السلطان «تيمور بن فيصل»**، وهو جالس في قصره في «مسقط» عام ١٩١٥، وإلى جانبه بعض من قادة «عُمان» وهم (من الشمال إلى اليمين): (١) **الشيخ «سلطان بن محمد»**، وهو نعيمي من «البريمي». (٢) **الشيخ «محمد بن حسن»**، شيخ وَشَابات. (٣) **سيّد «حمود بن عزّان»**، ابن عم «أحمد بن إبراهيم». (٤) **سيّد «علي بن سالم»**، إبن «سالم» قاتل أبيه، وجدّ السلطان من جهة أمه. (٥) **الشيخ «راشد بن عزيز»**، رئيس القضاة في «مسقط». (٦) **سيّد «هلال بن حامد»**، والي بركه، وحفيده «هلال» هو الوالي الحالي على «نزوى». (٧) **الشيخ «سالم بن ديَان»**، والد الشيخ «عبدالله»، زعيم «بني كعب»، وقد قُتل لاحقاً على يد شقيقه. (٨) **«سيف بن يعرب»**، والي «ليوا». (٩) **سيّد «أحمد ابن إبراهيم»**، وزير الشؤون الداخلية، وأحد أفراد عائلة السلطان، كانت عمته الجدّة الكبرى للسلطان من جهة والدته. في ١٠ ديسمبر من عام ١٩٥٩، وفيما كان في عرض البحر على متن السفينة البخارية الهندية البريطانية «دواركا»، المتجهة من «مسقط» إلى «بومباي»، نجا سيّد أحمد من الموت بأعجوبة. إذ لسبب غير واضح، غيّر موضعه في سريره المبيّت، وبعد مرور دقائق، انفجرت قنبلة بلاستيكية في المكان الذي كان يريح عليه رأسه، واسفر ذلك عن تدمير


★ الخرائط ★

❊ ❊ ❊ ❊ ❊ ❊ ❊

# المصادر والمراجع

❊ ❊ ❊ ❊ ❊ ❊ ❊

# المصادر والمراجع


◆ **DANIEL ADAMS,** *Geography or a Description of the World* (Boston, 1814), p. 311.

◆ **EDMOND RABBATH** *'The Common Origin of the Arabs', Arab Nationalism*, ed. by Sylvia G. Haim (Berkeley, 1962), p. 106.

◆ **E. C. ROSS,** 'Memorandum on the Tribal Diversions in the Principality of Oman, with a map showing the General Distribution of the Tribes and a Table showing the Genealogy of the Ruling Dynasty of Muscat', *Transactions of the Bombay Geographical Society,* XIX (1868-1873), p. 187.

◆ **STANLEY-LANE POOLE,** *The Moors in Spain* (London, 1912), p. 2.

◆ **SIR WILLIAM MUIR,** *The Caliphate, its Rise, Decline and Fall* (Oxford, 1891), p. 483.

◆ **AZIZ S. ATIYA,** *Crusade, Commerce and Culture* (Bloomington, 1962), p. 212, 231-232.

◆ **H. ST. J. B. PHILBY,** *Harun Al Rashid* (Edinburgh, 1933).

◆ **E. H. PALMER,** *Haroun Al raschid* (London, 1891).

◆ **G. S. P. FREEMAN-GRENEVILLE, 'Coinage in East Africa before Portuguese Times',** *Numismatic* Chronicle 17 (1957) pp.151-175.

◆ **M. LETTS, trans. Of** *Pero Tafur Travels and Adventures 1435-1439* (Ncw York, 1926).

◆ **ALAN VILLIERS,** *The Indian Ocean (London, 1952), p. 163.*

◆ **J. JUSTAMOND,** *A Philosophical and Political History of the Settlements and Trade of the Europeans in the East and West Indies,* Vol. I, p. 69.

◆ **SIR PERCY SYKES,** *A History of Persia,* Vol. II (London, 1930), p. 267.

◆ **JOAN GODSBY,** *Travels in the East* (London, 1857), p. 148.

◆ **SIR ARNOLD WILSON,** *SW. Persia* (London, 1941), p. Viii.

◆ **LORD CURZON,** *Persia and the Persian Question,* Vol. II (London, 1892), p. 465.

◆ **LOVAT FRASER,** *India Under Curzon and After* (London, 1911), p. 82.

◆ **MAJOR, THE HON. GEORGE KEPPEL,** *A journey from India to England,* Vol. I (London, 1834), p. II.

◆ **MARGUERITE EYER WILBER,** *The East India Company* (Stanford, 1954), p. 14.

◆ **HAROLD F. JACOB,** *Kings of Arabia* (London, 1923), p 39.

◆ **ALAN S. SOUTHWORTH,** *Four Thousand Miles of African Travel* (London, 1875) P.253.

◆ **J. L. STEPHENS,** *Incidents of Travel in Egypt, Arabia, Petraea and the Holy Land* (Edinburgh, 1839), p. II.

◆ **LADISLAS FARAGO,** *The Riddle of Arabia* (London, 1939), p. 227.

◆ **HENRI DE MONFRIED and IDA TREAT,** *Pearls, Arms and Hashish* (New York, 1930), pp. 115-116.

◆ **JOSEPH PITTS,** *A Faithful Account of the Religion and Manners of the Mahometans,* Fourth Edition (Exon., 1731), p. 396.

◆ **EDWARD GIBBON,** *The Decline and Fall of the Roman Empire* (London, 1957), Vol. II, p. 176.

◆ **JOHANN LUDWIG KRAPF,** *History of the C.M.S.,* p. 538.

◆ **ROBERT NUNEZ LYNE,** *Zanzibar in Contemporary Times,* p. 26.

◆ **WILLIAM II. INGRAMS,** *Arabia and the Isles* (London, 1952), p. 10.

◆ **H. BRODE,** *Tippo Tib* (London, 1907).

◆ **HENRY M. STANLEY,** *Through The Dark Continent* (New York, 1878), P. 95.

◆ *Maisha ya Hamed bin Muhammed el Marjebi Yaani Tippu Tip* (trans. by W. H. Whitely), *Suppl. to the East African Swahili Committee Journals,* 28, Vol. II (1958), and 29, Vol. I (1959).

◆ **SIDNEY LANGFORD HINDE,** *The Fall of the Congo Arabs* (London, 1897), pp. 53 - 54.

◆ **H. VON WISSMANN,** *My Second Journey Through Equatorial Africa from the Congo to the Zambesi in 1886 and 1887* (London 1891), pp. 183 - 184.

◆ **LT. GEN. SIR GEORGE MAC MUNN,** *Slavery Through the Ages* (London, 1938), p. 144

◆ **J. F. ELTON,** *Travels and Researches Among the Lakes and Mountains of Eastern and Central Africa* (London, 1879), p. 56.

◆ **H. ST. JOHN B. PHILBY,** *Saudi Arabia* (London, 1955), p. 343.

◆ **COLIN FORBES ADAM,** *Life of London Lloyd* (London, 1948). p. 88.

◆ **RONALD STORRS,** *Orientation* (London, 1937), p. 519.

◆ **GEORGE KHEIRALLAH,** *Forty Years in the Wilderness* (London, 1957), pp. 218 - 219.

◆ **The Middle East,** 2nd Ed., Royal Institute of International Affairs (London, 1954), p. 91.

◆ **JOHN MARLOWE,** *The Persian Gulf in the Twentieth Century* (London, 1962), pp. 195-196.

◆ **LT. COL. S. B. MILES,** *Field Notes of November, 1875,* Muscat Archives, No. 132/47 (1876).

◆ **DOUGLAS CARRUTHERS,** 'Captain Shakespeare's Last Journey', *The Geographical Journal,* Vol. LIX, No. 5 (May, 1922), p. 321.

◆ **ARNOLD T. WILSON,** *Loyalties: Mesopotamia, 1914-1917* (London, 1930), pp. 314-315.

◆ **PAUL JOHNSON,** *Journey into Chaos* (London, 1958), p. 86.

◆ **H. R. P. DICKSON,** *Kuwait and Her Neighbours* (London, 1956), pp. 148-149.

◆ **MUHAMMAD AL-GHAZZALI,** *Our Beginning in Wisdom* (Washington, 1933), p. 70.

◆ **EDWARD J. JURJI** *The Middle East: Its Religion and Culture* (Philadelphia, 1956), p. 50.

◆ **LT. COL. LEWIS PELLY,** 'Visit to the Wahabee Capital, Central Arabia', *Journal of the Royal Geographical Society,* Vol. 35 (1865), p. 188.

◆ **D. VAN DER MEULEN,** *The Wells of Ibn Saud* (London, 1957), p. 68.

◆ **PHILIP P. GRAVES,** *Briton and Turk* (London, 1941), p. 75.

◆ **EMILE BUSTANI,** *Doubts and Dynamite* (London, 1958), p. 57.

# فهرس المحتويات